

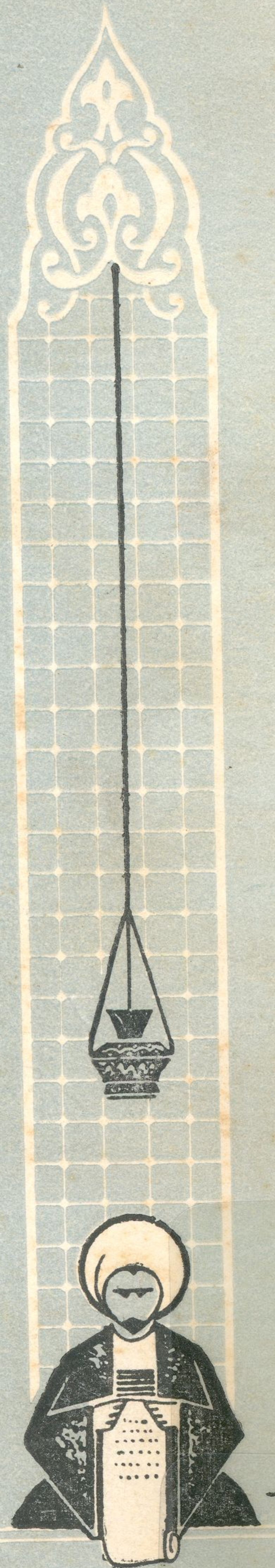
دراسات أندلسية

دراسات عن  
أبي محمد  
بن زبير

وكتابه «طوق الحمامة»

الدكتور الطاهر أحمد مكي

الناشر  
مكتبة وهبة  
١٤ شارع الجمهورية  
بعبدين



الطبعة الثانية ١٩٧٧





الدكتور الطاهر أحمد مكي

دكتوراة دولة بامتياز من جامعة مدريد  
أستاذ الأدب في كلية دارالعلوم  
جامعة القاهرة

دراسات عن  
أبي جحيم  
وكتابه «طوق الحمامة»

الناشر  
مكتبة وهبة  
١٤ شارع الجمهورية بحلوان  
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانية :

ربيع الأول ١٣٩٧ هـ -

مارس ١٩٧٧ م -



الإهداء

إلى والديّ ، في رحاب الله . . .









تمثال ابن حزم ، أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣م ، أمام باب أشبيلية ، أو العطارين ، وكان يؤدي  
إلى بلاط مغيث ، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم ... من هنا كان طريقه اليومى إلى المسجد الجامع ،  
طالبا ، وأستاذا ، أو للصلاة !







## كلمات في البدء

كان مقدرًا لهذه الدراسة أن تكون مقدمة لكتاب « طوق الحمامة » ، لابن حزم ، وقد حققته ، وصدرت طبعته الأولى عن دار المعارف منذ شهر ، ونفدت ، وتصدر الطبعة الثانية منه خلال أيام :

لكنني وجدت المقدمة طالت ، ووجدتها تتجا وزحجم الكتاب نفسه ، ولم أرد أن اختصرها لأنها دراسة للطوق ، ومقدمة له ، وتعريف بصاحبه ، ودراسة الطوق يجب أن تتناول ، على الأقل ، الجوانب الهامة فيه ، وما أكثرها ، والصفحات التي تمهد له ، وحياة كاتبه ، تعيينان القارئ على تصور جوه ، وتسهمان في تدليل صعبه ، والكتاب حافل بها .

لقد تصورت في البدء - مثلا - ألا حاجة لي لأن أكتب عن عمران قرطبة ، الشوارع والميادين والحياة والناس ، ثم وقعت عيني على كتاب للدكتور زكريا إبراهيم بعنوان : « ابن حزم الأندلسي » ، وصدر في سلسلة « أعلام العرب » فأدركت على الفور ، من النظرة الأولى فيه ، أن جهله بتخطيط مدينة قرطبة ، أوقعه ، كما أوقع ناسخ مخطوطة الطوق الوحيدة قبله ، وكل الذين نشروا الكتاب بعد ذلك ، في خطأ مريع : تقول الفقرة في غير نسخة المحققة ، والتي اعتمد عليها الدكتور زكريا إبراهيم : « ... سأني يوما أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان ، أيام كوني بالمدينة ، وكان أطويل اللسان جدا ، مثقفا للسؤال في كل فن ... »

هكذا جاءت الفقرة في كل الطبعات العربية ، باستثناء طبعتنا المحققة ، واعتماداً عليها مضى الدكتور زكريا إبراهيم يعلق على النص ويستنتقه : « ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله إلى القيروان ، فضلاً أنه لم يشر إلى أي اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموماً ، وأهل تلك المدينة خصوصاً ، وأغلب الظن أن يكون أمامنا قد رحل إلى القيروان للدفاع عن مذهبه الظاهري ، ومجادلة الفقهاء وأهل الفرق » . وهذا كلام باطل كله ! . فابن حزم لم يغادر



الأندلس أبدا ، لا إلى القيروان ولا إلى غيره ، ولم يقع عليه اضطهاد من أهل المغرب ، ولا ذهب إليه لينشر مذهبه . وأخيراً فالقيروان في تونس وليست في المغرب ، كما وهم الدكتور. ولو كان مؤلف كتاب ابن حزم ، والذين تشروا مخطوطة «الطوق» قبلي ، يعرفون أن كلمة «مدينة» إذا جاءت مرسله عند الحديث عن قرطبي ، فإنما تعني الحى القديم من عاصمة الخلافة ، وتميز في عماره وحياته بملامح خاصة ، ولو عرفوا أن ابن حزم لم يسكن هذا الحى للقديم أبدا من قرطبة ، أى المدينة ، لفكروا في تقويم النص . «والمرية» مما سكن ابن حزم حقا ، أقرب الألفاظ رسما إلى كلمة المدينة ، وليس ثمة شك في أن هذه تحريف عن تلك ، جرى بها قلم ناسخ المخطوطة الوحيدة جهلا ، لأنه مشرقى على غير علم بأسماء الأماكن الأندلسية. وهو تصويب يمكن الوصول إليه بشيء من التأمل ، وللهحق فإن الأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجرى أدرك هذا الخطأ وصوبه منذ أعوام طويلة ، في كتابه القيم : «ابن حزم : صورة أندلسية» . ولم يقرأ أحد ممن نشروا الطرق هذا الكتاب واستفاد منه .

وكان ذلك دافعا لكتابة الفصل الأول عن قرطبة ، عمرانها وتخطيطها والحياة فيها على أيام ابن حزم ، وألحقته بمصورتخطيطى وتقريبى للمدينة في القرن العاشر الميلادى ، ودون ادعاء ، يرسم وينشر لأول مرة في اللغة العربية .

وأمام حياة ابن حزم ، شاهد عصر ، ترددت لحظات ! . لأنى ترجمت كتاب المستشرق الإسباني العظيم ميغيل أسين بلاثيوس عن ابن «حزم القرطبي» ، وسوف ينشر قريبا ، وفيه الغناء كل الغناء ، ولكنه كتاب موسع وشامل ومتعمق ودراسة مستقلة ، ونحن هنا في حاجة إلى علامات هادية فحسب ، على طريق حياة ابن حزم ، تعين على فهم «الطوق» ، وليس إلى حياته كلها ، ثم هممت أن أقدم ترجمة للدراسة الجميلة والموجزة التى قدم بها غرسية غومث ترجمته الإسبانية للطوق ، ولكن الرجل يتحدث فيها إلى إسبان ، يكتب لهم أحيانا ما ليس القارىء العربى فى حاجة إليه ، ويتجاوز أحيانا قضايا فوق طاقة القارىء الإسبانى غير المتخصصين ، ولكنها ضرورة للقارىء العربى ، ومن ثم فقد استهديته



في دراستي ، وأهدت مما كتب ، وهو يعتمد أصلاً على أسين بلاثيوس ، دون أن أسير على دربه دوماً .

وقد وجدت الفيلسوف الإسباني الكبير أورتيجا إي جاسيت ( ١٨٨٣ - ١٩٥٥ ) ، وشهرته تتجاوز إسبانيا إلى عالم الفلسفة بأسره ، قدم لترجمة الطرق الإسبانية ، بدراسة مركزية ورائعة ، فأثرت نقلها إلى العربية برمتها ، ليكون لدى قارئ الطرق العربي ، وجهة نظر أخرى غير عربية ، قد يرضى عنها أو يختلف مع صاحبها ، ولكنها مفيدة في كل الأحوال .

وعن هوية ابن حزم كتب المؤرخ الإسباني ، الحجية في دراسات العصر الوسيط ، الأستاذ سانتشيث البرنس ( ١٨٩٣ - ) دراسة مستفيضة ، رد فيها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالة الإسبانية ، وقد ترجمت هذه الدراسة برمتها أيضاً ، دون تعليق مني أو مناقشة ، ودون أن يعنى هذا موافقتي على رأيه ، لأني فضلت ، كما دلت فيما أترجم ، أن أترك القارئ العربي حراً ، مطلق الفهم ، في مواجهة ما يقرأ من نصوص مترجمة ، وأن يبدي رأيه فيها دون تطفل مني . وثمة كثيرون من المفكرين الإسبان المعاصرين يشاركون سانتشيث البرنس رأيه ، ولكنه الوحيد الذي درس القضية ، وعبر عن فكره ، وربما عن فكرهم أيضاً ، في هذه الدراسة المستفيضة .

٣ أما أن ابن حزم من أصول غير عربية فحقيقة لا نرفضها ، وكان عالم قرطبة العظيم مسلماً طيباً ، والإسلام فوق عصبية الجنس واللون والدم ؛ وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شك كبير . لأن لفظة « إسبانيا » لحظة الفتح الإسلامي كانت تعني امتداداً جغرافياً فحسب ، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هنا ، قومية أو دموية أو فكرية . والقول بهذا ليس من عندي ، وإنما هي فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف أميركي كاسترو ، وظل يبشر بها طوال حياته ( ١٨٨٥ - ١٩٧٣ ) ،



ويرى في تجاهل الإسبان لها تضليل وتحريف للتاريخ ، وانحراف بسير الثقافة في وطنه ، وألف في ذلك كتاباً قيمياً : « حقيقة إسبانيا التاريخية » ، وكانت دراسة سانتشيث ، وكتاب آخر له ، رد على نظرية كاسترو هذه ، ولقد حرم القارىء من فكر أمير كوكاسترو الرائع في هذه الدراسة التي تقدمها ، لأن نظريته لاتقف عند ابن حزم وحده ، وإنما تتجاوزها إلى القضية في جوهرها : لمن ينتسب هؤلاء الذين عاشوا في الأندلس ، على امتداد دولة الإسلام التي ظلت تسعة قرون ؟ وإجمالها غير متاح ، ومن ثم فقد ترجمت الكتاب كله ، وينتظر الناشر ليأخذ طريقه إلى القارىء قريباً .

ورأيت مفيداً إلى جانب ما تناولت من أفكار « الطوق » ودلالته المتنوعة ، أن أتبع آثاره في الآداب التي عايشته ، أو تلتها ، في الأندلس ، في الأدبين العبري والإسباني ، وأن ألقى نظرة على الدراسات المماثلة التي سبقته إلى هذا المنحى في اللغة العربية ، والتي جاءت بعده وسارت على دربه ، أو أفادت منه ، وترجمت دراسة لغرسية غومث تناولت جانباً من هذه القضية ، وأكملت الجوانب الأخرى التي لم يتعرض لها المقال .

ثم وقفت عند شاعرية ابن حزم ، وأهمية الطوق كصدر لتأريخ الحياة الأدبية في قرطبة ، إلى جانب ما يقدم من معلومات أخرى ضافية ، اجتماعية وسياسية ، والمرأة في قرطبة الخلافة من خلاله ، ولحياة مؤلفه نفسها . وتلك هي الخطوط العامة للدراسة ، وما أريد أن أقف عندها تفصيلاً ، وفي الفهرسة آخر الكتاب ما يغني .

\* \* \*

أنهيت هذه الدراسة مع بداية الصيف ، ثم حملتها إلى المرابن التي عاش فيها ابن حزم منذ ما يزيد على ألف عام ، أمضيتها بين واية وإشبيلية وقرطبة والمرية وشاطبة وميورقة ، وغيرها . وفي ضوء ما رأيت على الطبيعة وحياة الناس ، وفيها ما لم يتغير أصلاً



أوما تغير قليلا ، وما استلهمت من روح التاريخ ، واستهديت من حدسي بين  
هذه المعالم ، صححت وراجعت ، وأضفت وحذفت ، فكانت هذه  
الصفحات :

قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من تحقيقى «اطوق الحمامة» ، إن النص  
والدراسة التى سوف أعدها مستقلة عنه ، كمقدمة له ، تربط بينهما أقوى  
الوشائج ، ولا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر . وأعيد هذه السطور هنا  
مرة أخرى لإبراء لدمتى ، لأن فى هذا ما يفسر ذلك ، والعكس  
صحيح أيضا .

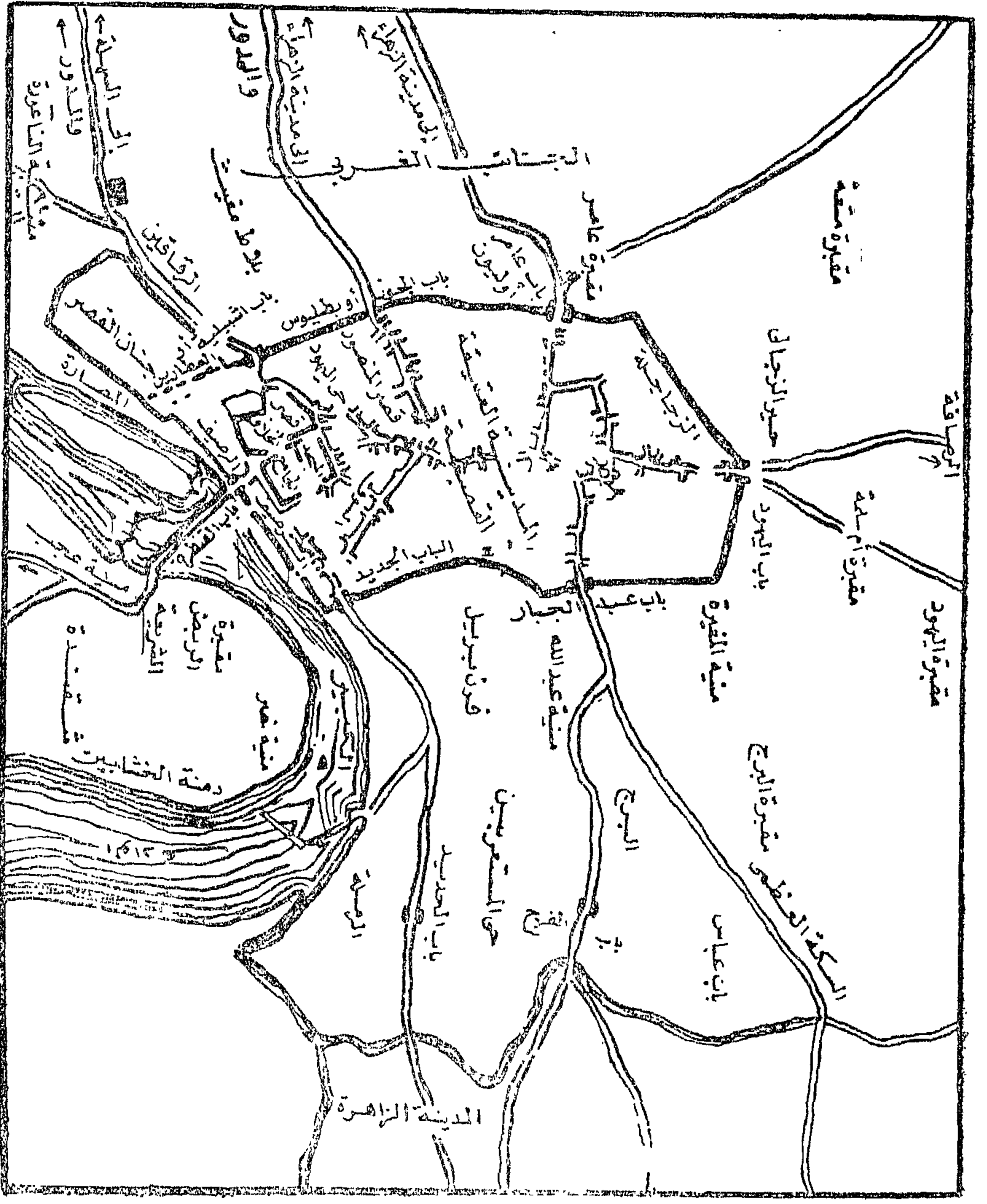
ومن الله الجزاء ، ومنه التوفيق .

شعبان ١٣٩٦ هـ  
أغسطس ١٩٧٦ م

قرطبة - الأندلس

الطاهر أحمد مكى





خريطة مقبرة أم سلمة في القرن العاشر الميلادي



## قرطبة على أيام ابن حزم

• السكان :

حين زحف مغيث الرومي ، علام الوليد بن عبد الملاك ، يريد قرطبة عام ٩٢ هـ = ٧١١ م ، وحاصرها حتى فتحها ، لم يدربخلده ، ولايخلد أحد ممن كانوا معه ، أن هذه المدينة الصغيرة التابعة في سفح جبل العروس ، نصف همجية ونصف متبذية ، يمكن أن تصبح في مدى قرنين ونصف من الزمان ، كبرى مدن الأندلس ، موطن الإمارة ، وحاضرة الخلافة ، تنافس بغداد ، وتطاول القاهرة ، وتكسف ماحولها من مدائن ، وتبلغ شهرتها الخافقين ، فتصبح موضع الإعجاب من راهبات منقطعات في دير منعزل بألمانيا ، وتقول عنها الأخت الشاعرة السكسونية روز فيتا Hroswita في قصيدة لها : «جوهرة العالم الساطعة ، مدينة جديدة ورائعة ، فخورة بقوتها : شهيرة بمباهجها ، مزهوة بما تملك من خير وفير» .

ليس من غرضي ، ولافي نطاق بحثي ، أن أعرض لقرطبة في طفولتها وتطورها على امتداد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وغاية ما أطمح فيه أن أعطي صورة مصغرة فحسب ، لجوانبها المختلفة ، خلال القرن العاشر الميلادي ، حين طرق ابن حزم أبوابها وليدا .

كانت قرطبة القرن العاشر الميلادي مدينة كبيرة ، يتجاوز سكانها المليون عددا ، تتحدث العربية ، إلى جانب لغات أخرى ، وتدين بالإسلام ، إلى جوار المسيحية واليهودية ، ويسكنها أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة .

كان هناك العرب ، مضر يون أو يمنيون ، جاءوا قديما مع موسى بن نصير ، أو مع بلج بن بشر القيسي بعده ، أو في أفواج قليلة العدد أيام عبد الرحمن الداخل ، وانتشروا في كل الأندلس ، وأورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة .



عن منازلهم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » واتخذ عدد منهم مكانه إلى  
إلى جانب الإمارة أو الخلافة ، ولم تكن أعدادهم في المدينة كبيرة ، ويمكن  
القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى ، ويتولون الوظائف الهامة ،  
وعكف بعضهم على التجارة ، وقلة تدير من العاصمة مزارعها الواسعة في  
الريف ، وحافظوا على أصولهم التي انحدروا منها ، وحرصوا على أن يتميزوا  
بألقابهم العربية ، وظلت ذكريات قبائلهم حية في حكاياتهم وسمرهم ، وهي  
خصائص أخذت تختفي مع الزمان ، ونتيجة الزواج المختلط ، فقد جاء العرب  
فرادى عادة ، وكان النصف الثاني من بيوتهم ، زوجة أو جارية أو عشيقته ،  
ليبيريا في الأعم الأغلب ، ومن ثم بدأت « الأندلسية » تأخذ طريقها إلى  
وجدانهم إحساسا ، فأصبح الورد منهم يحس بأنه قرطبي ، قبل أن يكون  
مخزوميا أو قرشيا . وبدأ ثقافتهم السياسي يضعف مع عبد الرحمن الناصر ،  
فقد كان ميالا إلى قيام سيطرة مركزية قوية ، ورأى المنصور بن أبي عامر  
بعده خطر قيام طبقة تعتمد على الدم وحده طريقا إلى النبيل ، فقرر أن يهبط  
هم إلى حيث بقية الناس ، وقضى نهائيا على نظام الجند القبلي ، وأحل مكانه  
مفهومًا جديدًا يجعل العصبية للأندلس .

وكان هناك البربر ، من زناتة أو صنهاجة ، وهم أول من دخل  
الأندلس ، واحتملوا صدمة الفتح الأولى ، واتصلت هجراتهم إليه ، لقرب  
بلادهم منه ، وتشابه مناخ أوطانهم به ، وكثرة القلاقل السياسية عندهم ،  
حتى فاقوا العرب عددا ، وأورد لنا ابن حزم في كتابه « جمهرة أنساب  
العرب » فصلا عنهم أسماء : « بيوتات البربر في الأندلس » ، ونجد عنهم معلومات  
وافرة في تاريخ ابن خلدون . وقد اتجه معظم البربر إلى الريف ، وامتزجوا  
بالسكان الأصليين ، ولعبوا دورا هاما في نشر الإسلام ، وآثرت قلة منهم البقاء في  
العاصمة ، تعمل في المهن المتواضعة ، هلى حين سمت بآخرين مواهبهم ،  
فتبوأوا أعلى المناصب ، وباشروا نفوذا سياسيا أو علميا أو أدبيا مرهوقا .  
لقد عرف القرن العاشر منهم في قرطبة أبناء يحيى بن يحيى اللبثي ، كبير فقههاء



المالكية ، ومنذر بن سعيد شيخ الخطباء وإمام عبد الرحمن الناصر ، وابن دراج القسطلی شاعر المنصور بن أبي عامر . وحافظ بعضهم على نسبة البربري ، واصطنع آخرون لهم نسباً عربياً ، على ما سرى .

أما الكثرة الغالبة من السكان في قرطبة ، فممن وجدهم المسلمون لحظة الفتح ، ويعودون إلى أصول مختلفة ، لانيزية وقوطية وإيبيرية وسلتية وحتى أفريقية وفينيقية ، وقد أطلق على من أسام منهم لحظة الفتح اسم « المسالمة » ، وعلى أبنائهم اسم « المولدون » ، وكان منهم الحرفيون وصغار التجار ورجال الأعمال . وبعضهم كان يعمل في المزارع التي حول قرطبة ، وهم العنصر الأكثر فعالية في الاقتصاد ، لأنهم أعرف من غيرهم بالبلد ، وأكثر احتمالاً لأجوائه وجوائحه . وقد دعمت الدولة في سياسة بعيدة النظر هؤلاء المسالين الجدد وحميتهم ، وفتحت أمامهم باب الأمل والعمل واسعاً وعريضاً ، لكي يعملوا ويثروا ويحتلوا مكانتهم في المجتمع ، وبرزت من بينهم مواهب عظيمة ، وحرص الكثيرون منهم ، كالبربر ، على أن يصطنعوا لهم نسباً عربياً ، عن طريق الزواج والمصاهرة ، أو الولاء ، أو باصطناع نسب مزيف ، وثمة متخصصون في صنع أشجار النسب يصنعونها ويبيعونها لمن يريد ، هروباً من ماضيهم غير الإسلامي ، وثنياً كان أم مسيحياً أم يهودياً . وكان بينهم من يتعصب لطائفته ، وقد كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وأصله من الباسك ، رسالة في فضائلهم والدفاع عنهم .

وقد احتفظ عدد كبير من هؤلاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة ، واتخذوا منها ألقاباً ، فلدينا ابن بشكوال Ibn Pascual صاحب كتاب « الصلة » وبنو قومس Banu Comes ، وبنو مرتين Banu Martin وبنو غرسية Banu Garcia ، وآخرون كثيرون . وبعضهم عرب اسمه اللاتيني ، فأصبح Félix يدعى سعيداً ، و Victor يدعى الظاهر ، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربي ، فاسم Moisés أصبح موسى ، و Jesus عيسى ، وهكذا .

ثم السود والصقالبة ، وكانوا أقل عدداً من العرب والبربر ، والسود أقل من الصقالبة ، وهما على النقيض لونا . ويطلق على الرقيق القادم من بلاد السودان اسم العبيد أو السودان ، ولا صلة للتسمية بما يطلق الآن على جنوبي وادي النيل ، وإنما تعني تلك المناطق التي تمتد من جنوب المغرب وما وراءه من غربي إفريقية ووسطها . وقد اتخذ منهم الخلفاء حرسهم الخاص ، وبلغوا عدداً لا بأس به ، وبخاصة في عهد الحكم الثاني ، وأصبحوا يكونون جانباً من المهرجانات العامة ، بين فرسان ومشاة ، وبخاصة في البيعة ، وأكثر منهم المنصور بن أبي عامر ، لأنهم اشتهروا بالقوة والاحتمال ، والقدرة على العدو ، حتى أن البريد يطلق عليه في لغة الأندلس الإدارية اسم « الرقاص » كان وقفاً عليهم ، وكان يتبع المنصور في كل حملاته الحربية ، حمل أوامره إلى مرعوسيه في بقية العاصمة أو بقية الكور .

ولا يزال أحد شوارع قرطبة يحمل اسمهم مترجماً حتى يومنا هذا : زقاق السود Calleja de Los Negros

والسوداوات كن أكثر عدداً من الرجال ، ويتمتعن بشهرة عالية في الأعمال المنزلية ، وكان الرجال يقدرون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها في غيرهن ، وكان اللون الأسود لأبناء من آباء بيض شائعاً بين الطبقة الحاكمة والمقتدرة ، « وإته لشيء يشرف هؤلاء المسلمين أنهم لم يعرفوا التفرقة العنصرية بسبب اللون أبداً ، لا في العصر الوسيط ، ولا في أيامنا هذه » .

وكان الصقالبة خصياناً في أكثر الأحوال ، ويعملون في حرس الخليفة ، والطريق مفتوح أمامهم إلى المناصب العليا ، وإلى أن يصبحوا في مرتبة الرجال الأحرار ، رغم أنهم جاءوا إلى الأندلس رقيقاً ، وبينهم من احتفظ بلغته ، ومن اعتزل المجتمع ، وحافظوا على خصائصهم ، واتخذوا لهم موقفاً خاصاً ، رغم أنهم أسلموا ، وفتحوا قلوبهم للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وعندما سقطت الخلافة أصبحوا عنصراً مستقلاً في



مواجهة العناصر الأخرى ، وتميزوا بروح التضامن فيما بينهم . وفي البدء كان يطلق لفظ الصقالبة على الذين يوئى بهم من وسط أوربا ، ويقوم اليهود على خصائصهم في مدينة بجانة ، وكل سكانها من اليهود ؛ وكان يهود فرنسا يباشرون المهنة في مدينة « فردان » ، ويربحون من ورائها أموالا طائلة ، وفيما بعد أطاق الاسم على كل الرقيق الأبيض اللون ، حتى أولئك الذين يوئى بهم من جنوب فرنسا أو شمال الأندلس . وكان الأسيرات القادمات من بلاد الإفرنج ، في جنوب فرنسا . أو من مقاطعات قطلونية والباسك وغاليسية في شمال الأندلس ، حظوة كبيرة في قرطبة ، لأنهن بيضاوات البشرة ، شقرارات الشعر ، زرقاوات العيون ، ومن بينهن كان الأمراء يختارون عشيقاتهم المدللات ، فإذا أنجبت الواحدة منهن صارت أم ولد ، أى حرة . وقد مارست الجوارى نفوذا كبيرا في الحياة السياسية ، ولم يكن اتخاذهن وقفا على الأمراء ، وإنما شاع ذلك في بيوت الخاصة ، وأعلى الطبقة الوسطى ؛ من كبار الموظفين ؛ ورجالات الدولة ، وأبناء البيوتات . وتميز هؤلاء الجوارى بالثقافة والركة والصقل ، وأدين دورا بالغ الأهمية كأمهات ، وأعطين المجتمع الأندلسى طابعه الخاص ، ولعبن دورا كبيرا في تحسين مكانة المرأة في الأندلس . ويحمل شارع في قرطبة اسم شارع الرقيق ، أو الجوارى Las esclavas حتى يومنا :

هذه العناصر على اختلافها كانت تأخذ طريقها ، تدريجيا ، نحو اندماج كلى ، سهله ومهدله ، عقيدة واحدة كانت تظل الناس جميعا ، وتحدد لهم أنماط المساوك في حياتهم العامة والخاصة ، دون أى تمييز طبقي أو عنصري . ويمكن القول ، إن القرن العاشر الميلادى ، في النصف الثانى منه تقريبا ، وفي ظل السلام الوارف الذى بسط عبد الرحمن الناصر ربوعه على الأندلس ، تمت عملية المزج بين العناصر الأصيلة والوافدة ، وكنت إذا سرت في الشوارع ؛ أو تجولت في الأسواق ، تلتقى بأناس ألوانهم مختلفة ، شقر وسمر وببيض وسود ومخلطون ، يعيشون في وثام مع بعضهم ، ومع الذميين من الكاثوليك ( م - ٢ - ابن حزم )

واليهود ، « ونجم عن اختلاط الأجناس ، وتجاوز الديانات ، جو سمح جميل ، إنساني وشفاف ، هو الجو الحضاري نفسه الذي نعرفه في بغداد كما تصورها قصص ألف ليلة وليلة ، خالصا من كل ما يرتبط بالشرق في أذهاننا ، من جلافة يشوبها الغموض » .

في هذا القرن كانت الخلافة الفاطمية في المغرب ، والعباسية في بغداد ، تدفع بالأندلس دفعا نحو الإنطواء على نفسه ، فكلاهما كان خصما سياسياً عنيفا ، ومن ثم كان اهتمامه بالوحدة الفكرية للعالم الإسلامي فاترا . وبدأ يتكون في وجدان الأندلسي شيء غامض ، بإحساس ذاتي مبهم ، من المبالغة أن نقول عنه إنه قومي ، لأن مثل هذا التعبير يتجاوز ما أحس به الأندلسيون ، ولا يتناسب وطبيعة العصر ، ويمكن تحديده بأنه إحساس بوحدة الأمل والغاية والحياة بين سكانه ، وبعزلة جغرافية شعورية عن بقية العالم الإسلامي ، ومع شدة العداء السياسي من الفاطميين والعباسيين أخذ هذا الاتجاه شكلا أكثر قوة ووضوحا ، وبدأ الأندلسي ، لإبريا من شبه الجزيرة ، أو قادما من المغرب ، أو مهاجرا من المشرق ، يحس بشخصيته الأندلسية ، ويعبر ابن حزم عن هذا المعنى تعبيرا قويا في بيت من الشعر :

ويا جوهر الصدين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أندلسهم وطنا ، يتعبدون به دواما ، يتغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه ، ويحنون إليه وجدنا حين يكونون بعيدين عنه ، وليس مهما بعد ذلك أنه لم يعرفوا كيف يدافعون عنه فيما بعد . ذلك أن الأندلسي كان كثير الكلام وجللا ، قوى الإحساس بالطبيعة وشاعرا ، قادرا على التمتع بالحياة ، ولكنة كأي متحضر تنقصه الحشونة التي تجعل منه قادرا على الصمود والفضال .

وكان هناك المستعربون ، وتطلق عليهم المصادر العربية ، نصاري ، لأنهم ، أو للعجم ، أو مجرد كلمة نصاري ، وتطلق عليهم المصادر اللاتينية



اسم : المستعربون ، أخذنا من من كلمة مستعرب Mozarabes مضافا إليها أداة الجمع في اللاتينية . وهم أولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم ، ولكنهم فيما عدا ذلك شاركوا المسلمين الكثير من عاداتهم وثقافتهم وألوان حياتهم . ولانستطيع أن نستنتج عددهم ، ومن الواضح أنه كان يقل مع الزمن بفضل تقدم الإسلام ، وباستثناء رؤسائهم الدينيين ، فإن المصادر العربية قلما تتحدث عنهم . وبينهم من كان يتمتع بوضع اجتماعي ممتاز ، ولم يكونوا يتعرضون لأية مضايقا من الخليفة ، أو من المنصور بن أبي عامر عندما أصبح حاجبا ، ولامن الخاصة ، وبرهنوا من جانبهم على انضمامهم للمجتمع ، وحاولت الدولة أن تكسب ثقتهم ، ولكن ما إن نمت القوى الكاثوليكية في الشمال حتى اهتز ولاؤهم ، وأصبح مجاماة وتقية وانتظاراً أكثر من الإخلاص .

وقد استقلوا بشؤونهم الدينية ، أصبح لهم رئيس ينتخبونه من بينهم ويعينه الخليفة ، يدعى قومس Comes ، وقاض ينظر في أمورهم الخاصة ، يعرف باسم «قاضي العجم» ، وكان لهم كنائس في داخل المدينة ، وعدد آخر خارجها ، تضم كل واحدة منها ديراً ، وفي هذا القرن ألغى القرار الخاص بحظر دق أجراس الكنائس ، وكانوا يؤدون طقوسهم الدينية في برج يشد إليه فضول حتى أولئك المسلمين الطيبين من العامة ، ووصف لنا ابن شهيد ، في رسالته «التوابع والزوابع» ، انطباعه عن دير زاره . ورغم أن بعض المسلمين كان يتهم رجال الدين الكاثوليك بأنهم ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة لممارسة الحب ، لا يمكن القول بأنهم جميعاً ، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك . وأياً ما كان الأمر فإن مثل هذا الاتهام لم يكن يسبب أية متاعب للمستعربين .

وبعض هؤلاء المستعربين كان على ثقافة عالية ، وموضع ثقة الخليفة ، وكان ربيع بن زيد ، واسمه المسيحي Recemundo يستخدم

اللاتينية والعربية بمستوى واحد ، وقد اتخذ منه الناصر سفيراً متجولاً له ؛ فأرسله إلى أوتون الأول Otoni ملك جرمانيا ، ثم إلى القسطنطينية وسورية للحصول على مواد يحتاج إليها في بناء مدينته الزهراء ، ولكي يضمنى عليه احتراماً زائداً في سفارته عينه أسقفاً لمدينة البيرة ، وهي وظيفة شرفية ، فاحتمى به في الواقع وقت ليهبشر وظيفته هذه . وكان الحكيم الثاني يقدر معارفه الفلسفية والفلكية ، وله ألف ربيع بن زيد كتابه « الأنواء » وكان المستعربون طبقات اجتماعية مختلفة ، يقف على قممها النبلاء الذين ينحدرون من القوط ، ثم الطبقة العليا وكانت وقفاً على رجال الدين ويأني العبيد في نهاية السلم ، وكان المسيحيون واليهود شأنهم كالمسلمين يمتلكون الرقيق .

وكان في قرطبة يهود ، ومعلوماتنا عن نشاطهم في القرن العاشر محدودة للغاية ، وما وصلنا من أخبار وفيرة عنهم يعود إلى القرن التالي ، ولقد وجدت عنيتاً في الوصول إلى معرفة عدد من اليهود كان يعرفهم ابن حزم ، وتتردد أسماءهم في « طوق الحمامة » . ومع ذلك يمكن القول أنهم كانوا يكونون مجالية كبيرة ، تقطن حياً خاصاً بها ، يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة ، ويحمل اسمهم . وأن أحد أبواب المدينة كان يطلق عليه اسم باب اليهود ، وأن الرض المجاور له يحمل اسمهم أيضاً ، ويبدو رغم صمت المؤرخين أنه حتى يهودى آخر يختلف عن الأول ، وربما كان موطن الأغنياء منهم .

وقد سكن اليهود الأندلس قبل مجيء المسلمين ، وساعدوهم في حركة الفتح ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وظلت غالبيتهم على دينها ، وفيما بعد جاء يهود آخرون من أفريقية وآسيا . وقد تركوا أحراراً تماماً في حياتهم الدينية ، وكانت لهم بيعة داخل المدينة ، ولهم مجلس شورى يرعى شؤونهم يسمى « الجماعة » . ورئيس هو الصلاة بينهم



وبين السلطات الإدارية ، ورئيسهم في عهد عبد الرحمن الناصر ، وهو الوحيد الذي نعرف عنه شيئاً ذا قيمة في هذه الفترة ، حسداى بن إسحاق بن شبروط ، كان طبيبا للخليفة ، ومن مستشاريه المقربين ، ويسفر له لدى ملوك الشمال المسيحيين ، وإليه يرجع فضل إقامة الدراسات التلمودية في قرطبة وإزدهارها ، على حين كانت تخبو في المشرق ، وبدأ اليهود يصوغون لهم تشريعا خاصا وقوانين ، وأخذ الشعراء ينشدون الشعر العبرى ، ويتخذون من العروض العربى قالباً يصبون فيه أشعارهم العبرية .

وفيما قبل القرن العاشر حاول اليهود أن يتمردوا ، وأن يغزوا الحركات الثائرة ، أو يندمجوا إليها ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن هذه ليست مهمتهم ، وأن التآمر والدسائس ودفع الآخرين إلى الثورة ، والتمرد على الحكومة ، لن يؤدي إلى شيء ، فأثروا السلامة ، وانصرفوا إلى أعمالهم . وعندما جعل الناصر من نفسه خليفة ، ومن قرطبة عاصمة الخلافة ، وغرق الناس في الترف ، ووسعت الحياة كل عامل ، انصرف اليهود إلى جمع الثروات الكبيرة ، وآثروا أن يربحوا ثقة الدولة ، وكانوا يعملون في تجارة الجواهرات ، والذهب والفضة والرقيق ، والسوق السوداء ، والرهونات والصياغة ، والربا ، وفي التزييف أحيانا ، ويعملون مترجمين وأطباء وصيادلة ، وفي التنجيم والفلك ، وبعض وظائف الإدارة ، وخاصة ما اتصل منها « بمخزاة المال » .

#### • الطبقات الاجتماعية :

الدمج مكان قرطبة عنصريا ، ولكن الطبقة الاجتماعية ظلت قائمة على النحو الذى كانت عليه في بقية العالم الإسلامى ، فقد كان هناك الأحرار والفقراء . وفي نطاق الأحرار هناك الخاصة ، أو الطبقة العليا بلغة العصر الحديث ، والعامية ، أو الجماهير كما نقول في أيامنا هذه .

تتكون طبقة « الخاصة » من أبناء الأسر العربية ، وبخاصة أولئك الذين يرتبطون من قريب أو بعيد بنسب مع الأسرة المالكة ، ويطلق عليهم أحيانا « بنوهاشم » ، أو « أهل قريش » ، إشارة إلى أصولهم النبيلة ، ويتلقون رواتب من بيت المال إلى جانب أملاكهم الخاصة ، وكانوا موضع احترام كبير من عامة الشعب ، وبعيدون عن المناصب العامة ، ويتولى شؤونهم نقيب لهم ، هو صوتهم والصلة بينهم وبين الخليفة . وتأتي مكانتهم في الحفلات الرسمية أو العامة ، أو الأعياد الدينية ، أو استقبال السفراء ، قبل الوزراء وكبار الموظفين ؛ ويليهم رجال القضاء ، وعلى رأسهم قاضي الجماعة ، ثم كبار الموظفين ، ويعدون من الخاصة ، إلى أي عنصر انتموا . ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادي بدأ كثيرون ممن كونوا ثروات طائلة ، قدما أو حديثا ، يشترى وضع اجتماعيا أفضل ، يدفعون ثمنه ذهبا ، لكي ينتسبوا في هذه الطبقة ذات الأهمية الاجتماعية ، وكانت تتمتع بامتيازات مادية محدودة ، ومعنوية أكبر ، ولها الحق في معاملة خاصة من موظفي الدولة . وعلى أية حال فقد كانت طبقة متجددة ، ومحدودة العدد ، وغير مستقرة ، لأن عمليات الإقطاع والمصادرة تم فجأة ، وتخضع لأهواء الحاكم دواما .

كان أبناء « البيوتات » أوضح عناصر هذه الطبقة في القرن العاشر ، وهم الذين كانوا يتوارثون الوظائف الكبرى منذ القرن التاسع ، ويحتكرون الإدارة المركزية في العاصمة ، وتميز من بينهم خمسة ، أصولهم شرقية هم : بنو عبدة ، وبنو حدير ، وبنو شهيد ، وبنو عبد الرعوف ، وبنو فطيس ، وأبناء الأسر الثلاثة الأولى تتردد أسماءهم كثيرا في طوق الحمامة ، وفي القرن العاشر ، على أيام الناصر ، سوف تلحق بهم بيوت أخرى ، لموظفين كبار ، أو موال محدثين ، نجحوا في مهمات وكرت إليهم . من طراز بدر ابن أحمد الذي انتصر على أوردنيو الثاني Ordonio ملك ليون ، في موقعة متونية Mitonia ، وكان يتولى الحجابة للناصر منذ أصبح أميراً إلى أن توفي خليفة ، وخلفه في بعض مناصبه إبناه : عبد الله وعبد الرحمن . وظهر عدد



من الفتيان الصقلية ، أمثال : درى ، وأفلح . وطرفة ، وجعفر ، ويظهرون في الوثائق تحت اسم «أبناء الخلائف» ، وبدهى أنهم أصبحوا أحراراً قبل أن يعهد إليهم بالوظائف العالية ، والتي ارتفعت بمستواهم إلى أشهر البيوتات العربية القديمة ، والتي أحست على التأكيد بأن شيئاً تترارثه قد انتزع منها فجأة . وفيما بعد ، في خلافة الحكم الثاني وابنه الضعيف هشام الثاني ، سوف نلتقى بالحاجب المصحفى ، والمنصور بن أبي عامر ؛ وأحمد بن سعيد ابن حزم ، والد ابن حزم صاحبنا .

جرت العادة أن يحمل كبار الموظفين لقب وزير ، وأن يتلقوا الراتب المقرر له ، وكانوا إلى جانب ذلك يجمعون ثروات طائلة ، من الضياع الواسعة ، والعقارات الهامة ، والجواهر الغالية ، وكان الخليفة يسأل الذين تطول أعناقهم فجأة عن مصادر ثرائهم ، وبعضهم لا ينتظر حتى يسأل ، وإنما يسبق الأحداث فيقدم بعض ما جمع إلى الخليفة ، أو بيت المال ، وكلاهما كان واحداً .

ثم تأتي الطبقة الوسطى ، ويتحدث عنها المؤرخون عرضاً ولما ، وتجيء طبقاً لنظم المراسم في آخر القائمة ، ويطلق عليهم اسم «الأعيان» ، وهم أغنياء الأحياء ، وكبار تجار الأسواق ، ممن استطاعوا أن يرتفعوا بمستواهم في سلم الطبقات الاجتماعية ، ومعظمهم من المولدين . ولانستطيع في ضوء النصوص التي بين أيدينا تحديد الدور الذي قامت به هذه الطبقة في حياة العاصمة ، ولكن الأقرب إلى التصور أن الأغنياء منهم كانوا يحاولون أن يقفزوا إلى مرتبة الخاصة ، ولم يكن للبقية دور حتى يكون لهم وضع خاص .

وكانت الطبقة الدنيا ، أو العامة كما تسميهم المصادر القديمة ، وقل ما يتحدث عنهم ، تتكون من الحرفيين والعمال ، وكلها من البربر أو المولدين أو الموالى ، إلى جانب المستعربين واليهود . وفي مدينة كقرطبة ، تجرى الأموال بين يدي الخاصة أنهاراً ، كان على هذه الطبقة أن تتحمل ضير المجتمع

وقسوة الحياة ، وأن ترزح تحت أعباء ضرائب باهظة كانت تفرض عليها . وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة ، لأن الغرم يقع عليهم دائماً ، وكانوا دوماً ، وربما على حق ، مادة معدة للانضمام إلى أية ثورة أو تمرد أو عنف ، ووراء أى قائد أو دعوة ، وظلوا يخضعون دائماً لرقابة مشددة من الدولة ، ودرج الأمير أو الخليفة على أن يتملق عواطفهم عند توليه السطوة ، يؤكد أنهم ، وينخفف الضرائب عنهم ، وقد يعفيهم عما تأخر منها .

• اللغة :

هذه الجماهير المتدفقة عبر شوارع قرطبة ، أو الهاجعة في بيوتها ، أو المتحلقة في الكتاتيب والمساجد ، أو العاملة في المصانع والحقول ، أى اللغات كانت تتحدث ؟ .

نخرج عن قصدي أن أتبع العربية في زحفها وراء راية الإسلام المندفعة ، وأن ألم بخصائصها ، وما أصابها من تحوير أو تحريف أو تطور ، إنما أريد أن أقصر نظرتي على نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، أى الفترة التى سبقت أو عاصرت أو تلت ابن حزم ، وهى فى الوقت نفسه الفترة التى بلغت فيها الحضارة الأندلسية قمة توهجها .

لأ

كانت اللغة العربية الفصحى اللغة القومية ، ولأنها لغة ثقافة ، وعاء حضارة ، لم تجد على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية لغة أخرى تدخل معها فى صراع ، أو تقاوم زحفها ، ولأنها لغة القرآن فرضت نفسها لغة الإدارة أيضاً . وأصبحت لغة الحديث فى اجتماعات الأصدقاء المثقفين ، وفى « الصالونات » الأدبية ، وتحرير الرسائل ، والوثائق الرسمية ، وفى الإبداع الأدبى شعراً ونثراً ، ولغة التعامل بنوعيه ، المبتدىء والعالى على السواء . وفى العلاقات الدولية ، ومع المشرق بخاصة ، أفراداً أو على مستوى الدول ، وكان يمكن منها شرطاً لتولى أى من المناصب العامة ، والتفوق فيها الطريق



الوحيد إلى الفيل المكتسب والوظائف العليا . ومن ثم كان على الأندلسيين من غير المسلمين ، يهوداً أو مستعربين ، أن يذبغوا فيها إذا أرادوا أن يجدوا لهم مكاناً مرموقاً تحت شمس الخلافة ، ونعرف من بينهم أدباء وشعراء كانوا يكتبون فيها شعراً جميلاً ونثراً راقياً . ويعبر عن هذا لها الواقع زفرة أرسلها ألفارو ، مطران قرطبة ، عام ٨٥٤ م ، أي قبل الفترة التي نعرض لها بنحو قرن كامل ، ولما يفض على الفتح الإسلامي غير مائة وأربعين عاماً ، يقول : « من الذي يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دراسة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائنا ، ممن كتبوا في اللغة اللاتينية ؟ من منهم يدرس الإجيل أو الأنبياء أو الرسل ، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبا باللغة العربية ، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ، يدرسونها في شغف ، ويعلقون عليها ، ويتحدثون بها في طلاقة ، ويكتبون بها في جمال وبلاغة ، ويقولون فيها الشعر في رقة وأناقة . يا للحزن : مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولا تينيتهم ، وينسون لغتهم نفسها ، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلماً عليه ، وتستطيع أن تجد جمعاً لا يحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية » .

وكانت البربرية ، بلهجاتها المختلفة ، تتحدث في الأعوام الأولى من الفتح ، وحتى زمن متأخر نسبياً ، مع الجنود البربر ، والمهاجرين من شمال إفريقيا ، وكانوا أكثر عدداً من العرب ، ويذكر ابن القوطية في كتابه : « افتتاح الأندلس » : أن عبد الرحمن الداخل « ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر ، وقال لهم : خاطبوا بني عمكم وعظومهم ، وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دواتنا فلا بقاء لهم معهم ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية ، ولكننا ما لبثت أن تفهقت أمام العربية ، ولا نبلغ المرحلة التي نحن بصددنا من تاريخ الأندلس حتى نجد ما قد تلاصق تماماً ، فها هنا كلمات قليلة ليست بذات أثر ، من أسماء

بعض الأطعمة، أو الملابس ، ولو أنها سوف تعود فيما بعد ، ودون أن تترك أيضا أثرا يذكر ، مع بعض دول الطوائف ذات الأصل البربري ، ومع المرابطين والموحدين .

وكانت هناك اللغة اللاتينية ، لغة رجال الدين من المستعربين ، يعرفونها إلى جانب ما يعرفون من العربية الفصحى والعامية ، والرومانشية ويطلق عليها اللاتينية الواطية ، لأنها تختلف عن اللاتينية الأدبية في تركيبها وصوتياتها ومفرداتها ودلالاتها ، وتتباين مناطق وعصوراً ، وتأثرا باللغات القديمة في المناطق التي عاشت فيها ، وما وصلنا فيها من أدب قليل للغاية ، لأنها لم تكن لغة ثقافة ، وإنما تستخدم في الطقوس الدينية ، وفي الوثائق الإدارية فحسب ، ولم تكن مفهومة لغير رجال الدين ، وقد اضطر سعيد المطران ، أو Juan Hispalense كما يرد في المصادر اللاتينية ، إلى شرح الكتاب المقدس باللغة العربية ليسهل فهمه على عامة المستعربين ، وفيما بعد ترجمت التوراة نفسها ، وتحتفظ مكتبة مدريد الوطنية بمخطوطة تضم ترجمة عربية للقوانين الكنسية كتبت عام ١٠٤٩ م ، وإذا عرفنا أن الكتاب وضع خاصة لكبار رجال الكنيسة أدركنا المستوى الذي انتهت إليه اللغة اللاتينية في الأندلس .

وكان عامة المستعربين ، ومعظم المسلمين ، وجل اليهود ، يتكلمون الرومانشية ، أو يعرفونها ، أو يلعمون بشيء منها ، إلى جانب الفصحى وعامية أهل الأندلس ، وهي لغة انحدرت من اللاتينية العامية ، أو اللاتينية الواطية ، وابتعدت عنها كثيراً ، وأخذت في كل منطقة تطورا خاصاً ، صوتاً واشتقاقاً وتركيباً ، سوف يصبح فيما بعد اللغات اللاتينية الحديثة ، وهي الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والقطلونية والبروفنسالية والرومانية (نسبة إلى رومانيا الحديثة) ، وما تفرع عن هذه من لهجات . ويطلق عليها المؤرخون الأندلسيون اسم : لسان العجم ، أو العجمية ، أو الليطينية قليلاً . وقد عجب ابن خزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، من أن

بنى بيلي، لا يتحدثون الليطينية، لانساوهم ولا رجالهم . وبعض جمل منها كان يتردد في مجالس الخليفة تروحا وتخففاً، ويجرى على السنة المتخاضمين والشهود في مجالس القضاء . وهي تمثل مصدراً هاماً لعامية أهل الأندلس ، على نحو ماسيجي . غير أنها رغم هذا كله لم تكن لغة الحياة اليومية ، فقد حاصرتها عامية أهل الأندلس ، ودفعت بها إلى ركن قصي لا تتجاوزه ، في أروقة الكنائس ، أو الحياة الخاصة للمستعربين ، أو بين قلة منهم مثقفة أو منعزلة أو تسكن مناطق نائية ، ويرى مينندث بيدال . أنه لا يمكن الجزم بأن المستعربين في القرن العاشر وما بعده ، قد احتفظوا بلغتهم الرومانشية أداة تخاطب ، أو لغة أدب .

وعرف العصر عدداً من كبار المفكرين اليهود في قرطبة ، وفي غيرها ، وفيه بدأت الدراسات اليهودية تزدهر ، ومع ذلك لا يمكن القول بأن اللغة العبرية كانت لغة ثقافة أو محادثة لأحد . صحيح أن عدداً محدوداً من علماء اليهود كان على معرفة بها ، ولكنها معرفة المتخصص الراغب في الدراسة ، أكثر منها معرفة المتمكن يجعل منها محملاً لأفكاره أو مشاعره ، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين .

ومن المؤكد أن الصقلية ، وجاءوا من أمكنة عديدة من وسط أوروبا ، كانوا يعرفون لغاتهم الأصلية أو مفردات منها ، وأن أدوات النطق عندهم تكونت على نحو يترك أثره في نطقهم للغة التي سوف يتحدثون بها . ورغم أن الكثرة الغالبة منهم كان يوثى بهم أطفالاً ، ويربون على إتقان اللغة العربية وإجادتها ، فإن عدداً منهم ليس بالقليل ، كان يجيء في سن فتية لا يتأتى معها أن يتعلم اللغة العربية بسهولة ، وكان جهلهم بها يقيم بينهم وبين عامة الناس سورا عالياً من العزلة ، فلا يشاركون في حديث أو حوار ، فكان يطلق عليهم اسم « الحرس » . لكننا لا نعرف أنهم تركوا أثراً واضحاً ، أو غير واضح ، في أي من لغات الأندلس : العربية أو العامية أو الرومانشية ، أو حتى الإسبانية فيما بعد ، ولو أن



ديوان ابن قزمان ، وكتب في عامية أهل الأندلس بعد ذلك بقرن من  
الزمان ، يضم عددا كبيرا من ألفاظ غير عربية ، الجانب الأكبر منها من  
أصل روماني ، ولكن عددا من المفردات يمكن - ظنا - أن يكون مصدره  
هؤلاء الصقالبة ، لأننا لانعرف له معنى ، ولم نتوصل له إلى أصل يمكن  
أن يرد إليه .

وإلى جانب هذه اللغات كلها عرف الأندلس عربية عامية ، ذات دائرة  
أوسع منها جميعاً ، ولها خصائص متميزة ، وسوف تعرف باسم « عامية  
أهل الأندلس » ، وجاءت نتيجة طبيعية لـ « لقاء العنصر العربي ، وللزواج  
المختلط ، فكل العرب الذين وفدوا على الأندلس ، إلا ما ندر ، جاءوا رجالاً ،  
وتزوجوا فيه من إسبانيات . أو تسروا من الجوارى ما وسعتهم الحال ، وكان  
عدد الجوارى كبيراً ، وينتمين في جنسيات مختلفة ، ومن مناطق متنوعة في  
الأندلس نفسه ، ففيهن التادمات من قطاونية ، أو الباسك ، أو جليقية ،  
ومن جنوب فرنسا ، ويطلق عليهن في المصادر القديمة اسم « الفرنج » ،  
وكن مرغوبات ومحجوبات ، لبياض بشرتهن ، وشقرة شعرهن ، ويمثلن  
الأغلبية ، إلى جانب قلة من الصقلبيات أو السودانيات ، وكانت الحارثية  
التي تجهل العربية ، وتطلب للمتعة ، أغلى ثمناً من غيرها .

والرجل مع زوجته ، أو جاريتته ، في لحظاتهم الودود ، لا يتحدث الفصحى  
ولا يسمعها ، يهرب عن عواطفه بلغة مفهومة لمن معه ، وتجسد هي مشاعرهما في  
لغتها الأصاوية ، أو في لغة هجين ، لأن الكتب والثقافة والتعليم لا تمدها ، ولا غيرها  
من على شاكلتها ، بالألفاظ هذه الأحاسيس ، إنما يتعلمها التي من أئداده ،  
وتنتقلها الفتاة عن أترابها . وكل ذلك إلى جانب مفردات البيت المتصلة بالطعام  
والشراب . وهي تلتزم هذه الألفاظ وما تحب من لغتها لأطفالها ، فتأتي لغة  
الأبناء ، على الأقل في المرحلة التي تسبق المدرسة ، نحايطاً من لغة الأب ومن  
لهجة الأم .

وإذا تجا وزنا الجوارى ، فإن الباعة وأصحاب المهز الصغرى ، وكاهنهم ليسوا بعرب ، تخلف في نطقهم ، وفي معجمهم اللغوى ، الكثير مما ورثوا ، ومن الرومانشية ، ومن ثم فإن عامية الأندلس كانت خايطا من ألفاظ عربية في مجملها ، في صورتها الصحيحة أو تطورت نطقا ودلالة ، ومن كلمات رومانشية تمثل نسبة عالية ، قد تبلغ حد الثلث منها ، ومن ألفاظ بربرية أو من لغات أخرى قليلة للغاية ، وليست بذات أهمية ، وكانت هذه اللغة معروفة للناس جميعا ، عربا وبربرا وإسبانيا مسالمين ويهودا ومستعربين ، ولكل من يعيش في قرطبة ، لأنها لغة الحياة اليومية في البيع والشراء ، والسمر والتوادم ، والتخاطب بين عامة القوم ، ولم يصلنا من هذه اللغة ، أو اللهجة إن شئت الدقة ، في الفترة التي نعرض لها ، نصوص تعين على تحديد ملامحها ، ولكن ابن حزم أشار إلى بعض هذه الملامح ، ويى أن البربر لعبوا دوراً حاسماً في التحريف البنائى والصوتى الذى أصاب اللغة العربية في الأندلس ؛ ويقول المقدسى ، وهو جغرافى غير أندلسى من القرن العاشر الميلادى ، إنه التقى في مكة بحجاج أندلسيين ، « لغتهم عربية ، غير أنها منغلقة ، مخالفة لما ذكرنا في الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومى » . أما هذه العربية المنغلقة ، فهى عامية أهل الأندلس ، وأما اللغة التى تقارب اللسان الرومى ( أى اليونانى ) فهى الرومانشية . ويمكن القول إجمالاً أن هذه العامية ، إذا استثنينا الكلمات الرومانشية التى اختلطت بها ، تشبه في صورتياتها ، والجانب الأكبر من دلالاتها ، عامية أهل المغرب والجزائر ، فى أيامنا هذه ، إلى حد بعيد .

وهذا التيار العامى كان يمكن أن يودى بالعربية ؛ لولا أنه أدى في الوقت نفسه إلى رد فعل معاكس ، فكانت عناية الدولة والمجتمع الراقى والمثقفين بالفصحى كبيرة ، الخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم فى إجادتها ، ويغدقون العطاء على الشعراء والكتاب ، ويحرص هؤلاء من بجانبهم على التزامها ، ويبالغون فى مبراعة القواعد ، والتأنق فى التعبير ، ومن ثم ازدهرت الدراسات اللغوية ، وعرف الأندلس عددا من كبار النحاة ، كابن مالك صاحب الألفية ، وأبى بكر الزبيدى صاحب « الواضح فى النحو » ،

وغيرهم. وعرفت الدراسات الخاصة بمقاومة اللحن ، وتصحيح النطق ، وإرشاد الناس إلى الصواب .

● العمران :

تحتل قرطبة بوصفها عاصمة الأندلس المكانة الأولى في المصادر التاريخية والجغرافية ، غير أن التفاصيل التي تقدمها لنا هذه المصادر عن تخطيط المدينة والحياة فيها قليلة للغاية ، والكتاب الوحيد الذي نستخلص من عنوانه أنه عني بهذا الجانب ، وهو «كتاب وصف قرطبة» لمؤرخ الأندلس الكبير أحمد بن محمد الرازي ( ت ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م ) ، وفيه تفاصيل وافية عن شوارعها وقصور الأعيان فيها ، ضاع ولم يصلنا . ولقد أوقف المقرئ الجزء الثاني من كتابه «نفح الطيب» ، طبعة الشيخ محيي الدين ؛ على مدينة قرطبة ، وحشد فيه نصوصا كثيرة ، كاملة أو مبتسرة ، جغرافية وتاريخية وأدبية ، غير أن المؤلف وهو مغربي ؛ وحرر كتابه في القاهرة ، ويتحدث عن مجتمع أندلس قد اندثر ، لا يقدم لنا ، إذا حذفنا الأشعار والتكرار وما لا صلة له بالموضوع ، إلا معالومات قليلة للغاية ، وحاضر المدينة ، وزرتها مرارا ، صورة مشوهة لما كانت عليه في ماضيها ، نعم إن بعض المعالم لا تزال قائمة ، وبخاصة تلك التي تقع على شاطئ الوادي الكبير ، كالمسجد الجامع ، والرصافة ، وبقايا أطلال العصر الأموي في السهلة ، أو سفح الجبل ، أو مدينة الزهراء ، كما أن السور الذي كان قائما حول المدينة في القرن العاشر يمكن تحديد معالمه كاملة . إن قرطبة المعاصرة ، مباني وسكانا ، جزء صغير عما كانت عليه في عصر الخلافة ، لقد تلاشت أحياء وأرباض كاملة برمتها ، وأصبح ما حول قصر الناصر في مدينة الزهراء أعشابا مخضرة ، مراعى للشيران .

كانت قرطبة القرن العاشر صنوب بغداد ، فيما يرى ابن حوقل ، ولم يجد لها في مصر أو الشام شبيها ، ويختلف المؤرخون المعاصرون في عدد سكانها ، فبعضهم يتجاوز به المليون ، ويهبط به آخرون إلى مائة ألف ، وفي غيبة



لوثائق المقاطعة كل شيء محتمل ، ولو أن الرقم الأدنى يبدو غير معقول ، لأن قرطبة الآن تضم من السكان مائتي ألف ونيفا ، وكان إمتدادها مدينة ، ومركزها عاصمة ، يجعل منها في العصر الوسيط أضعاف أضعاف ما هي عليه الآن. وإذا استخدمنا الأرقام ، وما لدينا منها كاف لإلقاء ضوء على حجم المدينة ، قلنا : كان بها ٣٨٧٧ مسجدا في رواية . و ٢٨ ربضا ؛ و ٩١١ حماما ، وطبقاً لإحصاء تم بأمر المنصور بن أبي عامر في نهاية القرن العاشر ، كان فيها ٠٧٧ ر ٢١٣ داراً يسكنها العامة ، و ٣٠٠ ر ٦٠ بيت يسكنها الخاصة وكبار الموظفين ، و ٤٥٥ ر ٨٠ دكانا ، ولا يدخل في هذه الأرقام البيوت المؤجرة ، ولا الحمامات ولا الفنادق ، وسبعون داراً للكتب .

وكان يطلق على الجانب القديم من قرطبة اسم « المدينة » مرسلًا ، أو « المدينة العتيقة » أو « القصبة » ، ويحيط به سور يرمم من حين من لآخر ، وتقوم عليه عدة أبواب ، أهمها : باب القنطرة ، ويقوم على مقربة من المسجد الجامع ، ومن قصر الخلافة ، ويربط المدينة بربض شقنودة ، أو كان الحكم الأول ( ٧٩٦ - ٨٢٢ م ) قد أمر بهدمه وتحويلاه إلى مقبرة ، بعد أن تزعم سكانه ثورة عليه عرفت باسم « فتنة الربض » . وباب الوادي أو الجزيرة ، وفيها يقول البكري كان عليه تمثال لمريم العذراء ، والباب الحديد ، وباب طليطلة ، ويطلق عليه أيضاً باب رومية ، على حين كانت العامة تسميه باب عبد الجبار ، نسبة إلى عبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة المشرق مروان بن الحكم . والباب الرابع في الشمال الغربي ويسمى باب ليون أو باب طليطلة أو باب اليهود ، واستتبح بعضهم هذا فكانوا يطلقون عليه باب الهدي ، والأبواب الأخرى توجد في الجانب الشرقي ، وهي : باب عامر ، أو باب الحوز ، ويسمى باب بطليوس أيضاً ، وباب إشبيلية أو العطارين ، وعلى مقربة منه كان يوجد مصنع سبك العملة ، ويطلق عليه اسم « دار الضرب » : وكانت عدة دور الرعايا والسواد الذين يسكنون داخل السور ١٢٣ ألف دار ، حاشياً دور الوزراء وأكابر الدواوين والبياض .

غير أن المدينة ، وبخاصة منذ القرن التاسع ، بدأت تفيض بسكانها نحو أحياء جديدة بين الجانب الأيمن والمنطقة التي تبدأ من باب عبد الحبار وتمتد حتى الكولية ، وتسمى الشرقية ، أو الجانب الشرقي ، وما زالت تعرف باسمها العربي حتى يومنا هذا في شكله الإسباني الحديث Ajarquia ، ( في الإسبانية القديمة Axerquia ) ، ومنها يبدأ الطريق الموصل إلى مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر .

وفي أقدم مخطط وصلنا لمدينة قرطبة ، ورسم عام ١٨١١ م ، نلتقى بعدد من المعالم العربية وبخاصة ما اتصل منها بالحى التجارى مثل : القيصرية ، وهى سوق الأقمشة ، وتتفرع منها على الطريقة القديمة شوارع : الخزازين والحبازين والحياطين ، والصفارين . ونلاحظ أن حى الشرقية الحديث احتفظ بعدد من الأسماء الشوارع العربية ، في صورتها العربية أو مترجمة إلى الإسبانية ، وترتبط بنشاط تجارى أو صناعى كان يشتهر به الشارع في قرطبة العربية ، فهناك شارع الوراقين Librerias ، والحلالين vinagrerros ، والحبالين Los Cardoneros والحياطين Alfayatas ، وزقاق الحدادين Herradores ، وأسماء أخرى كثيرة . وبقي القليل في صورته العربية ، كالمحور الذى تلتقى عنده عدة شوارع صغيرة ويسمى الزنيقة Azonaica ، أو ميدان المغرة Al gra ، وشارع الساقية Accquia ، وزقاق عائذ calleja Aixa ، وغيرها .

وكأية مدينة إسلامية في العصور الوسطى لها حى وسيط يشغله أرباب التجارة ، ويرتبط بشوارع تتصل بأبواب المدينة ، وبأحياء أخرى يعمل فيها أصحاب الحرف ويعيشون أيضا . وإلى جوار السور ، حيث يتيح الحلاء أرضاً واسعة لمن يريد ، تسكن الطبقة العليا في بيوت متسعة أكثر منها مرتفعة ، تطرقها حدائق غناء ، ومع ازدياد السكان بدأ الناس يبنون بيوتهم خارج الأسوار ، على نحو ما أشرنا ، وبدأ ما أطلق عليه اسم « الربض » ، وهى كلمة

أخذت طريقها إلى اللغة الإسبانية لفظاً ومعنى ، مع تحريف يسير ، فأصبحت Arrabal والكلمة مستخدمة في لغة الحياة اليومية حتى يومنا ، وقد ينتقل السور مع الحى الحديد ، وقد تتعدد الأرباض ، على حين أن الأصل ، وهو ما بين الأسوار القديمة ، ظل يعرف باسم المدينة ، ومع الزمن أصبح كل ربض مدينة مستقلة ، له حياته ومتطلباته الخاصة ، وأورد لنا ابن بشكوال قائمة بأرباض قرطبة ، وكانت تبلغ في روايته ستة وعشرين ، وقد اندثرت هذه الأرباض اليوم ، وقامت على أنقاضها مزارع وحدائق . ولم يكن امتداد المدينة يخضع لتخطيط من الدولة ، وإنما ترك للمبادأة الشخصية ...

ويخترق المدينة شارع كبير ، طويل وعريض ، يطلق عليه اسم : « السكة الكبرى » أو « المحجة العظمى » ، وسوف يصبح مثل هذا الشارع من معالم قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، كبرت أم صغرت ، وحتى الآن ، بعد أن ترجم حرفياً إلى اللغة الإسبانية. فأصبح Calle mayor . ويطلق على الشوارع غير الرئيسية اسم « زقاق » ، ويؤدي الزقاق وهو متعرج وضيق إلى « درب » ، ويكون هذا مسدوداً عادة في نهايته ، وانتقل اللفظ بصورته العربية إلى الإسبانية Adarve . ومجموعة الشوارع تصبح « حومة » أو « حارة » ، ودخلت هذه إلى اللغة الرومانشية في صورة مصغرة على الطريقة الإسبانية Harella ، وتحمل الحارة أو الحومة اسم المسجد الخاص بها ، والذي يؤدي فيه سكانها الصلاة . ويتوسط الشارع مجرى مركزى محدد ، ومغطى أحياناً ، تصب فيه المياه القنطرة ، ومياه المطر ، ويقوم على تنظيفه عمال من قبل الدولة ، يدقون الأجراس قبل عملهم تنبيهاً للسارة كي يتعدوا ؛ أما الزبالة فكان موكولا أمرها لسكان الحى أنفسهم ، يستأجرون من يحملها خارج المدينة . وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة ، التي تضاء من بيوت تقوم على جانبي الشارع ، وذلك « على حين لم تكن تتمتع بمثل هذا لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ ، وبعد ذلك ( م ٣ - ابن حزم )



يقرون كان النبي يجرؤ على الخروج من عتبة بيته في باريس في يوم مطير  
يخو بص في الوجع إلى عقبه .

وكانت قرطبة ، شأنها في ذلك شأن أية مدينة أندلسية كبرى ، تضم  
خارج أسوارها حدائق واسعة ، يطلق عليها اسم : « الشريعة » ، مخضرة  
و ذات بحماثل ، وتستخدم لأغراض عديدة ، ففي جانب منها يقام السوق  
الأسبوعي ، وفي آخر مصلى لإقامة الصلوات في الفضاء ، وبخاصة في  
الأعياد والحفلات الدينية ، وإلى جانبها الحور ، طريق ممتد تحفه الأشجار  
العالية ، ويتمخذه المتزهون والعشاق والمتبطلون ملتقى لهم . وخارج أسوار  
المدينة كانت المقابر أيضا ، وعليها يتردد السكان رجلا ونساء ، ليزوروا  
مقابر أسلافهم ، ولتكون قبل ذلك وسيلة الإلتقاء ، حيث يلتقى الأصدقاء ،  
وتتبادل السيدات آخر الأنباء والإشاعات ، وحيث تتاح الفرصة للعشاق  
أيضا .

وكان للمخاض ، أو الطبقة العليا ، بيوت ريفية ، تقوم وسط جنان  
متدة وعامرة ، يطلق عليها اسم « المنية » ، وإذا كبرت جداً واتسعت  
أطلق عليها اسم « حير » ، وتفتح عادة في وجه الراغبين من عامة الشعب ،  
وأشهرها في قرطبة « حير الزجالي » ، وتتملكه أصلا أسرة بربرية ، وتميز  
بأنه كان يفتح في وجه الهامة من المثقفين والأذكفاء وأصحاب الذوق الرفيع  
فيحسب . ويعرف من هذه البيوت الفاخرة « منية نصر » ، نسبة إلى الفتي  
الصيقلبي نصر ، وكان نصيبا ، وموضع ثقة عبد الرحمن الثاني ، وبعد  
موته المأسوي صادرها الأمير محمد ، ومنحها زرياب المغني ليسكن فيها ،  
وحفظ لنا ابن حيان في كتابه « المقتبس » قصيدة ليحيى الغزال يسجل  
فيها الحادث والمناسبة ، وفيها أيضاً كان ينزل السفراء القادمون في مهمات  
لدى عبد الرحمن الناصر .

وخارج المدينة تقوم « المشافي » للمرضى الذين يستعصى علاجهم ، أو

يبطله ، أو منصابين بأمراض معدية ، في حى قائم بنفسه يطلق عليه :  
« ربض المرضى » ، ويقع قريباً من « منية عجيب » ، وتقوم عليها جماعات  
المتطوعة إشرافاً وإتفاقاً ، مما تتلقاه من أهل الخير ، أو تما يوقفت عليهما من  
مال أو أرض أو عقار .

ومن معالم قرطبة المسجد الجامع ، ولا يزال قائماً بعد ألف عام من  
بنائه ، يطاول الزمن ، ويقاوم الحن ، والإمام بتاريخه ، والوقوف عند  
أوصافه ، يخرج بنا إلى إطناب ليس هنا مكانه . وقد ترك لنا الشريف  
الإدريسى ، وهو أندلسي من سبته ، وتوفي عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٦ م ،  
وصفاً له ، شاملاً ودقيقاً ؛ في كتابه : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ،  
كما أن المقرئ جمع في كتابه « النضح » نصوصاً عديدة متصلة به .

وعندما يهبط المرء من أعلى المدينة ، سالكاً طريق « الحججة العظمى » ، ويمر  
بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، ينتهي إليه الأمر إلى القنطرة القائمة على  
نهر الوادي الكبير ، وهي قديمة وشهيرة ، ويقال إن الإمبراطور الروماني  
أغسطس أول من أمر ببنائها ، وما تزال قائمة حتى يومنا هذا .

وعلى جانبي النهر كانت تقوم التواعير ، والطواحين التي تعمل بقوة  
اندفاع الماء ، وأمكنه الصلاة في الهواء الطلق ، ومكان متسع يعلق فيه  
المحكوم عليهم بالصلب .

● المهنة والحرف :

في القرن العاشر ، وتحت مظلة شاملة من الأمن والسلام ، لكل الأرض  
وكل الناس ، بلغت قرطبة قمة الازدهار الاقتصادي ، وتحولت المدينة إلى  
حاية عاملة ؛ تقوم على التخصص في المهنة ، والتعاون فيما بينها في الوقت  
نفسه ، فكانت هناك مهنة كثيرة ، وحرف متعددة ، تتغل الحياة أكثر  
سهولة ويسراً وإمتاعاً .

كانت هناك أفران عامة وكثيرة ، توجد في كل شارع مهما صغر ، وأحصيت في قرطبة المعاصرة خمسة شوارع يحمل كل منها اسم فرن Horno ، مضافاً إلى صاحبه أو منشئه ، ويرسل الناس بنخبهم إليها ، ولكل فرن صبي معين يمر بالبيوت في ساعة معينة ، يحمل منها الخبز عجينا ويعود به مستويا ، ويتلقى أصحاب الأفران أجرهم عجينا ، فيصنعونه خبزا ، ويبيعونه بدورهم لمن لا عجين عنده . وفي كل حي شارع يتميز بالحوانيت الخاصة ببيع الطعام والشراب ، من خضري وجزار وفاكهى وبقال وعطار وسماك . وإلى جانبهم من يقوم بالطبخ أو الشراء ، أو عمل الحلوى ، لمن يحب وعلى مرأى من طالبه ، وما يجري في الشارع موضع رقابة كاملة من الدولة ، نظافة وصناعة وسعرا .

وتنظم الدولة صناعة النسيج والاتجار فيه وتراقبها ، وكانت تحتل جانبا هاما من نشاط الناس ومن اتساع المدينة ، فتشغل حيا كبيرا يسمى « الطرازين » ، وتفتح في أطوارها المختلفة ، من نسج وصبغ وتطريز وتفصيل ، الباب واسعا أمام آلاف العمال ، وثلثهم من الصبيان الراغبين في التعليم والتدريب . وجمهرة العاملين فيها من المسلمين المولدين ، ومن المستعربين المسيحيين . كانت الأقمشة تباع نسيجا لمن يحب ، أو ملابس جاهزة ، وكان سوق خاصة بها يطلق عليها اسم « السقاطين » ، وهي لفظة انتقلت إلى الإسبانية لتؤدى المعنى نفسه ، وما زال سوق « السقاطين Zactin » قائما في غرناطة ، وزرته مرارا ، تجدد النسيج ، وتعددت الألوان ، وتغيرت أنواع الملابس ، ولكن الحى ، حياة وتقاليدا ، لم يبعد كثيراً عما كان عليه بالأمس . وكانت الرسوم متأثرة في جانب منها بالرسوم الفاطمية ، أو القبطية المصرية ، وقد غزا النسيج المصرى قرطبة ، وشاع فيها ، وعرفت باسم « القباطى » .

وعلى هذا النحو من الاتساع كانت صناعة الجلود ، صباغة وعملا ، وبلغت في قرطبة شهرة عالمية في العصر وسيط ، حتى أن الكلمة الفرنسية



الخاصة بصانع الأحذية Cordonnier أخذت من لفظ قرطبة في صورته الفرنسية Cordoue ، وتخضع هذه الصناعة بدورها لرقابة الدولة ، وتنعكس في أشكالها وألوانها ، فضلا عن الدقة ، قدراً من الترف المصقول الذي كان لدى القادرين والأغنياء وعامة الناس .

وكانت الملابس الملكية ، وما تحتاجه دار الخلافة ، والهدايا التي يمنحها الأمير أو الخليفة ، تتم في مصانع خاصة ، متصلة بالقصر ، يطاق عليها « دار الصناعة » ، وترسم وتزخرف في عناية بالغة ، ويكتب عليها بأحرف من ذهب اسم الأمير ، أو الخليفة ، المهدى لها .

وبلغت صناعة الفخار ، إلى جانب صناعة الزجاج ، قدراً عالياً من التقدم ، وعثر في حفائر مدينة الزهراء على بقاياه منه تؤكد هذا التقدم ، وأول من اكتشف أسرار صناعة الزجاج قرطبي من القرن التاسع ، عباس بن فرناس ، وهو شاعر أيضاً ، وأشرف بنفسه على إقامة مصانعه وأفرانه في قرطبة .

ومع نهاية القرن العاشر بدأت قرطبة تحتل مكانة عالمية تفوق بيزنطة ، في صناعة الجواهر ، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة ، وفي تزيين الجلود ، وصناعة التماثيل من العظم والعاج والخشب .

ولم تكن في قرطبة مصانع كبيرة للورق أو الرق ، وكانت تعيش منها على ما تنتجه المصانع الكبرى التي أقيمت في شاطبة jativa قريباً منها ، وكان الورق ميسورا ورخيصاً ، والنوع الجيد منه يسمى الشاطبي ، ولا تزال شاطبة حتى اليوم مركزاً هاماً لصناعة الورق في إسبانيا .

ولا يمكن أن نرسم صورة صادقة للمناخ الذي عاش فيه صاحب « طرق الحمامة » ، ما لم نتحدث عن سوق الرقيق ، وليس هنا مكان دراسة الظاهرة نفسها ، وكانت من معالم المجتمع الإنساني حتى وقت قريب . فقد كان في قرطبة ، كما كان في غيرها من كبريات المدن ، سوق للرقيق تسمى

« المعرض » ، يعرض فيها الرقيق من رجال وإناث للبيع . وفيما يتصل بالإناث هناك صنفان : التميزات ويطلق عليهن اسم « مرتفعات » ، و« وحش الرقيق » . والبيضاوات منهن كن يعرضن طبقاً لمصدرهن : الصقلبيات ، ويوثى بهن من وسط أوروبا ، والإفريقيات وهن القادمات من جنوب فرنسا ، وإيطاليا ، ومنطقة قطاونية في شمال شرقي الأندلس ، والغاليسيات ، أو الجليقيات في المصادر القديمة ، وموطنهن شمال غربي الأندلس ، والبربريات . على حين يطلق اسم «السودانيات» على كل السوداوات ولم يكن هؤلاء بأقل احتراماً من البيضاوات ، فقد تميزن في أعمال البيوت ، والشئ نفسه يمكن أن يقال عنهن كعشيقات . والإفريقيات ، والصقلبيات القادمات حديثاً ، ولما يزلن يجهلن لغة وتقاليد من اشتراهن ، أغلى ثمناً من غيرهن . ويطلق اسم « قيمة » على التي تجيد الغناء والرقص ، ولما كان المجتمع القرطبي يهفو للشعر الجيد ، ويطلب للموسيقى الجديدة ، ويهتز للرقص الرفيع ، أكثر مما يعنى بألوان الفنون الأخرى ، فقد عظم شأن الجوارى الموهوبات المتعلمات وسمت قيمتهن . وقد كثر عددهن في قصر الخلافة ، ومارسن نفوذاً قوياً في الحياة الخاصة للأمير أو الخليفة ، والعامّة للدواة ، وكان يوثى بهن في البدء مدربات من المشرق ، وفيما بعد ، حين أقام زرياب عدداً من معاهد الموسيقى في الأندلس ، كان الإعداد يجري في قرطبة نفسها .

### • الحياة الخاصة :

وتقيم الأسرة في بيت ، والأب صاحب الكامة فيه ، وداخل البيت لا صلة له بالشكل الخارجي ، فإذا كان المظهر الخارجي متواضعاً ، فإن الداخل يمكن قدراً كبيراً من الرفاهية والترف ، ويعادل الزوج زوجته باحترام شديد ، والعكس صحيح ، وبخاصة أمام الأبناء ، وهؤلاء يوقرون أباهم ، لا يقتربون منه إلا بقدر ، ولا يتحدثون بحاسه إلا بإذن ، وعندما تسكن

الأم مع ابنها المتزوج ، تصبح المسئولة عن اقتصاد البيت ونفقاته . وتعدد الزوجات نادر بين الفقراء والطبقة الوسطى ، ويحدث أحياناً حين لا تكون الزوجة جذابة أن يشتري الزوج جارية بيضاء أو سوداء ، تعاون في أعمال البيت ، وترضى رغائبه حين يحب ، ويمكن أن ينجب منها ، وتصبح أم ولد ، ولا يجوز للرجل أن يبيعها حينئذ ، وتحصل على حريتها يوماً ، بعد موت زوجها . ومنذ زمن مبكر جداً يعرف الأطفال بالدقة ما تعني العلاقة الزوجية ، فإذا بلغوا سن الحلم ، كان نضجهم العاطفي كاملاً ، وليسوا في حاجة إلى أية إثارة .

ويقوم الأب بشراء متطلبات البيت ، وحين يذهب إلى عمله تتنفس الأسرة الصعداء ، وتستأجر البيوت المقتدرة خادماً ، ومن بين الوثائق التي وصلتنا صورة لعقد بين أسرة وخدام ، يحدد الحقوق والواجبات : كان عليها العجن والخبز وعمل الطعام ، والتنظافة وترتيب الأسرة ، وإحضار الماء ، وغسل الملابس ، والخياطة . ويدفع أجرها سنوياً إلى جانب الغذاء والإقامة والملابس .

أما في بيوت الخاصة فتلتقى ، طبقاً لمستوى الزوج الاقتصادي ، بعدد من الزوجات ، وسحابة من الجوارى ، سود وبيض ، وحاشية من الخصيان تحت رئاسة «قهرمان» ، وثمة رئيسة للخدم في بيوت العلية تسمى «قهرمانه» . يعمل تحت إمرتها الخادמות والطباخات والحاضنات ، وكان يطلق على الأخيرات اسم «الرشيدات» ، ويتوزع على بيت متسع ؛ كثير الحجرات ممتد الحديقة ، وفي غيبة الأب تسمع المناقشات الصاخبة بين هذا العديد من البشر ، على حين يلعب الأطفال في الأبهاء أو الحديقة ، ولكن ما إن يصل رب البيت حتى يسترد المنزل هدوءه كاملاً ، هدوء يمزقه من حين لآخر نخطو الخدم الأصم ، أو وشوشة النوافير الناعمة ، أو هديل الحمام الغرد . إنها اللحظة المخصصة للراحة ، أو الاسترخاء ، أو المتعة . والجانب المخصص للأسرة لا تكاد تقع عليه عين الغريب ، فمقابلات الزوج لأصدقائه ،

أول العمل ، أومع الباعة ، ، تم في غرفة توجد عند مدخل البيت ، ومخصصة لمثل هذه المقابلات . والبيت مملكة تكاد تكون مستقلة ، وتبلغه أخبار الشارع ، وما يجري في البيوت الأخرى ، من فضائح وجديد في الأزياء ، موشاة بالزيادة والأكاذيب .

وتجرى الحياة في البيت رتيبة ، يوماً وراء آخر ، عمل وتنظيف ، وتهيئة كل وسائل الراحة لربه أولاً ، ولمن فيه أخيراً وكلهم سعداء ، لا أحد يشكو سوء الحظ ، ومن حين لآخر تقوم الزوجة بعمل ما يدفع الحسد أو الشباطين عن البيت . وقل ما تخرج الأسرة للنزهة ، فليدبرها بستانها وكثير ما تخرج لزيارة أصدقائها ، وتخرج إلى الهواء الطلق في الأعياد الدينية والقومية ، وتقوم بزيارة أسبوعية للمقابر للصلاة على أرواح الناهبين من الأهل ؛ وتذهب مرة أو مرتين إلى الحمام ، إذا لم يكن لديها حمام خاص ، وهي فرصة ذهبية للسيدات لكي ياتقنن ، ويتبادلن آخر الإشاعات ؛ سوياً وبعيداً عن أية أرقاب .

وتتركز الأحداث الهامة في حياة الأسرة في ثلاثة : الزواج والإنجاب والموت . وفي الحدث الأول يكون الاحتفال كبيراً وبهيجاً في بيت العروس ، ويتكاف نفقات طائلة ، مما أدى إلى حملة قوية من الفقهاء على ذلك النمط ، وتشغل حفلات الزواج أسبوعاً كاملاً ، وترك لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » وصفاً لحفلة كهذه جرت في الشارع ، وهو منظر يسعد المارة ، والفارغين من العمل وما كان أكثرهم في قرطبة . وتم عملية الوضع على يد القابلة ، وتستدعى الطبيبة في الحالات المستعصية . وكانت تتقاضى أجراً عالياً . وتقوم على الطفل حاضنة خاصة في بيت أبيه ، إذا كان مقتدرًا ، وفي حالات كثيرة يعهد به إلى قروية تحمله إلى الريف ، ويبقى معها حتى الفطام ، ووصلتنا عقود تحدد الشروط الواجب توفرها في الحاضنة وأهل الطفل ، فكان على الأب أن يدفع للحاضنة راتباً شهرياً وملابس ، وعابها إرضاع الطفل ونظافته جسمًا وملبسًا ، وتقام « العقيقة »



في اليوم السابع ، وتأخذ شكلاً يرتبط بمستوى الأسرة الاقتصادية ، حينئذ يخلق شعره للمرة الأولى ، ويأخذ الطفل اسمه ، ويستخدم مصغراً تدليلاً له ، وتأصلت هذه العادة في الأندلس ، وتخلفت بعد جلاء الإسلام والمسلمين عنه ، فهي شائعة حتى يومنا هذا ، وغالباً ما يطلق عليه اسم جده ، أو الجد الأعلى للأسرة ، أو اسم أشهر شخصية فيها . وفي هذا اليوم تعطى له كنيته أيضاً ، وحين يكبر سوف ينادى بها في الأسرة أكثر مما ينادى باسمه . ويطلق على الفتاة اسم إحدى شهيرات الإسلام في أيامه الأولى ، وكنية أيضاً تنادى بها ، مثل : أم كلثوم ، أم الحكم ، وهكذا . ومنذ القرن العاشر بدأت قرطبة تتخلى عن هذا التقليد المشرقي لتعطي أسماء وصفية للفتيات الحرائر ، وكانت قبل وقفاً على الجوارى فأصبح لدينا أسماء مستمدة من الزهور ، ونعرف للمنصور بن أبي عامر ثلاث بنات كانت أسماؤهن : بهار ، ونرجس وبنفسج .

وكانت حفلات الإعذار للذكور كبيرة ، والعادة أن يجمع المقتدر اقتصادياً عدداً من الأطفال من المستوى الاجتماعي لطفله ، أودونه ، لكي يعندروا معه ، وتم الحفلة للجميع ، ويتولى نفقاتها بمفرده . وعلى العكس ، كان تشييع المتوفى ودفنهم يتم في ظروف بسيطة ، وطبقاً لأحكام المذهب المالكي ، ويدفن في أقرب مقبرة إلى بيته ، وبعضهم كان يعد شاهداً يوضع على قبره ، لا يضاف إليه غير تاريخ الوفاة واسم المتوفى ، ويتضمن بعض الآيات القرآنية المناسبة ، ودعوة لمن يقرأه أن يطلب الرحمة لصاحبه وأن يقرأ الفاتحة لروحه ، يضم متحف قرطبة الآن عدداً من هذه الشواهد . .

ولا يتميز البيت ، عادة ، في خارجه عن بقية البيوت حوله ؛ سواء أكان في شارع عام أم درب نافذ ، ولابيت باب بمفتاح من خشب غالباً ومن حديد قايلاً ، ويفتح في أسطوانان ، أو سقيفة ، ومنها يمتد مسر ينتهي إلى صحن البيت ، وتوجد فيه بشر وأشجار وظافة ، ونظاً عليه

تقاعتان كبيرتان ، ويحتوى البيت على مرفق ، ومطبخ متسع يؤدى إلى الضحن ، ويتكون البيت ، بعمامة ، من دورين على الأقل . ولا يضم ، غالباً ، غير أسرة واحدة ، والفقراء جدا قد يضطرون إلى تأجير بعض غرفه ، أو يشاركون فيه أسراً أخرى ، وهو أمر نادر ، ويصبح موضع تندر وعتب وتعيير من الجيران .

ومنازل الطبقة الوسطى متسعة ، وتبنى فى الأحياء المفضلة ، ويتوسطها صحن رحب ، يضم ما يشبه أن يكون حديقة صغيرة من الأزهار والرياحين ، وأشجار الفواكه أحياناً ، وتمتد عبره قنوات لتوزيع المياه التى تستخرج من البئر ، على حين تمتد مجار أخرى ، بعيدة عن الأولى ومغطاة ، تحمل المياه القذرة إلى مستودعها الذى يوجد فى منتصف الشارع .

وبيوت الطبقة العالية تفصل بينها جنان واسعة ، والممتد منها . يسمى « حيرا » والجنان ، وهذه مشمرة ، ومثلها « المنيات » القائمة على ضفاف النهر الكبير .

وفى أى بيت توجد حجرة استقبال ، تضم أثاثاً يسهل نفاه من غرفة إلى أخرى ، والأرض مغطاة بالحصر فحسب ، أو بالحصر وفوقها السجاد ، تبعاً لمستوى الأسرة ، وتغطى الجدران بأقمشة منسوجة من الصوف ، عليها مناظر جميلة ، وتسمى « الحائطى » ، وتحتها ديوان قليل الارتفاع ، فوقه المراتب وعليها الوسائد معتمدة على الحائط ، محشوة قطناً ، ومزخرفاً ظاهراً بالرسوم ، وفوق المراتب تتناثر المخدات المدورة ، والأرائك المتخذة من الجلد ، ويستخدمون المقاعد ذات الحشايا ، وتضم بحجرة النوم سريراً عليه فراش مغطى ، وألحفة محشوة صوفاً .

ويضم مطبخ كل بيت خزين أغذية ، من دقيق وزيت وعسل ، وفواكه جافة ، ولحوم مقددة ، وتحفظ أواني من الزجاج أو الفخار .

وتضاء البيوت بالشموع والتباديل ، وتستخدم التريات في بيوت الأغنياء ، وتم التدفئة في الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن ، عبر احجرات ، في أنابيب من الفخار ، على حين يستخدم الآخرون المواقد العادية . أما في الصيف فيواجهون الحر برش الصحن جيدا بالماء ، وأكثر من مرة في اليوم .

وترك لنا الأندلسيون أكثر من كتاب في الطبخ ، وتحدث عن مطابخ ثلاثة : أندلسي ، ومسيحي ، ويهودي . وطرائقه متعددة ومعقدة ، وتخضع المائدة لنظام صارم ، فلا بد أن يكون هناك تناسق بين الألوان التي تقدم . ويقوم على إعداد الطعام في بيوت الطبقة الراقية طبّاخون محترفون ، من السود غالباً ، وتزخر المائدة بألوان عامرة من الحلوى ، ما بين محشو بالزبد أو اللوز ، وشهر من بينها نوع من الفطير المحشو جبناً ، ويسمى « المجبنات » ، وكان للدينا وشائغدا ، واحتل من الشعر الأندلسي مكاناً ، وتختلف في الإسبانية إعداداً ومادة واسما Almojabanas ، ويصفها ابن الأبار :

بنفسى مثلجات للصدور لها سمتان من نار ونو  
حوامل وهى أبكار عذارى تزف على الأكف مع البكور  
كبر د الطل حين تذاق طعماً وفي أحشائها وهج - الحرور  
لها حالان بين فم وكف إذا وافتك رائحة - السفور  
فتغرب كالأهلة في لهاة وتطلع في يمين كالبدور

وعلى المائدة يستخدمون المنعق ، ويشربون الماء معطرا بالزهر أو الورد ، ويأكلون الفواكه كثيرًا من عنب ورمان ، وبطيخ وتفاح .

وفيما يتصل بالملايس كثير منها مشترك بين الرجال والنساء ، فكلهم يرتدى فوق البدن قميصاً من الصوف أو القطن ، وبراويل ( دخلت اللغة

الإسبانية في صورة ( Zaraguelles ) طويلة وضيقة ، ولا تتجاوز الركبة ، ويمكن أن تحمل الجلابية البيضاء محل القميص ، وهو مزخرف إلى حد كبير . وتضاف « المحشاة » في الشتاء على هذه الملابس الخفيفة ، للرجال والنساء ، وهي فرو ثقيل يتخذ من جلد النعاج أو الأرانب ، ويلبس في شكل جلاباب . والأطفال من الجنسين ملابسهم على هذا النحو ، ويضعون جوارب في أقدامهم ، وتتخذ من الصوف ، وتصل إلى الركبة . ويأتي فوقها الخداء ، خفما في الشتاء ، وصندلا في الصيف ، ويسمى هذا في الأندلس « القرق » ، ودخات الكلمة إلى الإسبانية في صورة Alcorque . ويميز غطاء الرأس الرجل من المرأة . فالأول يغطي رأسه بكوفية أو شاشية ، على حين تضع المرأة على وجهها خمارا .

ويرتدى أبناء الطبقة العالية الملابس الحريرية المطرزة ، وتصنع من الحرير الطبيعي ، وبلغ نسجه حداً عالياً من الإتقان ، نافست به قرطبة بقية بلاد العالم ، ومنه تصنع ملابس الحفلات ، والحلاليب الراقية . ذات النسيج الرقيق الشفاف . وبدأوا يستخدمون القلانس والطواتي . إلى جانب الطرطور ، وسوف يقلدهم في صنيعهم هذا بلاط مملكة ليون المسيحية في الشمال . وثمة ملابس أخرى ذات ترف ووجاهة ، ترتديها الطبقة العالية ، وأبرزها الحبة ، وانتقلت إلى الإسبانية في صورة Algupa ، والدراعة ، وتخلفت في الإسبانية adorra ، والمحشية Almexias . وسوف يتلاشى لباس الرأس تدريجاً ، لتصبح العمامة ، ابتداء من القرن الحادي عشر ، وقفاً على رجال الدين من العلماء والقضاة ، وبعض هؤلاء ردها لباساً . وكان البرنس ، وتخلفت في الإسبانية في صورة Albornoz ، في هذه الفترة ، وحتى مجيء المرابطين ، وقفاً على نساء الطبقة العالية عندما يسافرن على ظهور الخيل أو البغال . وكان زرياب المغني ، حين جاء الأندلس ، في الربع الأول من القرن التاسع الميلادي ، قد أحدث ثورة في عالم الأزياء ، إلى جانب الموسيقى ، ومراسم تناول الطعام ، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء ، فقد جعل لكل فصل من السنة ملابسها الخاصة به ، طبقاً



لمكانه من الحر أو البرد . فالملابس البيضاء للصيف . ، وجعل له بدءاً عيد «العنصرة» في الأندلس ، ويجئ في الأيام الأولى من شهر يونيو ، ويمتد حتى أول أكتوبر ، والملابس الملونة لبقية العام ، وجعل منها للربيع «جباب الخز والملمح والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البيض الظهائر، التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة» ، وأن يلبسوا في الخريف «المحاشي المزوية ، والثياب المصممة وما شاكلها من خفاف الثياب الماونة ذات الحشو ، والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد في الغدوات» ، فإذا قوى البرد ودخل الشتاء ينتقلون إلى أثخن منها من الماونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء» . وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بني أمية الأندلسيين ، فلما اتخذ ملبساً للصيف تراجعت عنه الناس إلى السواد .

#### ● الحفلات والأعياد والملاهي :

وتحتفل الأسر كلها بالأعياد الدينية . عيدي الفطر والأضحى ، وكان الصوم شائعاً ، إلا أولئك الذين لديهم رخص دينية ، وإذا جاء رمضان في الصيف ، وقرطبة حارة ، ترك أثره في الحياة العامة للناس ، فهم يصبحون من نومهم متأخرين ، ويخادون إلى الراحة ساعة الظهيرة حين يشتد الحر ، فإذا غربت الشمس ، وأفطر الناس ، عادت الحياة إلى الشارع بكل صخبها : تفتح المتاجر ، وتظل كذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ، ويبدأ الباعة المتجولون من حملة المشروبات الباردة وغيرهم في الطواف . وتضاء المساجد ليلة الإسراء على نحو خاص ، وتمتلئ بالعباد الخاشعين ، ومعها يتهيأ الناس للعيد ، وللعودة إلى الحياة العادية .

وفي عيد الأضحى يحرص الناس ، كل الناس ، أغنياء وفقراء ، على التضحية بكبش ، وكسوة الأولاد بملابس جديدة ، وتتم صلاة العيد في الهواء الطلق ، ويؤم المصلين قاضي الجماعة ، أو صاحب الصلاة ،

وتتضمم الرجال وكثيراً من النساء ، وبعدها يعود الجميع إلى المدينة لتبادل التهاني .

ولم تعرف قرطبة حتى نهاية القرن العاشر الاحتفال بالمولد النبوي ، ذلك شيء سوف يجيء فيما بعد ، ولكنها كانت تحتفل ، وعلى نحو بسيط ، بعيدى « النيروز » و « المهرجان » ، ويشار إليهم في هذا مواطنوهم المستعربون : و « النيروز » فى أصله اليوم الأول من العام الشمسى فى فارس ، ومثلاً تأخذه العالم الإسلامى عيداً دخلته تغييرات كثيرة ، وكان يحتفل به فى الربيع ، فى اليوم المعتدل منه ، دون أن يرتبط ذلك بأول العام الجديد . وليس فيما بين أيدينا من مصادر ما يحدد تاريخ هذا اليوم فى الأندلس : أما المهرجان ، ويطلق عليه عيد العنصرة أيضاً ، فيقع فيما بين اليوم السادس واليوم الرابع والعشرين من شهر يونية . وكانت الأعياد ، وبخاصة عند العامة ، أمراً مرغوباً لكسر رتابة الحياة اليومية .

وتزدحم الشوارع ، ويجد فيها الكسالى والمتبطاون فرصتهم لتابعة السائرين ، وتأمل ما هو جديد ، على حين يحاول الباعة فى الشوارع القريبة من القيصرية ومن « السقاطين » ، أن يجذبوا إليهم الزبائن ، بأصواتهم العالية ، ونداء آتهم المسجوعة ، لحضور المزاد . وتلتقى فى الميادين العامة بأهل المدينة ، والقادمين إليها من الريف للشراء أو البيع ، أو لأشياء أخرى ، يلتفون حول « مهرج » تخفى فى شكل قروى ، وراح يقلد حركاته البسيطة والساذجة ، حين يواجه المدينة للمرة الأولى . وهناك من يعرضون ألعابهم على أنغام الموسيقى ، و « الهلوانات » ، والشعراء الجوالون ، ومن يعرضون خيال الظل . ومن يقرأون الطالع ، ومن يقصون الحكايات ، أو التواريخ ، أو شيئاً من السنة ، بصوت مرتفع . ويختلط ذلك مع أصوات السقائين ، وبائعى البخور ، وموزعيه ، واللصوص ، والقوادات . وقد يضطرب الأمن حين يقوم شجار بين اثنين ، أو حين يكتشف واحد سرقة حافظه نقوده ، ولكن ظهور واحد من رجال الشرطة كاف لكى يعود الهدوء ويتوزع الجميع .

وفي يوم الجمعة حيث تخرج النساء إلى المقابر ، وفي نزهاتهن الأسبوعية ، فإن الطريق إليها وإلى الحدائق يكون غاصاً بأناس من الجنسين ، وكلها تعبر القنطرة إلى ربض شقنودة ، ويلبس الفتيان خير ما عندهم ، ويبحثون عن المغامرات ، ويداعبون الفتيات الوحيدات بالكلمات الحلوة ، أمر يشبه ما عايناه حال قرطبة اليوم . وفي هذا المكان التقى الشاعر يوسف الرمادى بصاحبه خلوة ، وجرى بينهما حوار أورد لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » جانباً منه . ومع غياب الشمس يعود الجميع إلى بيوتهم ، فإذا أقبل الليل لا يسمع في الشارع غير وقع أحذية الجنود الثقيلة ، ونخطى المتخلفين والساهرين .

وكان الفضاء المتسع خارج المدينة معداً ، إلى جانب عرض المحكوم عليهم بالصاب ، لاستعراض الجيوش في المناسبات العامة ، كقدوم سفير ، أو سفر الخليفة على رأس حملة ، وتقام هذه في الطريق الموصاة إلى مدينة الزهراء ، وكان ظهور الفرسان بملابسهم الزاهية ، على خيولهم الأصبيلة ، في خوذاتهم القوية ، تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطي ألف لون ولون ، يثير في الناس الحماسة والهجة والاطمئنان .

وكان من المتع العالية في مجتمع قرطبة صيد الطيور والأرانب العجبية ، ومن المهارة أن تصطادها قبل أن تنفق ليمنح الإفادة منها ، فتذبح ثانية بطريقة شرعية ، وتباع في المدينة . ويعمد الصيد هواية محببة للأمير وحاشيته والخاصة ، ويتحدث المؤرخون عن رحلات صيد طويلة على ظهور الخيل ، في الجبال والوديان المحيطة بقرطبة ، ويتم الصيد بالصقور ، وكانت تربيتها وبيعها تجارة رابحة ، ويقوم على أمرها في قصر الخلافة فتى يعنى بها ، يدعى « صاحب البزرة » ، وتركت المهنة أثرها واضحاً في اللغة الإسبانية ، ففي جنوب البرتغال قرية تحمل اسم « البزرة Alvayazere » ، وأشهر حتى في غرناطة ، وكان موطن المسلمين في آخر أيامهم بعد سقوط دواة الإسلام ، يدعى « البيازين Albaicin » .

وكان هناك الصيد بالكلاب في المناطق الوعرة المخضرة ، ذات الأشجار الملتفة والجبال العالية ، وبخاصة تحت سفح الجبل ، حيث تعقد حفلات صيد كبرى ، تصاد فيها الخنازير البرية والغزلان والأبول ، يطلقون عليها فصائل من الكلاب السريعة تثيرها ، وتدفع بها حيث تنتظرها الصيادون . ويمضي العاهل القرطبي ، أحياناً ، أياماً متصلة في الصيد ، وهو أمر كان موضع نقد العامة واعتراضهم .

ومن الألعاب المحببة للخاصة أيضاً لعبة الصولجان ، وهي قريبة من لعبة « البولو » الحديثة والورد ، وسباق الخيل ، والشطرنج (وجاء به زرياب من المشرق ، ولقى رواجاً كبيراً بين أهل قرطبة ، وأصبح من مظاهر الرقي الثقافي .) وكان القمار رغم تحريمه معروفاً ، ومعلوماتنا عنه قليلة للغاية بوصفه عملاً محرماً ، ونعرف من أوامر المنع أن لعبة الورد كانت شائعة ، وكان النساء يلعبن القرق .

#### • مباحج الحضارة وأمراضها :

وفي هذا القرن بدأت قرطبة تعاني الكثير من أمراض الحضارة ، ويكفي أن نلقى نظرة على كتاب « الطوق » لنجد ابن حزم يقص علينا الكثير مما يجري دون حرج أو إنكار ، ودون أن يلاحق أصحاب الأحداث بالسب واللعن ، كما هي عادة الفقهاء ، يذكر ما عرف في بساطة ، كما كان شيئاً عادياً ، لا مهرب منه ولا حيلة فيه . لقد فاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ما هو مقبول عرفاً وعادة ، ولم يعد حب المرأة ، رغم شيوعه ويسره ، كافياً وحده ليوقف اندفاعهم ، من أي وسط كانوا إلى أية ذبقة انتموا ، عن اتجاه آخر تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعي ، أعنى الشذوذ الجنسي .

كان الحديث عن الغلمان والتغنى بجمالهم شائعاً يتعدى الشعراء إلى الحياة ،

ويعرض له المؤرخون دون إنكار أو تشنيع ، ولست أعتقد أن كل الذين تحدثوا عن الغلمان كانوا يمارسون هذه العادة الشاذة ، ولو أنه ، في الوقت نفسه ، لا يمكن أن نقلل من شيوع الظاهرة ونخطورتها . وتخلو المصادر من إشارات إلى أحداث وقعت من عامة الناس ، وهو أمر طبيعي ، فالتاريخ الوسيط قلما ما يتوقف أمام هذا القطاع من المجتمع ، وعلى النقيض ، يقدم لنا قائمة طويلة بشخصيات هامة في شتى مجالات الحياة في قرطبة ، أورد لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » مثلاً صارخاً لها : قصة أحمد بن كليب ، وسنعرض لها في دراسة خاصة ، وهي قصة تمس شخصية هامة ، أسرباً وثقافياً واجتماعياً ، في المجتمع القرطبي ، وشاعت حتى بلغت المشرق فأوردها ياقوت الحموي ، ( ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م ) ، في كتابه « إرشاد الأريب » ، وجاء بها في تفصيلات وافية داود الأنطاكي ، ( ت ١٠٠٧ هـ - ١٥٩٩ م ) في كتابه : « تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق » : وكان ضحايا هذه الفعلة الشنيعة ، عادة ، من الخصيان وصغار الموالى ، في قصور الأمراء وبيوت الأشراف ، ولم تكن قرطبة أيضاً تخلو من فتيان مخنثين ، يقدمون خدماتهم لأفضل طالب ، وأعطانا ابن عبدون وصفاً للمخنث في رسالته عن الحسبة بأنه « الذي يقامد النساء في ملابسه وصوته » .

وعرفت المدينة بيوت « الحظوة » ، وزبائنها من دهماء المدينة ، ومن الريفين الذين يهبطون العاصمة للبيع أو الشراء أو لقضايا أخرى ، وتسكن العائلات فيها الخانات ، ويدفعن ضرائب للدولة ، وتسمى الواحدة منهن في لهجة الأندلس « خراجية » ، ويطلق على بيوت الدعارة نفسها « دار الخراج » ويسمى ابن عذارى « دار البنات » . ولاتكاد المصادر تشير إلى شيء ~~يتصل~~ بانحراف العاطفة عند المرأة ، وممارستها الحب مع امرأة أخرى ، وقياساً يمكن أن نتصور أن هذا حدث ، وكتب الفقه الأندلسي المفصلة تشير إليه ، وتراه محرماً ، ولانعثر له على صدى في دواوين الشعراء ، أو كتب المؤرخين ، باستثناء أبيات من الشعر أنشدها أبو الصات ، أمية عبدالعزيز الداني ، المتوفى ( م ٤ - ابن حزم )



عام ٥٢٩ هـ - ١١٣٤ م ، وفيها عرض للمساحقة مباشرة . وكان الصمت فيما يبدو لي تخرجاً وليس جهلاً ، لأن العماد الأصفهاني في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » أتى بهذه الأبيات في القسم الخاص بالمغرب ، وحين طبع للمرة الأولى في تونس في أوائل هذا القرن ، حذف منه الطابعون هذه الأبيات .

وكان الحصول على النبيذ والشراب حتى السكر ميسوراً ، ومنذ القرن التاسع الميلادي أصبح ربح شقنندة يضم سوقاً نافقة للنبيذ ، يستأجرها واحد من المستعربين ، وقد أغلقت مدة ثم أعيد فتحه ، لا يدره على الخزانة العامة من دخل ، وكان يمد الخانات المسموح بها ، والتي تعمل في خفاء ، بما تحتاج إليه من أنواعه المختلفة ، ويتردد على الخانات المستعربون المسيحيون والمسلمون غير الطيبين ، ونفهم من إشارات الشعراء أن ثمة خانات كانت تقوم على مقربة من الأديرة المسيحية خارج المدينة ، يقدم فيها الطعام والنبيذ أيضاً . ومن الشائع أن يتردد على هذه الخانات المخنشون ، والنساء من ذوات السمعة السيئة ، يقضين الليل مع نشوة الكأس وفي حمياها ، وكان ذلك موضع هجوم دائم من الفقهاء ، وملاحقة مستمرة من رجال الشرطة ، وظل الصراع عنيفاً بين سلطان هؤلاء وذكاء الشاربين ويتعرض الشارب للمتابعة والعقاب حين يكون الأمر علانية ، ويمس الأخلاق العامة ، ويعذر من يضبط سكراناً بالحد الشرعي المعروف ، غير أن المتابعة لا تمتد لما يجري في البيوت ، بيوت العامة والخاصة على السواء ، فهي بمنأى عن الملاحقة والرقابة . وكان المقتدرون في قصورهم ، أو بيوتهم الريفية في ضواحي العاصمة ، يستطيعون بالاحوف ، ودون حد ، أن يمتصوا مع أهوائهم شراباً ونساء حتى الثمالة . ولعل جانباً من المجتمع ، إلى جانب ضرورات البيئة ، كان يجد مندوحة فيما شهر عن أبي حنيفة النعمان أنه أباح شرب النبيذ ، وأوجز ابن عبد ربه صاحب «العقد» هذا الاتجاه في بيت من الشعر :

أ | ديننا ، في السماع ، دين مديني ، وفي شربنا الشراب عراقي

وفي مجتمع لم يعرف المسرح كان الرقص والموسيقى والغناء من أكثر مباحج الحياة شيوعاً في قرطبة القرن العاشر، وإذا صدقنا الشعراء ، أوحى بجانب مما يقولون ، لم تكن هناك حفلة ولا جمع ولا مهرجان لا يضم هذه الألوان الثلاثة . وترك لنا ابن حزم في « الطوق » ، وابن بسام في كتابه « النخيرة » وصفاً تفصيلياً شائقاً لبعض الحفلات التي كانت تقام في بيوت الحداة . في قرطبة وغيرها ، حفلات ما يكاد المدعوون فيها ينتهون من تناول الطعام على أنغام الموسيقى حتى يبدأ الغناء والرقص ، والعازفون من الرجال والنساء ، ولكن الفرق الجيدة الممتازة لم يكن يقدر على نفقاتها غير كبار الموسرين . وشهت من بين أنواع الرقص العديدة رقصة يرتدى فيها الراقصات ملابس الغلمان ، ويمتطين خيولاً صغيرة من خشب ، معلقة بأطرافها أقبية ، وطبقاً لنظام معين تأخذ الرقصة شكل معركة حقيقية ، يكرون ويفرون ويحاورن . ولم يكن الأمراء يترددون ، أحياناً ، في حضور حفلات أكثر بساطة : مجرد رقصة بالصاجات ، تتلوى على أنغام بوق ، ويطلق على هذه الحفلات اسم « سمر » ، وبقي لها الاسم حتى أيامنا هذه ، وأخذ صورة Samba ، ويحمله اليوم أعرق وأرقى مكان للرقص التقليدي في مدريد . واشتهر من بين الراقصات أولئك القادسات من مدينة قادس ، ولراقصات شهرة تاريخية عريقة ، ولهن من قديم قدرة فائقة على التشكل والإثارة . وقد أشار إليهن في قصائده الشاعر الرقيق ، الماجن والأنيق ، اللاتيني اللغة ، الإسباني الموطن ، مرسياى Marcial ، المتوفى عام ١٠٤ للميلاد ، ونعرف منه أن هؤلاء الراقصات كن موضع إعجاب روما عاصمة الإمبراطورية على امتداد القرن الأول الميلادي ، وأن قادس كانت تدفع بأعداد منهن على الدوام إلى روما ، فيلقين الحفاوة والحب ، وأصبحت رقصاتهن موطن التقدير والإعجاب ، رقصات تحرك نوازع الرغبة ، وتضل أقوى الرجال عفة في روما . وتحدث عنهن أيضاً الشاعر اللاتيني جوفينال Juvenal ، المتوفى

قريباً من عام ١٢٥ ميلادية ، ووقف طويلاً عند جمال غنائهم ، وإثارة رقصاتهم . وفي العصر الذي نعرض له ، شهرت مدينة أبدة Ubida ، في كورة شاطبة ، على مقربة من قرطبة ، « بالرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خلق الله » .

• الثقافة :

باستثناء حالات نادرة يكون فيها الأب دون أن ينتسب في أية طبقة اجتماعية ، وفي ظروف بائسة للغاية ، فإن الأب يقدم لأطفاله ، بنين وبنات ، تعليماً ابتدائياً منذ صغرهم ، إذا كان ميسوراً يأتي لهم بالمدرس إلى البيت ، وإلا أرسل بهم إلى « الكتاب » الأقرب إلى مسكنه ، وتخضع هذه المدارس الابتدائية نظرياً لإشراف « المحتسب » ، وقل ما كان يزورها فعلاً . ويجمع المعلم ، أو المؤدب ، عدداً محدوداً من الأطفال في مكان صغير ، مفتوح على الشارع ، يطلق عليه اسم « المصرية » ، يدرس لهم بأجر برنامجاً معروفاً ، غير مكتوب ، تحدده التقاليد ، ويعقد محترم منه ومن ولي الطفل . وفي هذه المرحلة يحفظ الطفل جانباً من القرآن الكريم ، ويحفظ قصائد من الشعر ، ومقتطفات من النثر ، ويدرس شيئاً من النحو ، وقائلاً من الحساب ، والكتابة والقراءة على الطريقة « الجمالية » ، ويبدو أنهم لم تكن مقبولة من الكافة ، لأن ابن خلدون فيما بعد سوف يبسط آراء المعارضين لها ويفندها . ويدفع الأجر للمعلم ، في كتابه أو جاء إلى البيت ، طبقاً للعقد ، ويكون سنوياً ، ويتضمن المادة أو المواد المطاوب تعليمها ، وشكل التعليم ، والزمن المخصص لها ، وشروط دفع النفقات ، من مال يدفع آخر العام ، أو مواد غذائية من دقيق وزيت تدفع شهرياً ، ومن العادات المتأصلة أن تقدم الهدايا للمعلم في عيدي الأضحى والفطر . وأخرى أجل وأكبر حين يختم الطفل القرآن . ويتردد على بيوت القادرين ، غالباً ، أكثر من معلم لتربية أطفالهم . وأحياناً يقع الاتفاق على إكمال العمل ، يقوم المعلم بتعليم الصبي ، مقابل أجر معلوم ، مادة معينة ، أو مواد متعددة ، وفي هذه الحالة يازم ولي الأمر أن يقدم تقريراً وافياً عن عقليته الصبي وقدراته الذهنية .

ورغم أن التعليم أهلي ، كانت المدارس المجانية كثيرة ، ينفق عليها من ريع الحوانيت والعقارات والأراضي التي أوقفها الحكيم الثاني ، وآخرون غيره . وأسهم الشعب بدوره ، بجمع الهبات ، ويدعم المدارس ، بعيداً عن رقابة الدولة وتدخلها في النظم أو المناهج ، ما دامت لا تستهدف نشر أفكار ضارة بأمن المجتمع وهدوئه . وقد تحقق في قرطبة المثل الأعلى الذي نطمح إليه ، أن يكون التعليم الابتدائي مجانياً وإلزامياً ، مجاناً لأن العاجزين لم يكونوا محرمون منه لعجزهم ، وإلزامياً بضغط من المجتمع نفسه ، دون حاجة إلى أمر يصدر أو قانون يشرع ، لأن التجار وأصحاب الحرف والمصانع يرفضون أن يقبلوا في حوانيتهم عمالاً لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولو كانت مهتهم لا تحتاج إليها . فإذا بلغ الطفل سن الحلم انتقل إلى مصنع أو متجر ليعمل ، أو يواصل تعليمه العالي إذا سمحت له ظروفه بذلك .

ونعني بالتعليم العالي ما تجاوز المواد التي تدرس في التعليم الابتدائي ، ولقد يكون في وصفنا له « بالعالي » تجوز ، لأننا بإزاء مرحلة ليست لها خطط رسمية تحدد المناهج أو الوسائل ، وإنما يحضر الطالب المواد التي تعجبه ، على الأستاذ الذي يطمئن إليه ، ويقرأ في الكتاب الذي يراه نافعاً ومفيداً ، ويتعمق في درسه بالقدر الذي يسمح له به ذكاؤه ورغبته وإمكاناته ، ومن الصعوبة بمكان أن نحدد على نحو دقيق : متى يبدأ التعليم العالي ومتى ينتهي ، وليس من الممكن كذلك تحديد المادة ، أو المراد ، التي يبدأ طلاب التعليم بدراستها : القرآن ، أو الرياضيات ، أو الطب ، أو اللغة ، أو الأدب ، فقد كان الطلاب أحياناً يجمعون بين أكثر من مادة في الوقت نفسه ، ولكن يمكن القول أن الطلاب كانوا يبدأون دراسة النحو والتعمق فيه ، ليعينهم على فهم بقية المواد الأخرى ، وتليه دراسة المواد الدينية ، من فقه وحديث وتفسير وأصول .

وكان هناك الطلاب المنتسبون ، إذا صح لنا أن نستخدم هذا المصطلح العصري جداً ، وهم الذين لا تمكنهم ظروفهم من حضور الدرس ، فيعتمدون على الكتاب ، وإذا وثقوا من أنفسهم تقدموا للأستاذ ليجيزهم . ويعتمد الطلاب على ذواكرهم كثيراً ، وكان فيهم من يحفظ آلاف القصائد من

الشعر ، ومن يحفظ كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني كاملاً ، وفيه تتعدد الروايات وتشابه ولا رابط بينها ، ويتنوع محتواها من شعرونثروحكايات ، ومن يحفظ القرآن لا يغيب عن ذاكرته حرف واحد منه ، ومن يحفظ موطأ مالك ، أومدونة سحنون ، أوديوان المتنبي ، أوكتاب «الكامل» للمبرد ، نعم ، وكان في الأندلس من يحفظ هذا دون حاجة إلى أن يكون عالماً أو متخصصاً ، ويقص علينا ابن بشكوال أنه كان في سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب « معاني القرآن » لأبي جعفر النحاس . أما أولئككم الذين لاتواتيهم ذواكرهم فيشعرون بخيبة أمل مريرة ، ويحاولون ما استطاعوا أن يزيدوها حدة بالأدوية ، وأشهر هذه شراب « البلاذر » ، ويتخذ من ثمار شجرة هندية ، يصفه الأطباء ، ويتناولها القادرون ، ليجعل ذواكرهم أشد حدة ، وأصنى صفحة . وفيما بعد أسرفوا في الحفظ ، وأقلوا من التفكير ، وكان ذلك ، فيما لحظ ابن خلدون ، وراء تدهور الثقافة والعلم في أخريات أيام الأندلس ، لأن المعرفة لاتتقدم بالحفاظ حايها ، وإنما بتعهدا لإنماء وتجديدا .

وكن العمل بالتعليم العالى مناط تقدير المجتمع واحترامه ، ويرفع العاملين فيه إلى مستوى كبار القوم ، ممن إيجاءهم الجاه وراثته ، أساتذته في مستوى بقية الوظائف الكبرى عسكرية أو مدنية ، كالولاية والقضاة والقادة . ولكنها مهنة تميزت بأنها مفتوحة الأبواب أمام كل ذكى ، وكان يعمل فيها من ينسبون إلى طبقة الخاصة حباً في العلم ، وطلباً للمزيد من الجاه ، والقادمون من تحت ، يجدون فيها الأمن والحماية والطريق إلى الشهرة . وعادة تانتقط الدولة نخيرة الأساتذة وترشحهم للمناصب العالية ، جالباً ارضى العامة ، وكسباً لثقتها ، فلم تكن هناك أحزاب ولا صحافة ولا مجامع علمية ولا برلمان يامع فيها الناس ، وتظهر الكفاءات . ومن جانب آخر ، لم يكن لدى الأدباء ، وكبار الكتاب ، في وقت لم تكن عمرت فيه الطباعة ، من وسيلة لنشر آرائهم وأفكارهم غير أن يجدوا لهم حاقمة في المسجد الجامع ، وهي دروس لم تكن تجذب الطلاب والشباب فحسب ، وإنما كانت تتجه إليها صفوفة المجتمع القرطبي . ويتص علينا



أحد تلاميذ أبي وهب عبد الأعلى ، يقول : « كان أستاذي يقيم قريبا من مقبرة قرطبة في قرطبة ، في بستان له يقوم هو بنفسه على غرسه ، وذات يوم بعد أن قدم طعام الغداء لتلاميذه ، جاء من يطلب الإذن بالدخول ، وكان القادم الوزير هاشم بن عبد العزيز ، وأقرب الناس إلى الأمير ، وقد رحب به الأستاذ ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضرا مطبوخة ، وهي مما غرس في الحديقة ، وقد ارتباك صاحب البيت قليلا قبل أن يدعو ، خشية أن يكون الطعام دونه ، ولكن هاشما بادره : ألا تدعوني لمشاركتهم ، أو تخاف أن آتي على المائدة بأجمعها ؟ ، فقال : هي دونك ! ، فرد : ولماذا ، فشمر عن ساعده ، واقتحم المائدة معنا ، وبعده انتحى به جانبا ، فاستشاره بعض القضايا الفقهية وتلقى رأيه ، وعندما خرج هممت بالوقوف تحية ، ولكن الأستاذ أشار إلى في قسوة أن أجلس ، وبعد أن ودعه عاد فعتب علينا في شدة أننا أسرفنا في الأدب والمجاملة ، ولم نكن عاديين » .

وكانت هناك شروط معينة يجب توافرها في الأستاذ ، أولها العلم ، ويحرص الأستاذ على أن يحصله بكل جهد ممكن له : يذهب إلى المشرق ليدرس هناك ، وكان تعبير « وله رحلة » يعادل في لغتنا الحديثة « عائد من بعثة » ، وموضع زهو من صاحبه ، وتقدير من المجتمع ، وولتقى به وصفاً لعدد من العلماء الكبار ، وأن يختلف إلى مجالس كبار العلماء قرطبة ، والقادمين من المشرق بخاصة ، وأن يحرص على اقتناء ، أو على الأقل دراسة ، ما يؤلف من الكتب لحظة صدورها . وحين استقامت الحياة الثقافية ، وتكونت شخصية الأندلس ، وأحسن بذاته ، استغنى عن الراحة ، وعن الأستاذ الوافد ، بل أقسم عالم من إشبيلية أن يذهب إلى القاهرة ، وأن يجلس في صحن الأزهر ، وأن يدرس « الكتاب » لسبويه ، ليثبت أن الأندلسيين لم يعودوا دون المشاركة تمكنا من العلم ، واستيعابا له .

والصفة الثانية التقوى ، والعالم غير التقى لن يجد طلاباً يجلسون إليه ويتأقنون العلم منه ، وكلما كان الأستاذ مالكي المذهب كان إقبال الطلاب عليه أشد . وكثيرون من الأندلسيين ذهبوا إلى المشرق ، ورأوا مذاهب فقهية أخرى ، تحمسوا لها ، وعادوا على أمل أن يبشروا بها ، فلما عرف الطلاب منهم هذا انصرفوا عنهم واحداً وراء آخر ، فبقوا وحدهم لا يجدون من يستمع إليهم .

وإلى جانب العلم والتقوى ثمة صفات أخرى يود الناس والطلاب أن تكون مما يتحلى به العالم ، منها الصدق ، واستقامة العادات . وعليه أن يكون في درسه لطيفاً واجتماعياً ، سخيّاً في الشرح والتعليق والتفسير ، لا يحجب عن طلابه شيئاً ، وأن يكون منهم بمنزلة الأب أو الأخ الأكبر ، وكان الأساتذة كذلك بعامّة ، فتميزت علاقاتهم بطلابهم بعطف حنون ، ومودة صادقة .

وليس سهلاً أن يصبح المرء أستاذاً معترفاً به ، وله طلابه ، إلا بعد أن تتقدم به السن في المهنة ، أو يبلغ شأواً كبيراً من الشهرة والذيع في وظيفة عامة ذات طابع ثقافي ، قاضياً أو مفتياً أو مشاوراً أو والياً . وليس ثمة سن معينة يتقاعد عندها الأستاذ ، والطلاب وحدهم هم الذين يقررون ، فإذا تبينوا في أستاذهم خرف الشيخوخة ، أو طفولتها ، بدأوا يفارقونه ، وحينئذ يحيل نفسه إلى التقاعد . ولم يكن للأساتذة زى محدد ، ولكن الأجلاء منهم يضعون الطيأسان على رؤوسهم ، وكان ابن حبيب ، الفقيه المالكي الكبير ، يذهب إلى الدرس في أحسن أزيائه ، وصي من نسيج يمني ، على حين يرى آخرون إن أفضل زى يرتديه الأستاذ أن يكون في رأسه شيء يقواه للطلاب . ويزاول الأساتذة إلى جانب التدريس مهناً أخرى ، تدر عليهم رزقاً يعينهم على الحياة ، ويلقى الواحد منهم طلابه في بستانه أو حانوته أو مصنعه ، وآخرون يلقون دروسهم في المسجد الجامع أخرة اليوم ، بعد صباح جاهد من أجل لقمة العيش . وقبول الأجر من الطلاب لا يلجأ إليه الأستاذ إلا عند الضرورة القصوى ، وطالبه ، أو قبول الهدية ، أمر فحجل على أية حال .

● الحياة الدينية :

بظلت قرطبة بمنأى في المجال الديني عن الحركات المتطرفة من إلحاد وزندقة ، وعن الدعاوى غير السنية من خراج وشيعة ، وليس من الممكن القول أن الدين كان يحتل مكانة هامة ، لان الدين كان الحياة نفسها ، عنه تصدر ، وبه ترتبط كل مظاهر الحياة الاجتماعية . ويلتزم القرطبي بما يلتزم به أي مسلم ، في أي مكان ، فالإسلام عقيدة وفكرآ وطقوساً لا يتأقلم في جوهره ، وليس ممكناً أن نتحدث عن إسلام قرطبي أو أندلسي ، وربما تميزت قرطبة عن غيرها بأن حماسها للإسلام وحرصها عليه كان عفرياً وشديداً ومستمرآ .

كانت حماسة الناس للدين قوية ، وحرصهم على أداء شعائره حاداً ، وأشدهم حرصاً أولئك الإيبيريون الذين أسلموا مع الفتح أو بعده ، ثم البربر ، ويأتي العرب أخيراً . وصنع الإسلام من هذه العناصر مجتمعاً متماسكاً ، وهو ما كانت تفتقده بلاد إسلامية أخرى ، ومن هنا كان الرحالة المشاركة يؤخذون ، حين يطأون أرض قرطبة ، بما عليه أهلها من إسلام خالص ، ومن تقوى خاشعة ، عند غالبية الناس . وكان المجتمع ، لزاء دينه بلا كهانة ، يقوم على حراسة معتقداته ، ولا يتهاون أبداً فها هو جوهرى منها ، ولم تكن « الحسبة » في أي بلد بأكثر احتراماً وهيبه كما كانت عليه في قرطبة . وكانت حرية الأديان مطلقة ، ومحترمة ، ويتم اعتناق الإسلام أمام القاضي ، ويسجل في وثائقه ، ويقر فيها المرء بأنه اعتنق الإسلام بإرادته وحرية وبإيمان مطلق منه ، ودون ضغط أو تدخل من أحد ، وأنه يلتزم بقواعده ، ولكن عقوبة التحيف على الإسلام صارمة ، وكان الاتهام بها يخفى وراءه ، أحياناً ، أهدافاً سياسية أو شخصية .

وحرص الأندلسيون على الحج ، وتقلع بهم السنن من المرية أو بلنسية أو دانية ، وهي ثغور لانزال قائمة ومزدهرة حتى يومنا هذا ، تبحر وعليها

أعداد كبيرة من رجال ونساء ، وتلقى رحالها في الإسكندرية ، لكي يتجه الناس منها إلى القاهرة ، وقد يتوقعون فيها أياماً طويلة ، للعلم أو التجارة أو السياحة . على حين يأخذ الفقراء طريقهم براً عبر شاطئ شمال أفريقيا حتى يبلغوا مصر ، وهي رحلات أخذت شكلاً جماعياً ، في قوافل كبيرة ، منذ نهاية القرن التاسع ، ومن يتخاف عن الحج لسبب أو لآخر يمكن أن ينب عنه من يقوم به بدلاً منه ، وفيما وصلنا من وثائق صورة عقد بين حاج وموكاه ، والمناسك التي عليه أن يضطاع بها . وكان الحج شائعاً بين العامة والفقراء ورجال العلم ، فهم يهدفون إلى أن تكون لهم رحلة علم ، ومن هنا فنحن لا نعرف إلا قلة بين الخاصة أدت الحج ، ولم يؤده أى من الأمراء أو الخلفاء لأسباب سياسية خالصة ، ولا نعرف أن ابن حزم ، صاحبنا ، أدى الحج ، رغم دفاعه الشديد عن الإسلام وأصوله ، وقدرته المالية ، في أوائل حياته على الأقل ، ولعله أناب من يضطاع به نيابة عنه ، أو وجد لنفسه مندوحة فيما أحاط به من ظروف .

وقد أصبحت قرطبة موطن المذهب المالكي ، وأصبح الاتجاه الغالب فيها ، تبنته الدولة ، وعليه الفتوى ، وأغلقت أبوابها في وجه المذاهب الفقهية الأخرى ، وأعرض علماءها عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب ، واعتبروا معرفتها أمراً لا جدوى فيه ، ووقفوا بالفقه المالكي عندما أوردته مالك وكبار تلاميذه وأصحابه من بعده ، يدورون حوله دون أن يتقدموا به خطوة ، ولم يتيحوا لأنفسهم حرية الدرس أو الاجتهاد إلا في حالات نادرة ، حين يضطدمون بما هو شائع ويصعب تغييره ، فيجدون لهم مندوحة في باب « العرف والعادة » ، وهما من روافد التشريع عند المالكية . وإن المرء ليستطيع أن يؤولف مجادلات تستغرق أسماء الفقهاء الذين برزوا من علماء المذهب في تلك الفترة . ويهمننا أن نشير من بينهم إلى أبي الوليد الباجي ، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي ، فقد كان خصماً فكرياً لدوداً لابن حزم ، وجرت بينهما محاورات عنيفة ، وأثنى

عليه ابن حزم ثناء بالغاً . وألف البيهقي عدداً من الكتب في الفقه المالكي ،  
وفي علم الأصول ، وفي الحديث . وكان موطاً الأمام مالك ، وشرح  
« المدونة » لسحنون القيرواني ، من أوائل الكتب التي يدرسها المالكية ،  
وأكثرها رواجاً .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي جاء قاسم بن محمد بن  
سيار بالمذهب الشافعي من المشرق ، وانصرف إلى نشره عن طريق  
الدرس والتأليف ، وكان يلقي دروسه في المسجد الجامع ، ووجد  
رعاية من الأمير محمد الأول ، الذي عينه موثقاً الخاص بحماية له من علماء  
المالكية ، وعاش المذهب الشافعي في الظل طوال أيام عبد الرحمن الناصر ،  
لأن ابنه الأمير عبد الله ، وكان شافعيًا ، اتهم بالاشتراك في مؤامرة تلخيع  
أبيه الناصر ، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه ، وقد فشلت  
المؤامرة ، ولقي عبد الله حتفه على يد أبيه ، وكان لذلك أثره السيء  
على المذهب الشافعي فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر ، الذي كان  
يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الألب المشارقة ، وبينهم عدد  
من شيوخ المذهب الشافعي ، فانتعش المذهب الشافعي من جديد ، ولكنه  
انكمش ثانية في عهد المنصور بن أبي عامر ، وكان حاكماً واقعياً ، فرأى  
من صالحه أن يجاري فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم ، وفيما يعد سوف يصبح  
ابن حزم واحداً من أتباعه ، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهري .

ودخل المذهب الظاهري الأندلس في الوقت الذي دخل فيه المذهب  
الشافعي تقريباً ، على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال ( ت ٢٧٢ هـ =  
٨٨٥ م ) ، واجتهد رغم أنه شافعي في نشر المذهب الظاهري ، ويبدو أنه  
لم يوفق كثيراً فيما رمى إليه . وتعرض الظاهرية لمثل ما تعرض له الشافعية من  
مضايقات علماء المالكية ، وأول شخصية ظاهرية نلتقى بها ، ذات مقام  
وتأثير ، منذر بن سعيد البلوطي ، وتلقى أصواته في رحلة له إلى المشرق ،  
وظل عليه حتى وفاته عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م ، ثم ضعف صوت الظاهرية إلى  
أن عاد قوياً مع ابن حزم العظيم .



ومع وصول كتب الجاحظ إلى الأندلس ، وشيوعها على نحو خفى بين مجموعة من المثقفين ، عرفت قرطبة عدداً محدوداً من المعتزلة ، ولكننا في النصف الثاني من القرن العاشر لانكاد نعثر لهم على أثر ، والذين جاءوا الأندلس من الخارج لنشر هذا المذهب أبعدهوا منه : مثلاً وصل قرطبة أبو الطيب ابن أبي بردة ، عام ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ، وأحسن الحكم الثأر استنباله ، كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه ، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قراراً بإبعاده . ولكن ابن حزم يقول لنا أن وادى بنى توبة كان كله معتزلياً . وربما ارتبطت فكرة المعتزلة بالزهد ، لقد كان الطريق الوحيد ، فيما يرى أسين بلاثيوس ، أمام الذين يرغبون أن يبشروا بأفكارهم دون أن يعرضوا أنفسهم للاضطهاد والملاحقة أن يزهدوا وينسكوا في «الروابط» لأن هذه الحلوات تمتعت بمهابة جليلة لدى الحكام والفقهاء والعامّة ، وكانت تقع خارج المدينة ، في الجبال أو الغابات ، وتجري الحياة فيها على نحو زاهد ويطلق على سكانها اسم : زاهد أو ناسك أو عابد أو صوفي . وآخرون من الزهاد ظلوا بين العامة ، وتميزوا بالتقشف ، واحتقار الترف ، وإهمال الأناقة ، وعاشوا حياة رقيقة ، يمتنون أعمالاً متواضعة ، ويشاركون في الجهاد .

وكان الفيلسوف ابن مسرة أوضح شخصيات هؤلاء العباد ، وأقام خلاوة له في جبل قرطبة ، على مقربة من العاصمة ، وعرف بالجبلي ، وفي ثياب زاهد خاشع بدأ يتأمل أفكار المعتزلة ، ويبني لنفسه فلسفة جديدة ، راح يبشر بها بين عدد محدود من تلاميذه ، وفي البدء ، بتأثير من حياته المستقيمة ، ونسكه الصادق ، وتقواه الخاشعة ، كسب إلى جانبه قلوب القرطبيين ، ثم بدأ الهمس : إنه معتزلي ، يبشر بمذهب فلسفي جديد ، بينه وبين الإلحاد خطوة واحدة . وأحسن ابن مسرة بالهمس ، وبما يجرى حوله وخطيرته ، فرحل إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج ، وبعده عاد إلى خلوته ، وبأشرف حياته الزاهدة ودروسه ، وضيقت الحياة ودع الدنيا عام ٣١٩ هـ = ٩٣١ م . وقد مهد الطريق لفكر فاسفي حر ، ومن بعده واصل

تلاميذه إشاعة فكره ، ونشر كتبه ، ولم يصلنا منها شيء ، ولكنى فى زيارتى المتعددة للرباط عاصمة المغرب ، وجدت أن مخطوطة الجزء الخامس ، من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، ولما تنشر ، وتوجد فى خزانة القصر الملكى ، تضم نصوصاً كثيرة ، ذات فائدة قصوى فى توضيح مذهب ابن مسرة وتحديد مساره .

وفى أواخر خلافة الناصر ، أو على التحديد عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، نشر فقيه قرطبي ، محمد بن يبقى بن زرب ، دحضاً لآراء ابن مسرة ، فنحاه الخليفة ، مع الزبيدى ، أبو محمد بن الحسن ، سايطات واسعة لمحاصرة فلسفة ابن مسرة . فأمر ابن زرب باعتقال كبار تلاميذه ، وأكرههم على رفض أفكارهم على ملامن الناس ، وأمر بكتب ابن مسرة التى كانت معهم فأحرقت علانية على مرأى منهم ، أمام أبواب المسجد الجامع . وقد خفت حدة الملاحقة فى عهد الحكم الثانى ، ولكن ما إن ولى المنصور بن أبى عامر الحجابة ، وعين ابن زرب قاضياً ، حتى اشتدت الملاحقة من جديد ، وأغضى المنصور عينه عنها استجلاباً لرضى الفقهاء و العامة ؛ وكان من ضحاياها عبد الملك بن منذر ابن سعيد الباطنى ، صاحب خطة الرد ، وكان معتزلياً مثل أبيه ، انقضى والإمام والخطيب على عهد الناصر . ويبدو أن عبد الملك ، وأخويه عبد الوهاب والحكم ، حاولوا إحياء مذهب ابن مسرة ونحوته ، وكونوا فى بجانة مجموعة من المؤمنين به ، وقد حكم عليه بالإعدام والصلب ، وأورد لنا ابن حزم قصة صلبه فى كتابه « الطوق » .

#### • الأدب :

وفى هذا القرن شاعت الأعمال الأدبية المشرقية فى الأندلس ، فقد أدخل أحمد بن محمد بن هارون البغدادى ، وجاء قرطبة يتجسس للعباسيين ، كتب ابن قتيبة ، وأدخل فرج بن سلام وكان مهتماً باللغة والشعر والطب وتربطه بالجاحظ صداقة وطيدة ، كتاب « البيان والتبيين » ، ورسائل

وكتبا أخرى للجاحظ أيضا . وأدخل عثمان بن المطنة ، وكان يعمل مؤدبا لأولاد الأمراء ، وعاش في الشرق مدة ، ديوان أبي تمام ، وكان معجبا بشعره . ويعطى كتاب « العقيد الفريد » لابن عبد ربه صورة صادقة لثقافة الأندلسيين المشرقية في هذا العصر ، وما كانت عليه من شمول وعمق .

ولم يحدث أن اهتم خليفة بالثقافة كما اهتم بها الحكيم الثاني ، وكان نفسه عالما موسوعيا ، يمضى ساعات طويلة في مكتبته يقرأ ، وقلمه في يده يعلق على ما يقرأ ، وقلمها تجد له كتابا في خزائنه ، من أى فن كان ، إلا وله فيه نظر ، يكتب فيه بخطه ؛ إما في أوله أو آخره أو تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته ، وعنايته بهذا الفن . ومن حين لآخر يدعو العلماء والفقهاء إلى قصر الخلافة في قرطبة ، أو إلى قصور آل مروان في مدينة الزهراء ، وبخاصة في سهرات رمضان ، لمطارحات ومناقشات أدبية وعلمية جادة ، تمتد في كثير من الأحيان حتى الفجر .

وكانت مكتبة الحكيم الثاني تضم ٤٠٠٠٠٠ مجلد ، وتشغل مكانا فسيحا في قصر الخلافة ، ويحكى ابن حزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، نقل عن تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير .

وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم إلى الأفاق باحثين عنها . ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة ، وبعث إلى أبي الفرج الأصفهاني القرشي المرواني ألف دينار عينا ذهبيا ، وخاطبه بالتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني ، وما لأحد مثله ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم .

وكانت المكتبة تسير على نظام دقيق وراق للغاية ، وتضم أقساما مختلفة ، أحدها للنسج ، ويعمل فيه مهرة المخططين ، من فتيات وفتيان ، وشهرت من بينهن لبيبة كاتبة الخليفة نفسه ، وكانت أديبة شاعرة ، نحوية عروضية ، رائعة الخط ، بصيرة بالحساب ، مشاركة ، ولم يكن في قصر الخلافة أنبل منها ، على حد تعبير ابن بشكوال في كتابه « الصلة » ، وتميزت من بينهن أيضا فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب ، المعروف بالشيلاري وكانت كاتبة جزلة ، وخطاطة ماهرة ، وعمرت طويلا ، فعاشت أربعة وتسعين عاما ، كتبت فيها مئات الكتب الطوال . وكان هناك قسم للمراجعة والمعارضة يراجع ماخط الناسخون ، ويعمل فيه صفوة من علماء اللغة ، أمثال : الرباحي الجياني ، وأبي الفضل بن هارون الصقلي ، وعباس بن عامر الصقلي ، ويشرف عليه العالم اللغوي الجليل أبو علي القالي ، صاحب كتاب « الأمل » . إلى جانب قسم للتجليد والتذهيب والزخرفة ، يعمل فيه أندلسيون ، وآخرون جاء بهم الخليفة من بغداد وصقلية .

وكان قسم النسخ لا يتوقف عن الكتابة ، ينسخ من الكتاب الجديد عشرات النسخ ، يحتفظ بها في المكتبة للمتردين عليها ، أو يهدىها الخليفة لأصفيائه ، أولئكبار العلماء والأدباء ، أو يوقفها على مكاتب المساجد ، أو على حلقات الدرس للراغبين فيها من الطلاب ، من العاجزين عن النسخ أو الشراء . وإهداء الكتب النادرة إلى الخليفة أقصر الطرق ، وأحبها ، إلى قلبه .

ولم يكن الخليفة استثناء في هذا الاتجاه ، فنحن نعرف عددا كبيرا من المكتبات الخاصة ، ومن هواة الكتب ، لا تبلغ قدر مكتبة الحكم ، ولكنها مكتبات كبيرة بمقياس ذلك العصر ، وكل عصر ، ولناخذ لها مثلا مكتبة قاضي الجماعة بقرطبة ، أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس ، فقد جمع « من الكتب : في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، مع سعة الرواية والحفظ والدراية ، وكان يملئ الحديث من حفظه ، في

مسجده ، وله ستة وراقين ينسخون له دائما ، ورتب لهم على ذلك راثيا معلوما ، ومتى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طاب به الابتياح منه ، وبالغ في ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه ، وإلا انتسخه منه ورده إليه .  
وكانت عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية حسنة الخط ، تكتب المصاحف والدفاتر ، وتجمع الكتب ، وتعنى بالعلم ، ولها خزانة علم كبيرة حسنة ، ولها غنى وثروة تعينها على المروعة .

ولم يقف الأمر عند الخاصة من الناس ، فكان البسطاء أيضا يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم في بيوتهم ، في ضوء ما تسمح به إمكانياتهم ، ويقدمونها على مظاهر الحياة الأخرى . ولدينا معلومات عن صاحب كتاب يدعى ابن حزم ( غير صاحبنا مؤلف طوق الحمامة طبعاً ) ، لم يعلم الأطفال فيه ، بمساعدة ابن له يقوم على الصبيان ، وابنة تقوم على الفتيات ، وما يوفره يشتري به كتباً ، وفي ساعات الفراغ يقوم على نسخها ، ورغم تواضع حاله كانت مكتبته منظمة ، فيها كتب قيمة ، وأحياناً نادرة ، أتى بها في رحلة كانت له إلى المشرق ، وتتميز بالضبط والدقة وللإفادة منها يتردد عليه العلماء والطلاب .

ولكن هواية الأندلسيين الكبرى كانت تتركز في الأدب ، والشعر منه بخاصة ، وبلغ في هذه الفترة أوج سمته الجمالي ، وعرف هذا العصر مدشدا هائلا من الشعراء ، أنشأ لهم المنصور بن أبي عامر ديوانا خاصا بهم ، يسمى « ديوان الندماء » ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على مستوى أقدارهم في الشعر وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب ، ولقد صحب المنصور في بعض غزواته أربعون شاعرا ، من كل طبقة ، ليسجلوا ما يرون شعرا .

من طليعة الشعراء في هذا العصر ابن عبد ربه ( ت ٣٢٨ هـ - ٩٣٩ م ) صاحب كتاب « العقد الفريد » ، وجهر القلوب بمدايح ، وغزله ينبيء عن



ذوق وحساسية تفوق ما في مدائمه . وابن هانيء الإلبيري ( ت ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م ) وما لبث أن غادر الأندلس إلى المغرب . ومات وهو في طريقه إلى مصر ، ليأحق فيها بالمعز لدين الله الفاطمي . ويقول عنه ابن خلدون : « إنه أشهر المغاربة على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، وكانا متعاصرين ، أما المعري فقد شبه شعره الضخم الرائع بأنه « رحي تطاحن قرونأ » . وكان ابن دراج القسطلي ( ت ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م ) أعظم الشعراء في قرطبة على أيام المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتباً له ، وللحكيم الثاني قباه ، وهو من أصل بربري ، ذاع صيته ، وأثنى عليه ابن حزم ، وكان واسع العلم ، قادراً على المديح ، يملك زمام الصناعة ، يجود شعره ، ويتكاف أحياناً ، فجاءت بعض أشعاره عسيرة الفهم . ويوسف بن هارون الرمادي ( ت حوالي ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م ) ، والرمادي ترجمة حرفية لكنيته في اللغة الرومانشية أبو جنيش ، وبها كان يدعى أيضاً ، لأن كامة جنيش Geniza فيها تعني الرماد ، وهو من كبار الشعراء ، ويقارن بالمتنبى أيضاً ، وكان تلميذاً لأبي علي القالي ، وجمع بين تمكنه من الشعر القديم ، ومن الأنماط الشعبية المستحدثة في وطنه ، وأعلى بها الموشحات . وجمع بين رقة الشعر وخفة الظل ، وفيخامة الأسلوب ، وأورد له ابن حزم في « طوق الحمامة » قصة حب رومانتيكية جميلة . واشتهر من بين الشعراء الأمراء حفيد لعبد الرحمن ، يلقب « بالطليق » ، الشريف أو الشاعر ، ( ت ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ) وبرز في مقطعات النسيب الرقيق ، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات .

وبرع من شعراء هذا العصر أيضاً أبو عامر بن شهيد ( ت ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ) ، وهو من بيت عريق ، وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، واحتل في العاصمة مكاناً مرموقاً بشعره الجزل ، ورسائله الفكاهية ، وتبرأى لنا في شعره ، أحياناً ، لمحات ذات وقع حديث ، ونخلف لنا رسالة « التوابع والزوابع » ، وصلتنا في جانب منها ، وفيها يصور رحلة شاعر إلى اللجنة ، فسبق بذلك المعري ودانتى الإيطالي في هذا الموضوع .

وكان الشعر يجري على ألسن النساء ، وبرع نفر منهن فيه ، مثل :  
عائشة بنت أحمد ، وعشقت أحد أبناء المنصور وتولعت به ، ومريم بنت  
أبي يعقوب الفيصولي ، وكانت زاهدة ورعة ، واسعة العلم بالأدب . وبينما  
الفن تجتاح قرطبة ، وشمس الخلافة توشك على الغروب ، اجتاح العاصمة  
حديث فتاة أميرة ، تنحدر من أصلاب خليفة ، ولادة بنت المستكفي  
( ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م ) صبية وجميلة ، ذكية وشاعرة ومتمردة ، تجعل  
من قصرها منتدى الشعراء ، ويجمع الأدباء ، وملتقى عالية القوم ، تحب  
وتجاهر ، وتعبر عن عواطفها في صراحة ، ويهيم بها الوزير الشاعر ابن زيدون ،  
فتصله وتسعد معه ، وما تلبث أن تهجره ، وكيداً له تصل غيره ، فيندب  
حظ قلبه معها بقية حياته . كانت ولادة ، فيما يقول ابن بسام ، : « في نساء  
زمانها واحدة أو أنها ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، حسن منظر ومخير ،  
وطلاوة مورد ومصدر . كان مجلسها في قرطبة منتدى لأحرار المصر ،  
وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غزتها ،  
ويتهاك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، ولكنها على سهولة حججها ،  
وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب وطهارة أثواب » .  
غير أنها « لا تخلو من نزق وطيش ، فقد اطرحت التحصيل ، وأوجدت  
إلى القول فيها السبيل ، لقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها » .

وقد عمرت ولادة حتى تجاوزت الثمانين عاماً ( ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م ) .  
دون زواج ، مع ما كانت عليه من جمال باهر ، وعراقة نسب متصل ،  
ومواهب فنية عالية ، وتقف المصادر القديمة عند الظاهرة ، تقدم لمحات  
ر عنها ، دون أن تمضي بها حتى النهاية ، تفسيراً وتفصيلاً . ويراها الباحثون  
المحدثون أمراً غير طبيعي ، فيقول عنها غرسية غومث إنها « امرأة رجلة ،  
بالغة الظرف والأناقة » ، ويرى أ . و : نيكل ، ومن بعده هنري بيريس ،  
أن صلاتها بمهجة بنت التيان القرطبية الشاعرة كانت مريبة ، وفي القليل  
الذي روى من أخبارها ما يدعم الاتهام : وإلى هذا المنحنى يذهب الأديب

العراقي الأستاذ عبد الرزاق الهلالي ، ويتهمها الأستاذ علي عبد العظيم بالسادية Sadism ، ويمضي وحده في هذا الاتجاه .

ومهما يكن القول ، فإن هذه النكتة الشاعرة المتمردة ، أثرت الحياة الأدبية والاجتماعية في قرطبة ، وأوجدت نمطاً أدبياً جديداً ، دفعت به إلى سطح الحياة ، وكان قبائها يأخذ طريقته وراء الظاهر جباناً وخبياً .  
وفي مطلع هذا العصر بدأت قرطبة تتغنى بالموشحات ، ولو أن موشحات عصر الخلافة ضاعت كلها ، وضاعت معها طفولة هذا الفن الجميل الذي أبدعه الأندلسيون ، على غير احتذاء ، في عالم الفن والشعر .

#### المؤرخون :

وشهد هذا العصر من المؤرخين الكبار ابن القوطية ، أبو بكر بن عمر ( ت ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م ) صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ، ويغلب على ظن المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية ، أن الكتاب ليس من إنشاء ابن القوطية ، ولعله أن يكون سماعاً دونه عنه بعض من كان يحضر دروسه من طلابه المولعين بالأخبار ، وكان ابن القوطية نحويّاً أيضاً ، وكتابه في تصريف الأفعال أول كتاب وصلنا في الموضوع . وكان عريب بن سعد ( ت ٣٦٩ هـ = ٩٨٠ م ) قرطيبياً من أصل نصراني ، أسلم آباؤه ، وتلقى تعليماً طيباً ، واتخذ الحكيم الثاني كاتباً له ، وقد اختصر تاريخ الطبري ، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس ، وكان إلى جانب اشتغاله بالتاريخ طيبياً .

وأعظم مؤرخي هذا العصر على الإطلاق أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ، ويلقب بابن حيان ( ت ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م ) ، ومؤلفاته لا تقل عن خمسين مؤلفاً ، وأحدهما ويسمى « المتين » في ستين مجلداً ، ولسوء الحظ لم يصلنا من مؤلفاته هذه إلا أجزاء متناثرة من كتابه « المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » .

ويقول عنه المستشرق الهولندي رينهارت دوزي : « يمتدح العرب في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجزالة لغته ، ورنين عباراته ، وأنا أؤيدهم في هذا كل التأييد ، ولا أتردد في القول بأن كتبه لو بقيت لألقت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة ، ولصورته لنا أحسن تصوير ، ولو وجدنا أنها تباع من الروعة مبالغاً بجمعنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ومع ذلك لا يتعثر في الإطناب والقعقعة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنهى . إنه ليسرق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقدة كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصح ، لا يهبط إلى الركافة التي تثير السخط ، ولا يقع في التفصيح والإسراف في قعاقع الألفاظ ، ورغم التزامه السهولة لا يهمل بجانب الجمال في أسلوبه ، ويبعث في كلامه دائماً حماسة وغنى وطابعاً غالباً من الجلد . نعم ، إنه يبالغ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة . ولكنه - رغم امتيازه بفصاحة القدماء - لا يولع بما أولع به معاصروه . ونخرج من هذا كاه بأننا لا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من تقدمه علمه » .

وانصرف عدد من المؤرخين إلى كتابة السير ، ووضع المعاجم في طبقة معينة من الرجال ، وأول من تلقى منهم : الخشني ، أبو عبد الله محمد بن الحارث (ت ٣٦١ هـ = ٩٧١ م) ، وهو قرواني قدم الأندلس ، وولاه الحكم الثاني خطة المواريث في بجاية ، وبعد وفاته استقر في قرطبة يعيش على بيع العطاراة ، وألف كتباً كثيرة عن الفقهاء والمحدثين ، واشتهر بكتابه « تاريخ قضاة قرطبة » ، وألفه فيما يبدو بإيحاء من الحكم نفسه ، ونشره خوليان ريبير الأول مرة في مدريد عام ١٩١٤ م ، وترجمه إلى الإسبانية ، ويضم من الفوائد ما يجعله أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس ، وقد كتبه وتحت يده مادة طيبة من الوثائق المحفوظة في دار الخلافة ، وسجلات

للقصاة ، والأوراق الخاضعة لبعض الأفراد . وأهم من ذلك كله ما أخذه من الروايات والأخبار التي كان الناس يتناقلونها : منها ما يحكى في قصر الخلافة وبيوت السروات ، ومنها ما يتناقله الجمهور والنصاص في طرقات قرطبة وأرباضها وأحيائها التي يحتشد فيها أصاغر الناس . وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدب والدين والعلماء والفقهاء مما كان يجري في حلقات دروسهم ، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السياسي والاجتماعي القائم ، ومنها ما هو صدى لما كان يتحدث به أولئك المولعون بنقد رجال الدين والأتقياء ، ومنها ما هو ترجمة عربية لروايات كان الناس يتناقلونها في لغتهم العجمية أو العامية الدارجة أو صياغة جديدة لها . كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف إليها المؤلف من عنده إلا قليلاً . إنه كتاب يضعنا في قلب قرطبة القرن العاشر ، وأخباره مصوغة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب الأدب أو التاريخ . وهو يحدثنا عن أشياء تافهة ، ويصور لنا مشاهد مبتدلة ، لاجلال فيها ، ولاصلة تربطها بغيرها ، وهذه الروايات المرسله على عونها تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية ، مما لا يذكره أو يعنى به غير هذا الكتاب .

ومنهم ابن الفرضي ، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م) ، من أهل قرطبة ، وكان فقيهاً ومحدثاً وخطيباً وشاعراً ، وجماعاً للكتب ، ودرس في القيروان والقاهرة ومكة والمدينة ، وعرض له ابن حزم في « طوق الحمامة » واستشهد في داره على يد البربر ، عندما اقتحموا قرطبة وانتهبوها ، ولم يحتر على جثته إلا بعد أربعة أيام ، وقد تحللت وتعفنت ، فووري التراب دون أن يغسل أو يكفن . وضاع بعض ما ألفه مثل كتابه : « تاريخ شعراء الأندلس » ، وبقي لنا منها كتابه الدائع الصيت : « تاريخ علماء الأندلس » .

• العلوم :

ولقيت الدراسات الفلكية في النصف الثاني من القرن العاشر عناية تامة ، وكان فلكيو الأندلس ، مثل نظرائهم في المشرق ، يؤمنون بتأثير النجوم ،

واعتبارها سببا فيما يحدث من شئون هامة بين الميلاد والموت على سطح الأرض، وكان الفلك يستخدم في تحديد قبلات المساجد، وتعيين مواقيت الصلاة على امتداد العام، والاستيثاق من مواعيد الأهامة، ولم يكن مسموحا بالتنبؤ وقراءة الطالع، ومع ذلك كانت الجاهير، من وراء ظهر الدولة، تقبل على أدعياء الفلك، من المنجمين والعرافين ومن يستخرجون الفأل، والمتنبئين والسحرة وصناع الأحجية. وكان الفلكيون يعملون في الكيمياء أيضا، وقد ازدهرت دراسة الفلك على يد مسامة الجريطى (ت ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م)، تحت رعاية الخكم الثانى، وعرض له ابن حزم فى «طوق الحمامة»، وإلى جانب الفلك كان أستاذاً فى العلوم الرياضية، ومن بينها فن مساحة السطوح، وإليه يعود الفضل فى إدخال «رسائل إخوان الصفاء» إلى الأندلس.

وأزهر علم الطب فى قرطبة إزهارا عظيما، وفى منتصف القرن العاشر الميلادى أرسل إمبراطور بيزنطة، قسطنطين السابع، سفارة إلى عبد الرحمن الناصر، كان بين ما حماته من الهدايا نسخة مكتوبة بالإغريقية من كتاب ديوسقوريدس Dioscorides فى الطب، ولم يكن فى قرطبة من يعرف الإغريقية، فسأل الناصر الإمبراطور أن يبعث إليه واحداً من العارفين بها وباللاتينية، فأرسل إليه الراهب نيقولا لكى يقوم بتحديد أنواع النباتات الواردة فى الكتاب، وأنجز ذلك العمل بمعاونة لجنة بينها: حسداى بن شبروط، الذائع الصيت، وأبى عبد الله الصملى، وكان عارفاً باليونانية ويتحدث بها، وله إمام بتركيب العقير، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، ومحمد بن الكتانى، وعلى رأسهم أبو القاسم الزهر اوى، وعدد آخر من الأطباء وعلماء النباتات وكان لمعرفة الأندلسيين بهذا الكتاب أثر حاسم فى تطور دراسات الطب والنبات، وتميز الذين عملوا فى ترجمة الكتاب كأطباء فيما بعد، فى بلاط الخكم الثانى، والمنصور بن أبى عامر.

وأعظم أطباء ذلك العصر، من غير شك، أبو القاسم خلف الزهر اوى،



نسبة إلى مدينة الزهراء الشهيرة في قرطبة ، ويعرف في اللاتينية باسم Abulcasis ( ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م ) ، وطار ذكره شرقاً وغرباً بالبراعة في الجراحة ، وتعتمد شهرته على مؤلفه المسمى : «التصريف لمن عجز عن التأليف» ، أى العون لمن ليست له قدرة على استيعاب المؤلفات الضخمة ، ونلخص في القسم الأخير منه المعلومات الجراحية التي كانت سائدة في عصره ، واهتم المؤلف بالآراء الخاصة بكى الجروح ، وتفتيت «الحصوة» في داخل المثانة ، وأهمية التشريح والفحص الدقيق . وكان هذا الجزء ، ونشر في اللاتينية باسم الجراحة ، في البندقية عام ١٤٩٧ ، وفي بال عام ١٥٤١ ، وفي اكسفورد عام ١٧٧٨ ، أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله ، وارتفع به الزهراوى في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس . وهو أول مؤلف جعل الجراحة علماً قائماً بذاته ، مستقلاً عن الطب ، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح ، وتضمن رسوماً للآلات الجراحية التي كان يستعملها العرب ، أو نقلوها عن غيرهم .

\* \* \*

في هذا الجومن الحضارة المصقولة ، والثقافة المزدهرة ، ولد ابن حزم ونشأ ، وتفاعل معها ، غلاماً يافعاً ، وصبياً دارساً ، وشاباً قلقاً ، ورجلاً يعمل بكل ما أتيج له لكي يوقف انحمار الخلافة وتلاشيها !

## شاهد عصر

لا أحد يختار اللحظة التي يولد فيها ! .

وقدر لابن حزم أن يجيء إلى الحياة في أشد لحظات الأندلس إقساوة ومأساة وحسما . شهد شمس الخلافة تنحدر نحو المغيب ، وقاوم ما استطاع لكي يبقى عليها ، ورآها تتناثر مزعا ، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة ، يحكمها أمراء صغار ، سوف يدخلون التاريخ تحت اسم : « ملوك الطوائف » . وعاصر فوضى هؤلاء الملوك وصغارهم ، ورأى دولهم تنتحر في بطن ، وتسرع نحو الهاوية في بلادة . وعبثا نجد جوابا لسؤال يتردد في الخاطر أحيانا : ماذا لو عاش ابن حزم في غير هذه الأعوام ، لوجاء قبلها بقرن ، أو تأخر به القدوم بعدها بزمان ؟ . المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهدا ، ومشاركته فيها مؤثرا ، جعلت منه قمة الفكر الإنساني في مطامع القرن الحادي عشر ، في الشرق والغرب ، في العالمين الإسلامي والمسيحي على السواء . كان سياسياً ورجل دولة ، شاعراً وكاتباً ومؤرخاً ، مفكراً وفيلسوفاً ، وفقهياً جاداً لدد الحصومة ، عنيف الحوار .

ولن أمضى مع حياة ابن حزم تفصيلا ، لقد درسها في عمق ورزانة وتأن المستشرق الإسباني ، العالم الفيلسوف ميغيل أسين بلاثيوس ، في كتابه : « ابن حزم القرطبي » ، وقد أنهيت نقله إلى العربية ، وسأدفع به إلى المطبعة قريبا ، وفيه الغناء ، كل الغناء ، لمن يطلب المزيد . وسأكتفى هنا بالملامح البارزة ، التي تعيننا على فهم إبداع ومحتوى وإشارات « طوق الحمامة » ، وكان مقادرا لهذا الكتاب أن يكون مقدمة له .

● أسرة من المولدين :

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تماما ، وأشدّها احتمالا ،

وهو أمر غير مؤكد ، أنه ينتسب في أسرة من المولدين ، أى أنه ينحدر أصلاً من الأجناس التي وجدها المسلمون لحظة الفتح . ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة ، هل هي لاتينية أو قوطية ، أو من بقية الأجناس التي مرت بشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقين والسلتيين . ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التي كان عليها أسلافه ، أهي الكاثوليكية أم ديانات أخرى ، أم الوثنية ، و كان لها عباد في القرى النائية لحظة الفتح الإسلامي . ونخرج عن العلمية - طبعاً - أن يقال : إنه كان إسبانيا ، بالمعنى العلمى أو القومى للمصطلح في عصرنا الحديث ، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب بها ، في أشد الاحتمالات ، إلى أبعد من أخريات القرن الثالث عشر .

وليس للأسرة تاريخ عريق في الإسلام ، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح ، أو ما تلاها من أعوام . كانت كملايين آخرين ، من صغار الفلاحين في القرى النائية ، تمشى حياتها هيئة متثابرة ، بلا ألام ولا أحلام ولا أمجاد : تعيش من الزراعة ، على أرض لها ، في ضيعة صغيرة ، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Mont lisam ، وأخذت في الإسبانية المعاصرة صورة منتيجر Montijar ، أو بلدون الرء الأخيرة ، في مقاطعة ولبة Huelva ، جنوب غربى الأندلس .

ولم تكن الحياة في هذه المنظمة سهلة ولا ميسرة ، ولا تزال حتى يومنا ، محدودة الموارد في الزراعة ، قليلة الصناعة ، لا يكاد إنتاجها من الحبوب يكفى فلاحها ، على حين تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدما ، وتصبح الحياة فيها أمنية ، تستهوى عامة الناس وبسطائهم ، وتداعب آمال كل طامح ، وبخاصة أحلام أسرة ترغب ، وتعمل جاهدة ، في تحسين واقعها الاقتصادى ، فترك سعيد ، جد ابن حزم صاحبنا ، ولبة حيث يقيم ، وجاء إلى العاصمة : ولانملك معلومات وافية عن حياة سعيد في قرطبة ، والتليل الذى وصلنا منها غامض ومتناقض ، ولدينا أخبار وفيرة عن ابنه أحمد ، والد أبى محمد على موضع درسنا .

كان أحمد ، فيما يبدو ، فطناً ودوداً ، مثقفاً أديباً ، مستقيماً عاقلاً .  
مقتصداً ومهراً في شئون المال ، بارعاً في مواجهة المواقف السياسية المتناقضة .  
ذا طموح يقظ ، قادراً على كبح جماحه عند الضرورة ، مسالماً دائماً ، ومسليحاً  
بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له في مناصب الدولة نصيب .  
وفي هذا الوقت كانت منتديات قرطبة تهاجم حديث نجم يمضي صعداً بلا  
توقف ، فتي من أبناء الأقاليم يدعى المنصور بن أبي عامر . كان مثل سعيد  
ابن حزم ريفياً ، هبط قرطبة ذات يوم ، ضائعاً مغموراً يبحث عن المجد ،  
ويؤمل أن يلقاه في عاصمة الغرب الإسلامي . ولكنه على العكس من سعيد ،  
ينتمي في أسرة عربية عريقة ، ولو أن معلوماتنا أيضاً عن أيامه الأولى  
قليلة وغامضة .

ولم يكن المنصور فرداً في طموحه وصعوده ، كثيرون كانوا يرقبونه ،  
وعلى نية أن يتبعوه ، وقد بدأ دم جديد يتدفق في شرايين الدولة ، فأتى على  
الأسوار العالية ، التي أقامها أبناء البيوتات العريقة ، وكانت المناصب الكبرى  
وقفاً عليهم ، سنة جارية ، وتقليداً محترماً . وهكذا وجد أحمد طريقه  
إلى مناصب الدولة ، ربما لأنه كان مولى لبني أمية ، وهذه تحسب له ،  
وأكيداً لأنه أشاع الثقة فيمن حوله ، بقدرته وحنكته ، ومع البداية  
واصل سيره قدماً ، ونجهل خطواته الأولى ، ولا بد أنه كان ذا دهاء سياسي  
رفيع ، ليظال وفيها هشام المؤيد الخليفة ، وموضع ثقته ورعايته ، دون أن  
يشير في أعماق المنصور ، وكان الحاكم الفعلي أو في طريقه ليصبح كذلك ،  
روح الشك والخوف ، بل حاول المنصور أن يربحه ، وأن يضمه  
إلى جماعته .

وقد ترك أحمد منزله ، لأول مرة ، في بلاط مغيب ، في الجانب  
الغربي من قرطبة ، إلى « منية للغيرة » في الجانب الشرقي من المدينة ، مكان  
قريب من الزاهرة ، المدينة التي بناها المنصور لتكون مقر الحكمه وعظمت  
فيه ثقة المنصور ، فجعل منه وزيره ، يقول ابن الأبار في كتابه « إعتاب

الكتاب » ، نقلا عن ابن حبان : إن المنصور « استوزره قبل سائر أصحابه ، في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (= ٩٩١ م ) في خلافة هشام المؤيد بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة ، وصير في يده خاتمه » .

تلك هي الأسرة التي ولد فيها ابن حزم ، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة ، طبقة كبار الموظفين ، تعيش في ترف ورفاهية ، وفي مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبي ، ويضغظ عليها طبقات النفس أمران غير ظاهرين : تواضع الأصل ، ولا إسلامية السلف ، وكان عليها أن تتحرر منه ، وأن تتغلب عليه ، وفي أشجار النسب متسع ، وهو طريق ساكنه قبائهم ، ومن بعد ، آخرون كثيرون . والأمر الثاني : الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولي نعمته ، والمنصور راعيه .

#### • طفولة بين الحریم :

ولد أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، في قرطبة ، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٥٣٨٤ = ٧ من نوفمبر ٩٩٤ م . وطبقاً لما يرويه ابن حزم نفسه ، في مواضع مختلفة من كتابه « طوق الحمامة » ، صريحاً أحياناً ، وموارباً أحياناً أخرى ، نعرف أنه أمضى طفولة رخيصة وضعيفة وكسولة ، طفولة ابن وزير ، يشب في أهباء القصر ، وتحت رعاية الخدم ، وبين مناغاة النساء ، من القيان والجوارى والإماء ، على أيديهن نشأ ، ومعهن تربى ؛ ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حله الشباب ، وكن حاضناته وأستاذاته ، علمنه القرآن ، ورويته الشعر ، ودرسته في الخط ، ومنهن تعلم أشياء أخرى ليست أقل نفعاً ، ولكنها مؤذية في سن الطفولة . لقد أظهرته في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات القصور ، وحيل النساء . فنشأ صبياً سريع التأثير ، كثير المرض ، ملاحظ العصبية ، متوقد الذكاء ، مطبوعاً على الغيرة ، سيئ الظن بالمرأة وقد نخبها عن قرب ، وأشرف من أسبابها على غير قليل .

أقصى ما عرف من العالم في صباه شوارع « منية المغيرة » ، حتى كبار موظفي البلاط ، الملاصق لقصر الزاهرة ، في نزوات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة ، ولم يكن فيها وحيدا ، وربما قادتة قدماه إلى قصر المنصور نفسه ، وكان ابن أبي عامر ودوداً جدامع الأطنال ، يهش لرويتهم ويسعد بمحضرهم . ولم يشر ابن حزم إلى شيء من هذا في مؤلفاته ، ولكن صديقه وتوأم روحه ، أبو عامر بن شهيد ، قص علينا بعض ما حدث له ، في رسالة جميلة ، كتبها فيما بعد رجلا ، إلى المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، وقد أصبح أمير بلنسية ، وأورد لنا ابن بسام فقرات طوالها في كتابه « اللخيرة » : يتحدث ابن شهيد عن صلته بالمنصور طفلا فيقول : « إني نشأت في حجره ، وربيت في قصره ، وارتضعت ثدي كرائمه ، واعتجرت رداء مكارمه ، واغتذيت من فيه ، أكلأ زقنيه ، وماء علبه ، فصرت أفراخ نعمائه الحمر الحواصل ، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل » .

وكان ابن شهيد ندا لابن حزم ، ويكبره بعامين فحسب ، وينتمي في أسرة عربية عريقة ، وكان أبواهما موظفين كبيرين ، وزيرين في قصر الحجابة ، وعلى نفس المسافة من المنصور ، فليس مجازفة إذن أن نتصور أن ابن حزم ، كابن شهيد ، كان يتردد على قصر الحجابة ، ويحظى بحنان المنصور ، والطريق إليه أيسر من الوصول إلى الخليفة الوقور المحتضر ، وقد دفنه المنصور حياً .

#### • ثوار وعباد جمال :

في عام ٣٩٢ هـ = ١٠٠٢ م ، تحققت رغبة المنصور العظيم ، أن يموت في ساحة الوغى ، وأن يلقي الله مجاهدا ، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة ، وهي الحملة الخمسون من حملاته العسكرية ، وطبقاً لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخير ، في مدينة سالم ، ومعة الغبار الذي تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، وعلى قبره هذا الشاهد :

آثاره تنبئك عن أخباره | حتى كأنتك بالعيان تراه  
قا الله لا يأتي الزمان بمثله | أبداً ولا يحصى الثغور سواه



وتولى الحجابة بعده ابنه عبد الملك المظفر ، ومعه أمليت الأندلس خيراً كثيراً ، وبخاصة في أيامه الأولى ، وكان ابن حزم في الثامنة من عمره ، يطل على العالم قلماً ، ويشق طريقه إلى الحياة في خطى محسوبة ، وتمكس مواقفه نضجاً مبكراً . في بيتهم بدأ غرامياته الأولى مع جوارهم ، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب ، ولقى كبار الأماندة في قرطبة ، يجيئون إليه أويذهب إليهم ، أساتذة يمثلون كل الأفكار ، من أشد الناس ورعاً وتصوفاً وزهداً ، إلى أكثرهم جرأة وتحرراً وتمرداً . وخلال ذلك بدأ ينمي صداقاته ، مع صبيان وفتيان من سنه ، صداقات عمرت طويلاً ، وأخذ بعضها شكلاً حمياً .

وفي الثانية عشرة من عمره ، في عيد الفطر لعام ٣٩٦ هـ ، نلتقى به في مجلس الحاجب المظفر ، يشارك في سماع المهتمين من الشعراء بالعيد ، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية ، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه ، فهو يحدثنا في « الطرق » أن ضمنا العامرية ، كريمة المظفر ، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتاً من الشعر ، اقترحت عليه أفكارها ، لتصنع لها لحناً ، وتجعل منها صوتاً يغنى .

ولم يتجه ابن حزم إلى دراسة الفقه جاداً ومتمكناً إلا شاباً مكتملاً ، في السادسة والعشرين من عمره ، على ما يقول هو ، حين أخطأ في صلاة الجنائزة على شخصية هامة ، فكان موضع سخرية الحاضرين . وقد شك غرسية غومث في الخبر ، وراه لونا من المداعبة ، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس الفقه وعلم الكلام مبكراً ، ولا أرى تناقضاً بين الأمرين ، لأن الدراسة النظرية لا تعنى عدم الخطأ ، لأن العبادات العمالية — وصلاة الجنائزة ليست مما يصلى كل يوم أو حتى كل شهر — تلعب فيها الممارسة دوراً أكبر من القراءة والدرس ، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعنى أكثر من أنه راجع ما قرأ ، وتعمق فيما درس ، واستحضر ما كان غائباً من تفصيلات .

وأياً ما كان الأمر ، فقد اختار ابن حزم في هذه الفترة المبكرة من شبابه ، أن يكون واحداً في رفقة من الأصفياء ، ربطت بينهم صداقة وطيدة ، أقلية من العشاق المصقولين ، تنتمي إلى أعلى طبقة في المجتمع القرطبي ، عرض ابن حزم لبعضهم في « طوق الحمامة » ، وأثنى عليهم كثيراً ، يتميزون بالأناقة ، ويرتدون أفخم الثياب ، في أحدث الأنماط ، يفتنهم الجمال ، وتسهوهم الطبيعة ، تطربهم الموسيقى ، ويفضلون الأدب ، ويتبعون فيه منهجاً ثورياً . كان هؤلاء الفتيمة ، كما تخيلهم غرسية غومت ، يرتدون ملابس بيضاء ، ويحاورون بين أروقة بيضاء ، يغرمون بالأوز ، ويعشقون النساء الشقراوات .

كان هؤلاء الفتيمة من الخاصة في قرطبة يتفنون عند نماذج الأدب المشرقي ، يعرفونها ، ثم يطرحونها ، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها . كانوا باختصار يقرأون كثيراً ، ويتمثلون ما يقرأون ، ويرجلون عبر العالم واقعاً أو قراءة ، ثم يبدعون أخيراً . لقد التزموا منهجاً وسطاً ، ينأى عن التحلل الهابط ، ويتجاوز التقليد المميت ، ويزاوج بين حداثة الفكرة ، ودقة الصياغة ، وحرية الاختيار ، وهي القواعد التي جعلت منها الخلافة طابع المجتمع في قرطبة . وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون في مستوى الحياة ، ومواثماً للتطور السياسي حوله ، وكما يحدث عادة . جاء ذلك متأخراً . وحين تهاوى نظام الخلافة بغتة ، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه ، ولما يعطى إلا قليلاً جداً من ثماره . ثمار مبكرة ، وكثرتها غير ناضجة ، ولكنها شهية من الطراز الأول .

كان أبو عامر بن شهيد رأس هذه الجماعة ، مواضعة وعرفا ، وترك لنا في رسالته « التوابع والزوابع » ، وهي أول رحلة علمانية في التاريخ إلى عالم الآخرة ، ما يمكن أن نعهده دستور الجماعة . لقد صحب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح ، والتقى هناك بشياطين كبار الشعراء ، جاهلين وإسلاميين وعباسيين ، وبعض الكتاب ، فأشده أشعاراً لأصحابهم ،

وأسمعهم شيئاً من شعره . وعرض على توابع الكتاب بعضاً من رسائله .  
وخلال الرحلة ينقد مجتمعه وما يفتقده فيه . ويعرض آماله . وما يطمح  
أن يكون عليه .

فهو يأسى لقرطبة تتحدث لكنة أعجمية . تؤدي بها المعاني تأدية المحوس  
والنبط . ليس لسبويه في كلامها عمل ولا للخليل إليه طريق ، ولا للبيان  
عليه سمة ، ويشكو قوماً من المعلمين في العاصمة . « ممن أتى على أجزاء  
من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غلاظ ، وقلوب  
كقلوب البعران . ويرجعون إلى فطن حمئة . وأذهان صدئة ، لا منفذ لها  
في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان . سقطت إليهم كتب في البديع  
والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع ، والزمير على  
الألحان ، فهم يصرفون غرائبها فيما يجري عندهم تصريف من لم يرزق آلة  
الفهم ، ومن لم تكن له آلة الصناعة » . ويكتب أبياتاً ينافس بها الشعراء  
المشاركة ؛ ويؤكد أن الأدب الجيد يعتمد على الموهبة ، قبل أن يقوم على  
سعة الثقافة ، أو مراعاة قواعد النحو . وأن « أول أدوات الكاتب العقل .  
ولا يكون الكاتب غير عاقل » . ويعنى بالعقل الذكاء في لغتنا المعاصرة .  
والأدب هبة من الله ، لا يعلمه أستاذ . ولا يلتقط من كتاب . والشاعر  
يولد ولا يصنع ، وشر الفن ما كان وسطاً ، « لا يحسن فيطرب ، ولا أيسىء  
فيلهى » . وهي قاعدة جريئة في الأدب العربي ، وليس دونها جرأة في  
تلك الأيام ما رآه ، من أن « لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل  
إطائفة من الأمم نوع من الخطاب ، وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ،  
ولا تهش لسواه » .

وتوفي ابن شهيد ، عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ، إثر داء عضال ، عانى  
مرارته زمناً ، وتحمل عناءه صابراً ، وخلفه ابن حزم في رئاستها ، وكان له  
دائماً صديقاً وقيماً ومخلصاً ، فسار على النهج نفسه ، واحترم تقاليد الجماعة  
وأسلوبها :

• أزمة الخلافة :

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية ثمارها ، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخط ابن حزم أى كتاب مهم له ، إذا استثنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية ، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجتماعية ، تفجرت الحرب الأهلية فى قرطبة ، وعكرت بعنف صفو الحياة المصقولة ، والهادئة ، لهؤلاء الشبان القرطبيين من عشاق الفن والجمال ، وسوف أدرس هذه « الفتنة » وما كان لها من نتائج بالغة السوء فى فصل خاص ، ويكفى أن أشير هنا لما ، وفى إنجاز شديد إلى ما أحدثته فى أسرة ابن حزم . وفى حياته نفسه ، ليبقى خيط الأحداث متصلاً .

لقد توفى العامرى الثانى ، الحاجب عبد الملك المظفر ، فى ١٦ من صفر ٣٩٩ هـ = ٢٠ من أكتوبر ١٠٠٨ م ، فولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجدول . وكان مجرداً من المواهب ، فاغتيل فى قرطبة بعد شهر من توليه الحجابة ، فى ٣ من رجب ٣٩٩ هـ = ٣ من مارس ١٠٠٩ م ، وعزل هشام الثانى عن الخلافة ، وبويع بها محمد المهدي . وأعفى أحمد بن سعيد من مناصبه ، وترك « منية المغيرة » حياً كبقية موظفى البلاط ، قرب ربض الزاهرة ، وقد أتى عليه الثائرون هدماً وتخريباً ، وعاد إلى سكنهم القديم فى بلاط مغيث ، ليواصل الحياة هادئاً ، وبعيداً عن صخب السياسة ، واستطاع أن يحتفظ ببعض ماله من هبة ، وسنلتقى به فى العام نفسه ، فى ٢٧ من شعبان ٣٩٩ هـ = ٢٦ من أبريل ١٠٠٩ م . يشهد المسرحية الرائعة المحزنة ، لدفن هشام الثانى ، المزيف طبعاً ! وكان معه ابنه على صاحبنا ، وترك لنا وصفاً صادقاً ومؤثراً لما حدث ، يقول فى سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله : « وقد شاهدنا نحن مثل ذلك ، وذلك أننا ندرأنا لاجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن ، وقد شاهد غسائه شيخان جليلان حكمان من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، فى بيت ، وخارج البيت أبى

رحمه الله، وجماعة عظماء البلد، ثم صلبنا في ألوف من الناس عليه، ثم لم يابث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا، وبويع بعد ذلك بالخلافة، ودخلت عليه أنا وغيرى، وجلست بين يديه، ورأيت، وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام» .

وفي ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠ هـ = ٢٣ من يولية ١٠١٠ م، اغتيل المهدي بعد خلافته الثانية، وبويع ثانية هشام الثانى، بعد أن قيل للناس أنه مات ودفن، وبعد أن شهدوا جنازته وصلوا عليه!، وكان الظن أن يعود بنو حزم إلى سابق عهدهم، ومكانتهم القديمة، غير أن الأمور سارت على النقيض. لأن لعبة السياسة المعقدة، والموقف الحذر الذى سار عليه أحمد بن سعيد، حتى ذلك الحين، جعله يصطدم مع القائد الصقلبي واضح، محسوب الخليفة، فلاحقه وسجنه وصادر أمواله. وحينئذ رأت الأسرة، وقد تمزقت بقايا العامريين. أن لها الحق، مع غيرها، فى أن تغضب وأن تقاوم، فاشتركت فى عمل المناهضة الصقلبية، ولكن المؤامرة فشلت، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبيرة.

ومع هذه الفتن اجتاح الطاعون قرطبة، وعات فيها، وفقد أحمد ابنه أبا بكر ضحية له، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١ هـ = يونية ١٠١١ م، وبعد عام كامل توفى أحمد نفسه صريع هذه الأحداث، فى ٢٨ من ذى القعدة ٤٠٢ هـ = ٢٣ من يونية ١٠١٢ م، ولعلى صاحبنا ١٨ عاما لما تكمل، وكان عليه وهو فى هذه السن الطرية، وفى عنفوان تعاسة أسرته، أن يواجه الموقف، وأن يدير دفة الأحداث.

وبقيت كوارث أخرى أشد هولاً، ففى نهاية شهر شوال ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م، استسلمت عاصمة الخلافة للبربر، ودخلها سليمان المستعين خليفة للمرة الثانية، وليبقى شهرين فحسب، ومعه نهب قرطبة فى قسوة، وانتهكت الحرم، وعمت الاغتيالات والمذابح، واجتاح التدمير، بلا حساب، كل الأحياء، وأتى البربر على بيت ابن حزم فى بلاط مغيث كاملاً، على نحو (م ٦ - ابن حزم)

ما قص علينا في صفحة من النثر الجميل ، في كتابه « طوق الحمامة » ، وكان على ابن حزم أن يهاجر إلى المرية في ١ من محرم سنة ٤٠٤ هـ = ١٣ من يولية سنة ١٠١٣ م :

• منفى ومتآمر :

في وسط هذه الدوامة من الفوضى والتمزق ، كان يحكم المرية خيران ، صقلبي من فتيان العامريين . ووه لها ابن حزم رفقة صديقه أبي بكر محمد ابن إسحاق ، وأمضيا في البدء أياماً هادئة ، بعيدين عن القلاقل ، فالمدينة أموية الولاء ، لما نزل - اسماً - تحت سيادة الخليفة ، وأصبحت قبة العامريين والأمويين الفارين من قرطبة . وأمضى فيها ابن حزم أعواماً ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة ، وعن تكوين صداقات جديدة ، ففيها كما يحدثنا في « الطوق » اتصل بطبيب يهودي ، يدعى اسماعيل بن يونس ، يتردد على دكانه ، ويجلس إليه في لمة من الأصحاب ، ولسوء الحظ فإن معلوماتنا عن هذا الطبيب معدومة ، لا نعرف عنه شيئاً إلا إشارة ابن حزم هذه .

ولكن خيران ما لبث أن رأى مستقبله السياسي في أن يتخلى عن الولاء لبني أمية ، وأن يوازر على بن حمود الإدريسي في الاستيلاء على قرطبة ، فدخلها في زفة في ٢٢ من محرم ٤٠٧ هـ = ١ من يولية ١٠١٦ م . وأصبحت المرية مدينة عاوية لا أموية ، وبربرية لا صقلبية ، ولم يعد خيران ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المثقفين ، يؤمنان بحق بني أمية في الخلافة ، حفاظاً على الشرعية ، وتمكيناً لهيبة الدولة ، ولا يقبلان هذا مساومة ، فاعتقلهما بتهمة التآمر ، وهي تهمة ربما كانت محتملة ، ولو أن ابن حزم أنكرها على أية حال . وما لبث أن نفاهما .

ومنتفيان في حصن القصر Aznalcazar ، قرية توجد في مقاطعة مالقة ، أو مرسية ، غير التي تحمل الاسم نفسه الآن قرباً من سان لوكار San Lucar سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموي يطالب بالخلافة ، في أرض بلنسية



شرق الأندلس ، وأنه أعد جيشاً سوف يزحف به على قرطبة لملاقاة بني حمود ، ليجمع الشمال ، ويعيد الخلافة ، ويوحد الدولة ، فلم يتردد لحظة ، ابن حزم وصاحبه أبو إسحاق ، وكانا في ميعة الشباب ، من التوجه شرقاً إلى بلنسية في أول سفينة يجدان بها مكاناً .

كان المطالب بالخلافة في هذه المرة شاباً من أحفاد عبد الرحمن الناصر ، يدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ، اكتشفه وحرضه على الثورة خيران الصقابي صاحب المريية ، بعد أن نسي أمسه وغير جده ، وأصبح رسوله إلى منابر التجيبي صاحب سرقسطة ، والذي وقف إلى جانبه ، وزاد فطلب له العون من حليفة كونت برشلونة . وفي ١٠ من ذي الحجة ٤٠٨ هـ = ٢٩ من أبريل ١٠١٨ تجمّع الجيش والأعوان في شاطبة ، وبويع عبد الرحمن بالخلافة ، وتلقب بالمرتضى . ولم تستطع قرطبة وقد طال بها الشوق إلى أمجاد الأمس الزاهر ، ونفذ صبرها في انتظار من يطالب بالخلافة ، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم ، فاغتالت على بن حمود في ١ من ذي القعدة ٤٠٨ هـ = ٢٢ من مارس ١٠١٨ م ، فجمّ على صدرها أخوه القاسم .

وبينا قرطبة تطوى الضلوع على ثورة صماء ، وكرامية غير مكتومة لبني حمود تحرك المرتضى نحوها على رأس جيشه ، عن طريق جيان ، وكان ابن حزم ، فيما يرجح ، ضمن هذا الجيش ، وكانت عاصمة الخلافة مهياة لاستقبال الحليفة ، وكل الظروف تجعل من النصر أملاً ممكن التحقيق ، لولا خيانة خيران ومنابر في اللحظة الحاسمة . لقد ظن كلاهما ، في البدء ، أن المرتضى سوف يكون مجرد لعبة في أيديهما ، ظلاً يحكمان من ورائه ، فلما وجداه ذا شخصية قوية ، قادرة على اتخاذ القرار المناسب في اللحظة المناسبة أضمرأ له الغدر ، ومن موقعهما مستشارين وحليفين قدما له نصيحة قاتلة : من الأفضل له ، قبل أن يتقدم إلى العاصمة ، أن يقضى على بني زيري ، من بربر صنهاجة ؛ وقد استقروا في كورة

إلبيرة ، واتخذوا من غرناطة عاصمة لهم ، وكان على رأسهم حينئذ الأفریقی العجوز المداهية ، زاوى بن زبرى ، الذى لم يهزم أبداً ، والذى اضطر بعد قليل ، وفى قمة مجده ، أن يتنازل عن رياسته ، وأن يعود إلى إفريقية ليموت هناك مسموماً . وقد التقى الجيشان . وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة ، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخاً لها ، محدداً ودقيقاً .

لقد هجم البربر بشراسة على جيش المرتضى ، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه خيران ومنذر ، فتمزق جيشه شر ممزق ، وهرب المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وفيها اغتالته عصابة مأجورة من المرية ، على حين توزع القتل والهرب والأسر جيشه ، وكان ابن حزم من بين الأسرى ، وطبقاً لما يذكره فى كتابه « الطوق » ، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة سرا ، فى شوال من عام ٤٠٩ هـ = فبراير من عام ١٠١٩ م . للقيام باستطلاع الموقف السياسى ، وجس نبض المدينة على التأكيد .

وبعد أن أفلت ابن حزم من الأسر البربرى انسحب إلى شاطبة ، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التعميس فى ساعة نحس ، وفى شاطبة ، بين عامى ٤١٢ و ٤١٣ = ١٠٢٢ م . فيما يحتمل . حرر كتابه « طوق الحمامة » . وله من العمر ٢٨ سنة ، استجابة لرغبة صديق له من المرية ، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب ، ثم جاءه فيما بعد شخصاً إلى شاطبة ليراه ، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها .

#### ● بريق انتصار :

لم تطل فترة خلافة بنى حمود فى قرطبة . وكانت أشبه بحمامة بن قوسين فى تاريخ الخلافة الطويل ، على حد تعبير غرسية غومث ، فقد ضعف أمر القاسم بن حمود ، واضطرب الحبل فى يده ، وتسلط عليه البرابرة حتى احتقروه ، وأراد هو أن يخلص من سلاطنتهم فأحل السودان مكانهم ، واتخذ منهم جنده ، وأخذ يضرب أولئك بهؤلاء ،

فتامر البربر عليه ، بمعارنة يحيى وإدريس ابن أخيه ، فترك قرطبة ، وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٢ هـ = ١٠٢٢ م . وتولى الخلافة مكانه يحيى الذى انصرف عنه السودان والبربر جميعاً ، فأثر السلامة ، وترك قرطبة كما تركها عمه من قبل ، فى ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤١٣ هـ = ٩ من سبتمبر عام ١٠٢٣ م . وبينما المحن تطوق قرطبة من كل جانب ، بدأت تحاول شيئاً بناء إلى أقصى حد ، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل ، إذا لم نقل ثورياً فى عالم السياسة المضطرب : أن ينتخب الشعب الخليفة فى المسجد الجامع ، طبقاً لأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها ، أن يحيى الخليفة مختاراً لا وارثاً ، ولا معيناً من سابقه ، ولا مفروضاً بقوة السلاح . وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بنى أمية فى الأندلس .

لم تكن ساطة الخلافة الفعلية فى هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة ، وماذا يهم ؟ . . . ألم يحدث شئٌ شبيه به هنا ، حين انحصر ساطان العاصمة فى عصر الأمير عبد الله ، وتحمل القرطبيون المهانة ، فى انتظار أيام مجيدة ، جعلت من قرطبة مصدر القوة والجلال والثقافة ، على أيام عبد الرحمن الناصر ، والحكم الثانى ، والمنصور بن أبى عامر ؟ . إن الأمل آخر شئ يمكن أن يفقده الإنسان العظيم .

وفى ١٦ من رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ من ديسمبر عام ١٠٢٣ م ، وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة : سليمان بن المرتضى وعبد الرحمن بن هشام ، وعلى بن محمد العراقى ، ولم يكن أحد بدءاً يفكر فيه على الإطلاق ، اختاروا عبد الرحمن بن هشام ، خامس الخلفاء الذين حملوا هذا الاسم ؛ وتلقب بالمستظهر . وكان الخليفة الجديد على حدائثه سنه ؛ كما يصفه ابن حيان : « لبقاً ذكياً ؛ يقظاً لوذعياً ؛ لبيداً أديباً ؛ حسن الكلام ؛ جيد القريحة ؛ مليح العبارة ؛ يتصرف فيما شاءه من الخطابة ؛ بديهة وروية ؛ ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة ، لم يكن فى بيته يومئذ

أبرع منه منزلة ، وكان قد نفاذته المخاوف ، وتقاذفت به الأسفار ، فتحنك وتخرج وتتمرن فيها .

كان المستظهر يطمح أن يعيد إلى الخلافة بهاها ، وإلى قرطبة أمجادها ، فأحاط نفسه بخيرة الأدباء على أيامه ، وجلهم ينتمون إلى جماعة المثقفين الذين أشرنا إليهم من قبل . فكان بينهم ابن حزم ، وابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب ، وأبو عامر بن شهيد ، والشاعر البارع حسان بن مالك ، والكتّاب الرائع ابن برد . ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوخ ، ومحترفي السياسة ، والمنتفعين بالمصائب ، فضوا يألجون عليه العامة ، ويثرون الفن والدسائس بين الخاصة ، ويبيعون الأحلام للطامعين ، فلم يستطع أن يبقى في الحكم أكثر من شهر ونصف ، فقد أهدم في ٣ من ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ = ١٧ من يناير عام ١٠٢٤ م ، وبذهاب الخليفة استقر ابن حزم في السجن من جديد .

### • نخبة أمل ، وتغيير الطريق :

في هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضميرها ، ليقنعه بأن العالم السياسي الذي ينتمي إليه ، وناضل من أجله ، انتهى تماماً ، مات ولا سبيل إلى بعثه ، وقد احتاجت قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتتفتح بالنتيجة نفسها . وعندها خرج من السجن ، والإحساس بالخيبة مملأ داخله ، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة السياسة ، فنبذ الوزارة وأطرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييد الآثار ، من شريعة وفلسفة وتوحيد وتاريخ ، وظل موصول السبب بها حتى في أحلك لحظات حياته ، رجل دولة أو مغامراً أو لاجئاً ، « ونال من ذلك ما لم ينل أحد قباه بالأندلس » ، والشيء الوحيد الذي لم يتخلى عنه ، وما كان بوسعها أن يفعل لأنه يحمله في دمه ، هو روح المخالفة والأصالة والجرأة ، ورافقت حياته دائماً . لم يستطع أن يكون تقليدياً مالكي المنصب ، ورأى كبار علمائه مرات كثيرة ، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين عادة ، وفي كل مكان إلا ما ندر ، يتحالفون مع الساطان ، وياتقون مع كبار

الموظفين ، ويغيرون مواقفهم على النحو الذي يرضى الحكام ، فأصبح المذهب المالكي بفضلهم هو السائد في قرطبة ، تعليماً وشعائر وفتوى . وحوم حول المذهب الشافعي قليلاً ، وأقام عليه زمناً ، وراه أكثر توفيقاً وتعادلاً ، رغم قلة أتباعه ، ومناهضة الدولة لأولياته ، ثم انصرف عنه ، فقد وجدته يلفظ أنفاسه ، وانتهى به المطاف فقيهاً ظاهرياً ، قبل عام ٤١٩ هـ = ١٠٢٩ م ، وكانت له من قبل صلوات بالمذهب ، ورفقة مع السائرين على دربه ، وصلات أدبية ، على الأقل ، مع علمائه .

أوفي مسجد قرطبة الجامع ، إلى جوار أستاذه الظاهري ، أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني ، أخذنا يدرسان أصول المذهب الظاهري ، مع آخر أيام الخلافة ، وقد أصبحت هذه شكلاً مهلهلاً ، حوالى أعوام ٤١٨ - ٤٢٠ هـ = ١٠٢٧ - ١٠٢٩ م . وقد آتهم علماء المالكية ، والجمهور من ورأهم ، الأستاذين الجليلين بأتهما خطر على العقيدة ، ويفسدان تدين الشعب ، فاستشار صاحب المدينة في أسرهما هشاماً الثالث ، آخر خليفة أموي ، وربما قبل أن يدخل المدينة ليمارس سلطاته ، وتقرر منعهما من تدريس المذهب الظاهري . ومن تلك اللحظة أصبح ابن حزم عالماً نائراً ، غير مرغوب فيه ، يواجه وحيداً التخلف والتقليد والجمود ، وتزييف نصوص الشريعة لخدمة الأقوياء ، وبدأ يبشر بفكر إسلامي راق ، وفلسفة مستقيمة ، ولم تغرب حميته أبداً ، رغم كل المصاعب الجمة التي تعرض لها . ومع هذه المرحلة الجديدة من حياته سوف تقل معلوماتنا عنه كثيراً ، وسوف تصبح كتبه مصدرنا الوحيد لكتابة تاريخ حياته فيها .

#### • جهد ثقافي عملاق :

حتى ولو أخذنا في الاعتبار أنه عمر نسبي ، فإن ما قام به في حقول الدراسات الإسلامية كان فرداً وعملاقاً ومتميزاً ، ويقول عبد الواحد المراكشي ، في كتابه « المعجب في أخبار المغرب » ، وألفه في ظل الموحدين وهم ، يناهضون المالكية ، فجاءت أخباره بعيدة عن التعصب ، قريبة إلى الواقع ، إن ابن حزم

كان أكثر أهل الإسلام تصنيفاً ، وإنه « صنف في الفقه والحديث والأصول والنحل والمال ، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب ، والرد على المخالفين له ، نحواً من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء ما عامناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله ، إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري » ، وبعض هذه المجلدات كما نعرف رسائل صغيرة ، ولو أن ذلك لا يقال من جهد المؤلف ؛ ولا من قيمة الرسالة . ومحال أن نقف في هذه العجالة عند هذه المؤلفات محللين ؛ ونحيل الراغبين في هذا إلى الدراسة القيمة التي قام بها ميجيل أسين بلاثيوس لهذه المؤلفات ؛ في كتابه العظيم عن « ابن حزم القرطبي » ؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية ؛ وسوف يصدر عن قريب . ولقد أرى ؛ ويرى غيري معي ؛ أن الأمر رغم ذلك يحتاج ؛ على المدى البعيد ؛ إلى جهد آخر متأن ؛ في ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة ؛ وما نشر له أخيراً من تراث .

يكفي أن نقف هنا عند كتابه « طوق الحمامة » ، وسنعرض له تفصيلاً فيما بعد ، وأن نشير من بين أعماله إلى مؤلفاته ذات الأهمية القصوى في الفكر الإنساني ، على امتداد كل العصور ، ولم تذهب به الأحداث . ويأتي في مقدمتها كتابه المسمى « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » ، وقد أجمل أسين بلاثيوس وصفه بقوله : « إنه أشبه بيوميات دون فيها ابن حزم ملاحظاته ، أو اعترافات تتصل بحياته ، وتأتي الملاحظات في ثنايا الكتاب دون ترتيب يقصد به إلى التربية والتعليم ، ولم يراع في تنسيقها منطقاً . ونحن إذ نقرأه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ ، دقيق الملاحظة ، أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها في قالب مبادئ عادة وحكم ، وأعظم قيمة لدينا الكتاب . رأته ابن حزم وقد اعتزل الناس في قرية منته لشم ، وصدر عن نفس يشربها الشاؤم والتصوف ، أنه يقدم لنا صورة حثيثة وحيوية لنفسية مسلمة الأندلس في القرن الحادي عشر ، وقواعد الأخلاق التي كانت مرعية في معتقداتهم ، إلى بجانب الفقرات التي تتصل بحياة ابن حزم نفسه » .



ثم كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وهو تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب ؛ غنى بمادته وأفكاره ، وحاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة ، فسبق ابن رشد في ذلك بقرن من الزمان ، ويعرض لشتى مذاهب الفكر البشري في موضوع الدين ، من الإلحاد المطاق لا يؤمن أصحابه بشيء ، إلى إيمان العوام يصدقون كل شيء . ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين النقل والنقل ، مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهري الذي كان هو نفسه عليه .

وخلف لنا ابن حزم مادة طيبة في التاريخ ، يهمننا أن نشير من بينها خاصة إلى كتاب « جمهرة أنساب العرب » ، وهو أحسن قائمة بأنساب العرب في الغرب الإسلامي ، ولما يارسون تاريخ الإسلام في المشرق والأندلس . وكتاب « نقط العروس » ، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام في المشرق والأندلس ، وفيها يبدأ وكان نقاطاً وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتاباً مطولاً . وله رسالة في « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » ، وجاء المقرئ بنصها كاملاً في « نفع الطيب » ، وحررها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها ابن عمه ، أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم ؛ من أديب القيروان ابن الربيب التميمي ، أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد ، وربما كانت الأولى في تاريخ الأدب الأندلسي ، وأول محاولة للإشادة بأمجاده ، ورغم قصرها جاءت شاملة بما ألف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم .

ولابن حزم مؤلفات أخرى ، فلسفية وفقهية أو في علم الكلام ؛ أو التاريخ ، أو الأدب الخالص ، وأحيل القارئ بشأنها إلى الكتاب الذي أشرت إليه في بداية الكلام .

#### • في مواجهة العواصف :

أنجز ابن حزم هذا العمل العملاق وهو يواجه أعنى العواصف والأعاصير ، هدفاً لكل ألوان الحق والكراميه والتأمر ؛ اضطهده صغار ملوك الطوائف ،

وكلهم صغار ، وأتهدم رجال الدين بالمروق ، فلم تلن له عريكة ، ولا وهن منه عزم ، وبقي وحده ، ومعها قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه ، يواجهون المحنة في صلابة ؛ جباههم عالية ، وقاماتهم مرتفعة ، يحركون الأفكار الجامدة ، وينرون العقول المظلمة ، ويهزون مسلمات كثيرة متخلفة ؛ ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية ، ولد كلاماً يقال ، جلدلاً عنيفاً مع خصومه ، وإدانة صريحة لهم ، وكانوا يتمتعون برعاية الدولة وحماتها .

كان ابن حزم مجادلاً لا بكل : جاد الكلمة ، عنيف المناظرة ، واحفظ جانب كبير من إبداءه بحرارة الحوار وحدته ، وكان في حيويته هذه ، في القرن الحادى عشر ، «مدرسية Scolastique» حية ومتوهجة ، تفوق «مدرسية» المسيحيين في أوروبا ، وقد أفرغوا الحوار من محتواه ، ودفعوا به جملاً باردة ، لأروح فيها ، مما حكا نخواء ، ورغم أنها بداية من عصرها الثانى ، مع الدم الجديد الذى تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس ، ومع توماس الأكوينى ، شهدت فترة ازدهار وحياء ، إلا أنها كانت تهم العلماء وحدهم . وقليلاً ما تتجاوز آثارها قاعة البحث ، أما فى قرطبة القرن الحادى عشر ، فكانت تهم الجمهور كله ، ويتابع صداها شغوراً . لقد تميزت «مدرسية» قرطبة . بشدة الإيقاع . وأصالة المحتوى ، وحرية المنهج ، والدفء والتجدد والبساطة . ومشاركة عامة الناس على نحو ما .

لقد عاين ابن حزم من ألوان الظلم ما أنضب فى أعماقه معين الرقة واللين ، وشاهد من مساءات السياسة ما نفره منها ، وأوذى فى نفسه وكرامته ، فاعتزل الدنيا محاصراً ووحيداً ، قرينته بنت لشم ، من بادية ولبة ، يواصل رسالته بنفس القوة التى بدأ بها حياته ، شاباً واعداً ومناضلاً عنيداً ، «يبث علمه فىمن ينتابه بباديته تلك ، من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحذهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ؛ والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى

كامل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير ، لم يعد أكثرها عتية بابه ، لتزهد الفقهاء طلاب العلم فيها ؛ حتى أحرق بعضها بإشيلية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة في نشرها ، وجدالا للمعاندا فيها ، إلى أن مضى لسبيله .»

في رسالة ابن حزم « فضائل أهل الأندلس » وقره ، كأنما عنى بها نفسه ، رغم أنه كتب الرسالة في زمن مبكر نسبيا ، ولا يستطيع الدارس لحياته أن يمر بها دون أن يقف عندها . يقول : « أزهذ الناس في عالم أهله ، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفتنا النبي حرمة إلا في بلاد . . . » ولا سيما أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به . واستمجانهم حسناته . وتتبعهم سقطاته وعثراته . وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد . إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة لتعصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمة الهبل ! .

«وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقتين ، إما شفوفاً بائناً يعلمه على نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل ، وطوق ما لم يتقاده ، وألحق به ما لم يفه به ، ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف نغم ولز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع حين سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودي بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته . وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعرا ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب

إلا الناهض الفائق ، والمطمنف المستولى على الأمد .

• محافظون ومجددون :

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه ، حاد الذكاء ، موسوعى الثقافة ، صلب العزيمة بلا حدود ، عنيف المواجهة دون مثال ، لعب دوراً هاماً في تطوير الفكر الأندلسى ، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة ، والرسمية في الوقت ذاته . لقد احتضن الأندلس حتى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، لونين من الثقافة ، يسيران في خطين متوازيين دون أن يلتقيا : المحافظون وهم الكثرة الغالبة ، والمتحررون . وكان المحافظون وأعنى بهم علماء المذهب المالكى السائد فى الأندلس ، وقفوا بنشاطهم الثقافى عند حد التشريع العملى ، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة بالعتيدة نفسها ، وآتهموا كل من يتكلم فى المنطق بالزيغ ، وكل تفكير عقلى فى مسائل الدين بأنه زندقة . وكان الاتجاه الثانى يتحرك بين قلة مثقفة ، وليكنها لا تطمح ، ولا ترى لها مصلحة ، فى مواجهة المحافظين أو الدخول معهم فى خصام ، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة .

وقد ظل المالكية حتى القرن السادس الهجرى يقاومون الأشعرية ، ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك فى حرية ، وقد وصلنا كتاب « تقويم الذهن » لأبى الصلت الدانى ، أمية بن عبد العزيز ، المتوفى عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م ، وهو رسالة فى المنطق ، توجز آراء أرسطو . وكان ابن حزم عالماً فرداً ، واتحاهاً متميزاً ، ولم يكن مالكياً ولا أشعرياً ، ولا زاهداً ولا أرسطوطاليسياً ، بل وآتهمه ابن حبان بأنه لم يفهم أرسطو ، ومحدود الأنباع كظاهرى ، يبذل جهداً فائق النظر ، لكى يقيم جسراً بين العقيدة والمنطق .

ومهما يكن من أمر ، فقد نضجت شخصية ابن حزم ، واستكمل عدته ، ومكنت له الأحداث من صمتل مواهبه ، وزادته اعتداداً بنفسه ، ففضى فى طريقه ، يتمرد على التقاليد القائمة ، ويشور على الجمود الدينى ، ويهاجم

المذاهب المختلفة ، فقهية وكلامية ، مسلمين وغير مسلمين ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما أتاحت له الفرصة ، بالمناظرة في المجالس ، وبتأليف الكتب والرسائل ، واتسم جملته بقوة الحججة ، ونصاعة البيان ، وقوة الدليل ، ولكنه وقد ملك لساناً ذرباً ، دسلاً باللفظ الموالية ، حتى قال عنه الصوفي الأندلسي ابن العريف : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » . لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع ، وإنما يحتد في أحيان كثيرة ، فيتجاوزها إلى التسفيه والتكفير والتفسيق . وهي حدة تعود في جانب منها إلى عصبية مزاجه ، واعتلال صحته طفلاً . ولا أراها مما يعاب عليه جملة ، فهي تأتي منه ، غالباً ، في موضعها ، وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن بها إلى صوت مرتفع ، لتوقظ نائماً ، وتنبه خافلاً . يقول عن نفسه :

« ولقد أصابني علة شديدة ، ولدت على ربوا في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلة الصبر والتزق ، أمرا حاسبت نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل نحقي ، واشتد عجبني من مفارقتي لطبعي ، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده » .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعلماء عصره ، وكان منه ما أسماه ابن حيان « أنه يجهل سياسة العلم » ، وجعلها مصدر معظم أخطائه . ونحن نكتب عن حياة عظيم ، مرت عل وفاته أكثر من ألف عام ، وعاش في بيئة جد مختلفة ، يستحيل علينا أن نجزم ، أو حتى نرجح ، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة في ملاقاته معاصريه .

#### ● مناظرات وملاحقه :

لا نعرف ، كما أشرنا من قبل ، شيئاً دقيقاً وموثقاً عن الأعوام الأخيرة من حياة ابن حزم . نعم ، نعرف أنه أصبح مثقفاً عنيداً ، أنحس سفر ، جواب آفاق ، يتنقل بين دول الطوائف المختلفة ، يحاور العلماء ويجادل الفقهاء ، وينظر أهل الكتاب ، و عنف دائماً ، كما هي عادته . صنع ذلك في قرطبة والمرية وطلبيرة وميورقة ، وربما في مدن أخرى لم يصلنا خبرها . وفي

ميورقة ، وجاءها لاجئاً بعد عام ٥٤٣ = ١٠٣٩ م وجد الحماية والتقدير في شخص عامليها الوزير الكاتب أبي العباس ، أحمد بن رشيق ، وكان مولى لبنى شهيد ، وتأدب في قرطبة . ووجد أيضاً مزاحمة شديدة في شخص قرطبي آخر مثله ، أصغر منه سنّاً أبو الوليد الباجي ، من كبار فقهاء المالكية ، وكان قد رحل إلى المشرق ، ولبت في رحلته هذه ثلاثة عشرة عاماً ، لقي فيها كبار العلماء في الفقه والحديث وعلم الكلام ، « فبرع في الحديث وعلمه ورجاله ، وفي الفقه وغوامضه وخلافه ، وفي الكلام ومضايقه » ، وكان إلى هذا ، كابن حزم ، أديباً يقول الشعر ، ويحسن تدبير الكلام .

ولما عاد من رحلته وجد ابن حزم مجادلاً ، وصاحب مذهب متميز ، تسد شهرته الأفق ، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق ، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ العجز ، ففرحوا بمقدم أبي الوليد الباجي إلى ميورقة ، وأثاروه على ابن حزم ، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل . وانعقدت بينهما المناظرات في الفقه ، وعلم الكلام أيضاً ، وكان أبو الوليد متقدم الأشاعرة في الأندلس ، وابن حزم خصماً للدوآ لهم ، وليس ثمة شك في أن ابن حزم وجد في مناظره لوناً جديداً من العلماء لم يعهده من قبل ، وسوف يعترف فيما بعد ، في رسالته عن « فضائل أهل الأندلس » : « لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبي الوليد كفاهم » .

لم يتوقف الدين عمجروا يوماً عن مواجهة ابن حزم في ساحة الجدل والمناظرة عن الكيد له ، والدس عليه ، عند سلطات الجزيرة ، فلم يجد بداً من تركها ، وما من أحد في ملوك الطوائف يرغب في أن يستضيف بأرضه عالماً مزعجاً ، لا بسبب آرائه الدينية فحسب ، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضاً ، فقد ظل ابن حزم متمسكاً بشرعية الخلافة الأموية . لم يتزحزح عن رأيه أبداً ، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة . لاصلة لها بالواقع ، ولا مطمح أن تهود ، ولو لكانه لم يشارك في اللعبة السياسية المعقدة التي كانت تجري على أيامه هذه ، ولم يحتضن فكر أية جماعة معارضة ، وفي رسالته « التلخيص

لوجوه التخليص » ، وجاءت رداً على سائل يطلب الرأى عنده فى قضايا كثيرة . سؤال عن المرقف الذى يجب على المرء أن يتبعه « من أمر هذه الفتنة ، و ملابسة الناس بها ، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض » ، كانت إجابة ابن حزم : « ... فالخلاص لنا فيها الإمساك للألسنة بجملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و ذم جميعهم . فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه » . ولقد ذم ماوك الطوائف جميعهم فى رسالته هذه . وحمل عليهم فى غير هوادة : « وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أئدلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد . والذى ترويه عياناً من شتم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها . ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله » . ونحن « نراهم يستمدون النصرارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورباهم بحملونهم أسارى إلى بلادهم » ، « وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخاوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه » .

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه ، وعلى أيامنا أيضاً ! . فتاواهم معدة ، وأقلامهم مشرعة ، يدعمون بها الطغاة خوفاً ، ويبررون لهم المظالم طمعاً ، ويسبحون محمد الحاكم ملقاً ، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا ، بغير العاجل من شئون الآخرة ، « فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » .

وأقسى هجوم نخص به ماكا من الطوائف ، كان موجهاً ضد أمير غرناطة ، باديس بن حبوس الذكى الدموى الداھية ، رأس البربر ، وخليفة



زاوي بن حبوس الذي قضى على محاولة المرتضى ، على نحو ما أشرنا ، وأخذ ابن حزم سجيناً ، ذلك أن باديس جمع فساد بقية ملوك الطوائف وزاد عليه بأن اتخذ وزيره الأول ، ومستشاره الأمين ، من اليهود ، ابن النغريلة الشهير الذي مكن لأبناء قومه من رقاب المسالمين ، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة ، ثم أخذته العزة بالإثم « فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفة ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة في مجانة عوداً » . وقا . رد عليه ابن حزم قوياً وعنيفاً في رسالته : « الرد على ابن النغريلة اليهودي » ، فنقض آراءه ، وفند حججه ، وبين مساوية قومه ، وأراد لصوته أن يكون عالياً وقاسياً ليباغ ملك غرناطة ، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقداً ومهدداً ومستنهضاً : « إن أملى لقوى ، وإن رجائي مستحکم ، في أن يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم ، وجعلهم بطانة وخاصة ، ما سلط على اليهود ، وهو يسمع كلام الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منتكم فإنه منهم » . « وإن من فعل ذلك لخرى أن يشاركهم فيما أوعده الله تعالى في توراتهم ، في السفر الخامس ، إذ يقول لهم تعالى : « ستأتيتكم ، وستأتى عليكم ، هذه اللعنة التي أصف لكم ، فتكونون ملعونين في مدائنكم وفدادينكم ، وتلعن أجدادكم وبقاياكم ، ويكون نسلككم ملعونا ، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج » .

هل قنع ابن حزم بهجومه الفكري ؟ .

في كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، فقرة مثيرة ، نقلها عن المؤرخ القرطبي العظيم ابن حيان ، جاءت خلال حديثه عن الطزيمة المريجة التي أوقفها باديس ابن حبوس ، أسير غرناطة ، بزهير الصقلبي أمير المريجة ، وفيها أن باديس ظهر على قوم من وجوه رجال زهير ، فعجل على الفرسان والقواد بالقتل ،

واشتمل الأسار على حملة الأقالام ، وفيهم وزيره التياها أحمد بن عباس الجار لهذه الحادثة ، قيد إلى باديس وصدرة وصدور أصحابه تغلى عليه ، بما أوقد من هذه النائرة ، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالا ، وشفاؤه الولوغ دمه ، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقالام ، عفا باديس عن دماهم من بين أصحاب السيوف إلا من أصيب منهم في الحرب ، وأطلق ابن حزم والباجي وغيرهما . ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا ، وقد ارتبط بالمرية دائماً ، ولعله أراد أن يثار لأسره الأول فوق في الأسر الثاني ، وكان برفقة أبي الوليد الباجي ، مناظره اللدود والعنيد في مناظرات ميورقة . بينما يرى الأستاذ الجليل ، الدكتور طه الحاجري ، في كتابه «ابن حزم : صورة أندلسية» وقد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشرق الاسباني ، والتفت إليه ، أنها تنصرف إلى أبي المغيرة .

كان عداء ابن حزم لباديس أمير غرناطة ، ورأس البربر في الأندلس ، عنيفاً وجاداً وله ما يبرره ، ولكنهم يلق به ، وهو رجل مبدأ لا يحيد عنه ، في أحضان الحزب المعارض لباديس ، وهم بنو عباد في إشبيلية ، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامية ، ومع رجال الفكر بخاصة ، وكانوا ، بحق ، قادة الجانب العربي في معركة النزاحم بين الأجناس المختلفة ، وسادة المنطقة التي استقر فيها بيت آل حزم من قديم ، وبها أرائهم وديارهم ، ورغم ذلك كله ، أدار لهم ابن حزم ظهره ، إنه صلب العقيدة ، طاهر السيرة ، يرى الخلافة شرعة ، وفي بنى أمية شرعا ، لا يساوم ولا يتراجع ولا يتأول ، ولا يرتضى أنصاف الحلول . وكان المتعضد أمير إشبيلية ، وحكم من ١٠٤٢ م إلى ١٠٦٩ م ، كفرينه أمير غرناطة ، دمويا قاسيا ، يأخذ بالظنة ، ويخفر الذمة ، ويبلغ في المثلة ، فلم « يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد » ، ولا بد أن رأى ابن حزم فيه كان كرايه في باديس . ونجهل التاريخ أو الظروف التي أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم ، وحرقتها علانية ، وفيها نظم ابن حزم أبياته الشهيرة عندما بلغه أمرها ، والتقطها كل الذين أرخوا له :

دعوني من إحراق رق وكاغد  
وقولوا بعلم كى يرى للناس من يدرى  
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى  
تضمينه القرطاس ، بل هو فى صدرى  
يسير معى حيث استقأت ركائبي  
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

• هزيمة دون كيشوته :

وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شىء ، وأشد مرارة وتشاؤماً من مواطنه  
كيشوته الإسباني ، بطل رواية مرفانتييس الشهيرة ، وعاش على الأرض نفسها .  
بعده بخمسة قرون ، وذهب كلاهما ضحية أحلامه : وقد حدد لنا ابن حزم  
منهجه فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « لا تبذل نفسك  
إلا فيما هو أهل منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل ، وفى دعاء  
إلى حق ، وفى حماية الحرم ، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ،  
وفى نصر مظلوم ، وبإذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الياقوت بالخصى » .  
و « إنى لا أبالى فيما أعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من  
على ظهر الأرض ، وإنى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زهيم الذى  
قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها » .  
لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف ، عقيدة وساوكا ومنهجاً فى الحياة ،  
ودعا إلى سلامة الباطن ، وخلوص النية ، واستقامة العمل ، وناضل  
عما يؤمن به دون هوادة ، وفى كل مكان ، وأثار على أعدائه حرباً شعواء  
متصلة . دافع عن الإسلام فى وطنه وبين أهله ، وبعيداً عنه خارج حدوده ،  
بالموعظة الناصحة ، والشروح الكاشفة ، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة ،  
وحين نظم نقفور فوكاس إمبراطور بيزنطة ، مزهواً بانتصاراته ، قصيدة  
ذم فيها الإسلام ، وبعثها إلى الخليفة المطيع فى بغداد ، تولى ابن حزم الرد  
عليه ، بتقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام ، وكشف عن تناقضات المسيحية ،  
وأرسلها إليه ، وأورد لنا السبكي نصها فى كتابه « طبقات الشافعية » .

وظل حتى آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية في الأندلس ، وقد اختفت إلى الأبد ، وشديد القناعة بأن « نوار الفتنة لا يعقد » ، وكان يحس بأنه لم يخلق لعصر الطوائف ، وظل يبشر بمذهبه الظاهري وسط المتاعب والصعاب ، و مواجهة الجميع ، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم على الاقتصاد والسياسة ، على نحو ما فعل مواطنه أبو إسحاق الإلبيري ، وكان شاعراً وفقهياً ، ودفع بقصيدته الرائعة مسلحاً غرناطة موطنه ، إلى الثورة على مظالم يهودها ، فانتقموا منهم ، وأتوا على نفوذهم ، في يوم عاصف مريع . وانتهى المطاف بابن حزم وحيداً ، فكراً وإحساساً ورفقة ، شبها لعصر مضى ، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى في قرية منت لشم ، من وديان ولبة ، في تاريخ نجهله لسوء الحظ ، رفقة أولاده فحسب ، ولم يحدثنا عن أسرته القريبة أبداً ، في كل ما كتب ، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء .

أية مشاعر حزينة كانت تغمره ، وهه يعود إلى قريته في الريف مهزوماً ، مغلوباً على أمره ، قريته التي خرج منها جده قبل جيلين فقط ، مغموراً ينتسب في أسرة اعتنقت الإسلام من قريب ، وصنع لها والده مجداً مؤثلاً ، يومها كتب في « الأخلاق والسير » : « أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل » ، وهي تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى » ولم يتوقف هناك عن العمل ، مضى في قريته يؤلف كتبه ، ويجرر رسائله ، ولو أنها على حد تعبير ابن أبي حيان : « لا تتجاوز عتبة داره » ، وأوضحها كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » . وهو سلسلة من الاعترافات سجلها وله من العمر ٦٩ عاماً شمسياً ، أو ٧٢ عاماً قمرياً ، وتوفي يرحمه الله في ٢٨ من شعبان ٤٥٦ هـ = ١٥ من يولية ١٠٦٣ م :

كأنك بالزوار لي قد تناذروا      وقيل لهم أودي على بن أحمد  
فيارب محزون هناك وضاحك      وكم أدمع تدرى ونحد مخدد  
عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا      عن الأهل محمولاً إلى بطن ما حمد

وأترك ما قد كنت مغتبطاً به وألقى الذي آنتست دهرًا بمرصد  
فوارا حتى إن كان زادي مقدما ويانصبي إن كنت لم أتزود

• تلاقى النقيضين:

درج الباحثون على تقسيم حياة ابن حزم الأدبية إلى مرحلتين هما ، فيما يرى أسين بلاثيوس : « واحدة حتى الثلاثين من عمره ، والأخرى منهما حتى موته » . وفي الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة ، وفي الثانية ترك السياسة ليتفرغ لدراسة الشريعة والعقائد . وهي تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظري فحسب ، لأن المرحلتين تعايشا واقعا ، على امتداد حياته ، ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة ، ودون ذلك ليس ثمة مجال لالتقاط نفسيته شابا ، ومعرفة الكثير من إشارات طوق الحمامة ، وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها .

ويرى غرسية غومث ، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق ، أن تلاقى الأضداد في شخصية ابن حزم ، وازدواجية الصوت عنده ، وتجاور اللطف والحشونة ، والرقّة والعنف ، والنبيل والعامية ، دون أن يذوب أحدهما في الآخر ، يجعل منه شخصية محببة لنا ( الضمير يعود على الإسباني ) ، لأنها تضعه إلى جوار عدد من إقمم الأدب الإسباني في عصره الذهبي ، أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبيرية واضحا ، مثل الشاعر القرطبي جونجرا Gongora ( ١٥٦١ - ١٦٢٧ ) ، والموسوعي كبيدو Quevedo ( ١٥٨٠ - ١٦٤٥ ) ، ونستطيع أن نذكر آخرين كثيرين ، ليس بينهم ثرفانتيس مؤلف الرواية العالمية الخالدة دون كينخوته ، وأعطانا المثل رائعا ، ولا يتكرر ، كيف تلتقى متناقضات سلالتنا الجذرية في تركيب إنساني ومفهوم ، حاو وحزين ، وإلى ذلك ، وفي خط مواز له ، يمكن أن نضيف الشموخ الإسباني ، وأعطانا ابن حزم خلاصته في بيت شعري بنضح خيلاء ، وفي مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسباني :

أنا الشمس في جو العاوم منيرة ولكن عيبي أن مطاعى الغرب

• نثر على الدوام :

كان ابن حزم متمرداً وثائراً في شببته الأدبية ، وفي شيخوخته العامة ، وحتى آخر رمق من حياته ، مع ظلال مختلفة . توأم كل فترة ، وقائلون سبقوه في أفكاره ؛ وأقل أولئك الذين ساروا بعده على طريقته ، وحتى أبناؤه أنفسهم كانوا عادين ، تخلصوا من نير الأدب ، والتصقوا بعصرهم ، وأشهرهم الفضل أبو رافع ، وأصبح وزيراً لبني عباد في إشبيلية ، وشاعرهم المداح ، وما أشد ما كرههم أبوه ! ، ومات في معركة الزلاقة لكي ينتصر المرابطون وهم أشد التصاقاً بالمذهب المالكي ، وضيقاً في فهمه ، وانصياعاً لفقهاءه ، وكانوا أشد الناس ملاحقة لأبيه . ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب ، ولكن المدرسة الظاهرية ، وتحديد أسين بلاثيوش لها في دراسته لابن حزم لا يعلى عليه ، ظلت موضع الملاحقة حتى في المغرب ، ولم يبق لها غير حياتها الذاتية بالكاد . وأما الشفاء النسبي الذي حظى به ابن حزم في عصر الموحدين ، والتقدير الذي حظى به من علماء عباقر ، كالغزالي ، وابن عربي ، وابن رشد ، فيعود أكثره إلى ظروف سلبية ، كعارضتهم لفقهاء المالكية ، أو إلى توافقات عقلية في المقام الأول ، أكثر مما تعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم ، وشق عليهم من بينها مناهضته العنيفة للأشعرية . والحق أن معظم الدارسين على أيامه ، وبعدها ، حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان ، لأنه إهاجم الجميع ، ولم يقف بهجومه عند المسلمين ، لقد هاجم ، وبعنف كالعادة ، اليهود والمسيحيين ، واستطاع هؤلاء فيما بعد أن يردوا له الصاع صاعين ، حين مضى إلى ركاب الله ، وبدأ عصر الترجمة في الأندلس المسيحي ، فلم يأخذ اسمه طريقته إلى أوروبا في تلك الفترة ، ولم يصبح في قائمة علماء كانوا دونه ، كابن رشد وموسى بن ميمون ، فخفت اسمه ، وتلاشت سيرته ، وظلت مؤلفاته تحت الأرض لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية ، وظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية ، وازدهر عصر الاستشراق ، وأفلتت الدراسات الأندلسية في إسبانيا من قبضة التعصب ، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربي ،

وإنه لم يرحقاً ، أن العداوة البالغة ، لهذه الشخصية العملاقة في تاريخ  
الأدب الأندلسي ، أسهم فيها رجال الدين المتخالفون في العالم الإسلامي  
المعاصر ، واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربي ، واشترك فيها عدد  
غير قليل من الإسبان ، فظل اسم ابن حزم ، وعلمه ، موضع جدل كبير  
ونقاش حاد ، ولكن أحداً لم يستطع أن يشجبه أبداً ، وعلى الرغم من كل  
شيء تقاسمته القاب جليلة وكريمة : أحسن شاعر ، وأحسن فيلسوف ،  
وأحسن متكلم ، يثق فيه علماء البلاغة ، وبجله رجال الأدب ، ومحترمه  
المثقفون .

كان واحداً من أعظم عمالقة الفكر الإنساني على امتداد تاريخه الطويل !



## فتنة البربر

قدر لابن حزم أن يشهد غروب شمس الخلافة ، وأن يشهد مع غروبها ألواناً من الانهيار السياسي والحلقة ، ومن المظالم والجور ، ما لا مثيل له ، وأن يعيش سنوات حملت من الحياة والهوان والأحزان والأدران ، فوق ما حملته حياة المصريين قبل ومع هزيمة ٥ يونية من عام ١٩٦٧ . ولا يمكن فهم إبداعه وما ينضح به من مرارة ، ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة ، ولا مرمى فلسفته واتجاه أبحاثه ، ولا مثله العليا وطباعه ومزاجه ، إلا إذا أدركنا حقيقة تلك الأيام ، وكانت أقسى مما نخط أي مؤرخ ، وأشد هولاً من تصوير أي خيال ، وهي أحداث دخلت التاريخ تحت اسم : فتنة البربر أو البرابر ، وشغلت الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد عرضنا لها من قبل إشارة وإجمالاً عند دراستنا لحياة ابن حزم ، ما اتصل منها بنشاطه السياسي ، وما أسهم فيه رأياً وتدبيراً وعملاً . ونأتي الآن على هذه الأحداث ، من البدء وتفصيلاً .

• • •

ورث عبد الرحمن الناصر عندما تولى الإمارة عام ٩١٢م دولة تحكمها الفوضى والحروب الأهلية ، مزقتها الفتنة والفرقة ، موزعة بين عدد من الرؤساء ينتمون إلى مختلف العناصر ، فتخطى الصعاب وتغلب على المشكلات ، وجعل منها خلافة ، عام ٩٢٦م ، لها من السلطان والقوة ، والغنى والثروة ، والترفع والحضارة ، والعلم والثقافة ، ومن المهابة والخوف عند جيرانها ، ما لم تبلغه يوماً قبله ولا من بعد .

وبعد أيام مجيدة ، امتدت حتى بلغت ٤٩ عاماً ، ما بين إمارة وخلافة ، توفي الناصر في ١٦ أكتوبر عام ٩٦١م ، وخلفه ابنه الحكم الثاني ، بوصاة منه ، وتميز بثقافة واسعة ، لا يجاريه فيها واحد من أسلافه ، مكتبته

أحب مكان إليه في قصره ، ومجالسة العلماء والأدباء أقرب إلى قلبه من حوار القواد وحديث الحروب ، فازدهرت الثقافة على أيامه ، واتسع قلبه لعامة شعبه ، فكان ودوداً رحياً محباً للسلام . وعلى أيامه بدأ ينمو حوله ما نسميه في أيامنا بمراكز القوى ، من خصيان وصقالبة وجوار ، وعرب وبربر ومولدين ، ويهود وآخرين . وعندما لفظ آخر أنفاسه في ٥ من فبراير عام ٩٧٦ م ، لم يكن حوله غير الخصبين فائق وجوذر ، وفيما عداهما أنت قرطبة ، والأندلس بأسرها ، يجهل أن الخليفة قد رحل إلى جوار الله احتفظاً بالسر إلى أن يختار الجماعة التي ينضمون إليها ، وكان هذان الخصيان غليظان ، في خالقهما ذعارة ، وفي ساوكهما جفوة ، وطالما شكوا الناس منهما .

وكان الحكم الثاني قد أخذ البيعة ، في العام الذي توفي فيه ، لابنه هشام ولياً للعهد من بعده ، فبويع بالخلافة بعد كثير من المؤامرات والديسائس ، ولكنه كان طرى السن ، ضعيف العقل ، محدود الذكاء ، خور العزيمة ، فأخذ الأقوياء من حوله يتقاتلون على السلطة ، وكان الفوز حليف فتى عربي من الأزد ، دخل القصر موظفاً بسيطاً ، وما لبث أن استرعى أنظار السيدة صبح زوجة الحكم الثاني ، وأم الخليفة هشام الثاني ، بجارية من الباسك اسمها في لغتها Aurora ، ذكية وطموح ، قوية الشخصية ، وذات تأثير بالغ على الخليفة ، فاختارته قائماً على أموالها ، بعد أن أعجبت به فكراً ومظهراً ، بين آخرين كثيرين تقدموا للوظيفة ، وتوثقت الصلة بينهما ، فتجاوزت الوظائف والأموال ، لتصبح علاقة حب ، عميق وحنون .

كانت صبح وراء المنصور في بدء حياته ، رأياً ودعماً ومالاً ، لكي يصرع في طريقه إلى السلطة خصومه الأقوياء ، واحداً وراء آخر ، حتى أصبح حاجب الخليفة ، أو رئيس الوزراء في لغتنا الماصرة . وحتق بغيته كاملة حين أرسل بالخليفة ابنها ، غصاً وطرياً ، عليه الخبرة والتجربة ، إلى عالم النسيان ، داخل قصر في ضواحي العاصمة ، لا يزور ولا يزار إلا بإذن من

رئيس الوزراء ، وقلة من الناس في العاصمة تعرفه اسماً أو شخصاً ، ومع ذلك فالجميع يحبونه ويوقرونه ، لأنه رمز الدولة والسلطة الشرعية فيها وابن الخليفة العظيم : الحكم الثاني . وقد دنع المنصور في طريقه إلى السلطة الثمن غالياً ، تجاوز ذكرياته مع صبيح وعارضها ، وأعدم ابنا له تأمر عليه . والحق أن المنصور ، رغم أخطائه العديدة ومنها ما سار فيه على خطى الناصر ، من اتخاذ البربر والصقالبة ، والمأجورين والمرزقة ، وإقصاء العرب ، أعطى الأندلس ما أعطاه لها عبد الرحمن الناصر قباه ، من الهدوء والوحدة ، والشراء والهيبة ، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الخافقين .

في ربيع عام ١٠٠٢ م قام المنصور بأخر حملة محربية له ، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهداً ، ويحس في أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يوماً ، ومن ثم فهو يحمل معه دواما كفنه ، وقد نحاطته بناته ، واشتراه من حر ماله ، مال يجاءه إرثاً من أرضهم القديمة ، وكان يرى أن بقية ثروته وما يملك ويقبض من راتب يختلط فيها الحلال بالحرام ، ويحمل معه التراب الذي تجمع على ملابسه في غزواته ، ليدفن معه ، فلا يدخل النار من اغبرت قدماه جهاداً في سبيل الله . وفي مدينة سالم توفى ، في ١٠ من أغسطس عام ١٠٠٢ ، وفيها دفن عملاً بوصيته : أن يدفن حيث يموت . (١)

وقد ولي ابنه عبد الملك الحجابة ، أو إن شئت الحكم ، من بعده ، وعلى عادة الخلفاء اتخذ المظفر لقباً له ، وواصل سياسة والده ، ولكن الأندلس كان يشهد تغيراً جذرياً في حياته ، لقد حل الصراع الطبقي محل الصراع العنصرى ، وظهرت اتجاهات جديدة في الدين والسياسة ، وطفقت على السطح الظواهر العامة التي تسبق أية ثورة ظهرت قديماً ، أو حتى في أيامنا هذه ، والتي ستودى بالخلافة بعد قليل : سحق عام وعميق ،

(١) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٨٩ ، هامش رقم ١١ ، بتحقيقنا ،

وفساد حقيقي يمتد واقعا أو تصورا إلى الطبقة الحاكمة ، و ثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئا ، إلا صلوات مريية بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين ، وشيوع من يحكمون في الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسي الحديث ، أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستورا ولا عرفا ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله . ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسي خفي ، يأتي بنظام جديد غير متوقع حتى لأولئك الذين يفكرون في التغيير أو قاموا به .

ولم تطل أيام المظفر ، شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغيير ، ورحل في زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها ، عام ١٠٠٨ م ، وقدر لأخيه عبد الرحمن الملقب بشننجول ، وأمه من الباسك مثل هشام الثاني ، أن يتولى الحجابة في سن طرية ، لا يتجاوز العشرين عاما ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التي كانت لأبيه أو أخيه من قبل . وربما لهذا أقدم على ما لم يقدم عليه واحد منهما : حدثته نفسه بأن يصبح ولي عهد للخليفة هشام الثاني ، وتحدث بهذا لخاصته ، فأثاوت محاولته بني أمية ، وعامة أهل قرطبة ، فانتهر أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر ، ويدعى محمد بن هشام ابن عبد الجبار ، وكان المظفر قد قتل والده ، فرصة أن عبد الرحمن شننجول في غزوة ضد الفونسو الخامس ملك ليون ، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة ، وفي مواجهة الأحداث ، وايحتفظ هشام الثاني بحياته ، أقال عبد الرحمن شننجول من الحجابة ، وتنازل عن حقه في الخلافة ، ووليها محمد ، واتخذ لنفسه لقب المهدي بالله ، ولما بلغ الخبر عبد الرحمن « قفل إلى الحضرة مدلا بمكانه ، زعيما بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس ، من الجنود ووجوه البربر ، واحرقوا بقرطبة ،

وبايعوا المهدي « ، ثم اعترضه منهم ، من قبض عليه ، واحتز رأسه ، في ٤ من مارس عام ١٠٠٩ م ، وحمله إلى المهدي ، فصلب وإلى جواره قائد حرسه يلعنه ويلعن نفسه ، وذهبت دولة العامريين :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

\* \* \*

سعدت قرطبة بالنصر الأموي ، وكانت العامة أكثر سعادة ، رأت فيه ، وهي أشد اندفاعاً نحو الغضب أو البهجة ، طريقاً أفضل ، نحو غد أسعد ، على حين تحفظت الطبقة الوسطى ، وقد أحست بآلام وتنتائج الثورة ، قبل أن تقف بجانبها ، وربما راودها أن طغيان العامريين ، وأعطى الازدهار الاقتصادي والمجد العسكري ، أفضل بكثير من الفوضى ، ومن حكم هؤلاء الجند المستبدين ، يثقلون عواتقهم بالضرائب والمظالم .

وإذا كان المهدي قادراً على أن يأمر بالنهب ، فقد كان غير قادر على منعه ، ولما كان يتوقع ماسيحدث فقد أمر بنقل الأشياء الثمينة من مدينة الزاهرة ، مقر العامريين ، إلى قرطبة ، ولكن الخبثاء سبقوه ونهبوا كل ما في القصور وماحولها حتى الأبواب ، على امتداد أربعة أيام كاملة ، ولم يستطع الخليفة أن يصنع شيئاً لمقاومة النهب ، أو لم يجرؤ في الحقيقة ، وقد تردد قليلاً ، ثم اندفع يأخذ بحظه من الغنائم ، ورغم أن الجماهير سبقته إليها ، كان نصيبه منها كثيراً : مليوناً ونصف مليون دينار من الذهب ، ومليونين ومائة ألف دراهم من الفضة ، وبعد ذلك بزمن عثر على صناديق فيها مائتا ألف دينار ذهبي ، وعندما أفرغت القصور من محتوياتها أضرمت فيها النيران ، وعادت المدينة الجميلة كومة من الحرائب والأنقاض .

ولم ترد الجماهير ، وهي التي صنعت الثورة ، أن يكون حكمها من القواد القدامى ، أولئك الذين كانوا من شيعة المنصور وجنده ، فجاء محمد المهدي بقواد من الشعب ، من الطبقة الوسطى ، أطباء ونساجين وجزارين وسراجين ، وبدا الأندلس بلداً ديمقراطياً لأول مرة في تاريخه ، لقد

أفلتت السلطة من يد العامرين ومن طبقة الخاصة على السواء .

\* \* \*

في البدء بدأ كل شيء وكأنه يسير تبعاً لرغبة المهدي ، لقد رفعه شعب قرطبة إلى الخلافة ، واعترف به البربر ، وتلقى رسالة ولاء من واضح ، أقوى الصقالبة ، وحاكم الثغر الأدنى ، ولما تمض على مصرع عبد الرحمن شنجول غير خمسة أيام ، ولم يكن المهدي يتوقع منه ولاء سريعاً ، لأن واضحاً يدين بمر كزه وثروته للمنصور بن أبي عامر ، والد عبد الرحمن ، ولهذا أسرع المهدي فالتقط القفاز ، وأرسل إليه أموالاً ، وملابس شرف ، وجواداً ، وبراعة بتوليته على كل الثغور .

والتمت كل الجماعات ، في الظاهر على الأقل ، حول الحكومة منذ اللحظة الأولى ، ولو أن الإجماع وقعا أقل قوة وتماسكاً مما يبدو للعيان ، كان تيار الثورة يندفع من وراء ظهر السلطة ، فقد أدرك الناس سريعاً أن ذهاب العامرين لا يعني أن الأمور استقرت ، والمظالم انتهت ، والمفاسد توقفت ، وليس ثمة ما يشتكى منه ، في ظل الحكم الجديد . ولم يكن المهدي يتجمع بالذكاء أو الفضيحة ، قاس ودموى وأحمق وخارق في المالدات ، وزاد فأخرج العامرين من قرطبة ، وفصل أعداداً كبيرة من العمال واستغنى عن خدمات جمع كبير من الصقالبة ، وأغضب الأتقياء لأنه قل ما يخرج من القصر ، وفيه يتجاوز نزواته ، واشتدت ثورة هؤلاء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة ، يبلغ الموسيقيون فيها مائة ، ما بين عازف على العود أو الناي ، صنيع شنجول من قبل ، وهو ما يندم الناس فيه . وأطلقوا عليه اسم « السكير » ، واتهموه بأنه خرب البيوت ، ومزق الأسر ، ونهب الممتلكات ، مثل ما كان يفعل سابقوه ، وهكذا بدأ يدفع بالرأي العام كانه إلى صفوف المعارضة .

لقد أصبح ضياء الشعب والصقالبة والأسراء ، وكل الناس الطيبين ، ولم يصنع شيئاً يستبني به البربر ، واختاروا جانبهم بإرادتهم ، ولم يكن لهم

في الجانب الآخر مكان ، لأن سكان العاصمة يكرهونهم من الأعماق ، ولم ينسوا لهم أبدا أنهم كانوا العمدة التي قام عليها الطغيان العامري ، ولولا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس . وأمرهم المهدي ، وربما تملقا لسكان قرطبة ، ألا يركبوا ولا يتساحوا ، ورد بعض رؤسائهم من باب القصر ، ولم يكن ذلك حالهم في ماضي الأيام . وأحسن البربر ، رغم قوتهم ، أنهم لم يعودوا يمثلون شيئا في الدولة ، وأن قصورهم نهبت دون أن تحاول الشرطة حمايتهم ، فمضى وفد منهم ، على رأسه زاوي بن زيري ، لمقابلة الخليفة ، وشكوا له ما أصابهم ، فخاف موقفهم ، واعتذر إليهم ، وقتل من أمرهم ممن العامة في أمرهم . ومالبت أن شفى من رعبه ، وعاد من جديد يظهر بغضهم ، وبجاهر بسوء الثناء عليهم .

كان المهدي يقدر خطر البربر تماما ، رغم ما يمكنه لهم من بغض ، وأشد ما نحشاه أن يصبح اسم هشام الثاني ، الخليفة المعزول ، راية تلتقي عندها كل الجماعات التي أساء إليها ، عامدا أو دون قصد ، ففكر واهتدى إلى حل وسط ، ألا يقتل أسيره ، وأن يكتفى بإعلان موته . وفعلا في ٢٦ أبريل ١٠٠٩م توفي مسيحا ، أو يهودي ، كبير الشبه بهشام ، فأمر المهدي بحمل جثته إلى القصر سرا ، وأظهره لأشخاص يعرفون هشاما ، وسواء أكان الميت صورة دقيقة من هشام أم لم يكن ، فالذين شهدوه قبضوا ، وأعلنوا أن هذه جثة هشام الخليفة السابق ، ودعا المهدي بالفقهاء وعلية القوم ، وصلى على الميت صلاة الجنائز ، ودفن في مقابر المسلمين ، ن جلال ملكي يليق بخليفة سابق ، بينما هشام الحقيقي سجين في أحد قصور وزرائه .

وبعد ما ظن الخليفة أنه يستطيع أن يصنع أي شيء ، فأودع السجن في شهر مايو واحداً من أبناء عبد الرحمن الناصر ، متقدماً في السن ، يدعى سايمان ، دون أن يعرف السبب ، وترك الناس يتحدثون عن رغبته في قتل عشرة من رؤساء البربر ، فتجمع هؤلاء بزعامة هشام بن سايمان ، ه بايعوه بالخلافة ، واتخذ لنفسه لقب الرشيد ، وأشار ابن حزم إلى ثورته في طوق



الحمامة ، وقد استطاع أن يجمع حوله سريعاً سبعة آلاف مقاتل ، من المناوئين للمهدى ، ومضى بهم إلى فحص السراق ، شمال قرطبة ، وهناك انضم إليهم البربر ، فسار بهم جميعاً إلى قصر المهدى ، وقد أخطر الخليفة بالثورة وهو غارق في ملذاته ، وانتزع منها بقوة لكي يواجه الأمر ، فأرسل يسأل : ماذا تريدون ؟ . ورد هشام الرشيد : أنت وضعت والدي في السجن ، وأجهل مصيره . فأطلق الخليفة في الحال سراح سليمان ، وظن أن الجماهير سوف تقنع وتنصرف ، وخذع نفسه ، لأن هشاماً أرسل إليه يسأله أن يتنازل عن الخلافة .

وأراد المهدى أن يكسب الوقت : فتظاهر بالرغبة في التحالف مع هشام ، وطال الحوار ، ونفذ صبر البربر والعمال ، فانطلقوا يعملون دون انتظار لنهايته ، نهبوا حوانيت سوق الحرس وأحرقوها ، وحينئذ حمل القرطبيون السلاح ، دفاعاً عن بيوتهم ، لاعت الخليفة ، وجاء الجنود لمساعدتهم ، واستمرت المعركة يوماً بأكمله ، وفي صباح الجمعة ٣ من يونية ، فر البربر نجاة بأنفسهم ، في فوضى منقطعة النظر ، وقد لاحقهم القرطبيون حتى ضفاف وادي أرملاط على حين احتل آخرون منازلهم ، وأخذوا نساءهم ، وأسر هشام ووالده . وأمر الخليفة المهدى بقطع رأسيهما .

ومالبت البربر أن أعادوا تنظيم صفوفهم ، وأقسموا أن يثأروا لهزيمتهم ، أقوياء وشجعان لكن مهارتهم محدودة ، غير أن زاوى بن زيري كان معهم لحسن حظهم ، وينتمي في قبيلة صنهاجة ، وكانت تحكم جانبا من أفريقية عاصمته القيروان ، وهي أكثر تحضراً ، وأشد ذكاء من بقية أخوتهم . وقد فهم زاوى أن من الضروري قبل أي شيء البحث عن منافس في مستوى المهدى ، لإعطاء التمرد طابعاً شرعياً ، فبحث بين أحفاد عبد الرحمن الناصر عن يصلح لهذه المهمة ، فوقع على سليمان بن الحكم بن سليمان ، حفيد عبد الرحمن الناصر ، وابن أخ هشام الرشيد ، وعرض على رفاقه أن يبايعوه خائفة ، فعارض بعضهم ، لأن سليمان رجل طيب ، ليست لديه

الإرادة ليكون رئيس جماعة، ولا التجربة ليصبح قائد جيش، ورفض آخرون  
أى رئيس عربى، ولكن زاوى أقنعهم فاستجابوا له، وباعوا سليمان،  
واتخذ لقب المستعين، ومنذ البدء لم تكن له أية سلطة على البربر، اختاروا  
قوادهم دون مشورته، لم يكن بالنسبة لهم غير أمير أموى أعارهم اسمه ليعملوا  
فى ظله.

ورحل البربر إلى وادى الحجارة، واحتلوا المدينة، وعرضوا على  
واضح أن يعملوا معا، وأن يفتح لهم أبواب مدينة سالم، ولكن واضحاً  
رفض، وتلقى إمدادات من المهدي فهاجمهم، وطاردهم، ولم يسعدوا  
بانتصارهم طويلاً، لأن واضحاً قطع عنهم التموين، وخلال أسبوعين لم  
يكن لديهم ما يأكلونه غير الحشائش، ولمواجهة هذا الحصار أرسلوا جماعة  
منهم إلى شانجه، كونت قشتالة، يطالبون تدخله، ويعرضون عليه تحالفهم،  
إذا رفض المهدي وواضح الصالح معهم.

وعندما وصل السفراء إلى قصر الكونت وجدوا سفارة من المهدي سبقتهم  
إليه، تسوق بغالا وخيولا وهدايا أخرى، ووعدوه بالتنازل له عن عدد  
من القلاع والحصون إذا أسرع إلى مساعدة خليفة قرطبة، وسبحان مغير  
الأحوال، لقد أصبح خلفاء قرطبة يتلقون الأوامر من أمراء المسيحيين فى  
الشمال، فيما يتصل بأخص شؤونهم، وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم!

كان شانجه يعرف أخبار جيرانه جيداً، وأدرك أن بقاء المهدي مرتبط  
بخط رفيع، فوعد البربر بأن يقف إلى جانبهم، إذا وعدوه بأن يتنازلوا  
له عن القلاع والحصون التى وعد المهدي بأن يتنازل نه عنها، فوافقوا،  
حينئذ صرف شانجه رسل المهدي، وأرسل إلى معسكر البربر ألف ثور، وخمسة  
آلاف خروف، وألف عربية محملة بالأغذية، وأعد البربر أنفسهم فوراً  
ليبدأوا حملاتهم، وعندما انضم الكونت شانجه إليهم، أخذوا طريقهم إلى  
مدينة سالم. وعندما وصلوا أسوار المدينة حاولوا، ثانية، أن يكسبوا واضحاً  
إلى جانبهم، فام ينالوا منه أكثر مما نالوا من قبل، واعتقدوا بحق أن

عليهم ألا يضيعوا وقتهم ، فأخذوا طريقهم نحو قرطبة ، في شهر يولية من عام ١٠٠٩ م ، فتبعهم واضح وهاجمهم ، واضطر بعد أن فقد الكثير من رجاله أن يلوذ بالفرار عائدا إلى قرطبة .

علم المهدي بسير البربر نحو قرطبة ، فجنده كل القادرين على حمل السلاح ، ولم ينتظر وصول العدو ، فخرج يبحث عنه ، والتقى الجيشان في قنطيش ، في ٥ من نوفمبر ١٠٠٩ م ، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين ، كانوا حشداً غير مدرب ولا منظم ، أما بن شيخ ضعيف وحدث غر ، فاستطاع ثلاثون فارساً من البربر أن يقتحموا صفوفهم ، إفلوا هاربين لا يواي بعضهم على بعض ، ووضع البربر السيف عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وغرق كثير منهم في الوادي ، وفي الجميع إسقوطاً بعضهم على بعض ، ودخل البربر أرباض قرطبة ، وبات الناس على سطوح إ دورهم في وجل وخوف .

وأدرك واضح في الحال أنهم خسروا كل شيء ، فانسحب مع فرسانه نحو الشمال ، ولاذ المهدي بقصره ، وبعد قليل حاصره البربر ، فظن أنه ينجو بنفسه ، إذا رد الخلافة لهشام الثاني ، فأخرجه من السجن ، وأقعدته في مكان حيث يراه الناس ، وأرسل القاضي ابن ذكوان إلى البربر ليقول لهم : إن هشام المؤيد لما يزل حياً ، وأنه يعترف به خليفة ، وليس هو إلا حاجباً له . وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة ، وردوا عليه : سبحان الله يا قاضي ! ، يموت هشام بالأمس ، وتصلي عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش ، وترجع إليه الخلافة ! . وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد رؤية سليمان المستعين ومعه البربر يهددون أسوار مدينتهم ، فخرجوا للقائه واعترفوا له بخيافته .

وبينما سليمان يأخذ طريقه إلى داخل العاصمة ، ارتكب البربر والقشتاليون كل الجرائم التي تخطر على البال ، وأفلت المهدي واختفى في قرطبة ، وطاب شأنه من سليمان أن يوفي له بوعده في التنازل عن القلاع والحصون ، واعتذر

سليمان بانها ليست في يد، الآن ، ووعده للمرة الثانية بأن يتركها له حين  
تصبح ملكه ، وحينئذ غادر كونت قشتالة قرطبة مع جنوده ، في ١٤  
نوفمبر ١٠٠٩ م ، وقد جمعوا ثروات طائلة ، مما نهبوا من أملاك القرطبيين .

وخلال ذلك وصل المهدي إلى طليطلة ، فاستقبله أهلها في حفاوة ،  
فتبعه سليمان ، وأرسل إلى أهل طليطلة من يحذرهم غضبه إذا استمروا  
في تمردهم عليه ، ولم يستجيبوا له ، وتحاشى أن يقتحم هذه القلعة الحصينة ،  
فتجاوزها إلى مدينة سالم ، على وهم أنها سوف تسقط يوماً . وخلال سيره  
انضم إليه عدد كبير من الصقالبة ، فاستولى على مدينة سالم دون قتال ،  
لأن واضحاً أخلاها له ، ولجأ إلى طرطوشة ، ومن هناك كتب إلى سليمان  
أنه يعترف به خليفة طالما تركه باقياً في منصبه ، أراد بموقفه هذا أن  
يكسب وقتاً ، وأن يفلت من ملاحقة سليمان ، وكان له ما أراد .

وحين أطلقت يد واضح تحالف مع أمراء قطلونية ، ووعدهم بكل  
ما يريدون ، ورحل إلى طليطلة مع جيشه ، وجيش آخر من القطلان ،  
انضموا إلى المهدي فيها ، وساروا جميعاً إلى قرطبة ، ثلاثون ألف مسلم  
وتسعة آلاف مسيحي ، وحين علم سليمان استنفر أهل قرطبة للقائهم ، فأظهروا  
العجز ، وجبنوا ، وطلبوا منه معافاتهم ، وأثر البربر أن يكون لهم  
وحدهم شرف تحقيق النصر ، والتقى الفريقان في قرية عقبة البقر ، على  
مسافة غير بعيدة من قرطبة ، في النصف الأول من شهر يونية عام ١٠١٠ م  
وقد وضع البربر سليمان في ساقه الجيش ، وجعلوا معه خيلاً من المغاربة ،  
ونصحوه ألا يترك موضعه حتى ولو وطئته الخيل ، ثم تقدموا ، فحمل  
القطلان عليهم حملة شديدة ، فراجع البربر لهم ليتمكنوا منهم ، فلما  
رأى سليمان خيل الإفرنج نخرقت صفوف البربر ، قلدر أنهم هزموا فولى  
هارباً ، على حين كر البربر على العدو ، فقتلوا من القطلان سبعين قائداً  
وأمرهم ، ولما رأى البربر سليمان فارق موضعه انحازوا إلى الزهراء ،  
وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سليمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة  
( م ٨ - ابن حزم )

مدينة الزهراء ، فنهبوا ما وجدوا فيها ، ودخلوا الجامع ونهبوا حصره  
وقنادياه ، ومصاحفه وسلاسل قناديله ، وصفائح أبوابه .

\* المهدي خليفة من جديد :

ودخل المهدي قرطبة ، وتعرضت المدينة السيئة الحظ لنهب شامل من  
القطلان ، كما نهبا البربر والقشتاليون قبل تسعة أشهر ، وأخذت له البيعة  
خليفة للمرة الثانية ، وكان هشام المؤيد أول من بايعه . ثم خرج يلاحق  
البربر ، وقد انسحبوا نحو الجزيرة الخضراء ، والتقى معهم عند التقاء وادي  
آره بالوادي الكبير ، على مقربة من رندة ، وفي المعركة حقق البربر  
نصراً ثأروا به لهزيمتهم في موقعة « عقبة البقر » ، وهزم جيش المهدي ،  
وقتل عدد كبير من القواد الصقالبة ، وأكثر من أربعة آلاف من القطلان ،  
ولقى عدد كبير من الجنود حتفهم غرقاً في مياة الوادي الكبير .

وعاد المهزومون إلى قرطبة ، وبلغ الغيظ بالقطلان مبالغه ، فأرادوا  
أن يثأروا لهزيمتهم من عامة الناس ؛ فقتلوا كل أولئك الذين يشبهون  
البربر على نحو ما ، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا  
بربري ، فيقتل دون أن يسأل ، وأخذ جندي قطلوني ابنة رجل من البادية  
جميلة ، وعرف أبوها ، فحمل شكواه إلى واضح . وقال إنها ليست  
بربرية ، فرد عليه ، دعك من هذا ، ما إلى ردها إليك من سبيل ، وعلى  
ذلك عاهدناهم ، فمضى الرجل باكياً إلى العجندی ، وحمل إليه ٤٠٠  
دينار ذهبي يفتدى بها ابنته ، فأخذها منه ثم قتله !

وطلب المهدي من القطلان أن يعودوا إلى قتال البربر من جديد فامتنعوا ،  
زعموا أن ما خسروه من الرجال لا يسمح لهم بالعودة إلى القتال ، وتركوا  
قرطبة في يوم الجمعة ٨ يولية ، ورغم كل سوء الذي ارتكبهوه ، حزن  
أهل قرطبة لرحيلهم ، حتى كان بعضهم يلقي بعضه فيعزيه جزعاً وخوفاً من  
عودة البربر بعدهم . وبدأ المهدي زحفه نحو البربر ، ولكن جيشه فقد  
أهميته بعد رحيل القطلان ، وبعد مراحل من سيره تغشاه رعب قاتل ،

وامتلاً داخله خوفاً من البربر ، فعاد إلى العاصمة من جديد ، ينتظر العدو فيها ، وأمر بحفر الخنادق حولها ، ولكن القدر أراد له أن يسقط قتيلاً بيد الصقالبة ، لا بيد البربر .

لقد كان واضح إلى جانب المهدي ، ولكن صقالبة آخرين ، مثل خيران وعنبر . ظلوا في الجانب المعارض ، وقد أدركوا أخيراً أن عليهم أن يتحدوا إذا أرادوا أن يحققوا مطالبهم ويستولوا على السلطة ، وقرروا أن يلتفتوا من جديد حول هشام المؤيد ، ولتحقيق مخططاتهم تولى واضح إثارة السخط بين أهالي قرطبة ، فأرسل الإشاعات تدق كل باب عن حياة خليفة لا يفيق من السكر ، بين ملذاته ونسائه ، وأنه يهاجم علناً فوضى الجند واعتداءاتهم ، ويرضى عنها سراً ، بل ويحضهم عليها . وعندما أتت الإشاعات إلى ما بقي للخليفة من شعبية وهيبة : سارع خيران وعنبر وقواد آخرون من الصقالبة ، كانوا يعملون في جيش سليمان بتقديم خدماتهم للمهدي ، وما إن دخلوا قرطبة حتى بدأوا يعملون على إسقاطه ، وفي يوم الأحد ٢٣ من يولية ١٠١٠ طاف الصقالبة شوارع قرطبة على خيولهم يصيحون : « بحيا هشام المؤيد » ، ثم أخرجوه من سجنه ووضعوه على العرش .

في تلك اللحظة كان المهدي يأخذ حمامه ، وأعلم بما حدث ، فطار إلى

القاعة وجلس إلى جانب هشام ، ولكن عنبر شده بقوة ، وحمله ليكون في مواجهة ، وقد أنهه هشام في مرارة ، وعاتبه على ما ارتكب في حقه ، وما عانى بسببه ، ثم أخذه عنبر من ذراعه ، وشده إلى المنصة ليقطع رأسه ، فأمسك المهدي بيده المشرعة ، وفي اللحظة نفسها سقطت عليه سيوف صقالبة آخرين .

لقد احتل العرش بمؤامرة ، ومؤامرة أخرى أنزله عنه ،

وعن الحياة !

مع هشام الثاني ، ضعيف ومحاصر ، أصبح الصقالبة أكثر من أقوياء ، وتولى واضح منصب الحجابة ، وحاول أن يحكم الأندلس على نحو ما فعل من قبل سيده المنصور بن أبي عامر ، ولم يدرك أن الظروف تغيرت كثيراً ، وأنه ليس المنصور . ولم يجد في البدء معارضة من سكان العاصمة ، وعرضت رأس المهدي في الشوارع دون أن تسمع همهمة واحدة ، فليس ثمة من يحن إلى أيام هذا الطاغية ، وداعب الأمل واضحاً في أن البربر سوف يعترفون بالخليفة الذي رد إليه تاجه ، وأقنع نفسه بهذا ، وكان واهماً ! .

وعندما بعث إليهم برأس المهدي يطالب منهم الولاء لهشام غضبوا ، وتدخل سليمان لحماية من حملوا الرسالة حتى لا يفتكوا بهم ، وبكى سليمان نفسه ، فاضت دموعه غزيرة ، حين رأى رأس ابن عمه ، فأخذها ونظفها ، وأرسل بها إلى عبيد الله ، ابن المهدي ، وكان قد اتخذ من طليطلة مقاماً .

وجد واضح البربر على غير ما توقع ، وعرف أن له أعداء في العاصمة نفسها ، وأن بعض الأمويين لا يرضون بحكم الصقالبة ، ويرون مصالحهم في أن يوئدوا سليمان ، وقد أرسلوا إليه سراً أن يعود إلى العاصمة ، وحددوا له يوم ١٢ من أغسطس . وأنهم سوف يسلسونه المدينة ، ووعدهم سليمان بتحقيق رغبتهم . وعرف واضح المزمرة ، أعلمه بها خيران وعنبر ، فاعتقل المتآمرين . وعندما وصل سليمان إلى أسوار المدينة في اليوم المحدد ، واجه هجومًا عنيفاً فارتد القهقري سريعاً .

وظن واضح أن الهزيمة أضعفت البربر ، فعاد يفاوضهم من جديد ، دون أن يحقق شيئاً ، وفي الوقت نفسه كان سليمان يطالب عون شانجه ملك قشتالة ، حليفه القديم ، ووعده بأن يتنازل له عن عدد من الحصون والقلاع على الحدود بينهما ، كان المنصور قد استولى عليها . ووجد الكونت الفرصة مواتية لتوسيع رقعة مملكته دون حاجة إلى القيام بحملات حربية ضد الأندلس ، فأرسل إلى واضح بأن يتنازل له عن هذه الحصون



والقلاع ، وكانت في قبضته ، وإلا فسوف يساعد البربر . ولم يجرؤ  
واضح على اتخاذ القرار وحده ، فدعا القاضي والفقهاء والعدول ، وأبلغهم  
برسالة شانجه ، ويطلب منهم الرأي . وأخرس الخوف من روية البربر ،  
ومعهم القشتاليون لمساعدتهم ، الإحساس بالشرف القومي في أعماق هؤلاء  
للإسادة ، فكان رأيهم : أن يستجيب لمطالبه !! . وفي شهر سبتمبر ، أو  
أغسطس ، عام ١٠١٠ م ، وقع واضح معاهدة مع شانجه ، تنازل له فيها  
عن أكثر من مائتين ، بين قلعة وحصن : واتخذ بقية أمراء الشمال من  
المسيحيين الحادث مثلاً يحتذى . لأنهم يستطيعون بشيء من التهديد والصخب  
أن يأخذوا ما يريدون من حصون وقواعد ، فأرسل لهم كونت آخر  
يطاب منهم بدموره أن يتنازلوا له عن عدد من الحصون والقلاع وإلا انضم  
لسليمان والبربر ، فلم يجرؤوا على أن يرفضوا له طلباً ولقد ساءت حال  
القرطبيين بعد العامرين ، وكان عليهم أن يحنوا رءوسهم أمام أعداء دينهم ،  
وأن يعانون من نزوات الحاكم ، صقلياً أو بربرياً ، وأن يتعرضوا  
لنهب والمظالم من أولئك وهؤلاء ، وباختصار أن يتحملوا كل النتائج  
التي تعرض للشعوب حين تذهب إلى الثورة ، وتلقى بنفسها في أنون  
للفتن ، دون أن يكون وراءها هدف واضح محدد ، ودون أن تدفعها  
أفكار سامية وعظيمة !

ضرب البربر الحصار على قرطبة على امتداد شهر ونصف ، نزلوا  
ربضى شقندة وفج المائدة ، يغيرون على العاصمة ويقتلون ، وواضح وجنده  
خلف السور لا يتجاوزونه شبراً ، وأصاب الناس ضيم مروع في الأنفس  
والأموال ، وزاد الحال سوءاً تفشى المرض والوباء ، ثم توجهوا إلى  
الزهاء ، وأصبحوا سادتها بعد حصار دام ثلاثة أيام فحسب ، لأن قائداً  
خان واجبه وسلمهم أحد أبواب المدينة ، في ٤ نوفمبر ١٠١٠ م ، وبدأت  
المذبحة في الحال ، قتلوا حرس المدينة بأجمعه تقريباً ، ولجأ سكانها إلى المسجد ،  
ولكن حرمة لم تمنع البربر من اقتحامه ، وأثوا ذبحاً على جميع من فيه ، دون  
فرقة بين الشيوخ والشباب والنساء والأطفال ، وبعد أن نهبوا المدينة

أشعلوا فيها النار ، ومن ذلك اليوم تحولت هذه القصور ، أفخم ما عرفت أوروبا في العصر الوسيط وما بعده ، وحتى أيامنا ، إلى أكوام من الخرائب والأنقاض . ونحرب واضح منية الرصافة ، حرقاً وتدميراً ، وكانت من أجمل ضواحي قرطبة ، نخيل إليه أن البربر سوف يقتحمونها ، فسبقهم إلى تدميرها .

ولم يتوقف البربر عند العاصمة ، فأخذوا يغيرون خلال الشتاء على ماحولها ، ينهبون ويحرقون ويخربون ويقتلون ، ومنعوا دخول الأغذية إلى العاصمة ، ويرسل إليهم واضح كتائب من الفرسان فلا تلقاهم خوفاً ، وإنما ينهبون ما فضل منهم في القرى والأقاليم ويعودون . ونزح أهل الأرياف إلى العاصمة أفواجا ، خوفاً من البربر ، وصاروا أكثر من أهلها ، ومات أكثرهم جوعاً ، أو مقتولاً بخارجها ، وفنيت مواشيتهم ، وكان من الصعب إيوائهم فمات أغلبهم جوعاً ، بعد أن « أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم ، وأكلوا الميتة والجيف ، وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشربون الخمر ظاهراً ، وأصبح الزنا مباحاً ، واللواط غير مستور ، ولا ترى إلا مجاهراً بمعصية » .

وكانت الحكومة في النزاع الأخير ، وباع واضح الجانب الأكبر من مكتبة الحكم الثاني ، ليحصل على شيء من المال ، وبدأ الناس ينزحون إلى السواحل والبادي ، ووقعت أكثر المدن أهمية في يد البربر ، وتعرض سكانها لما تعرض له سكان الزهراء . وتحوات القرى إلى صحارى مجذبة ، وتمضى بك السبل أياماً وأياماً قبل أن تلقى كائناً حياً ، في طرقه كانت من قبل عامرة بالذاهبين والعائدين .

وفي صيف عام ١٠١١ م ، أناخ الشقاء بكل كاه على الأندلس بعمامة ، وقرطبة بخاصة ، وأخذ ينمو من جوانبه ويشد ، فاجتاحها الطاعون ، وحدثنا عنه ابن حزم في « طوق الحمامة » ، وأن أنخاه ذهب ضحية له ،

وبدت المدينة التعسة كما لو كانت سعيدة بالأمها ، فهي تزيد النار التهاباً ،  
والشقاء ضراماً ، وبما تختلف فيه ، وتكاثفت الطبيعة على تكثيف آلامها ،  
فتدافعت السيول ، وفاض نهر قرطبة ، على امتداد أيام ثلاثة ، فهدم في  
قرطبة وأرباضها نحو ألفي دار ، وما لا يحصى من المساجد والقناطر ، ومات  
فيه نحو من خمسة آلاف ردماً وخرقاً ، رذبت أمتعة الناس وأموالهم ،  
وهدم أكثر السور ، وردم كثيراً من الخندق . ونسب الجنود إلى واضح  
أنه سبب الشقاء الذي يعانون ، وأدرك آخرون أنه بيت النية على الهروب ،  
وأخذ القائد الصقلبي ابن وداعة ، وكان على شرطة المدينة ويكره واضحاً  
من أعماق قلبه ، يغذى هذا السخط ، وأهين واضح علانية ، وحين  
أحسن بضعف موقفه عهد إلى رجل يعرف بابن بكر أن يحمل رغبته في  
السلام إلى سليمان ، فأثار عمله أقوى موجة من الغضب ، وعندما عاد  
ابن بكر من سفارته تلقفته السيوف دون أن يتيحوا له فرصة إعلان الرد  
الذي تلقاه ، اغتالوه بمراى الخليفة ومراى واضح ، واحتزوا رأسه ،  
وطافوا به البلد ، وحينئذ قرر واضح أن يلجأ بين البربر . ولكن الجنود  
بقيادة ابن وداعة اقتحموا عليه القصر في ١٦ أكتوبر ١٠١١ م ، وعاتبوه  
على ما تكلف من الأموال ، وما عزم عليه من مصالحة البربر ، ثم قام إليه  
ابن وداعة فضربه بالسيف ، وحمل عليه القوم ، واحتزوا رأسه ، وطافوا  
به الشوارع على رأس رمح ، كالعادة ، وألقوا جسده في الرصيف ، إلى  
جانب جثتي المهدي وابن عسقلاجة .

ومر عام ونصف قبل أن يجيء البربر ، لينزعوا من الصقلابة ومن  
القرطبيين متعة الاغتيال المتبادل ، وعبر هذه الفترة اشتد ابن وداعة  
إلى أهل الريف ، وهابة الجنود وغيرهم ، ودفع بالفقهاء درجات إلى  
الوراء ، ودعا إلى الجهاد ، ولم يعد لدى القرطبيين أي شك في  
المصير الذي سوف ينتظرهم على يد البربر ، فازدادوا كراهية لهم ،  
وتعصبوا عليهم ، وقتلوا كل من أتى على ذكر الصالح معهم ، قتلوا في الحال

رجالاً من وجوه أهل العلم قال في المسجد الجامع : اللهم أصلح علينا ! ،  
وقتلوا آخر في المكان نفسه ، قال : إن الله أحب الصالح وأمر به . ومثل  
ذلك كثير .

ثم وقع في أيدي القرطبيين محارب بربري ممتاز ، في شهر مايو من عام  
١٠١٢ م ، حباسة بنى ماكسن ، كان قد نزل عن جواده ليستريح بعد  
معركة ساخنة ، فأرسل فيه صقابي سهما ، وأطبق عليه صقاليون آخرون ،  
وأخذوه أسيراً ، وحين عرفوه شفوا غلهم منه ، لطالما احتقرهم وأكثر القتل  
فيهم ، احتزوا رأسه وأرسلوا به إلى القصر ، وتركوا جثته لعبث العامة ،  
سحلوه في الشوارع ، ومثلوا به ، مزعوه قطعاً ، ثم أسلموه إلى النيران ،  
وحاول أخوه حبوس أن يسترد جثته فلم يستجيبوا له وقد حزن عليه البربر  
جميعاً ، وعزموا على أن يثأروا له ، وضاعفوا من قوتهم ، ولكن اليأس أمد  
القرطبيين بقوة خارقة ، وقادهم ابن وداعة في هجوم قوى ، واضطر  
البربر إلى رفع الحصار ، وعرف أيضاً كيف يصددهم عن إشبيلية ،  
ومرعان ما ظهر البربر أمام أسوار العاصمة من جديد ، وعلى الرغم من  
مقاومة القرطبيين المستميتة ، استطاعوا أن يعبروا الخندق ، وأن يستولوا على  
الجانب الشرقي من المدينة ، ولكن الحظ ، وللمرة الثانية ، اتخذ بجانب  
القرطبيين ، فأرغموا أعداءهم على الرحيل عن الحى الذى استولوا عليه ،  
وكان هذا آخر انتصار لهم ، ففي يوم الأحد ١٩ من إبريل ١٠١٣ م ،  
اقتحم البربر المدينة من الباب المقابل لربض شقنادة ، لأن قائداً خائناً باع لهم  
نفسه وأسلمهم الباب .

ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها أنهاراً من الدماء ، لقد انسحب منها  
الصقالية عندما فقدوا الأمل ، واندفع البربر عبر الشوارع في صباح حاقط  
ومرعب ، ينهبون هنا ، وينتهكون الأعراس هناك ، ويغتالون في كل مكان ،  
وذهب كثيرون من الطيبين والشيوخ ضحية الغضب الأعمى : قتل سعيد بن  
منذر شيخ متهالك ، اشتهر بالورع والتقوى ؛ وكان خطيب المسجد الجامع

منذ أيام الحكم المستنصر ، وقتل مروان بن يحيى من أسرة بنى حدير الشهيرة ، وكان قد فقد عقله نتيجة إخفاقه في حب له ، وقتل ابن الفرضي ، صاحب تاريخ علماء الأندلس ؛ وقاضى بلنسية أيام المهدي ؛ وكان قد سأل الله الشهادة في آخر حجة له ؛ فاستجاب الله دعاءه ، وبلغ الضحايا من الكثرة عدداً كبيراً ، حتى أن أحداً لم يفكر في عدوهم ، أو يعط لهم رقماً . وبجاءت الحرائق محارة متوهجة ، ساطعة الضوء ، تلقي بأنوارها على هذه المشاهد المرعبة ، واتخذت لها وقوداً من أعظم القصور فخامة وترفاً ، ومن بينها قصور ابن حزم وآله ، وقد بكأها شعراً ونثراً في صفحة رائعة من كتابه « طوق الحمامة » .

وبعد يومين من احتلال المدينة دخل سليمان قصر الخلافة ، وجاء القرطبيون الذين أفلتوا من سيوف البربر صدفة ، واصطفوا في طريقه ، يطل الرعب من عيونهم ، وجرحى في أعماق قلوبهم ، « متلقين له ، ومسامين عليه » ، فأنشد متمثلاً :

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية      يقولون: من هذا؟ وقد عرفوني  
يقولون لي: أهلاً وسهلاً ومرحباً      ولو ظفروا بي ساعة قتاوني  
وجيء بهشام المؤيد ، فاعتاد لسليمان ، وتبرأ من الخلافة ، نخلع نفسه ، وسام الأمر إليه ، وغاب عن الناس خبره ، قيل قضى عليه عند دخوله القصر ، وقيل فر . واستقر البربر بدءاً في مدينة الزهراء ، وسكنوا القصور التي أفلتت من قبضة النيران ، وبعد ثلاثة شهور فاضت بهم ، فزحفوا على العاصمة ، وحكم على القرطبيين بالنفي ، باستثناء الذين يقيمون في المدينة ، وفي الجانب الشرقي ، وصودرت أملاكهم لصالح المنتصرين ، « ولحق بيوتات قرطبة معرة في نسائهم وأبنائهم » .

\*\*\*

منذ بداية الفتنة أعلن عدد من الولاة استقلالهم ، وجاء استيلاء البربر

على قرطبة ضربة قاصمة لوحدة الخلافة الأندلسية ولم تعد سلطة الخليفة تتجاوز خمس مدن : قرطبة وإشبيلية ونبله وأكشنة وباجة. وغاض الأمل في أن تتحسن الحال ، وبدأ البربر يجمعون بالثروات التي نهبها في قرطبة وغيرها من المدن . ولم يكن سليمان المستعين نفسه محارباً . رغم أنه اضطر إلى الحرب على امتداد أربعة أعوام كاملة . إومن سخرية القدر أن يكون رئيس هذه العصابات الشرسة التي مزقت الخلافة أميراً مستقيماً . حلواً وكرهاً . يهوى الأدب ، ويقرض الشعر ، يدوب صبابة ويتغزل عفاً ، ولديه من هدوء النفس ، وفراع البال ، وسط هذا البلاء ، ما يتيح له أن يعارض أبيات هارون الرشيد الشهيرة :

ملك الثلاث الآنسات عناني	وحلان من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كاهي	وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن ساطان الهوى	وبه قوين ، أعز من ساطاني

وأن يسبقه معنى ونغماً في أبيات طويلة يصفها ابن بسام بأنها « تشعشت بها الكوؤوس ، وتهادتها الأنفاس والنفوس » :

عجباً يهاب الليث حد سناني	وأهاب سحر فواتر الأجنان
وأقارع الأهوال لا مهيباً	منها سوى الإعراض والهجران
وتملك نفسي ثلاث كالدمي	زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظالماء لحن لناظري	من فوق أغصان على كشيان
حاكت فيهن السلو إلى الرضي	نقضي بساطان على ساطاني
هندي الهلال ، وتلك بنت المشتري	حسناً ، وهندي أخت غصن البان
فأبجن من قلبي الحمي وتركني	في عز ما-كبي كالأمير العاني
لا تعذلو أملكاً تذال في الهوى	ذله الهوى عز ومملك ثاني
ما ضر أني عبدهن صبابة	وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن ساطان الهوى	كلفاً بهن فاست من مروان

لقد كانت غايته فيما أسهم به أن يخفف من قسوة العاصفة ، ولكن فساد قوازه وسوئها ، وشهد مظلماً دون أن يستطيع لها دفعا ، جعلت منه شخصاً بغضاً إلى الأندلسيين ، لا يرون فيه غير إنسان زنديق وغاصب ، وضعه البربر ومسيحيو الشمال على عرش الخلافة ، وكان القرطبيون يحتفظون لكلا الإثنین ببغض عميق .

وبعد أعوام ثلاثة ، في ١ من يولية عام ١٠١٦ م ، استيقظت قرطبة على ضجيج غاز جديد ، على بن حمود وحلفائه .

ينتسب على في أسرة إدريس الأول ، مؤسس أسرة الأدارسة في المغرب ، وتبررت أسرته بعد إقامة في المغرب تجاوزت المائتي عام ، حتى أن العربية استدارت في لسانه ، وكان حاكماً شبه مستقل على مدينتي طنجة وسبتة ، على حين يحكم القاسم ، أخوه الأكبر ، الجزيرة الخضراء . ولم تكن مطامع على تقف عند حد ، وحدثته نفسه أن يسعى إلى الخلافة ، ولكي يبلغها تحالف مع الصقالبة ، وانضم إليه جانب كبير من البربر كان يرى في سليمان إنساناً طرياً ، عارياً من المواهب العسكرية ، وهي الشيء الوحيد الذي يقدرونه ، ووجدوه في على ، فهم يحترمون فيه شجاعته وفروسيته ، وينظرون إليه كواحد منهم .

جاء على في جموعه ، وخرج سليمان للقاءه ، وكانت الدائرة عليه ، وسبق أسيراً إلى جانب أخيه وأبيه ، وكان المنتصرون يطدعون في أن يجدوا هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، وقد سئل عنه سليمان فتبرأ من دمه ، ودعا على بهم ، فضرب عنق سليمان بيده ، وأخيه من بعده ، ثم أبيهما الشيخ ، وكان تقياً صالحاً ، بعيداً عن السياسة ، لم يتشبت بشيء من الدنيا . وحاول على في البدء أن يكون معتدلاً ، واتخذ جانب الأندلسيين ، رغم أنه نصف بربري ، يستمع إلى شعرائهم مهتماً ، على قلة ما يفهم مما يقولون ، ويثيهم سخياً ، وجلس بنفسه لمظالم الناس ، وهو مفتوح الباب ، مرفوع الحجاب ، للوارد والصادر ، يقيم الحدود مباشرة بنفسه ، ولا يجابي أحداً من أكابر



قومه ، ويعارض بشدة ما يقوم به البربر من نهب ، ويعاقب بتمسوة على الجرائم ضد الممتلكات العامة مهما صغرت ، وأراد أن يعيد للقرطبيين ما أخذ من البربر ، ولكن طموح خيران دفع به إلى أن يغير موقفه .

في الأيام الأولى أنحاص خيران لعلی ، وكان في مقاطعته المرية يعاقب ويعتقل أولئك الذين يأخذون جانب الأمويين ، ومن هؤلاء ابن حزم على ما يقص لنا هو نفسه في كتابه « طوق الحمامة » ، ولو مضى خيران في طريقه هذه ، ووقف عند قدره ، لربما أسهم في استتباب الأمن وعودة النظام ، ولكنه طمع في أن يمثل دور المنصور بن أبي عامر ، ولكن علماً رجل لا يقنع بما قنع به هشام المؤيد ، وخيران يعرف ذلك جيداً ، ومن ثم عزم على أن يعيد الأسرة الأموية ويحكم باسمها ، فبحث عن مطالب منها بالخلافة ، ووجده في شخص حفيد عبد الرحمن الأوسط ، ويحمل اسمه ، ويقوم في بلنسية ، ووعد جماعة من الأندلسيين بتأييده ، ومن بينهم المنذر حاكم سرقسطة ، وحليفه ريموندو كونت برشاونة . وعرف على أن رفاقه باعوه ، وأن شعب العاصمة يؤيد عودة بني أمية ، فقسا عليهم ، ورمى بهم بين أنياب البربر ، وأباح لهؤلاء أن يتصرفوا في قرطبة أحراراً ، كما لو كانت بلداً عدواً فتح عنوة ، وأعطاهم المثل من نفسه ، فصب على القرطبيين ضرراً من التنكيل والمغارم ، وانتزع السلاح منهم ، وهدم دورهم ، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم ، وأغرم عامتهم ، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم ، فتحوا له أبواباً من البلايا أهلكتها الشعب ، وتقربوا إليه بالسعاية ، وفاضت لمدينة بالشرطة والجوسيس والوشاة ، وأصبح نصف السكان يتجسس على النصف الآخر ، وباع كثيرون أنفسهم للحاكم ، وساد العاصمة رعب أسود ، وتزامل الفجور والمظالم ، ولزم الناس البيوت ، وتطمروا في بطون الأرض ، وقل ظهورهم بالنهار ، ونحلت منهم الأسواق ، فإذا دنا المساء ، وقل الطلب ، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم .

واعتقل الأعيان ، وصادر أموالهم ، وامتن بعضهم بالضرب ، وفدوا

أنفسهم فأمر بإطلاق سراحهم ، فلما أحضرت دوابهم للركوب استوى عليها ، وأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم راجلين ، وأقسم أن يدمر قرطبة بعد أن يخليها من أهلها أو يقتضى عايمهم ، وأعفاه الموت من أن يبر بقسمه ، لأن ثلاثة من غمار صقالبة القصر ، كانوا قبل في خدمة الأمويين ، ويتمتعون بثقة على ورعايته ، قرروا أن يضعوا لطفغيانه غير المحتمل حداً ، فقتلوه ليلاً وهو في حمامه ، وأراحو قرطبة منه ، وتردد البربر بين مبايعة ابنه حاكم سبته ، وأخيه القاسم وإلى إشبيلية ، واستقر رأيهم على هذا الأخير ، وبابيه الناس بعد ستة أيام من موت أخيه .

ودعا خيران ومنذر أنصارهم إلى اجتماع كبير عقد يوم ٣٠ أبريل ، ومثل الفقهاء جانباً ملحوظاً فيه ، وقرر المؤتمر أن تكون الخلافة بالانتخاب ، واختاروا عبد الرحمن الرابع ، وتلقب المرتضى ، وكان يقيم في بلنسية ، وبعد اتخاذ القرار رحلوا إلى غرناطة ، في طريقهم إلى قرطبة . وعندما وصلوا إلى أسوار المدينة تبادل المرتضى وزاوى بن زيرى حاكم غرناطة رسائل عنيفة ، وانتهيا إلى أن يكون السيف حكماً بينهما . وعبر الطريق أدرك خيران ومنذر أن المرتضى ليس الشخص الذى يبحثان عنه ، ولم يكن حق الأمويين في الخلافة يعنهما كثيراً ، لإنهما يقاتلان من أجل أموى يحكمان باسمه ، والمرتضى دون ما يطمحان ، بل وكان يملى عليهما آراءه ، فبيتنا النية على الغدر به ، ووعدا زاوى بأن يتخليا عنه فى اللحظة التى تبدأ فيها المعركة . ولم يقدموا على جريمتهم منذ البدء ، وقاتلا أياماً ، ولم يستطع زاوى أن ينتصر ، فطلب منهما الوفاء بما عاهداه عليه ، فاستجابا له ، وأسلماه سيفيهما ، ولم يوافق القواد على خيانتهم ، وغضب كثيرون ، ومن هؤلاء سليمان ابن هود وكان قائد الفرقة المسيحية فى جيش المنذر ، وتبعهما البعض ، وانهمز جيش المرتضى بعد أن كان قاب قوسين من النصر وأدنى ، وكان ابن حزم رفقة جيش المرتضى ، ووقع أسيراً . وقاتل المرتضى حتى بعد أن تخلى عنه الجانب الأكبر من قواته ، ودافع فى شجاعة نادرة ، وأوشك أن يقع

في أيدي أعدائه ثم أفلت هارباً ، ووصل إلى وادي آش ، وهناك دس عليه خيران من قتله غدراً .

وانتهى خيران بأنصار حزبه ، وبجبنه وعار خيانتة ، ولم يعد الصقالبة في حالة تسمح لهم بجمع جيش ، وأصبح البربر أعداؤهم سادة جنوب شرق الأندلس ؛ وحاولت قرطبة أن تأسو جراحها ، تأمل أن تعيش في ظل سلطة أقل طغياناً وأكثر سلاماً ، فقد كان قاسم بن حمود يوثر السلامة ويميل إلى الراحة ، ولم يضيف إلى آلام القرطبيين وتعاستهم مزيداً ، وأراد لهم أن ينسوا خلافاتهم القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وأعطى زهيراً ، صقلبياً آخر كان والياً على مرسية ، مقاطعات : جيان وقلعة رباح وبياسة .

كان القاسم شيعياً ، أو على الأقل على صلة بالشيعة ، ولكنه لم يظهر ذلك ، ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً ، وأمل الناس معه شيئاً من الهدوء ، وكان يعرف أن شعب العاصمة لا يحبه . فترك ذلك للزمن يخفف منه أو يأتي عليهم .

كان القاسم يشك في البربر ، فبحث عن التأييد بين جماعات أخرى ، اشترى السود الذين كانوا في خدمة البربر والصقالبة ، وكون منهم جيشاً يحرسه ، وعهد إلى رؤسائهم بالأعمال الهامة ، فغضب البربر ، وعرف ابن أخيه يحيى كيف يركب روح السخط فيهم ، وزحف بهم إلى قرطبة ، وأزاح القاسم عنها ، في عام ٥٤١٢ = ١٠٢١ م ، وعين نفسه خليفة ، وتلقب المعتلى ، واستقر فيها بعد صراع مرير مع أبناء عمومته ، ثم تركها ولحق بمكانه من مالقة ، ثم رده القرطبيون ثانية وقتل فيما بعد ، وهو يحاصر إشبيلية ، يوم الأربعاء ٨ من المحرم عام ٥٤٢٧ = ١٠٣٥ م وانهمز البربر معه .

وظن القرطبيون أن الأمر نخلص لهم ، فاتفق رأيهم على رد الأمر لبني أمية ، وفي شهر نوفمبر ١٠٢٣ م تألفت اللجان ، وبدأت المناقشات ، ووضع الوزراء أمام الشعب ثلاث شخصيات ليختار الخليفة من بينهم : سليمان

ابن عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار  
أخا المهدي ، ومحمد بن عبد الرحمن العراقي ، وظن الزعماء أن سليمان ،  
ووضع اسمه على رأس القائمة ، سيكون الخليفة المختار ، فأعد الوزير أحمد  
ابن بردة وثيقة البيعة باسمه ، وكان سليمان دون ما تصور أتباعه بكثير ،  
وعبد الرحمن فوق ما ظنوا وتخيلوا .

كان عبد الرحمن لبقاً ذكياً ، وأديباً لودعياً ، في العشرين من عمره ،  
ليس في بيته يومئذ أبرع منه منزلة ، نقلته المخاوف ، وتقاذفته الأسفار ،  
فتحنك وتخرج وتمرن فيها ، وقد تفاه الحموديون أيام دولتهم ، وسرعان  
ثم عاد إلى قرطبة سرّاً ، فشاهد الفتن الحادثة بين البرابرة وأهلها ، وهم  
فيها بالوثوب ، وبث دعواته إلى أهلها ، فلم يصح له شيء مما أراد ، وأنكر  
الوزراء المدبرون أمره ، فتجردوا لطلبه وطلب دعواته ، وسجنوهم ولم يخرجوا  
من السجن إلا يوم جلوس صاحبهم عبد الرحمن هذا للإمارة . وقد أدرج  
اسمه في قائمة المرشحين لأن غضبه يثير عدداً من القرطبيين ، ولم يرفيه  
الذين يدبرون الحطط منافسا خفيا لسليمان ، ارتفعوا به في أكثر تقدير إلى  
مستوى محمد العراقي ، ولم يكن هذا يتمتع بأية شعبية .

أما وقد وثق الوزراء من النصر فقد دعوا الخاصة والجند والعمامة إلى اجتماع  
يُعقد في المسجد الجامع لاختيار الخليفة ، وفي اليوم المحدد جاء سليمان أولاً ،  
صاحبه الوزير عبد الله بن مخامس ، في ملابس فخيمة ، وعلى وجهه ابتسامة  
وضيئة ، واثقا من اختياره ، وتقدم إليه أنصاره فأجلسوه على مرتبة لاتصلح  
لأحد سواه . ثم أقبل عبد الرحمن في خاق عظيم من الجند والعمامة ، وقد تكنفه  
أمير الدائرة محمود وعمير في رجا لهما ، شاهرين سيفيهما أمامه ، وما أن  
تجاوزوا عتبة المسجد حتى نادوا به بالخليفة وسط التكبير والتهتاف ، فأسقط  
في يد الوزراء ، وخذلتهم حيلهم ، ولم يكونوا يتوقعون شيئاً كهذا ، ودخل  
عبد الرحمن المقصورة فبويج لوقته ، واستدعى سليمان ، وجرى به مبهوتا ،  
فقبل يده ، وهناك فأجلسه إلى جانبه ، ثم وافى محمد بن العراقي أيضا

فقبل يده وبايعه ، وتمت البيعة لعبد الرحمن في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٤١٠ هـ = ١٠١٨ م ، وحينئذ محاذ الوزير ابن بردة اسم سليمان من وثيقة البيعة ، ووضع مكانه اسم عبد الرحمن الخامس ، وتلقب بالمستظهر .

كان عبد الرحمن يعتمد على الشباب الصاعد من أبناء الخاصة ، فاختار وزراء له ابن حزم ، وابن عمه عبد الوهاب ، وكانا فيما يقول ابن حيان المؤرخ القرطبي الكبير « من أكمل فتیان الزمان فهماً ومعرفة ونفاذاً في العلوم الرفيعة » ، وأبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب . وهو لاء رغم ما يتمتعون به من مواهب غير شجبيين ؛ وليسوا محبين إلى الفقهاء والمحافظين لارتقاء سلوكهم ، وتحرر أفكارهم ، واحتقارهم للعادات المتخلفة ، ولم يغفر له أنصار سليمان لعبته ، وانتصاره عليهم ، ونقمت عليه طوائف أخرى اعتقاله أقاربه من بني أمية ، ومن بينهم الذين كانوا مرشحين معه لتولى الخلافة .

ومن جانب آخر ساءت الحالة الاقتصادية ، وأغاض الشقاء الشامل كل بوادر الأمل ، وعمت البطالة ، وأصبح عامة الناس على استعداد في أية لحظة أن يأتوا بنفوسهم على بناء المجتمع القديم ، واتخذوا من محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر رئيساً لهم ، ورأوه أحق بالخلافة من غيره ، رغم أن اسمه لم ينطق به أحد ولا جرى في خاطر ، لأنه إنسان عادي ، بلا مواهب ولا ثقافة ، ولا يعرف من الحياة غير الموائد الخافتة والنساء الجميلات ، ويرى في نفسه غير ما يرى فيه الآخرون ، فنقم لأن الخلافة تجاوزته ، وبيت النية على الثورة ، ودفع إليها بالعامية ، وكان قريباً منها ، يخالطها ويتودد إليها ، فهي ترى فحشه تقوى ، وجهالته حنكة ، واستهتاره تحمراً ، وفتح شهيتهم للسلب والنهب . وكل ما حولهم يجعل منها حقاً مقررأ .

وانضم الخاصة إلى العامة بعد موت سليمان . جمع بينهما ابن عمران ،

تخصية حظرة ، كان في السجن ، ورد إليه محمد الخامس حريته في لحظة تقوى مناجية ، رغم أن أصحابه حذروه منه : « إن مشى ابن عمران في غير سجنك باعاً بتر من عمرك عاماً ! » . وبدأ ابن عمران يستميل رؤساء الحرس فاستجابوا له بسهولة ، لأنهم ناقلين على الخليفة ، فقد وصلت فرقة بربرية إلى قرطبة لتقدم خدماتها إلى الخليفة ، قبل إطلاق سراح ابن عمران بيومين ، ولأنه أحس بالخطر يحدق به من كل جانب وفي كل لون ، فتم أكرم مشواهم ، وأنزلهم دار الملك ، فأثار ذلك غيرة رجال الحرس ، وزادهم ابن عمران إثارة ، ونزل بهم إلى العامة يقولون : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردهم من قرطبة ، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، وتمكينهم من نواصينا » .

ورغم أن عبد الرحمن لم يكن قد صنع شيئاً بعد ، فقد اجتاحت العامة التمصر ، وحرروا الأشراف الذين كانوا في سجنه ، وفهم الخليفة أنهم يريدون رأسه فطلب النصيح من وزرائه ، ولكن هؤلاء كانوا بدورهم يفكرون في حياتهم ، وربما في الجماعة التي من الأفضل لهم أن ينضموا إليها ، وانتصرت الأنانية في أعماق الكثيرين ، فتركوا الخليفة لقدره ، وتسلموا عنه واحداً وراء آخر ، وسرعان ما أدركوا أنهم خدعوا أنفسهم ، فتمد كانت السيوف بالأبواب تنتظر رجوس الخارجين منهم دون تمييز .

وأراد عبد الرحمن أن يخرج من باب الحمام فأظهر له الحراس سيوفهم وأشبعوه سباً ، فعاد التمهقري ، وترجل عن فرسه ، وتجرد من ثيابه ، لاحتى بقى في قميصه واستخنى في موقد الحمام ففقد شخصه ، على حين أخذ العامة والحرس بطاردون البربر في كل مكان لجأوا إليه وبدأ الموت يحصد هؤلاء دون رحمة أو هوادة ، في القصر أو الجامع ، « وفضح حريم عبد الرحمن ، وسبى العامة أكثرهن ، وحمالوهن إلى منازلهم علانية ، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة » ،

وانتصر محمد ، وبويع خليفة ، وتلقب المستكفي ، في ٨ من يناير ١٠٢٤ م ، وقام محمد وعمير على رأسه بالسيوف مقامهما بالأمس من ابن عمه عبد الرحمن ، وأمر محمد بالبحث عن عبد الرحمن في كل مكان ، فوجدوه أخيراً في أبزن الحمام ، قد انطوى انطواء الحية في مكان حرج ، فأخرج في قميص مسود بحال قبيحة ، وجئ به إلى المستكفي فبطش به بعض الرجال القائمين على رأسه ، فتهاهل وجه ابن عمه ، وأخذ في تدبير سلطانه .

كانت إمارة المستظهر إلى أن قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت عليه جماعة ، ولا تجاوزت دعوته قرطبة ، وكانت سنة يوم قتل ثلاثاً وعشرين سنة هجرية .

وكان علي حدائثه سنة ذكياً يقظاً ، لبيباً أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة . يتصرف فيما شاء من الخطابة بليمة ورواية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة . وكان في وقته نسيج وحده ، نخم به فضلاء أهل بيته الناصريين ، فلم يأت بعده مثاه ، وأورد لنا ابن بسام في القسم الأول من ذخيرته طائفة من أشعاره قالها في « حبيبة » بنت « مشنف » من سليمان بن الحكم ، وكان يحبها ، وحاول خطبتها من أمها فلوته ، وهى أشعار جيدة ورقيقة . وتعكس نفساً شاعرة حقاً .

حاول المستكفي أن يصبح شعبياً ، فتلقى جميع الناس بالإبناس ، واستألمهم بالأهوية ، ورأى المال عزيزاً فظن البشر الرخيص يقوم مقامه ، فكان يقول للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وتسموا من المناصب ما أحببتهم ، فتسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناة أراذل الناس ، وأخابت النظار ، وزعائف المكاتب والخدمة ، وأخذ الفقهاء أيضاً بحظهم من هذه المناصب ، وجاءوا في ذلك بطامة لم تسمع في الأعصر الحالية ، فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمة ، وفتنوا بالمناصب العالية ، وشدوا أيديهم عليها ، واضطربت قرطبة بكثرة ما أصبح فيها من المردة ، وقبض المستكفي على جماعة من بني عمه



وحاشيته ، ومستشارى سلفه ، وفيهم ابن حزم ، وابن عمه ، وسجنوا بالمطبق ،  
وعاجل ابن عمه عبد العزيز العراقي فيخنق ، وأمسى ميتا ، ونعاه إلى الناس  
فلم يخف عليهم اغتياله . وهرب آخرون حتى لا يواجهوا نفس المصير ،  
ومن بين هؤلاء أبو عامر بن شهيد ، لجأوا إلى مالقة ، وفيها استشاروا حاكمها  
بجي بن حمود لكي يضع حدا للفوضى السائدة في قرطبة .

وفكر يحيى طويلا ، وقبل أن يقرر اندلعت الثورة في العاصمة في مايو  
١٠٢٥ ، واتفق الملاء على خلع المستكفي ، ونصحه الحرس بأن يهرب ،  
فاستجاب لهم ، وخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغايات متنقبا بين امرأتين  
لم يميز بينهما لمرانه على التخنيث ( التعبير لابن حيان ! ) ، وخرج عن قرطبة  
فمات بأقلش ، فكانت دولته سبعة عشر شهرا ، صعبا نكدات ، سودا  
، شوهات ، فمها استوصل بقية قصور الناصر بالخراب ، وطمست أعلام  
قصر الزهراء واقطلع نحاس الأبواب ، ورصاص القنى ، وغير ذلك من  
الآلات .

وكان المستكفي على أهل قرطبة محنة وبلية ، غفلا عطلا ، مجبولا  
على الجهالة ، عاطلا من كل فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز الصدقة  
ولم يباحقه الاعتقال على امتداد أيام الفتنة تخميرا لأمره ، فكان يقصد أهل  
الفلاحة أو ان يصممهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليما ومخاطبة . وكان  
معروفا بالتخلف والركاكة ، مشهورا بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ،  
أسير الشهوة ، عاهر الخلوة ، والجانب الوحيد الذي دخل التاريخ من بابه  
هو أنه والد ولادة ، الشاعرة الأدبية ، وصاحبة « الصالون » الأدبي  
الشهير في عاصمة الخلافة .

وخلت قرطبة من أى خليفة أو أمير أو حاكم على امتداد ستة شهور ،  
نعم كان هناك مجلس للدولة ، ولكن حكمه أقرب إلى السوء منه إلى الصلاح ،  
وما كان لموقف كهذا أن يدوم طويلا ، فالنهاية تقرب ، النظام القديم  
يغرق ، والجديد في طور التجربة ، على حين يرى القرطبيون في الخلافة

أنها الشكل الوحيد القادر على إنقاذ الدولة من كبوتها ، ولكن من الذي يستطيع أن يقيمه ؟ وأين الأمير الأموي الصالح ؟ لقد حاولوا واختاروا أفضل أموي في هذا البيت ، عبد الرحمن الخامس ، ومع ذلك فشلت المحاولة . لا بديل إذن عن أمير يعتمد على قوات أجنبية ، يمنع السلب والنهب والاختيال ، ويفرض الأمن والنظام ويحمي هيبة الدولة ، وليس بين الأمويين من يتوافق على هذه القوات ، ففكروا أن يعيدوا الخلافة إلى الحموديين وإلى يحيى بن علي بن حمود بالذات ، وبدأوا المفاوضات معه ، وكان يقيم في مالقة ، فقبل عرض القرطبيين دون أن يتحمس له كثيراً وربما داخله شيء من الشك ، فقرر أن يبقى حيث هو ، وأرسل إلى قرطبة قائداً بربرياً مع فرقة من الجنود في نوفمبر ١٠٢٥ م .

وأظهرت الحوادث فيما بعد صدق حدسه ، فكره سكان العاصمة حكم الأفاارقة سريعاً ، وأعاروا أسماعهم لصقالبه الشرق ، خيران وإلى الميرية ، ومجاهد وإلى دانية ، وكانوا يرسلون إليهم : إذا أردتم أن تتحرروا فسوف نساعدكم ، ولم تذهب وعودهم عبثاً . وفي شهر مايو ١٠٢٦ زحف هذان القائدان إلى العاصمة في جند كثير ، وثار القرطبيون ، وعزلوا قائد يحيى ، وقتلوا عدداً من جنوده ، وفتحوا الأبواب لخيران ومجاهد ، وعندما بدأ الحديث عن الحكومة اختفى كلاهما . خاف خيران من حايقه فخانه وأسرع عائداً إلى الميرية ، وظل مجاهد وقتاً في قرطبة ، ومالبت أن غادرها دون أن يعيد الخلافة ، وبعد رحيله قرر مجلس الشورى أن يتولى ذلك بنفسه ، رغم أن التجارب السابقة أثبتت فشل المحاولة ، لأن أي أمير أموي يلقي بالخلافة على رأسه ، وسط الجماهير الساخطة ، دون أن يتدعمه قوات أجنبية ، مقضى عليه بالفشل مسبقاً .

ومع ذلك رأى المجلس بإيعاز من علي بن جمهور أقوى الأعضاء نفوذاً ، أن يقدم الخلافة لهشام ، الأخ الأكبر لعبد الرحمن الرابع المرتضى ، وكان يقيم في حصن البونت لاجئاً منذ وفاة أخيه . وفي شهر أبريل ١٠٢٧ م بايعه

أهل قرطبة ، وتلقب المعتضد ، أو المعتمد في رواية ، ومرت سنوات ثلاث قبل أن يستطيع التغلب على الصعوبات التي تحول دون وصوله إلى قرطبة ، ظل خلالها ينتقل من مدينة إلى أخرى ، وفي ١٨ ديسمبر ١٠٢٩ م وصلت الأنباء بأن هشاما سوف يدخل المدينة ، فخرج الجند لاستقباله ، وعلت الأصوات مرحبة به ، وامتلات الشوارع التي سوف يمر بها بالجماهير ، توهم فيه أن يقيم حكرمة قوية قادرة. وما أسرع ما تلاشى الأمل ، لقد دخل العاصمة في زى تقتحمه العين ، وهنا وقلة وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة ، فوق فرس دون مراتب الملوك ، بحلية مختصرة ، عار من أية هيبة ، يسير هوناً ، والناس يهثونه ولا يعلمون ما سبق لهم من المكروه به ، لأهم يتوقعون أن تنتهي النوضى معه .

ولكن هشاما الثالث لم يخلق لمثل هذه الآمال العظيمة ، فهو طيب ورقيق الحاشية ، كسول ومتردد وضعيف ، لا يقدر غير الدائد المائدة ، وأدرك الدين اختاروه أنهم أخطأوا الاختيار ، وما لبث الجند أن ثاروا عليه ونحاهوه ، وأخرج من القصر مع حشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههن ، حافية أقدامهن ، إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياما يتعطف عليهم الناس بالطعام والشراب ، إلى أن أخرجوا عن قرطبة ، ولحق هشام ومن معه بالثغور ، ولم يزل يجول بينها إلى أن لحق بابن هود وكان متغلبا على سر قسطة وماردة وأفراغة وطرطوشة ، فأقام عنده إلى أن مات في ديسمبر من عام ١٠٣٦ م ، ولم يكن لموته أي صدى في قرطبة ، أو في غيرها من المدائن من باب أولى !

« ربحنا » انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتشر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلافة ، وانتشر الأمراء والروساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا ، خطتها ، وتغلب بعض على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استنفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالحزى للطاغية ( ملك المسيحيين في الشمال ) ، أن يظاهر عليهم أو يبتز ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحر ملك

العدوة ، و صاحب مراكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللامتوني ،  
فخلمهم وأنخلى منهم الأرض (١)

ومع سقوط الخلافة أخذت حياة ابن حزم وجهة أخرى ، على نحو  
ما أشرنا إليه في حياته ، لونت فكره بظلال قاتمة ، ومزجت مشاعره  
بأحاسيس مريرة ، رغم أنه تخلى عن السياسة والوزارة ، وعكف على الدرر  
والقراءة والتأليف والحوار وطلابه ! .

---

(١) المقرئ ، نصح الطيب ، ج ١ ص ٤٣٨ ، طبعة د / إحسان عباس .

## ابن حزم ... قمة إسبانية

للمؤرخ الإسباني : سانتشث البرنس

شهد ثورات قرطبة ، وجاءت نتيجة حتمية للاستبداد العامري ، ورأى الحروب الأهلية التي تلتها ، وعاش في إسبانيا ممزقة ، تناثرت دويلات تحمل اسم « الطوائف » ، وفيما صب التيار الذي تكون خلال حكم المنصور بن أبي عامر ، وكان مستبداً ، وعمل والد ابن حزم وزيراً له . ومن ثم قدر لابن حزم أن يواكب فترة حرجة ، شهدت انهيار الخلافة القرطبية ، وانحدار الأندلس تاريخياً . وكما يحدث في أحيان كثيرة عبر التاريخ ، بلغ التطور الثقافي خلال المرحلة السابقة أوجه في عصر الطوائف ، وهو أشد حيوية وأقل صقلًا ، ومعاً حدث الانحدار السياسي والتفوق الفكري . وفي قاب إسبانيا هذه : ممزقة ومشرقة ، رفرفت شخصية العلامة القرطبي خفاقة وعالية ، ويمكن أن تقارن بأعظم قمم الفكر الإسباني على امتداد كل العصور .

كان ابن حزم متكلماً وفيلسوفاً ، فقيهاً وباحثاً ، لغوياً ومؤرخاً ، شاعراً وناثراً ، عالم نفس وأخلاق ، ورجل فكر وعمل ، سياسياً وحالماً . ويمكن أن يوضع إلى جانب أعظم كبار المفكرين والشعراء في العصور الوسطى . ولو قدر له أن يكتب في اللغة اللاتينية أو الرومانشية لبلغ اسمه من الذيوع والشهرة ما بلغه دانتى ، أو القديس توماس الإكويني . ولكن على العكس ، ومن الضروري أن نصرح به ، استطاع أن يبلغ هذه المرتبة العملاقة لأنه كان إسبانياً مستعرباً ، ولو كان غريباً خالصاً في الأيام التي قدر له أن يعيشها لكان من الصعوبة البالغة بمكان أن يبلغ القمة التي خلق فوقها فكره ، لأن الثقافة الأوروبية خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر ، واتسمت بالفجاجة ، كان ممكناً أن تدمر القدرة الخالقة عند حفيد الإيبيريين الإسبان القدامى ، أبناء فرضة نهر ولبة Huelva

إن المعادلة الجبرية بين السلالة والأرض والوعاء النعماني والتوتر التاريخي والحياة العائلية ، وكلها تابع دوراً حاسماً في ازدهار شجرة العبقرية ، معقدة للغاية ، ولأنها اكتنمت حول ابن حزم استطاع أن يصبح على نحو ما كان عليه ، ولهذا نستطيع أن نفهمه فحسب إذا وضعناه وسط سلالته ، وعدنا به إلى أجواء عصره ، وتسربنا إلى أعماق شخصيته .

لقد حاول كبار المستشرقين تحليل هذه العناصر ، وتميز المستشرقون الإسبان من بينهم على نحو رائع ، وبخاصة ميغيل أسين بلاثيوس ، وإميايو غرسية غومث . ولن أحاول اكتشافه الآن ، وأنا أرزح تحت أعباء سنين طالت ، لأن ذلك يكاد يدفعني إلى حالة من الوجد أمام أعماله ، أويدعني أقتحم على حماسة مبتدئ خطيرة ، وكلاهما - الوجد والحماسة - أفسدا الفكر الجاد لبعض المدركات التاريخية في كتب ابن حزم ، وفي الاعترافات التقية المتأخرة للمفكر الأندلسي العظيم . ومنذ أن نشر أسين بلاثيوس شيخ المستشرقين الإسبان المعاصرين ، ترجمته لكتاب : « الأخلاق والسير : مداواة النفوس » عام ١٩١٦ ، والجزء الأول من دراسته عن ابن حزم وكتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ونشره عام ١٩٢٧ - وما أكثر الأمسيات التي شهدت فيها أسين بلاثيوس يسود الصفحات البيض بترجمته للكتاب ، في مكتبته من شارع أنتشا Ancha ! - أحسست بالأهمية المتزايدة لهذه الشخصية الإسبانية المسلمة المنقطعة النظر ، وإحدى أفكاره عن الحروب الأهلية : « نوار الفتنة لا يعقد ! » باشرت : تأثيراً حاسماً على موقفي من حرب الإخوة المتقاتلين في الحرب الأهلية الأخيرة ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩ والتي مزقت وطني في قسوة . وتوارد في ذهني تفكير ابن حزم هنا ، وهو مصيب للغاية ، وجرى به قلمي في مقدمة كتابي : « حول أصول الإقطاع » وكتبته في مدينة بوردو بفرنسا ، بينما الإسبان يتقاتلون في وحشية قليلة النظر . وفيما بعد ، عندما أعددت كتابي عن « إسبانيا الإسلامية » كان علي أن ألتقي مع ابن حزم من جديد . واعترتني دهشة قوية عندما

تأكدت لي إسبانية مزاجه وشغلي الأمر مشتاقا ، فعرضت له في عدد من المحاضرات ، وفي مقالين أو ثلاثة .

أحد كتب ابن حزم ، وهو «طوق الحمامة» ، ترجم إلى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة : الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية ، والإسبانية أخيرا . وهذا السلسلة من الترجمات تؤكد الاهتمام الذي أثاره الكتاب في عصرنا خارج دائرة المستشرقين والعاكفين على الدراسات . لقد استطاع القرطبي ، علامة عصر الطوائف ، أن يصبح معاصراً ، وأن يشد انتباه قطاعات عريضة من المهتمين بالظواهر الأدبية ، والمغرمين بالمشكلات التاريخية . وتقدم ابن حزم إلى المقام الأول من اهتمام المفكرين والمؤرخين والمثقفين والباحثين ، وحتى من ذواق الأطنمة الممتازة العارفين ، بين الآداب القديمة على امتداد كل العصور ، ببر اهتمامي بشخصه وبمؤلفاته ، ومع ذلك فإن أحل لا هذا ولا ذاك . إن اهتمامي - كمؤرخ - ينصب على انصهار واستمرار ما هو إسباني فيه ، وشدني إليه ما يثيره من سؤال حين نضعه داخل النمط الحيوي لشبه الجزيرة الإيبيرية ، وارتباطه به ، ارتباطات نستطيع أن نقول إنها دارجة مع إسبان آخرين من عصور متفاوتة جدا ، جاءوا قبل هذا القرطبي المسلم ، أو بعده ، بألف عام ، وكتابه عن الحب يمكن أن يقرأه اليرم ملايين الغربيين في لغاتهم القومية . وثمة مشكلة مسبقة تعترض طريقى ، طرحها وعرض لها على طريقته أورتيجا إى جاسيت .

لقد شرفت دراسة وترجمة «طوق الحمامة» إلى الإسبانية ، والتي قام بها إيفرسية غومش ، بمقدمة للأستاذ العظيم أورتيجا إى جاسيت ، وحاول فيها أن يقدم تفسيراً جديداً للعصور الوسطى ، وكان قادراً بعمق نظره ، وحدة ذكائه ، على أن يرى بوضوح ، وسط الضباب الذي يحول بين الآخرين ، وأنا أحدهم ، وبين تأمل أسرار التاريخ والحياة ، وأن يحدد مبدعا مرحلة ذات نتائج مأسوية بالمغة الخطورة في حياة أوروبا ، على نحو ما فرضتها العصور الوسطى ، وكان الأمر ، مع ذلك ، مجازفة خطيرة ، وأورتيجا



وحده يستطيع المغامرة بمواجهتها باطف وفي نجاح. نجاح فيما قدم لنا ، وليس مهما أن يكون نظرية لا تقبل الهجوم ، وهو نفسه حدد لنا العلم منذ أعوام بأنه مصباح ينير المشكلات موضع النقاش ، ولكنها أفكار كثيرة خصبة ، على المؤرخين أن يضعوها في حسابهم في قابل الأيام .

لقد حدد أورتيجا فكرته الجديدة عن العصور الوسيطة : « العصور الوسطى الأوربية لا تنفصل في الحقيقة عن الحضارة الإسلامية ، لأنها تقوم بالدقة على التعايش ، إيجابا وسلبا في الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام فوق رقعة مشتركة تشربت بالحضارة الإغريقية الرومانية » . لقد كتبت هذه الكلمات التي تشير إلى العصور الإسبانية منذ ما يقرب من ربع قرن ، في مقال لي بعنوان : « إسبانيا والإسلام » ونشرته في مجلة الغرب Occidente التي أسسها أورتيجا إي جاسيت ، ودعمها على امتداد أعوام طويلة ، وانتهت فيه إلى أن إسبانيا برزت ثمرة اللقاء بين المسيحية والإسلام على أرض شبه الجزيرة في حالي الحرب والسلام على السواء . وأنا لا أنكر خصوبة التعايش بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، غير أنني لا أقبل القول بأن المنعطف التاريخي للعالم المسيحي ، بكل ضبابه المتراكم ، تطوره الحاسم ودوره في نهضة أوروبا الحديثة ، كان وليد ذلك التعايش . ولكنني أتمنى بقوة أن يكون لهذه الصيحة العالية التي أطلقها أورتيجا دوى وأن تجد لها خارج إسبانيا صدى ، لأن المؤرخين حتى يومنا لا يقدرون الدور الذي لعبه الإسلام في التاريخ الأوربي الوسيط ، ولا يعطونه ما يستحقه من اهتمام .

وأخشى أن يكون أورتيجا قد ذهب بعيدا حين انتهى إلى أن الجرمانية والعربية كانا « جسمين متشابهين للغاية فيما يتصل بموقفهما الجوهرى من الحياة » في بداية العصور الوسطى . لأن من الواضح أنها مختلفتان بدءا ، ولكن أحدا من المؤرخين لم يغامر بإبداء رأيه على غير أساس ، وفي غير أناة ، عن نظرية « عدم المجانسة » إن ازدرأ أورتيجا إي جاسيت للمؤرخين ظالم ومألوف ، وجاء وليد إطلاق اسم هؤلاء على العلماء الموسوعيين الخالص ، وهؤلاء

تعودوا أن يطلوا على التاريخ من وراء غمام ، كخيل المصارعين حين تظهر في حلقة مصارعة الثيران . ولأنه تعود على الحرية الرائعة لحركة الفلاسفة ، الذين يستطيعون أن يمتطوا سراعاً صهوة الأفكار المندفعة ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقيم في دقة مأساة المؤرخين ، تقيدهم الأحداث التاريخية في قسوة ، أحداث ليست هي التاريخ ، ولكنها تصنعه وتحدده وتعقله ، وإذا كان بيننا كثيرون يستحقون أن يجلدهم بسياط نقده ، فإن ذلك لا يعطيه الحق في أن يلوح بها ضد الجميع .

ويؤكد أورتيجا ، وتأكيده مقنع ، وواقع أن الشعوب ذات الثقافة البدائية ( والتشابه في البدائية لا يعدل - في رأيي - التشابه الجوهري ، فثمة أنواع كثيرة من الوجود البدائي ) كانت تشغل فراغاً اجتماعياً ، على رقعة الإمبراطورية الرومانية ، وسبقها حضارة بلغت قمة الرقي ، وللسبب نفسه كانت أشد تعقيداً وأرقى صقلاً . ولكنه لم يقف عند حد التفرقة بين الاختلافات الكبيرة التي كانت تفصل بين القارتين قديماً ، في عالم العرب والحرمان . اختلافات خصبة ، ذات نتائج تاريخية بالغة الأهمية . ألا يبدو له من الأهمية بمكان أن هؤلاء دخلوا عالماً ثقافياً ، تأثر بالثقافة الجرمانية إلى حد بعيد ، وهي حقيقة لا تقبل المناقشة ، ولا يمكن أن تنسى في عالم اليوم ، وأنهم دخلوها مخلوقات عارية ، تحت راية الرغبة ذاتها ، ووحدها ، وتدفعهم القوة أو الخوف - والخوف ، لكي لا ننسى ، عامل تافه في الحدث التاريخي - دون أن يحملوا على أسنة رماحهم ، أو في أطراف سيوفهم ، أي كتاب مقدس ، ودون أن يخفوا بهم القوى في أن يصبحوا سادة البلاد التي فتحوها ، ودون أن يرفعوا علماً أية فكرة خصبة وجذابة وقادرة على أن تثير الحمية في نفوس الجماهير الغربية ؟ .

ولم يكن العرب كذلك . لم يتوغلوا في عالم العروبة ، باسم الرغبة الخالصة والوحيدة في أن يصبحوا سادة بلاد الأعداء ، ولم يدخلوها عمراً من الثقافة ، وإنما عبروا حدود الجزيرة العربية ليكملوا وصاة الرسول ،

ولينشروا بحمد السيف عقيدة جديدة، ولأنهم ، بوضوح ، حققوا فتوحاتهم تحت راية عقيدة دينية ، وفتحوا صفوفهم فوراً للراغبين في اعتناق الإسلام من أبناء الشعوب التي أخضعوها . وكانت خلافة دمشق في الحقيقة إمبراطورية سورية ، وخلافة بغداد إمبراطورية عراقية ، وكلاهما يحتمى بقبلة الإسلام . ولقد ساءل العرب في البدء أن يستردوا دفعة الإسلام السياسية والاقتصادية عن طريق الحرب ، وانتهت بأن أشعل السوريون النار في المدينة المقدسة ، وفيما بعد لم تستطع القلة من العرب التي استقرت في البلاد المفتوحة ، وقد فاضت بسكانها ممن اعتنقوا الإسلام ، دين العرب ، في سرعة عجيبة ، أن تحتفظ إلا بالقليل من تكوينها الحياتي الأصلي . ويمكن القول أن أبناء الشعوب المفتوحة هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام ، بينما واصلت أغلبية العرب حياتها في جزيرتهم شبه الصحراوية ، دون أن يتلقوا الحضارة التي صنعها المنحدرون من أصلاب الذين انهزموا أمام الإسلام .

لا أستطيع اليوم أن أقف مع الرأي القائل بأن أوربا الإقطاعية كانت عملاً جرمانياً - كما كان يعتقد قديماً - ولكن من الضروري الاعتراف بأن الجرمان ، بما فيهم أولئك الذين ظلوا في مواطنهم البدائية الأولى فيما وراء نهر الراين لم يكونوا بمنأى عن هذه المغامرة العملاقة الخلافة ، على حين كان عمل العرب الخالص في تكوين حضارة وأسلوب الحياة الإسلامية محدوداً .

وآسف لأنني استخدمت تعبير « أسلوب الحياة الإسلامية » ، لأنني أشك كثيراً في أنه يوجد في الحقيقة أسلوب إسلامي للحياة . وقد دفع اعتبار الإسلام وحدة جوهرية وثقافية بأديركو كاسترو إلى أن يرتفع ببناء نظرية بالغة الضعف . ولقد تساءل أورتيجا إي جاسيت منذ أعوام طويلة : يا إلهي ! ... ماذا تكون إسبانيا هذه ؟ وبالصرخة المأسوية نفسها يمكن أن نسأل : ما الإسلام ؟ . لأنني لا أؤمن بوحدة التكوين عند الشعوب التي تعبد الله الرحمن الرحيم . لا أستطيع

أن أوافق أورتيجا فيما وصف به ابن جزم من أنه عربي إسباني، وأجروا على أن أناديه بما هو نقيض لقوله : إسباني متعرب .

من الواضح أننا إذا احتفظنا بصفة «إسباني» لمن عاشوا طبقاً لأشكال الحياة الإسبانية المعاصرة ، فإن مؤلف «طوق الحمامة» ليس إسبانيا . وأسمح لنفسى أن أرد هنا على التحديد البسيط الذى أعطاه أميركو كاسترو لمفهوم «إسباني» . إذا أطلقنا لفظ «إسباني» على أولئك الذين فكروا وأحسوا وعاشوا، على نحو ما كان شائعاً فى فترة ما من تاريخ إسبانيا ، مهما تكن ، فإن أسلافنا من ثلاثة آلاف يمكن أن ينكروا ، وبحق ، صفة إسباني على أورتيجا أى جاسيت ، وأميركو كاسترو أو غرسية غومث وأنا . لأننا لانفكر ولا نحس ولا نعيش على نحوهم .

أعتقد أن الرجل هو التاريخ ، على حين يرى أورتيجا أن الشعوب تتغير مع حركة الأجيال السريعة ، وأن الأمتس يختلف دائماً عن اليوم ، وأن اليوم يغير الغد ، ولا يوجد عصران إسبانيان متماثلان . وذلك يسمح لنا ، بل يضطرنا ، أن نعتبر إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ ، داخل إسبانيا وخارجها ، فكروا وأحسوا وعاشوا على نحو ما كان مألوفاً إذ ذاك ، فى إسبانيا الرومانية ، قبل فرياتو Viriato بزمن طويل ، وحتى بعد بريم Prim بقرون عديدة «أ» . وأمر آخر لا يمت لذلك بصفة ؛ أن نحدد ما إذا كانت هناك ملامح مشتركة بين إسبانيا الماضى البعيد ، وأمتس واليوم . والموضوع هام لكى نحدد بدقة قدر ما فى مؤلف طوق «الحمامة» من إسبانية حقة ، وثمة أخبار مثيرة لرحالة أفريقي من القرن السادس قبل الميلاد ، يروى أن سكان مرسيلىة كانوا مغرمين بقص الحكايات والروايات ، ويمكن أن نجد شواهد أخرى كثيرة مشابهة .

---

(١) فرياتو أيبيرى تزعم الثوار فى غرب شبه جزيرة إيبيريا ضد الاستعمار الرومانى ، فدفع الرومان بمن اغتاله عام ١٤٠ قبل الميلاد .

وبريم ، قائد عسكري إسباني ، اشتهر فى الحروب الأهلية التى عمت إسبانيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .  
(الترجم)

ومهما يكن عدد اللذين يمكن أن يتسع لهم هذا الباب ، فإنى لا أومن بأن للأرض أو السلالة تأثيراً حاسماً عبر التاريخ ، ولا فى استمرار الخصائص الجماعية للشعوب إلى مالا نهاية . إن التاريخ وليدلعة معقدة بين قوى مختلفة ، منها الأرض والسلالة ، وكلاهما يلعب ، بالطبيعة ، دوراً فعالاً . والتركيب الحيوى للشعوب ليس خالداً ، لأنه يرتبط بالتطور التاريخى الخاص بكل شعب : ثباته أو تغير ماورث من مزاج ، واستمرار بعض الملامح المميزة لشخصيته والإيقاع الذى يسير عليه فى علاقته مع الآخرين أخذاً وعطاء .

وليس صعباً ولا أجروء على أن أخط مخاطرة ، لأنها لم تكن كذلك ، فالتاريخ وليس المغامرة هو الذى سهل لطارق بن زياد ، وموسى بن نصير عبور مضيق جبل طارق - أن نوضح أن ، خصائص التاريخ الإيبانى الوسيط حددت مسار تقدمنا التاريخى ، وجاء فى زحف الساحفة خلال حرب « الاسترداد » وليغفر لى أورتيجا أن أنقل عنه هذه الاستعارة القديمة التى استخدمها قبلى ، ولو أن محتواها يمكن أن يكون موضع نقاش . فنحن شعب أوربى ، أقرب ما يكون بماضيه المتميز إلى أسلافه القدامى ، وقد مضت عليهم آلاف الأعوام ، وهى خصائص حاولت أن أوضحةا مفصلة ، وأودعتها كتاباً ضخماً . وحتى خلال الحكم الإسلامى واصل الكثير من هذه الخصائص الإيبانية القديمة حياته ، لأن الإسلام الأندلسى اعتقل فى ماضى سكان شبه الجزيرة الإيبيرية ، لأسباب احتفظ بها الآن .

ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعنا من مؤلف « طوق الحمامة » إيبانياً ، وإنما صاغه التاريخ من طين ولبة الإيبيرية ، ومن دم إيبيرى يتدفق عبر حدوده المولدين ، وهى حقيقة نسيت ، كما نسى من قبل أن نهر تنتو Tinto أقدم نهر إيبانى .

وفى شعب يتقدم عبر التاريخ بخطى بطيئة ، ونقول هذا لإبراء الذمة الإيبانيين ، فإن ثلاثة قرون غير كافية لتغيير التكرين المزاجى للمجموعة وانحاز من أن نفكر مثل أميركو كاسترو فى أن إيبانيا قد تعربت ثقافياً

وحيوياً بعضاً سحرية منذ لحظة الفتح عام ٧١١ م . لقد كان التعريب الثقافي بطيئاً للغاية ، ويقول غرسية غومث فيما كتب من قريب : « بعد اكتشاف « الحرجات » الرومانشية للموشحات ، وشيء مشير من مخبثات العصر الأدبية ، بدأنا ندرك اليوم بوضوح أهمية النتائج التي أدى إليها الازدواج اللغوي في إسبانيا الإسلامية ، وأصبحنا نعرف الرقعة المحدودة التي لاذت بها العربية الفصحى في نطاق الدولة » وأما التعريب الجيوى لإسبانيا الأندلس فربما لم يتحقق أبداً ، إذا فهمنا من « التعريب الجيوى » شئ يتجاوز اتخاذ العادات الخارجية للحياة اليومية . وفي كل الأحوال رأيت إسبانيا الإسلامية شعباً يتحرك في تودة ، ليصبح هجين الفكر على مهل ، وطبقاً لما قاله ، وكرره ، كل المستشرقين ، كانت المسافة واسعة بينه وبين كل ما هو شرقي حقيقى في كثير من مظاهر مزاجه ، ولقد أبرز غرسية غومث « غربية » شعور ابن حزم ، وأزاح ابن حزم نفسه الستر عنها حين قال :

أنا الشمس في أفق العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعى الغرب لا ، في ثلاثة قرون لم يكن مسامو الأندلس قد أهدروا كل تراثهم من المزاج الإسباني ، ومن ثم كان ابن حزم إسبانيا تعرب ثقافة ، ولم يكن عربياً إسبانيا . ابن أحد وزراء المنصور بن أبى عامر ، دكتاتور الأندلس ، وكان معاصروه وتلاميذه من شبه الجزيرة يرونه حفيداً للمولدين ، أى أنه ينحدر أباً من أصول إسبانية أسلمت ، وكانت الأم إسبانية على التأكيد ، لأن مسلمى الأندلس ، حتى الخلفاء منهم ، ولدوا لأمهات ينحدرن من سلالات إسبانية عريقة ، فهم من هذا الجانب إسبانيون جميعاً ، ولكن ابن حيان المؤرخ ، وابن سعيد صاحب « المغرب في حلى المغرب » ، يصرحان بأن ابن حزم كان كذلك من جهة الأب أيضاً .

يقول المثل الإسباني : « أنت أشبه بمن تعيش بينهم منك بمن ولدت لهم » ، وهى فكرة لا يمل ترددها ، في كلمات أكثر نبلا ، أولئك

الذين يعتقدون أن التربية تنحصر على الدم في تكوين الشخصية الإنسانية .  
ولكن حالة ابن حزم تقف عالية في مواجهة هذا القول ، فهو مسلم ومتعرب  
حتى الأعماق ، ولكن روحه واصلت إسبانيته دون أن تنحرف . وما نعرفه  
عن الداخلة الروحية للمفكر القرطبي العظيم قليل جداً ، وقد توقفت بإزائه  
تلاميذه ودارسوه ، في فطنة أحياناً ، وممزوجة بالغيظ أحياناً أخرى .  
وكشف هو عنها في كتاباته ، وألف - كما قلنا - حول موضوعات وفيرة  
التنوع ، من كلام وفلسفة وفقه وأدب وتاريخ وغيرها . ولكن شخصيته  
تبدو في قمة توهجها خلال ثلاثة كتب شهيرة : « طوق الحمامة » ، وفيه  
يلتقي الشاعر وعالم النفس ليرسم لوحة جميلة للحياة العاطفية على أيامه .  
وكتاب « الفصل بين المال والأهواء والنحل » ، وهو تاريخ مقارن للأديان ،  
وفيه يداق معارفه الواسعة من الثقافات ، إسلامية وفارسية وإغريقية ومسيحية  
ولاتينية ويظهر عمق ذكائه الفاسفي ، وقوة عقائه الخلاق . وكتاب « الأخلاق  
والسير في مداواة النفوس » ، وفيه أورد ملاحظاته على [نفسية معاصريه  
موشاة بحكم أخلاقية ، واعترافات ذاتية صادقة ، تجمعها صنو ديمقريط  
Democrite ، وسينكا Seneca ، وتارة يشبه القديس أغسطين ، أو يذكر  
تيوفراست Teofraste ، أو يسبق في أفكاره بيكون Bacon أو لا بروير  
La Bruyère ، أو يبدو كما لو كان سلفاً للشاعر الإسباني كيبيدو  
Quevedo ، أو مواطنه المفكر أوتامونو Unamuno (١) .

---

(١) . ديمقريط : فيلسوف إغريقي عاش قبل الميلاد ، وتنهض فلسفته على السحرية  
من جنون الإنسانية .

• سينكا : (٤ قبل الميلاد - ٦٥ بعد الميلاد) فيلسوف وخطيب ومرحى إيبيري ،  
ولد في قرطبة وعاش في روما ، وترك عدداً من المؤلفات الفلسفية والمسرحية وغيرها .  
• القديس أغسطين : (٣٥٤ - ٤٣٠ م) ، راهب كاثوليكي . من شمال أفريقيا ،  
ولد لأب وثني ، وأمضى شباباً متيناً ، ابن من علاقة غير مشروعة ، واتخذ من الرهبانية

وليس من الصعب أن نكتشف في الملامح النفسية التي أوردها عنه من ترجموا له ، أو تناثرت فيما كتب لنفسه عن نفسه ، أو في اعترافاته ، عمق حيويته الإسبانية ، ولكن ... فلنمض في رحلتنا معه على مهل ! :

• من مدينة الزهراء إلى الإسكوريال :

لطالما وجدته مشدوداً إلى الموازنة بين تاريخ إسبانيا الإسلامية وتاريخها المسيحي ! .

ومنذ سنوات رسمت صورة لحقتين من حياة إسبانيا ، تفصل بينهما قرون عديدة من الزمن ، وألوان مختلفة من الثقافات ، ولقد أبدت اهتماماً كبيراً في دروسي ومحاضراتي بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر تحت جبل العروس ، من قبلة الجبل ، شمال قرطبة ، بين عامي ٩٣٦ و ٩٦١م ، أي منذ ألف عام ، وما أكثر ما أشرت إلى بنائها تفصيلاً ، في ضوء المعامات الضافية التي أوردها لنا ابن حيان ، المؤرخ القرطبي العظيم ، فقد ذكر الأعمدة ، عددها ، والرخام الذي استخدم فيها وثمنه ، ونفقات قطعه وحمله وألوانه ، وعدد العمال الذين كانوا يشتغلون في البناء ، والدواب التي تستخدم

---

= لباساً ، وأصبح من كبار رجال الدين الكاثوليك ، وبلغ في مجال الكتابة درجة عالية ، ومن أشهر مؤلفاته : إعرافات .

• تيوفراست : ( ٣٧٢ - ٢٨٧ ق . م ) فيلسوف إغريقي .

• بيكون : ( ١٢١٤ - ١٢٩٤ م ) ، عالم وفيلسوف إنجليزي شهير ، صاحب المذهب التجريبي في الدراسة .

• لابروير : ( ١٦٤٥ - ١٦٩٦ ) كاتب وأخلاق وروائي ومسرحي فرنسي .

• كيبيدو : ( ١٥٨٠ - ١٦٤٥ ) شاعر وكاتب إسباني .

• أونامونو : ( ١٨٦٤ - ١٩٣٦ ) ، كاتب إسباني ، فيلسوف وشاعر ، مسرحي وروائي ، ومناضل سياسي ، ودنيا واسعة من الثقافة العريضة والعميقة ، غزير الإنتاج ، ويلتقى مع كاتبنا العظيم عباس محمود العقاد في جوانب كثيرة ، ويصلحان موضوعاً شيقاً للدراسة مقارنة ( المترجم ) .



في النقل من بغال وجمال ، ومقدار ما تنقل ، وما يدفع لها وللعاملي عليها  
من كراء ، تجيء وتذهب في قوافل لا تنقطع بين قرطبة والزهراء ، محملة  
بالرخام والحيار والجص والأخشاب ، وكل ما يتطلبه البناء من مادة وأدوات .  
ولقد أسعدني ما أثارته هذه الحقائق من دهشة بن السامعين . ثم وصفت لهم  
فخامة قصر الخلافة ، وبنى بأعلى الزهراء ، والحدائق الخضرة تطوق المدينة  
من كل جانب ، وتشغل ما بينها وبين مرتفعات الشارات ، وقد اتخذها  
الناصر « لنزله ، وكرسيا للملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين  
ما عفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ،  
متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلمة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة  
الآلات ، من آلات السلاح للحرب ، والجلي للزينة ، وغير ذلك من  
المهن » . وكانت تضم منازل رجال البلاط ، وكبار الموظفين . وتأنيت  
وأنا أرسم صورة للبهو الأعظم ، وكان معداً لاستقبال السفراء والوفود  
وكبار الزائرين ، سقفه من الرخام المذهب ، وفرشت أرضه بالسجاد  
الفاخر ، وأقام له في رأسه كرسيا من الذهب الخالص ، وتوسطته بركة  
كبيرة من الزئبق ، « وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب ، قد  
انعمدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ،  
قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل  
على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك  
نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه  
أوماً إلى أحد صقاليته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق  
من النور ، ويأخذ بمجامع التلوب ، حتى يخيل لسكل من في المجلس أن  
المحل قد طار بهم ، مادام الزئبق يتحرك » . وأنهيت وصفي لمدينة الزهراء  
بكلمات دامعة ، وقفت فيها على أطلالها ، وأسفت لتدمير الكثير من  
روائعها في الثورات التي اجتاحت قرطبة بسبب دكتاتورية المنصور وأبنائه  
من بعده .

وحدث الشيء نفسه في مدينة بوننس أيرمس عاصمة الأرجنتين ، عام ١٩٣٣ ، في محاضرة ألقيتها عن « الحياة في قصور خلفاء قرطبة منذ ألف عام » ، وفجأة ومض في داخلي خاطر ، وقفز فسكرى بعيداً ، في الزمان ربي المسكان ، لسكى أنتقل إلى قصر ملكي آخر ، لأمرأ إسبانيين ، أقيم على نحر ما فعل عبد الرحمن الناصر في منظر جبل آخر ، قريباً من عاصمة إسبانيا على أيامهم :

لقد حلق بي الخيال عالياً ، ومشدوداً إليه ، تجتاحني مشاعر وذكريات ركنين في وطني البعيد والمعبود ، ولحظتان حاسمتان من تاريخه ، وجدتي أقول :

« لا ترد في خاطرى مدينة الزهراء أبداً إلا وجمع بي حصان خيالي ، والآن ، كما يحدث دائماً ، انطلق بي تذكرها ، بأسرع مما ينطلق الفرس ، أوتندفع الرصاصة ، إلى سلسلة جبال وادي الرمة ، وعبر خيالي ، في رحلة طائرة رائعة ، أشجار سلسلة جبال « مورينا » ، ووديان « لامنتشا » ، وقمم جبال طليطلة المتلاحمة ، ومنعظمت نهر « تاجه » تطوق المدينة مثل حمائل سيف مفضض ، وقباب مدريد وغاباتها ، وناطحات سحابها ، لسكني أتأمل في شوق حزين قصور مدينة ملوك إسبانيا من أسرة أشتورياس : الإسكوريال ! »

مدينة الزهراء والأسكوريال ! ، وليس ثمة تناقض أشد حدة مما بينهما فالجانب قصور خلفاء قرطبة ضوء أندلسي يعشى البصر ، وأرض ذات أسرار ، ونخضرة شبة ، وبرتقال وزيتون ، وحول قصور ملوك مدريد بلوط وصفصاف ، وأعشاب وزعر ، وصخور شهباء ، وصقيع وبرد . وفي مدينة الزهراء رخام وفسيفساء ، وزخارف فاخرة ، وبرك وحمامات ، وقاعات مذهبة ، وفي الأسكوريال رخام ومعمار تحكمه هندسة دقيقة ، وصوامع غبرة ، وممرات عابسة ، وعنق . في مدينة عبد الرحمن الناصر قصور ومساجد ، تحصيان ونساء ، شعراء وجنود ، موسيقى وألوان

متوهجة ، وسجاد وحرير وعطور ، وأقوام تتحدث العربية ، وفي الإسكوريال ، مقر فيليب الثاني ، رهبان وراهبات ، وأغنيات دينية ، ومحادثات هامة كالصلاة ، وأردية سوداء من نسيج قشالي ، وصمت وهدوء . في « شارات » قرطبة لذات وقسوة ، ودم وشهوة ، وعواطف متفجرة ، وفي وادي الرمة المشاج صلوات خاشعة ، ومشاعر مكبوتة وتصوف . وعلى منار مسجد الخليفة صوت المؤذن يدعو إلى الله الرحمن الرحيم ، وألسنة النواقيس في أبراج الدير الملصكي ، في الإسكوريال ، تدعو المؤمنين بآين الإنسان وابن الله إلى القداس . ليس ثمة تناقض أشد حدة مما بين مدينة الزهراء والإسكوريال ، ومع ذلك ، وكما يقول بيت من الأغنية الشعبية الأندلسية ، « ثمة خيط خفي رفيع يصل بين الإثنين » .

نعم ، مدينة الزهراء والإسكوريال ! . كل واحدة منهما تمثل قمة مرحلة في حياة إسبانيا . كانت مدينة الزهراء ، في القرن العاشر الميلادي ، حاضرة الأندلس ، وإسبانيا الإسلامية القوة الأولى في غربى البحر الأبيض المتوسط ، وتملك مضيق جبل طارق ، وتسيطر على المغرب الأقصى ، ويطلب صداقتها والتحالف مع خلفائها إمبراطور جرمانيا ، وقيصر بيزنطة ، ويرسلان إليها السفراء والهدايا ، وقرطبة إذ ذاك أكبر مدن الغرب ، وأعظمها ثقافة وأكبرها غنى . وفيها نضجت الثقافة الأندلسية الرائعة ، وستأخذ موضع الأستاذ من أوربا الغارقة في الظلام ، وتدفع بها إلى أول نهضة أوربية عرفها القرن الثالث عشر الميلادي . وعلى حين يسود في شمال جبال البرانس اقتصاد بدائي ، وكل النشاطات التجارية والصناعية خامدة ، كان يزدهر في شبه جزيرة إيبيريا اقتصاد يستخدم النقود ، وتدعمه حياة ناجحة متحضرة ، وصناعات متنوعة ، وتجارة نافقة يتجاوز الحدود نشاطها .

وعندما ارتفع بناء الإسكوريال كتلا في القرن السادس عشر ، فوق صخور وادي الرمة ، كانت إسبانيا أعظم قوة في العالم ، اكتشفنا

وغزونا أمريكا، وعندما انتصرنا على الأتراك في موقعة لبانتى lopante (١) غبرنا إلى الأبد التكوين الجغرافي للحضارة التي كانت تعيش حول البحر الأبيض المتوسط، وانحسر الإسلام، وكان إحدى القوى العالمية في مطلع العصر الوسيط، إلى المشرق وإفريقية، وبدأت البابوية والإمبراطورية، شمسا سماء العصر الوسيط، تدوران في فلك الشمس الإسبانية، ففرنسا خصمنا مقهورة وعاجزة، وتعانى من تدخل مدريد النشيط، حتى أصبح الجنود الإسبان زينة باريس. وفي سلمنقة فتحت مدرسة فيتوريا Vitoria المجال واسعا أمام حقوق الجماهير، وفي طليطلة يرسم الجريكو El Greco، وفي أبله تكتب سنتا تريزا وخوان دي لا كروث، وكان ثرفانتيس ولوبي دي فيجا في طوكيو التكوين، وأنقذ علماء اللاهوت والمفكرين الإسبان القيم الأخلاقية الخالدة، وكان عصر النهضة ممثلا في شخص مكياڤلي Machiavelli وبودين Bodin قد ألقى بها في القاع، وأنقذت أيضا سيادة الروح بعد أن هددها انتصار العقل، وأملت «حركة الإصلاح» في أن تكون سيطرته على العالم مطلقة. أى أن إسبانيا ولدت الحداثة، واحتفظت، مثل ما حدث في أركا سنتا Arca Santa، بقوى كانت ضرورية للرجال في أيامنا هذه، كترياق لشفاء العقل المالص من الضلال. (٢)

عرضت لقمطين من تاريخ إسبانيا المنتصرة، حاكمة الشعوب، ومبذعة الثقافات، ولكن مدينة الزهراء والإسكوريال يرتبطان أيضا، في ذاكرتي، بموازات أخرى، تتصل بحياة وموت عدد من الأمراء الإسبان. فعبد الرحمن

(١) معركة بحرية جرت في خليج لبانتى عام ١٥٧١، بين الجيش العثماني، وجيوش أوروبا مجتمعة بقيادة دون جوان ملك النمسا، وقد أنزلت الأساطيل الأوربية الكاثوليكية المتحالفة هزيمة فادحة بالأسطول العثماني.

(٢) • الجريكو: (١٥٤١ - ١٦١٤)، من أشهر الرسامين في إسبانيا، ولد في جزيرة كريت، وعاش في إسبانيا، وتوفى في مدينة طليطلة، وله فيها متحف خاص به يجمع درائع لوحاته.

الناصر مشيد مدينة الزهراء القرطبية أمر بإعدام ابنه عبد الله ، وفيليب الثاني الذي أقام مدينة الإسكوريال قرب مدريد ، سجن ابنه كارلوس ، وتركه يموت سجيناً ، بل ويمكن أن أقوم بموازنة بين أمراء بني أمية الأندلسيين في القرن العاشر الميلادي ، وملوك إسبانيا المنحدرين من أسرة أشتورياس في القرن السادس عشر . لقد ورث كل من عبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس عن جدودهما ؛ إسبانيا متميزة وفريدة ، وواجه كل منهما مشاكل خطيرة ، وكانا محاربين قويين ، وعاشقين عظيمين ، يحبان الحياة والمتع ، وانتصرا كثيراً في ساحة القتال ؛ وهربا ، كل واحد منهما ، في يوم مظلم كى ينقذ حياته وحرية . هرب الناصر في شمنقش Simancas ، وهرب كارلوس الخامس في إنسبروك Insbruk ، ومنذ هذه اللحظة أحسا بالفشل ، وتحررا من الكآبة ، وعاشا ما بقى لهما من الحياة بعدها . وورث كل من الحكم الثاني وفيليب الثاني إمبراطورية قوية عظيمة ، وكانا ينفران من الحرب على نحو متساو ، ولم يحدث أبداً لأى منهما ، وهو يدفع بجيشه للمعركة ، أن دفع الضريبة في ساحة القتال لإله الحرب من دمه أوراحته ، وأسهم في

- 
- \* سنتا تريزا : ( ١٥١٥ - ١٥٨٢ ) ، راحبة إسبانية ، متصوفة وشاعرة وكاتبة ، تعرضت لملاحقة مستمرة من محاكم التفتيش ، وتركت وراءها عدداً من الأعمال الأدبية الجيدة .
  - \* خوان دي لاكروت : ( ١٥٤٢ - ١٥٩١ ) ، لاهوتي وشاعر ومتصوف إسباني ، تأثر في فكره بالفلسفة الإسلامية ، بدأ حياته يعمل ممرضاً في مستشفى ، والتقى بسنتا تريزا ، واستجاب لدعوتها الإصلاحية .
  - \* ثرفاتيمس : ( ١٥٤٧ - ١٦١٦ م ) ، أعظم روائي إسباني ، وصاحب رواية « دون كيخوته » الخالدة ؛ ذات الشهرة العالمية .
  - \* لوبي دي فيجا : ( ١٥٦٢ - ١٦٣٥ ) ، من أعظم كتاب المسرح الإسباني ، وأخصبهم إنتاجاً ، وترك وراءه عدداً كبيراً من المسرحيات تتناول موضوعات مختلفة .
  - \* ميكابيلي : ( ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ) ، كاتب وفيلسوف ودبلوماسي إيطالي ، وأشهره وولقاته : « الأبير » وبدور حول مبدأ الغاية تبرر الوسيلة في الحكومات والسياسة .
  - \* بودين : ( ١٥٣٠ - ١٥٩٦ ) ، عالم إقتصاد فرنسي . ( المترجم )

في القتال بنفسه . وكانا يحبان الورق والكتب ، فلم يفارقا أولهما مدينة الزهراء ، ولا غادر الثاني قصره في الإسكوريال ، وكان الحكم المستنصر يبعث في الكتاب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأموال اشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه ، واجتمعت بالأندلس نخزائن من الكتب لم تكن لأحد ممن قبله ولا من بعده .

وأرسل فيليب الثاني أمير و سيودي مورالس Ambrosio de morales في رحلة ثقافية عبر شمال إسبانيا فجمع عددا من المخطوطات والمؤلفات والكتب المكتبة الإسكوريال الغنية . وكلاهما يجب مجالسة الأدباء والفنانين ، وكلاهما حرمة للقدر من ولي عهد قادر على حكم مملكته العظيمة . فهشام الثاني ولي عهد الحكم ، وفيليب الثالث ولي عهد فيليب الثاني ، كانا على السواء تقيين مصابين ، ضعيفي الإرادة ، حتى أنهما تركا حاشيتيهما تتحكمان فيهما . ولا يمكن أن نقارن بهما المنصور العبقري ، ولا المركيز دي ليرما de Ierma الأخرق ، ولكن لا يمكن الإنكار أن خلفاءهما عجلوا بنهاية الأندلس وإسبانيا ، ودفعوها إلى الهاوية والدمار . نعم ، تم ذلك بإيقاع مختلف ، يتناسب مع ما اتصف به كل وزير من عبقرية أو حمق ، فكان سريعا في إسبانيا الإسلامية بعد المنصور ، بطيئا في إسبانيا الكاثوليكية بعد دي ليرما .

مدينة الزهراء والإسكوريال ، عبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس ، الحكم المستنصر و فيليب الثاني ، هشام الثاني و فيليب الثالث ، المنصور بن أبي عامر والمركيز دي ليرما ، ثمة خيط رفيع خفي يربط بينهم دائما ، في ذاكرتي ، ولكن هذا التقارب يأخذ خطا متميزا فيما يتصل بعبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس : كلاهما يفيض قوة واندفاعا ورغبة في العمل ، دلعتهما الآلهة ، ودلتهما الحد ، وعاشا حياة عدنية ، أمضياها وهما في قمة التمتع بالحب والزفاهية ، والقوة والثروة ، وقد عاش الأول أكثر من ٧٣ عاما ، وحكم منها ٤٩ سنة ، وترك مذكرة مشيرة ، كتبها بخط يده ، سجل فيها أيام سروره وصفوه وهي لا تزيد عن ١٤ يوما على امتداد حياته . وعزف

الثانى عن المجد أخيرا وسجن نفسه فى « يوست Yuste » بانتظار الموت .  
عبد الرحمن الناصروكارلوس الخامس يمثلان علامة معذبة . ماذا ينقصهما؟  
لقد ولدا لأبوين إسبانيين ، ورغم الأصول المشرقية البعيدة لعبد الرحمن  
الناصر ، والأصل الفلمنكى لوالد كارلوس الخامس ، كان يوجه مصائرهما  
روح إسباني أصيل ، تجمعت فيه كل عواصف الروح الإسباني وصراعه  
الداخلي ، واندفاعه المتصاعد ، وحماسه الفاترة ، وبأسه القاتم . كان يحكم  
كل منهما روح إسباني عبقرى ومعقد . ومن ثم عاشا أسيرى رغبة نهمة لا ترتوى ،  
وقتى دائم لا يتوقف ، وعاشا معركة داخلية معذبة . ماذا ينقصهما ؟ . . .  
ينقصهما كل شىء ، لأن الإسباني الحقيقى الغارق فى السعادة مظهرا ، يمكن  
دائما أن يتخذ أحيانا من كلمات سخسوندو Segismundo (١) المرعبة مثلا  
ينطبق عليه : « الحياة حلم » .

مدينة لاهراء والإسكوريال ! . لقد نهب الأولى وأحرقت خلال  
الثورات القرطبية ، وأصبحت أرضها الحزينة اليوم مرعى للثيران الهائجة ،  
واستسلمت جدرانها لأساها العميق . بالأمس عظمة وبهجة وروعة ، واليوم  
خراب وأنقاض وبومس . ومنذ أعوام اكتشف بقاياها فى سفح « سيرا »  
قرطبة رجال عصر كان أكثر تطلعا إلى الماضى ، ربما خوفا من الغد ، لهم  
ملاحق قاسية وموسية ، رجال كانوا يبحثون فى الأرض عن بقايا حضارات  
قديمة منسية ، ربما لأن هاجسا غامضا كان يوشوش فى آذانهم بقرب نهاية  
عصرهم . أما الإسكوريال فلما يزل قائما . فلتحفظه الآلهة من غضب الرجال  
ومن حتى زمان لا يرحم ! :

• إسبالية ابن حزم :

قاومت مؤلفات ابن حزم محن الزمن أكثر مما قاومتها مدينة لاهراء .  
اندثر الرخام وعاشت المخطوطات ، لأن روائع الفكر الإنسانى تتميز بإمكان

(١) بطل مسرحية « الحياة حلم » للكاتب الإسباني كالهرون . ( المترجم )

نسخها إلى ما لا نهاية ، وانتقالها وانتشارها عبر القارات والمحيطات ، حتى قبل أن تخترع الطباعة . وللمغامرة طموح ، ذلك لأن « طوق الحمامة » ، وقد ترجم اليوم إلى معظم لغات العالم المثقفة ، أنقذه من الضياع مخطوطة وحيدة ومشرقية .

ولقد تضاعف وامتد قدر مؤلفات ابن حزم ، والأخبار التي نقلها لنا معاصروه ، والأوفياء له ، عن شخصه ، تسمح لي بالدفاع عن حقيقة إسبانيته .

لقد أصبحت الكلمة التي أرسلها عنه أبو العباس بن العريف المريني مثلشاع عبر العالم الإسلامي كله : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، ولأن الحجاج كان أشد قواد بنى أمية في دمشق قسوة ، فليس ثمة مدح أعظم لكلمات ابن حزم القرطبي الحادة ، وقلمه الإسباني الصارم من هذه الكلمات .

يقول ابن سعيد (١) ، « صاحب المغرب في حلي المغرب » : « وكان يجادل عن علمه هذا من خالفه ، على استرسال في طباعه ، وبذل بأسراره ، واستناداً إلى العهد الذي أخذته الله على العلماء من عباده ، « ليبينه للناس ولا يكتمونه » ، فلم يك يلاطف بما عنده بتعريض ، ولا يرفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجنادل ، وينشقه أحر من الخردل » .

ويقول عنه معاصره ابن حيان ، المؤرخ القرطبي العظيم : « ... حتى استهدف إلى فقهاء وقته ، فما لأوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا

---

(١) الواقع أن هذا النص ليس لابن سعيد ، وإنما هو لابن حيان ، وقد نقله عنه صاحب اللخيرة ، ونقله ابن سعيد عن اللخيرة ومنسوباً إليها ، أنظر : «

• المغرب في حلي المغرب ، ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، « طبعة دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .

• ابن بسام : اللخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٤١ ( المترجم ) .



على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيروا به عن بلادهم ، إلى انهموا به إلى منقطع أثره بتربة بلاده من بادية لبانة ، وبها توفي رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به ، يبت علمه فيمن ينتابه بباديته من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر الطلاب الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدتهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير ، ولم يعد أكثرها عتبة بابه ، لتزهد الفقهاء طلاب العلم فيها حتى أحرق بعضها بإشبيانية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة في نشرها ، وجدالا للمعاناد فيها ، إلى أن مضى لسبيله .

« وأكثر معايبه - زعموا - عند المنصف له ، جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه ، وتخلفه عن ذلك على قوة سبجه في غماره ، وعلى ذلك كلاء فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومغيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء ، ولا يقصر عنه الرشاء » . ويتحدث ابن حيان أيضاً عن تعصب ابن حزم للأعمى لأفكاره .

« ونحاول الآن أن نتعرف إلى عالم قرطبة من خلال كتاباته نفسها ، وإليك الدليل على لداعة قلمه ، يقول : « إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد » . وينتقد بشدة من يمكن أن نسميهم بالكهنة ، وهم ليسوا كذلك في الحقيقة ، لأن الإسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولكن يقترب من هؤلاء في واقعهم المسيحي علماء العقيدة أو الفقهاء المسلمين : « فلاتغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، واللابسون جلود الضأن

على قلوب السباع ، والمزينون لأهل الشر شرهم ؛ الناصرون لهم على فسقهم .

ولنستمع إليه يعلن الحرب على النفاق والكذب : « ما رأيت أخزى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير التأمم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحن المرديّة إلا بتأمم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخرى والذل ، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه ، فضلاً عن غيره ، بالعين التي ينظر بها من الكلب . »

ونبرهن على إسبانيته الكيخوتية (١) من قوله : « حد الشجاعة ببلد النفس للموت عن الدين والحريم ، وعن الجار المضطهد ، وعن المستجير المظاوم ، وعن المضيمة ظلماً في المال والعرض ، وفي سائر سبل الحق ، سواء قل من يعارض أو أكثر ، والتقصير عما ذكرنا جبن ونخور ، وبلها في عرض الدنيا تهور وحمق . » ثم يضيف : « وأما الذي يعينني به بجهال أعدائي من أنى لأبالي فيما أعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ... فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائل التي لا مثيل لها . »

ونكتشف مفهومه الإسباني للعلاقة بين الإنسان والله في قوله : « إذا لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق ، »

ولإليك البرهان على احتقاره للعادات الاجتماعية ، ونفوره من خفة الدين .

---

(١) نسبة إلى دون كيخوته ( أو كيشوته ) بطل رواية ثرفانتيس الخالدة ، وتحمل اسم البطل نفسه ، وهو رجل كان يحلم بإشاعة العدل ، ورفع الظلم ، وتنظيم الكون ، ثم رأى أحلامه تنهاوى حلاماً وراء آخر .

يعبدون الشطارة ، وينسون الطريق المستقيم ، إنه يعترف : « إني لا أبالي »  
موافقة أهل بلادى فى كثير من زيهم الذى قد تعودوه لغير معنى ، فهذه  
الحصلة عندى من أكبر فضائل التى لا مثيل لها ، ولعمري لو لم تكن فى  
- وأعوذ بالله ! - لكأنت من أعظم متمنياتى وطلباتى عند خالقى عز وجل .  
ويقول أيضاً : « إياك وأن تسر غيرك مما تسوء به نفسك فيما لم توجهه عليك  
شريعة أو فضيلة » . ويضيف : « وأما إحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس  
بما وافقهم ، وصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره ، أو عيب أو  
ما عداه ، والتحيل فى إنماء المال ، وبعد الصوت ، وتسبب الجاه بكل  
ما أمكن من معصية ورديلة ، فليس عقلاً . ولقد كان الذين صدقهم الله  
فى أنهم لا يعقلون ، وأنخبرنا بأنهم لا يعقلون ، سائسين لدنياهم ، مشمرين  
لأموالهم ، مدارين لملوكهم ، حافظين لرياستهم ، لكن هذا الخلق يسمى  
الدهاء ، ، وضده العقل والسلامة » .

وانصغ إلى ثنائه الإسبانى حرفياً ، وإلى ثرثرته الإسبانية العادية :  
« لكل شىء فائدة ، ولقد انتفعت بمحكك أهل الجهل منفعة عظيمة ،  
وهى أنه توقد طبعى ، واحتدم خاطرى ، وحمى فكرى ، ونهيج  
نشاطى ، فكان ذلك سبباً إلى توأليف لى عظيمة المنفعة ، ولولا استشارتهم  
ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التوأليف » . ويكتب كاشفاً  
عن موقفه الإسبانى بإزاء الثروة : « وذمى أيضاً بعض من تعسف الأمور ،  
دون تحقيق بآنى أضيع مالى ، وهذه جملة ببيانها أنى لأضيع منه إلا ما كان  
فى حفظه نقص دينى ، أو إخلاق عرضى ، أو إعتاب نفسى ، فإنى أرى  
الذى أحفظ من هذه الثلاثة ، وإن قل ، أحسن فى العوض مما يضيع من مالى ،  
ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس » .

ويقول معترفاً بغضبه الإسبانى ، وبما يعتمل فى أعماقه من صراع داخلى  
إسبانى : « كانت فى عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعى على ما قالت  
الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين

في الأخلاق وفي آداب النفس ، أعانى مداواتها ، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه . وتمام العدل ورياضة النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق ، هو الإقرار بها ، ليتعظ بذلك متعظاً يوماً إن شاء الله .

« ففما كلف في الرضا ، وإفراط في الغضب ، أفلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً ، وصبرت على مريض مؤلم ، كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضى ، وكأني ساحت نفسي في ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لوئم » .

روايلك إبرهان شعري جميل على اعترازه الإسباني ، في مواجهة الحسد ، وهو إسباني أيضاً :

أنا الشمس في جو العاوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعى الغرب  
ولو أنى من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرى النهب  
ولى نحو آفاق العراق صباية ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب  
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب  
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب  
هنالك يدري أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب  
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا له ، ودنو المرء من دارهم ذنب  
وإن مكاناً ضاق عنى لضيق على أنه فيح مهامه سهب  
وإن رجلاً ضيعونى لضيع وإن زمانا لم أنل خصبه جذب

أثنى المؤرخون الإغريق والرومان على وفاء الإسبان في صداقتهم ، ويقول لنا ابن حزم فيما يتصل بهذا الأمر : « إني جبلت على طبيعتين لا يهنئني معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم بحيا باجتماعهما ، وأود التثب من نفسي أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من

صحبته . وعزة نفس لا تقرب على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من  
تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو  
إلى نفسها ، وإني لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم  
الذى لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسي تصبرت  
وفي القلب ما فيه « ويضيف ، في نبرة إسبانية أصيلة « الخطأ في الحزم خير  
من الخطأ في التضييع » . وقد سبق كالديرون بقوله « العرض أعز على  
الكريم من المال . ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله ، ويصون نفسه  
بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون  
بدينه شيئاً أصلاً » ، ويمكن أن نضيف إلى ما قال جملة جاءت على لسان  
بطل مسرحية « عمدة السامية Alcaldede Zalamea » الخالدة لمؤلفها كالديرون :  
« الله وحده يملك أرواحنا » .

لقد أحسست بسعادة غامرة ، لأن غرسية غومث ، وهو ناقد بصير وعلى  
معرفة واعية بابن حزم ، ارتأى إسبانية مؤلف « طوق الحمامة » ، وأنه في  
الحقيقة كان دون كيبخوتة من القرن الحادى عشر . قاتمه قديماً ، واليوم  
أحاول أن أكتشف الكيبخوتية الإسبانية فيه ، قبل أن يعرفها آخرون  
من شبه الجزيرة سبقوا ألونسو كيبخانو Alonso Quijano ، ومن يسرع لى دراسته  
يوفر على عملا يشدنى إليه ، وأشك أنى سأكله يوماً .

وضع غرسية غومث جملة : « تناقض جوهرى » عنواناً لفقرة فى مقدمته  
لترجمة الطوق ، وفيها كتب يقول « هذا التناقض الجوهرى المستمر ،  
والإزدواجية غير المنصهرة ، من اللطف والحشونة ، ومن العواطف  
الرقيقة والجافية ، ومن النبيل والعامية ، تجعل ابن حزم من أحب الشخصيات  
إلينا ، لأنها تجعل منه قريباً لعظماء آخرين من مستواه ، عرفهم عصرنا  
الذهبي ، وفيهم تبدو الإيبيرية كاملة وقوية ، ولقد أشرنا من قبل عرضاً  
إلى جونجورة Gongora وكيبيلو ، ونستطيع أن نذكر آخرين ، ليس من  
بينهم ثرفانتيس ، قمة مثل لايتكر ، وفيهم تلتقى تناقضات سلالتنا

الجلدية ، في تركيب إنسانى مفهوم ، حلو وحزين .

وأنا أشارك غومث رأيه ، بعامه ، ولقد ربطت أيضاً بين شاعرنا كيبيلدو وبين أدربنا ابن حزم ، وأجروا على أن أقوم بموازنة نحاطفة ، فيما بعد ، بينه وبين أو نامونو . لقد وضعت خطأ على مسئوليتى تحت الجملة السابقة من كلام غومث ، والى تتصل بدور «الإيبيرية» ، قديمة وثابتة ، فى أخلاق ابن حزم ، لأنها تقف فى مواجهة فكرة أميركو كاسترو ، التى ترد مثل هذه الاتصالات إلى التفاعل بين ما هو مسيحي وما هو إسلامى ، وإليها ينسب تشكىل ما هو إسبانى . لم أكتب كلمات مترجم «طوق الحمامة» إلى الإسبانية ، لأنى لا أعرف ما إذا كان هذا التناقض يمتد إلى أصول بعيدة جداً ، ولكنى حاولت ، على الأقل ، وفيما أعتقد استطعت أن أفهم امتداده خلال ماضينا ، عبر طرق تختلف عن طريق كاسترو ، وهى مشتركة إلى حد كبير ، وفضلاً عن ذلك فإنى أميل إلى عدم الاستخفاف بأن تشابه الصيغ الجبرية ، فى معادلة بين الروح والمشاعر والغرائز ، أو الأرواح الثلاثة بتعبير أورتيجا إلى «جاسيت» ، يولد تقارب الأمزجة عند رجال من لحم وعظم ، والذين هم ، وكانوا ، الفلاسفة والفنانيين والكتاب . لأنى أعتقد أن هؤلاء لم يكونوا ، وليسوا دمي يرمى بخيوطها كائن ثقافى مجرد ، ولكن من الواضح أن تكرار عدد من أشكال هذه المعادلة الجبرية ، بين القوى الحيوية الثلاث ، بين أعضاء جماعة تاريخية - والإحصاء المطبق فى التاريخ ، ولو أنه يبدو متناقضاً ، يثبت اتجاهها مزاجياً - يصدر بالضرورة عن ملامح جماعية متأصلة فى التكرين العضوى للشعب ، ون تركيب يرتبط وراثته مع المراحل الأكثر بعداً فى التاريخ ، وتمضى على امتداده ، كما هو واضح ، تغيراً وثباتاً ، فى إيقاع ونتائج مختلفة ، كالأنهار ، تتدفق مسرعة أو بطيئة ، وتمضى مستقيمة أو منعطفة ، وفى طريقها تخلص أو تدمر .

وفى موازنة مع كبار الشخصيات الأدبية الإسبانية فى العصر الذهبى ،

يمكن ، على نحو ما كتب غرسية غومث ، أن نجعل له من الكبرياء  
الإسباني نصيبا ، وأن نرد إليها أيضا وحدته الآدمية . ويضيف مترجمه :  
« لقد عرف مؤلف كتاب « طوق الحمامة » كتاب « الزهرة » لابن داود  
الأصفيهاني مباشرة . . . ولكن من واجبتنا أن نضيف ، أنه بالرغم  
من الإشارات الحرفية القليلة ، ومن الاتجاه العاطفي المشترك ، فإن « الطوق »  
يدين بالقبيل جدا لكتاب « الزهرة » ، لأن النظرية فيه تغربت وتأسبت ،  
وفقدت دلالتها الرائع وتحملتها الخنث ... وما كان يقال في بغداد نثرأ رائعا  
أو شعرا لا ينسب لقائل ، كان يكتبه مؤلف « الطوق » في شاطبة ساخنا  
وإنسانيا ، ويتخذ له المثل من حياته ، ومن حياة أصدقائه في قرطبة . لقد مزق  
مافيه من عاطفة وملل إسبانيين السياج الواقى للنبع ، وشربا منه ، كل  
على وجهه ، وخالطا هذين المصلين بدمه » .  
ياله من برهان بالغ الروعة والجمال ، في جانب إسبانية مؤلف  
« طوق الحمامة » ! .

ويدعم غرسية غومث رأيه بنقل صفحة من رسالة ابن حزم في  
« فضائل أهل الأندلس » ، وهي تذكرنا بلارا Larra (١) وفيها يعلق ،  
في مرارة إسبانية ، على فقرة من إنجيل لوقا (الإصحاح السادس ، الآية  
٢٤) : « وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي  
حرمته إلا في بلده » . « ولا سيما بأندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها  
للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي زبه ، واستهجانهم  
حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف  
ما في سائر البلاد ؛ إن أجداد قالوا : سارق مغير ؛ ومنتحل مدع .  
وإن توسط قالوا : غث يارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة

---

(١) لارا : ( ١٨٠٧ - ١٨٣٧ ) ، كاتب إسباني ، نشر كثيرا من المقالات ، بتوقيع  
مستعار في صحف كثيرة ، وكانت مقالاته نقدا عبقريا ، وداميا للتقاليد المتخلفة في عصره .  
( المترجم ) .

لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أى زمن قرأ ؟  
ولأمه الهبل ! . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أعدد طريقين إما شفوفاً  
بائناً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهنا لك  
حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ،  
ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما  
نحل ما لم يقل ، وطوق ما لم يتقصد ، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده  
قلبه ، وبالحري وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من  
المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولز ، وتعرض  
وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وذهبت  
محاسنه ، وسرت فضائله ، وهتف ونودي بما أغفل ، فتنكسر لذلك همته ،  
وتكل نفسه ، وتبرد حميته ، وهكذا عندنا ، نصيب من ابتداء يحوك  
شعراً ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ،  
ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفاتح ، والمطفئ المستولى على  
الأمم .

من الضروري أن يفرك الإنسان عينيه بعد أن يقرأ هذه الصفحة  
الحزينة ، ليقنع في دهشة بالغة لا يمكن إنكارها ، أنها خرجت من  
قلم ابن حزم ، لقد كتبها المفكر الإسباني ، والقلق يغمره ، بين عامي  
١٠٣٥ و ١٠٤٠ م ، فجاءت تعكس بدقة المناخ الكريه ؛ الطافح  
بالحسد ، الذي عاش فيه ، وتساير شموخ إسبانيا المعاصرة ؛ وحتى في  
عصور أخرى كثيرة من تاريخها في الماضي . لم تزدهر هذه اللبلاية  
الحبيثة جنوبي جبال البرانس فحسب ، لأنها تنمو سريعاً خلال الأزمات  
وفي لحظات السقوط القومي ، في أى مكان ؛ ولكن لم يحدث أنها  
تأصمت وترعرعت وآت أكلها كما في إسبانيا أمي ؛ مرة أخرى ، ثمرة  
مرة للسلالة والأرض الإسبانية ؟ لا إنها مرة أخرى ثمرة فاسدة  
لتأثير تاريخنا العريق والفريد في الإنسان الإسباني منزهراً ، وهذا حق !



من طين شبه الجزيرة ودمها . و' كل الأحوال ؛ مرة أخرى ، دليل آخر واضح على إسبانية ابن حزم ، والذي كتب منذ قرون مضت ، في مرارة عميقة وتشاؤم أسود ، قبل أن تكون روح الإسبان ، كما يدعى كاسترو ، قد أصيبت بعدوى الحزن والحنق من يهود شبه الجزيرة الإيبيرية ، عدوى يفسرها ( أي كاسترو ) حتى الشعور بمساوية الحياة عند الإسبان .

• مع ترجمة الطوق :

قلنا من قبل إننا نستطيع اليوم أن نقرأ طوق الحمامة ، جوهرة الأدب الأندلسي ، في اللغة القشتالية بفضل غرسية غومث . لقد عرض ابن حزم نظريته النفسية عن الحب في ثلاثين بابا ، مع ملاحظات دقيقة ؛ وفكر مخلق ، يغزو ويشد على الدوام اهتمام من يطل بين صفحاته رغم أن وراء الكتاب ألف عام من التاريخ ، ووراء قارته تراث هائل من الثقافة الغربية .

لقد أثار كتاب « الطوق » كثيراً من المشكلات أمام الدارسين المحدثين ، ولكي يهيئ غرسية غومث القارئ لجولة أكثر فائدة عبر صفحات الكتاب ، قدم له بدراسة عن ابن حزم اتكأ فيها على السيرة التي رسمها له العلامة ميغيل أسين بلايوس ، شيخ المستشرقين الإسبان ، وتصرف فيها بإيجازاً أو إطناباً أو تقويماً ، وفي كل الحالات دفع بين سطورها بمزيد من الحياة ؛ لقد أغرانا بالصورة السريعة والدقيقة التي رسمها لابن شهيد طفلاً ، يظهر أمام المنصور بن أبي عامر ، وسوف يصبح فيما بعد شاعراً عظيماً ، وصديقاً حميماً لابن حزم ؛ ورأس جماعة من أبناء الخاصة في قرطبة ، أنيقون يعبدون الجمال ، ويسرحون شعورهم على أحدث نمط ، ويهيمنون إعجاباً بكل جديد ، ويعشقون الأدب والفنون الجميلة ، وقد انضم إليهم مؤلف الطوق في اللحظة التي تجاوز فيها سن المراهقة ، ولقد وعدنا غرسية غومث بدراسة عن ابن شهيد ، صديق ابن حزم ، تنتظرها في صبر نافذ .

وقد أوضح لنا المثل الأعلى الأدب لهذه الجماعة ، ذات الاتجاه العربي ،  
تحتقر كل ما هو إسباني ، ولكنها قومية ، تحاول التغلب على التقليد الأعمى  
لكل ما هو مشرقى .

وعرض غرسية غرمت للأحداث البارزة في حياة ابن حزم ، ورافق  
بطله في منفاه ، وفي بريق انتصاره ، وفي تخيبة أمله ، وتغيير خط حياته :  
وبشير مأخوذاً إلى جهده الثقافي العملاق ، وإلى صراعه ضد العواصف  
والأنواء ، وإلى روحية الصافية ، وتحوله من مُتهم إلى مُتهم ، وموقفه  
مهزوماً مثل دون كيشوته ، وتعاور الحشونة والرقّة عليه ، ونسيان  
المفكرين والكتاب المسلمين له ، إلى أن رد له العلم الغربي الحدث  
وبحق مكانته .

ثم حلل كتاب الطوق ، متعمقا ، ومحللا بمشرطه الدقيق النافذ  
مختلف الجوانب التي يمكن أن تساعد على التقاط أسرار الخلق الفني عند  
ابن حزم . ودرس اتجاهات المدرسة التي انتمى إليها ، وخطواته الأولى  
في عالم الكتابة ، ومن بينها ما كان ميننديث بيدال Menendiz Pidal (١)  
يدعوه « المقطعات » ، والطابع الشخصي للطوق ، وما يقدم من ميرة  
ذاتية لمؤلفه ، والصدق الأدبي عند مؤلفه ، وما أثاره ويشير به من نقاش ،  
أوما يتميز به في شعره من زهد وفلسفة ، في نطاق الشعر الغنائي الأندلسي  
وعرف بالطيش والشهوة ، والعفة الخالصة المستقيمة وسبق بها الشاعر  
الإسباني جونجرة . وهو كتاب عن الحب ، ويجب أن يقرأ بحذر ، رغم  
نه كتب بنية صافية وطاره ، ودون أن يقصد المؤلف من ورائه غرضاً  
فاحشاً . ولكن تهب عبر صفحاته رياح من الشذوذ الجنسي ، ويتدفق عليها  
نهر صغير من واقعية بديهة ، وما يمكن أن يحس به بعض القراء المحدثين من  
خيبة أمل لزاء أفكار ابن حزم وآرائه ومفاهيمه ، لأنها اليوم عادية وشائعة ،

(١) ميننديث بيدال : ( ١٨٦٨ - ١٩٦٨ ) ، عالم ولغوي ومؤرخ إسباني ، وله أبحاث  
هامة وجادة عن تاريخ أسبانيا في العصر الوسيط ، في جانبيها الإسلامي والمسيحي ( المترجم ) .

غير أنها كانت شيئاً جديداً وولداً على أيامه ، أى منذ ألف عام . وحدة الإحساس بالجمال الحسى ، كقوة مبدعة مجالى الحب والأدب ، والعمور فى « طوق الحمامة » على صدى لأفكار أفلاطونية ، وأصل شعر الحب البغدادى ومفهومه ، أو الحب العذرى العفيف فى المشرق ، وانتشاره فى الأندلس حين التقطه ابن حزم هادياً لفكرته عن الحب ، فيما يرى مترجم « الطوق » ، وما آل إليه أمر هذا الحب فيما بعد ، حين غرق سريعاً فى موجة الشهوة العارمة على أيام دول الطوائف .

ولكن دراسة غرسية غومث لابن حزم وكتابه تحتاج إلى شىء من تعليق ، لنعرف على نحو أفضل ما هو إسباني فى المفكر العظيم والشاعر ، والذي ندين له « بطوق الحمامة » ، إلى جانب الشخصيات الإسبانية العملاقة الأخرى ، التى تلتظم فى عقد منذ سينكا حتى أونامونو .

ويجب أن نشير إلى جملتين مما كتبهما مؤلف « الطوق » ، وقد اقتبسهما غرسية غومث ، ولا تنس الجملة التى وضعت تحتها خطأ فيما مضى ، وهما : « زوار الفتنة لا يعقد » ، ولو أنه لأسباب بيينة (١) لم يوضحها عندما التقطها ، وعلى العكس مر بها سريعاً ، والجمامتان تساعدان على فهم ابن حزم ، وفهم إسبانيا الإسلامية أيضاً ، وكل تاريخ إسبانيا على اختلاف مراحلها ، وقوله : أنا الشمس فى جوار العلوم منيرة . ولكن عيبى أن مطلعى الغرب ولقد جمعت عبارات ليست بأقل منها ارتجافاً فى شعرونها ، كتبها مرسىال Marcial ، وابن قزمان ، ورايموند اللى Raymund Lull (٢) .

(١) يشير الكاتب إلى أن غرسية غومث كان يكتب فى إسبانيا الفاشية ، وقد انتصرت - مؤقتاً - بعد حرب أهلية طاحنة ( ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ) دمرت إسبانيا تماماً ، وعلى امتداد أيامها ، التى انتهت الآن بموت الجنرال فرانكو ١٩٧٥ ، كانت الرقابة على الفكر والفن عنيفة وقاسية ، وكان محالاً على غومث أن يوضح فكرته ، على حين أن سانتشيث البرنيس كان يكتب من منفاه فى الأرجنتين .

(٢) \* مرسىال<sup>١</sup> : ( ٤٣ - ١٠٤ م ) شاعر لاتينى ، رقيق وماجن ، ولد فى مدينة بيبليس ، قلعة أيوب الآن ، فى إسبانيا .

وآخرون من عمالقة الفكر الإسباني وأدبه على امتداد عصوره ، جملاً  
كالتى كتبها ابن حزم ، تبين إلى أى مدى كان كبرياء الأقلية الإسبانية  
المتقفة يطاول الحسد الحقير الذى يجالدهم من كل جانب - ولست أدرى  
ما إذا كان ابن حزم مصدر هذا الجلد الحاقداً أو كان رد فعل ضده - فى  
البيئة القائمة التى وصفها لنا مؤلف « طوق الحمامة » فى أستاذية قادرة  
ومرورة ، عندما سخر من جمود وتصلب وضيق أفق فقهاء المالكية فى  
الأندلس ، وكانت الدولة على مذهبهم تقريباً ، ونعتمهم بأنهم « أصحاب  
المذهب القديم » . ما الذى كان فى حياة الإسبان الدينية ، قبله ومن بعد ،  
ليستحتموا هذا الوصف من ابن حزم ، وكان مؤمناً تقيماً ، ومتديناً  
غيوراً ؟ .

لقد أبرز غرسية غومث حرص مؤلف « طوق الحمامة » دائماً على شرفه ،  
وهذا الحرص حرك فى داخلى سؤالاً مقلقاً ، وموضوعاً مغريباً ، أما السؤال  
فهو : ماذا يفهم المسلمون بعامة من كلمة الشرف ؟ . وأما موضوع الدراسة  
الذى عرض لى : إلى أى مدى أثرت غريبة ابن حزم فى إحساسه القوى  
بالشرف ؟ .

وأشار المترجم ، محتمياً بكتاب ابن حزم ، إلى قضية تأثير الشعر  
الأندلسى فى نشأة الشعر البروفنسالى ، وهى موضع نقاش دائم ،  
وذكر أن العثور على « خرجات » رومانسية فى الموشحات الأندلسية  
خير من مادة المشكلة ، ولكنه يصر على ما لطوق الحمامة من قيمة ،  
كنص هام للمتمارئة بين المدرستين الشعريتين ، ويميل إلى تجنب المبالغات ،

---

= • ابن قزمان : ( ١٠٦٨ - ١١٦٠ م ) ، شاعر وزجال قرطبى ، ينتمى فى بيت بنى قزمان  
للعريق ، وترك لنا ديوان زجل كاملاً ، الوحيد من نوعه الذى وصلنا من تراث الأندلس .  
• وايموند لى : ( ١٢٣٥ - ١٣١٥ م ) ، فيلسوف إسباني من قطلونية ، وكان يجيد  
اللغة العربية ، وفيها كتب بعض مؤلفاته ثم ترجمها إلى لغته ، وتأثر بالثقافة الإسلامية إلى حد بعيد .  
( المترجم )

ويرفض أن يقبل إنكار الشاكين . وأصاب عندما اتخذ موقفاً متعقلاً ، لأن ظهور كتاب « قصة المعراج Libro de Escala » أكد في فحواه نظرية أسين بلاثيون عن التأثير الإسلامي في الكوميديا الإلهية لدانتى ، واكتشاف الخرجات ، وما حدى به خوليان وبييرا عن وجود شعر غنائى رومانى فى الأندلس يمكن أن يؤدى إلى نتائج مشابهة .

وقد واجه غرسية غومث أيضاً نظرية أميركو كاسترو عن تأثير « طوق الحمامة » فى كتاب « الحب المحمود » ، وارتأى أنهما مختلفان جداً ، فى خصائص وحياة وأعمال مؤلفيهما : ابن حزم وكاهن هيتا . ووازن بين فقرات من « الطوق » وأخرى من « الحب المحمود » ، ولأن بعض هذه المشابهات يمكن أن يجىء وليد الصدفة ، والبعض الآخر يتصل بالجانب الأكثر إنسانية وشيوعاً فى « الطوق » ، ومن ثم فالقول بتبعية الكتاب الثانى للأول مباشرة ابتسار ومغامرة . وأميل إلى أن أذهب بأبعد من ذلك إنكاراً ، وأشك أن أياً من الموازنات الخارجية التى قام بها غرسية غومث جاء صدفة ، لأن مصدرها ، فيما أرى ، أن كلا من المؤلفين اندمج فى بيئة حياتية تقرب كثيراً من بيئة الآخر ، إلى ما بين الموضوعين نفسيهما من تشابه . وفى فصل طويل من كتابى الذى أشرت إليه من قبل ، عارضت رأى أميركو كاسترو والرائع والملمهم فى كاهن « هيتا » ، وشرحت رأى من خلاله ، وازددت به اقتناعاً بعد أن قرأت ما كتب غرسية غومث : « لا بد أن كتاب ابن حزم الرائع كان محدود الانتشار ، فهو كتاب خاصة وصعب ، وتفصاه عن كتاب « الحب المحمود » هوى حقيقية ، واختلافات فكرية » ، وهذه الكلمات الدقيقة ، فيما يبدو لى ، تعكس رأيه السيد ، وتناقض ترخيصاته الجدلية واللطيفة ، لأن قلة انتشار كتاب ابن حزم ، وصعوبته وأرستقراطيته ، لا تتفق مع الانتشار الواسع الذى يجب أن يكون عاناه ، عبر طرق ملتوية ، لكى يمكن أن يبلغ كاهن « هيتا » .

وأرفض أيضاً افتراض كاسترو من أن ابن حزم « كان يتحرك فى عالم

مشبع بروحانية متصوفة» وعن الرأي الذي يقول بأن ابن حزم كان يمزج الحب الإلهي بالحب الإنساني كتب كاسترو : « لا يوجد شيء في كتابات ابن حزم المتصلة بالعقيدة شيء عن الحب الإلهي في مفهومه الدقيق ، بمعنى يلتقى مع ما نفهمه نحن من استخدام هذا المصطلح ، ولا يمكن أن تكون في الفقه الظاهري ، ويرى غرسية غومث أننا حتى ولو استبدلنا كلمة «إلهي» بتعبير «وضعي» لا يمكن أن يتفق مع كاسترو ، وأنا أشاركه هذا الرأي ، وأعتقد أن رأي غومث في نظرية زميل مديره القديم ( أي كاسترو ) غير كافية ، وأشير إلى ما يظن أنه طريق المسلمين الإسبان بين ظلال ساهرة ، وافترضه أن مفهومهم للحياة أنها تدفق أو انزلاق بين عالم هراب وظاهري ، نظرية يدعمها كاسترو ويتخذ لها دليلا من استعارات طوق الحمامة . إما أناحمار أو ابن حزم . والقرطبيون من جيله يتقدمون على صفحات الطوق ، بخطى ثابتة على الطريق ، في جو صحو وشفاف ، وأعين مفتوحة للغاية على الحقيقة ، ومشاعر تنضح دفئا وإنسانية ، بلا ساتر ولا ظلال ولا رموز . واستعارات جميلة فحسب ، يلفها بخار رقيق من شعر ، لا بين الإسبان المسلمين ، وقص لنا ابن حزم حكاياتهم الغرامية ، ولكن بينهم وبيننا . ضوء ساطع في مدينة من الجنوب ، وواقعية بذية وتافهة أحيانا ، وذلك هو الجو الحياتي الذي عبر القرطبيون خلاله في « طوق الحمامة » ، والعالم حولهم لا يتلاشى ، لأن حماسة حرة تدعمه ، على نحو ما يريد أميركو كاسترو .

لا أدري ما إذا كنا نحتاج إلى الوقوف طويلا ، وفي تأمل وباهتمام أكبر ، عند أفكار ماسينيون عن الإبداع الفني عند المسلمين ، وقد ترجم غرسية غومث هذه الدراسة منذ أعوام ، أفكار ما أكثر ما رجعت إليها ، وأفدت منها ، أفدت منها كثيرا ، وأتاحت لأميركو كاسترو أن يتعمق في بعض القضايا التي درسها ، وربما لغرض لم يتوقف ليدرس مستوعبا موضوع هامين : أهمية طوق الحمامة لمعرفة الحياة في قرطبة على أيام الخلافة ، ونظرية الحب عند ابن حزم والمسلمين الأندلسيين . وقد اهتم المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفنسال ،

لحسن الحظ ، بالموضوع الأول ، وشغل غرسية غومث ، وأورتيجا إلى جاسيت ، بالموضوع الثاني ، في مقدمة ترجمة الطوق ، بعمق فكرهما المجهود .

ولقد سبق ليفي بروفنسال في مقاله : « نزهة بلا رابط خلال طوق الحمامة » غرسية غومث عندما حاول تحديد الشخصيات الواردة في الطوق ، الظاهرة والمغمورة ، والنقط ببعض الأخبار التي وردت في الكتاب عن تاريخ الأندلس ، وعن الحياة في قرطبة خلال عصر الخلافة . وليس من أهدى الآن الحديث عن دقة هذا التحديد ، ولقد أظهرت أن ابن أبي عامر المختل الأعصاب ، والذي رأى فيه أمير كوكاسترو أول « أدون جوان » ، لم يكن حفيداً للمنصور بن أبي عامر ، كما افترض كلا المستشرقين ، ليفي بروفنسال وغرسية غومث ، نعم تهمننا الأخبار الأخرى ، ولقد أنكر أسين بلاثيوس أنه طوق الحمامة ، دراسة نفسية ، وأوضح قيمته التاريخية وأفاد منها ، على حين يصر غرسية غومث وليفي بروفنسال على أنه دراسة نفسية ، وحاولا أن يفيدا من المعلومات التي جاء بها ابن حزم هنا وهناك ، وحول نفس المسرح الذي جرت عليه الأحداث ، تراجع لآخرين أو لنفسه ، يأتي بهامثلا يدعهم به تأملاتة الدقيقة عن الحب . ومع ذلك يعترف المستشرقان الشهيران كلاهما بأن الأخبار التي جاء بها طوق الحمامة عن عصمة الخلافة قليلة وموجزة ، والشئ نفسه يمكن أن يقال عما يقدمه لنا عن الأشياء بعامة . لقد اعتاد ابن حزم ، خلال أعوام صباه على الأقل ، أن يدقق النظر في الرجال أكثر مما يتوقف عند الأشياء التي يتحرك بينها هؤلاء ، ولم أر واحداً بين كل الذين اقتربوا من الطوق وقف عند هذه الملاحظة . وواقعيته ، وكتاب ابن حزم كتاب واقعي رغم أنه دراسة نفسية ، واقعية روح أكثر منها واقعية أشياء خالصة ، واقعية عميقة الإسبانية أيضاً . ولقد أبرز دمسو أونسو Damaso Alonso (١) وبحق ما هو إسباني من هذه الواقعية ، بمناسبة حديثه عن « الأسلوب والإبداع

(١) شاعر وكاتب وناقد ولغوي معاصر ، وهو الآن رئيس المجمع الملكي للغوي الأسباني .

في ملحمة السيد (١)، ولكنها لم تكن مصحوبة عند مؤلفنا بقادرة متكافئة، لتلتقط في حساسية الواقعية الشفافة للأشياء التي في عالم ما حولنا . وليس في « الطوق » فقرة واحدة نستطيع أن نجد فيها حتى ولا ظل واحدة من تلك السهرات الحمراء ، الواقعية التي نصطدم بها أكثر من مرة في كتاب « الحب المحمود » لكاهن « هيتا » ، رغم محاولة أميركو كاسترو الفاشلة لربط كتاب القسيس القشتالي بكتاب الشاعر القرطبي :

• ابن حزم والحب :

يوكد أورتيجا إي جاسيت أن آفة اللغة العربية لم يصل بعد إلى تحديد دقيق لما يمكن أن يفهم من كلمة « حب » في إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ، وطرح موضوع الحب بوصفه نظاماً واكتشافاً وقواعد إنسانية ، عندما عثر بأبيات ابن حزم الرائعة التي أهداها إلى صديق له ، ويقول فيها :

أودك وداً ليس فيه غضاضة      وبعض مودات الرجال سراب  
وأحضتلك النصيح الصريح وفي      الحشا لودك نقش ظاهر وكتاب  
فلو كان في روحى هـواك اقتلعته      ومزق بالكفين عنه إهاب  
ومالى غير الود منك إرادة      ولا فى سواه إليك خطاب  
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى      هباء وسكان البلاد ذباب  
وأوافق على أن الرجل تاريخ ، وكذلك أفكاره ومشاعره ، ولكنى أعتقد أنه إلى جانب التغير الدائم فى أفكاره ومشاعره ، هناك بعض الميول الفكرية والعاطفية تتجاوز حدود الزمن والقارات ، وثمة غايات مثالية فى الحياة ، علامات مضيئة تنير الطريق أمام تقدم الرجال التاريخى ، إلى غداً لم يزل بعيداً .

وفى مقابل ما يفصل بين نظرية الحب عند مسلمى الأندلس ، ونظريتنا نحن الإسبان الكاثوليك ، أوضح أورتيجا إي جاسيت عدداً من التوافقات غير قليل : كثير من علامات الحب الكاشفة « بهت يقع ، وروعة

(١) ترجمت نص الملحمة ، وقدمت لها بدراسة مستفيضة ، بعنوان : « ملحمة السيد » ، ونشرتها دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠ ( المترجم )



تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطلوعه بغتة « ، وتأثير الحب الأول في الغراميات التالية ، والاختلاس قمة الحب ... وبعض هذا التشابه يمكن ، مع أورتيجا ، رده إلى تأثير « مفاتيح الإيماءات الجسمية ويوجد داخلنا تحت تصرفها لتعبر عن نفسها » . ولكن عدداً من هذه التوافقات أو تلك يمكن تعليلها دون أن ترد إلى هذا التأثير . أليس يمكننا أن نشك ، لنكامل نظرية أورتيجا ، ونختار أحياناً ، على العكس من مفاتيح الإيماءات التي تخدم الرجل ليعبر بها عن داخله ، انسجامات مختلفة لكي نحى بعض هذه المشاعر نفسها ؟ . لأنه فيما عشنا من الحياة ، أورتيجا وأنا ، ولو أن تاريخي - وأستعير الكلمة التي استخدمها أورتيجا عندما وازن بين عمره وعمر غرسية غومث - أقصر من تاريخه ، فقد كان أستاذاً عندما كنت طالبا ، وتعلمت عليه دائماً ، وكلانا شهد تغيرات واضحة في طرائق الحب ، وتجديداً في الإيقاع العاطفي القديم ، ولكني لأدرى ما إذا كانت أفكار الحب الجوهرية قد تغيرت حقاً ، منذ أيام شبابتنا - آى ! - البعيدة .

ورغم نائحات التقدم الحالية ، والظن بأن هذا يتم في خط مستقيم ، وليس في نسق تصاعدي مستمر ، فإن الرجل يتقدم ، ومع الرجل أفكاره ومشاعره ، نحو غايات مضيئة لما تزل بعيدة ؛ وحسبوا وقد تغشاهم مراب أحقق ، أن هذه الغايات الأخيرة في متناول اليد ، نمضي إليها عبر منحنيات حلزونية معقدة ، ولكن دون أن ينحرف بنا الطريق أخيراً . ولو أننا نعتقد أحياناً أننا نتقهقر حتماً نحو مواضع بليدة ، وبالطبيعة يحدث هذا في الحب أيضاً ، ويمكن أن يبرهن عليه من يكتب ، في غد أراه بعيداً ، التاريخ المقارن لأفكار الرجال عن الحب ، على نحو ما كتب ابن حزم ، منذ تسعة قرون تقريباً ، تاريخه المقارن عن الأديان .

نظرية ابن حزم ومسلمى الأندلس عن الحب لما تزل تنوء بالشذوذ الجنسي ، هل كان مفهوم الحب هذا عاماً أيضاً على امتداد الخلافة ،

وهي أقل تشبعا بالتقاليد الإغريقية والرومانية، وأقل عدوى بالمشاعر المنتصرة في بلاط الأندلس؟ يبدو لي أنها تنتمي إلى مجموعة تقاليد البحر الأبيض المتوسط، والتي استقرت وتأصلت في إسبانيا الإسلامية على امتداد تاريخها. ولم يدرس المستشرقون ولا غيرهم حتى الآن، وكاسترولايشك في أهمية المشكلة، السلسلة الطويلة من النتائج التاريخية للإسلام في إسبانيا، وإسبانيا المسيحية، التي أدى إليها اعتقال شبه جزيرة إيبيريا عام ٧١١ م، وسط العالم القديم، وظل أشد سرعة في حياته الألفية، وكان البحر الأبيض، ذو التاريخ الحريق، في خدمتها طريقا ومحورا، وقد جعل منه الإسلام صلة تقارب بعد أن كان الهوة التي تفصل بين عالمين ثقافيين مختلفين خلال قرون. وقد تأقلمت الحضارة الأوروبية، وبقيت إسبانيا متميزة في المنطقة، لأن الإرث الحيوي الكلاسيكي القديم، واصل سيره على نحو أكثر تفجراً وقوة. ومن ثم حتى ولا مفهوم الحب المنتصر في قرطبة الخلافة، على أيام ابن حزم، يجب أن تكون له بالضرورة أصول عربية، وتأريخ حيوية ما كان في إسبانيا قبل الإسلام ينتظر من يدرسه، وقد حاولته في كتابي: «إسبانيا لغز تاريخي»، باستثناء ما يسمى بالحب العذري، أو الحب البغدادي إذا شئت، وشق طريقه نحو أقلية رقيقة اللذوق من عباد الجمال؛ ولكني لا أعرف ما إذا كان الإحساس بالحب، وعنه كتب طوق الحمامة، قد تأصل حقاً أم لا.

لكي نفصل الحب الطروب Cortez، ونشأ في فرنسا مع نهاية القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر، عن الحب العذري، وكان هذا أصلاً لذلك فيما يرى المستشرقون الإسبان، كتب أورتيجا: «إن الحب الطروب؛ حتى وهو شعور ناء، طافح بالأشواق، لا يتطلب تخلياً، وإنما يعكس رغبة كاملة»؛ ولقد قلت في كتابي «إسبانيا الإسلامية»: «توجد مسافة شاسعة بين مفهوم الحب عند ابن حزم والحب الصوفي العذري، لأن ذلك لا يتطلب العزوف عن الرغبة» وبعد أن قرأت «طوق الحمامة» في

ترجمته الجديدة ، ما زالت عند شكى فى أن مؤلفه كان يطبق الحب العذرى ،  
أو البغدادى فيما يقال ، فى حياته الحقيقية ، وإذا شئت لم يتخذ صراحة  
لأحى ولا فى الجانب الأدبى من حياته ، يقول فى كتابه « طرق الحمامة » :  
« إن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة ،  
ونفاذ التمييز ، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ، ومداخلة الناس جملة ،  
والجلوس فى البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة ، أو يكون الرجل  
حصوراً لا أرب له فى النساء » . وبعد أن ذكر عدداً من الحالات المثيرة فى  
مقاومة الرغبة أضاف : « وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون  
القبیح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده  
بالقبائح والفضائح » . وعن نفسه يقول : « يعلم الله ، وكفى به عليماً ،  
أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، تقى الحجز ، وإنى  
أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مثرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى  
ربى بكبيرة الزنا مذعقات إلى يومى هذا » نعم ، إن فقه اللغة لم يحدد  
مفهوم الحب فى إسبانيا الإسلامية ، ولكنه سجل موقف الفقه المتسامح  
بإزاء الجماع المشروع عند المسلمين ، وقد كتب ابن حزم نفسه يقول :  
« لولا مكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغلبة ، لما خفف  
الله عن البكرين ، وشدد على المحصن » . وفى الباب الذى كتبه فى « الطوق »  
وخصه بقبح المعصية ، اعتبر اللواط والزنا فحسب من الكبائر :

ثم يقول فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « حد  
العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لا تحل لك  
فما عدا هذا فهو عهر ، وما نقص حتى يمساك عما أحل الله تعالى فهو  
ضعف وعجز » . وأشار أسين بلاثيوس إلى أن ابن حزم فى معاداته  
للصوفية يعتبر العذرية عيب ، والرهبنة نقيصة .

لو قرر أورتيجا أن يتسرب على مهل ، حاملاً عدسة مكبرة ، إلى كتاب  
« طرق الحمامة » مكتشفاً ، ليدر من نظرية الحب فى قرطبة الخلافة ؛

وقد أحس الرغبة في أن يقوم بها ، لحركة النسيج الجوهري للكتاب ،  
فيما أرى ، أن ينظر إلى التفاصيل ، إذن لأنكر على ابن حزم « صفة  
عذرى » . ودون عدسة مكبرة يبدو واضحاً أن القرطبيين من عصره لم  
يكونوا كذلك أيضاً .

لقد وشى ابن حزم نظريته عن الحب بأخبار مختلفة ، اتخذ منها  
مثلاً يدعم بها آراءه ، وبأشعار جميلة استدعتها المناسبة . وفي الأخبار  
التي جعل منها نموذجاً يحتذى ، ترك سيرته العاطفية تتحرك حولها ،  
وكذلك الحياة العاطفية لأصدقائه ، ولقرطبيين آخرين كثيرين ليسوا  
دائماً معروفين له . هذه الأخبار النموذجية التي وشى بها ابن حزم تأملاته  
عن الحب ، واتخذ منها مثلاً ، لا تسمح لأمبركو كاسترو بتأكيد الغريب  
من أن مؤلف الطوق كان يسرب حياته الخاصة من خلال حياة الآخرين ،  
وترجمة غرسية غومث تحت إمرة القراء الذين يتحدثون الإسبانية ، ومثلها  
الترجمات الأخرى في اللغات : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، وبوسع  
الذين يتكلمون بها ، أو يعرفونها ، أن يعودوا إليها ، وكلها تناقض نظرية  
كاسترو المغامرة . إن ابن حزم يذكر في كل خطوة الخبر الذي يمكن أن  
يدعم نظريته ، يشير إلى أحداث وقعت في حياته ، أو في حياة الآخرين ،  
طبعاً لواقع كل حالة ، ولكن دون أن يتوغل في تراجم بعيدة عن ترجمته ،  
ويؤكد صدق الوقائع بشهادة شخصية منه ، لأولئك الذين عرفهم ،  
أو يأتي بها متصلة الإسناد حتى يبلغ به من شاهد الحادث الذي ألمح إليه ،  
وعندما يطل ابن حزم على حياة الآخرين فلنما ليؤكد ، في الواقع ، صدق  
ما يروى من أخبار .

ومجموعة الأشعار التي جاء بها في « الطوق » تكون ديواناً كبيراً ،  
والجانب الأكبر منها ذو طابع فلسفي عميق ، وتفصلها طبيعة موضوعاتها  
الغزلية ، وألف هام من التاريخ ، عما ندين به لأونامونو ، وأحياناً تقرب  
منه برأها وعمق تفكيرها . ولكن أونامونو لم يقع أبداً على كلمة نابية ،

أو تعبير فاحش ، أو فكرة خارجة ، وهو ما يحدث لابن حزم أحياناً ، فهو مثلاً عندما يشير إلى حفيد الشاعر الجزيري ، يقول عنه ، إنه « رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً في الحصول على بغيته من فتى كان علقه » ، أو « رشا » فيما يقال أحياناً ، وهي لفظة لطيفة ، تتردد كثيراً في الشعر العربي ، وتطلق على الغلمان ، فإذا تجاوزنا هذا الفرق فإن عمق الفكرة في القطع الشعرية الأندلسية الإيبيرية الذي عاش في القرن الحادى عشر ، وللإيبيرية الباسكية الذى عاش في القرن العشرين ، تكمل التقارب بين هاتين القمتين من قمم الفكر الإسباني .

#### ● غنيت بياقوتة الأندلس :

لقد اقتربنا من الربط بين ابن حزم والقمم الفكرية الأخرى في الأدب الإسباني ، [وكما برهنا كان ابن حزم إسبانيا روحاً ودماً ، وجديراً بأن] يضم إلى خير من يجسدون الإسبانية ، على امتداد كل العصور ، تطلع إلى المشرق كموطن لنسبه [وثقافته ، والتهب إحساسه بيبغض جارف لمسيحية شبه الجزيرة الإيبيرية ، ولأنه إسباني حتى النخاع قفزت سهام فكره ، ونبال مشاعره ، فوق ورعه وتقواه ، لتواصل اندفاعها الثقافى والشعورى إسبانية خالصة ، إسبانية ألفية تضرب جذورها بعيداً فى أعماق ما قبل التاريخ — وسأظهر ذلك يوماً — على نحو ما كان عليه ، وأكرر ما قلت وكتبت فى مرات كثيرة ، عدد كبير من شخصيات الإسلام العظيمة فى إسبانيا ، شخصيات لا يمكن أن تستثنى ، لأنها مسلمة ، من إرثها الفكرى الإسباني ؛

ولندكر أن الملامح النفسية التى ينسبها إلى ابن حزم من كتبوا سيرته ، وللصفحات التى نخط عليها نفسه جانباً من سيرته ، تؤكد إسبانيته فى عم : الشموخ ، والعاطفة ، والعنف ، وطلاقة اللسان ، واستقامة الكرامة ، والوفاء ، وتخليق الروح نحو الله ، والقسوة فى نقد الوطن ، وسحب الحقيقة ، وشدة لحاق ، والحماسة التى تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعاً عن أفكاره وشرفه ،

النضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل «دون كيخوته» ، واحتقاره للثروة في مواجهة الشرف ، وكرهية النفاق ، واحتقار الملق ، والصلابة في الشدائد ، وعبادة الصداقة ، وجود يبلغ حد السرف ، وسهولة الغضب ، والبلاغة ... إنها إسبانية عريقة ، وتؤكد في وضوح ، على الرغم من أسين بلاثيوس ، صدق ما قاله ابن حيان وابن سعيد عن أصوله الإسبانية ، وعن جلوده المسيحيين :

كان ابن حزم إسبانياً في أخفى طبقات أعماق روحه ، ومن العدل أن نضعه بين أسمي قسم الفكر الإسباني على امتداد كل العصور ، لأن حجمه وتعمده ونفاذ إنتاجه الأدبي والفلسفي والفقهية والعقائدي يعطى له هذا الحق .

ليس ثمة حياة تشبه الأخرى ، إذا درسناها بوعي ناقد وجاد ، نعم ، توجد بعامة مقابل ذلك أرواح متآخية ، أرواح شقيقة بين كثيرين من كبار الرجال في كل الأزمان ، وفي كل البلدان . وتتقارب بخاصة أطراف الأبناء الأكثر عبقرية في كل شعب ، وتتقارب في خصائصها الجوهرية ، لأنها عندما تعرض النفسية القومية ، الدائمة والتميزة ، ونقط حياتها الخاص ، فإنما تعكس دائماً الصورة نفسها في الجانب الآخر من المرآة .

سينكا مثلاً لم يشعر أبداً أنه إسباني ، وحتى كتب مرة ضد البطل القومي الإسباني العظيم فرياتو ، ولكنه ولد في قرطبة ، وأثر أصله الأندلسي في إرثه المزاجي وفي تكوين شخصيته . وترد دراسات مومسن Mommsen وميننديث بلايو Menéndiz Pilayo ، وجستون بواسيه G. Boissier ودراسات أخرى معاصرة ، وكلها دقيقة وموضع ثقة عظيمة ، بعض خصائص أعمال سينكا إلى أصوله الإسبانية . ويمكن أن نكتشف اليوم ملامح جديدة لإسبانيته ، حيوية ونفسية ، وأشرت إليها وأنا أدرس لغز إسبانيا التاريخي . ويتسع الأمر للظن بأن الألوان التي طبعت مذهبه الروائي تعود إلى إسبانيته هذه ، وألح على القارئ في أن يعود إلى صفحات كتابي الذي

أشرت إليه ، ومن ثم يمكن إذن أن نبدأ به السلسلة الرائعة لكبار المفكرين  
الإسبان والتي تمتد حتى تبلغ في أيامنا هذه أونامونو وأورتيجا  
إى جاسيت :

ستظل هذه السلسلة مقطوعة إذا لم نضمها الحلقات الإسبانية الإسلامية ،  
وأحدهم مؤلف « طوق الحمامة » ، ولقد قامت من قبل : لو أن ابن حزم  
كتب مؤلفاته في اللغة اللاتينية أو الرومانشية ، للمع اسمه اليوم إلى جانب كبار  
الشخصيات الغربية في العصر الوسيط مثل : دانتي وتوماس الإكويني :

وإذا كان ابن حزم يمثل حلقة السلسلة التي تبدأ منذ كتاب إسبانيا  
الرومانين حتى المفكرين الإسبان المعاصرين ، فإننى أتخيل مع ذلك أن هذا  
القرطبى المسلم ، وهو شاهد ناطق على أزمة الخلافة الإسبانية في القرن الحادى  
عشر ، يقرب بخاصة من أونامونو ، ذلك الباسكى القوى الذى عاصر سقوط  
الملكية الإسبانية ، فى آخر الثلث الأول من هذا القرن . وأكرر لا توجد حياتان  
متشابهتان ، وإنما روحان متآخيان ، ولكن روحى هذين الإسبانين الممتازين  
كانا توأمين :

تعرف أوروبا وأمريكا الفكر الملهب لكاتب إسبانيا العظيم ، ذو التاريخ  
البعيد ، والكلمة المهاجمة ، والمطرقة العنيدة ، والقلم الحاد ، والاهتمامات  
الفكرية الحرة والمتنوعة والودود ، وتمكنه المدهل من الموضوعات التى يعالجها ،  
وتمكنه من اللغة العربية ، وجدله القوى ، وعشقه للأحاديث الجادة ،  
وظلقات هنا وهناك ، وذكاؤه الفطن ، واحتقاره للمسلمات والعادات الاجتماعية  
وكراهيته القوية للتناق والرياء ، وأمانته الزوجية ، وحملةته على الفجور ،  
ورفضه الحاد والدائم ، وإصراره وتشده فى محاربة المظالم كلها ، ومقاومته  
العنيفة ، وخلافه مع الذين حوله ، وحبه الحار المتدفق الناقد لإسبانيا :

ومع ذلك ليس صعباً أن نقيم صلة قوية بين روح أونامونو الملهب ، على نحو  
ما هو معروف لنا جميعاً ، وبين صورة ابن حزم الحلقيّة القومية ، كما تطل  
واضحة من الآراء المختصرة والناقدة التى سجلها عنها معاصروه ، ومن سلسلة

الاعترافات الذاتية التي نخطها بقلمه. وعلى الجانب الآخر من هذه المرآة المزوجة،  
الآن يمكن أن نكتشف في كل خطوة، لأمح كثيرة من التحليل النفسي لأونامونو؟  
فلنتذكر الإطراء الذي يضرب به المثل، لكلمات ابن حزم الصارمة، ولقلمه  
الحاد، وثناء ابن حيان وابن سعيد على استقامة سلوكه، وشمول معارفه،  
وتطرفه في نقده للأندلس وطنه، وإخلاصه دون تخفيف، ونقده اللاذع،  
وتعصبه المنفعل. ونقرأ ثانية الكلمات الحادة للمفكر الأندلسي العظيم ضد  
الطغاة والقساة والفقهاء المنافقين، وضد الكذب والرياء، ودفاعه الحار عن  
المثل العليا التي اتهم بها أعداؤه، وسخريته الجارحة من المداهنة والحيل،  
واكتشافه المخلص لما يعتمل في داخله من صراع لكى ينتصر على غضبه، وثناؤه  
المستطاب على الصداقة، وكلماته الجميلة تعكس إحساساً مشوباً بكبرياء عنيف  
وصارخ. وتصريحه الجلى بأنه انتفع «بمحاك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهى  
أنه: تو قد طبعى، واحتدم خاطرى، وحمى فكرى، وتهبج نشاطى، فكان  
ذلك سبباً إلى تواليف لى عظيمة المنفعة، ولولا استشارتهم ساكنى، واقتداحهم  
كامنى، ما انبعثت لتلك التواليف». ثم الجملة النبيلة، وتبدو كما لو كانت  
قد خرجت من قلم أونامونو: «الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع».

تقارب هذين الروحين الإسبانيين التوأمين، يفضى إلى ما هو أبعد من  
هذا. لقد تربى ابن حزم فى الإسلام المستقيم، واتخذ من الظاهرية مذهباً،  
وترى أن أى مسلم مؤمن يمكن أن يستقل فى البحث بنفسه، خلال  
النصوص القرآنية، عما يجب أن يعتقد ويعمل به، وهو ما أصبح الدراسة  
المستقلة عند أونامونو، ويراهما أصل ومفتاح كل تفكير حر. وكلاهما كان  
يفيضان داخله بتدين عميق وفاق يهزهما من الأعماق. ولم يحاول عالم القرن  
العشرين أن يخفى الصراع الذى يعتمل فى داخله، ويقول عنه الشاعر  
متشادو: «أن يكون منشئاً ويقول، فيما أرى: الله، ويؤكد الشجاعة  
الإسبانية». ولقد اكتشفت قضية التدين فى دقة، وتساخ بثقافة واسعة لمواجهة هذه  
المشكلة الكبرى: وحاول القرطبي المسلم فى العصر الوسيط قبل الإسلام فى  
(م ١٢ - ابن حزم).



المشرق ، وقبل « المدرسية » المسيحية بزمن طويل في الغرب ، وفي دقة عبقرية ، أن يوائم بين العقل والعقيدة في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وهو كتاب في تاريخ الأديان المقارن .

والصفة القاسية : « دين القدامى » ، والتي نعت بها ابن حزم الأعمال الخاشعة في عصره يمكن أن تخرج من شفتى أونامونو .

وإذا كان أونامونو رجل امرأة واحدة ، وأحس بالنفور من « الدون جوانية » ومن الفجور ، فإن الحب الرومانتيكى لابن حزم دفع بالمستشرقين إلى الخلاف حول أصل هذا الحب العاطفى لابن حزم ، ومن على شاكلته . هل هو حب عندى مشرقى أم حب إسباني مستعرب ؟ .. وكان هذا الحب بذرة خصبة أثمرت حب الفرسان في العصر الوسيط ، وربما كان ممكناً أن يكتب أستاذ سلمنقة ، أونامونو ، هذه الكلمات التى خطها القرطبي المسلم : « وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهم متفرغات البال من كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه » .

ويتفقان أيضاً في حب الأبحاث المتصلة باللغة ، وأصبحت المتعة عند أونامونو « رغبة ملحة » وباهظة ، ولم تدع ابن حزم أيضاً يفلت من رشق سهامها ، فخصها مهتماً بالمحادثات نفاذة من فكره . وندين له بالفضل عن المعلومات المتصلة بالخلافات الصوتية للهجات العربية في إسبانيا ، وبتأملات حادة عن أصول اللغات السامية ، وبأفكار عميقة تتصل بها ، وقد أعاد نبريخا Nebrija (١) صياغتها فيما بعد ، في اللغة القشتالية ، ونحن على عتبة المغامرة : « اللغة تسير في ركاب الإمبراطورية » .

---

(١) نبريخا : ( ١٤٤١ - ١٥٢٢ ) ، عالم إسباني متخصص في اللغات القديمة ، وأمضى حياته في إصلاح تعليم اللغة اللاتينية ، وكتب حول موضوعات متعددة ، ووضع كتباً عدة في قواعد اللغة الإسبانية ، واللغة اللاتينية ، واللغة العبرية ، عدداً من المعاجم ، ولكن أفضل مؤلفاته : فن تعليم اللغة القشتالية . ( المترجم ) .

وأونامونو يمكن أن يرد على المتعصبين ممن هاجموا كتبه ومنعوا ، على نحو ما كانت تصنع محاكم التفتيش ، بما قال ابن حزم من شعر في ظروف مشابهة :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركابي

وبنزل إن أنزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رق وكاغد

وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدري

وإلا فعودوا في المكاتب بدأة [ ]

فكم دون ما تبغون لله من ستر

لقد أمضى هذان العظيمان الإسبانيان شبابهما في أتون من الصراع الدموي ، ابن حزم في قرظبة ، بعد العام الألف من التاريخ الميلادي بسنوات قليلة ، هزتها الثورات ، ودمرت مدينتي الزهراء والزاهرة ، وطوقها البربر في ضراوة ، وأونامونو في « بلباو » في القرن التاسع عشر ، تحاصرها وتقواتها جيوش دون كارلوس (١). ولقد عاش رجل الباسك القوي بداية الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة ، وعانى ويلايتها ، وشهد القرطبي المسلم من جانبه معارك المصير التي لا تنتهي في سنواته الأخيرة ، والتي دمرت الأندلس في النصف الأول من القرن الحادي عشر. وكان رد الفعل عند كليهما واحداً ، نفس الروح النبيل في مواجهة المأسى القومية الكبرى التي عاشها جيلاهما ، وأحس

---

(١) أحد المطالبين بعرش إسبانيا ، وأمضى سنوات عديدة في حروب متصلة لا تنتهي في شمال إسبانيا ومدينة « بلباو » عاصمة مقاطعة فسكاييا في شمال إسبانيا إحدى ثلاث مقاطعات للباسك ، أو الباشكنس كما تسميهم المراجع العربية ، وهم من أصل غير لاتيني ويتحدثون لغة غير إسبانية وغير لاتينية ، ويطالبون الآن بالاستقلال ، ويخوضون من أجله معارك طاحنة مع الحكومة المركزية . ( المترجم ) .

كلاهما بالتعاسة نفسها ، مؤلمة وطافحة ، أمام تمزق وطنهما على مرأى  
منهما ، أندلس الأول وإسبانيا الثاني . وأصاب الفيلسوف المسلم وفكره  
أكثر من مكروب ، حين أدان الخلاف الدموي بين الإخوة ، في عبارته  
الجميلة ، والعميقة المعنى في الوقت نفسه ، وقد نقلناها من قبل ، والتي تعجب  
المفكر الحر في عالمنا الحديث ، دون ما شك ، إذا عرفها : « نوار الفتنة  
لا يعقد » .

وكلاهما ، مسام قرطبة والبياسكى من بلباو ، أحبا لإسبانيا بعمق ، على  
الزغم من نقدهما العنيف لها ، ويقول متشادو عن أونامونو : « روح جنسه  
القاسى لما يزل نائما ، ويمكن أن يستيقظ يوماً تحت طرقات هراوته  
الحديدية » ، ويمكن أن يقول الشيء نفسه عن ابن حزم . وكلاهما ،  
ابن حزم وأونامونو ، كان واقع إسبانيا يشيع الألم في أعماق قلبه ، وسبق  
كلاهما كل شعوب الأرض في كبريائهما المتشابه ، فأونامونو صاح يوماً ،  
دفاعاً عن وطنه : « فليخترعوا هم ! » ، والشاعر القرطبي كتب  
هذه الكلمات :

ويا جوهر الصين سحقاً فقد غنيت بياقوتة الأندلس

ياقوتة الأندلس ! ، أصاب ابن حزم كبد الحقيقة شعراً ، حين شبه  
وطنه الإسباني بهذه الجوهرة الكريمة التليدة . ياقوتة الأندلس ! ، شعلة  
من عاطفة متأججة ، أو حب ملتهب ، ودم يغلي في العروق يدفع إلى الحياة  
والعمل ، أو يراق فوق كل البحار والقارات ، دون كيخوته يدافع عن مثل  
عليها مجنونة ، ومضات تطهر خطايا الإرادة ، وتحرق في الوقت نفسه حصاد  
الفكر . غنيت بياقوتة الأندلس ! ؛ واجب كل إسباني أن يهتم بها الآن  
ولو للحظة ، ففيها شفاء للذين يعبدون كل ما هو أجنبي . وياقوتة الأندلس  
ليست ياقوتة المسلمين ولا المسيحيين ، وهي أخيراً ، يمكن أن ترمز إلى  
الحياة التي ليست ركوداً شاحباً ، وإنما اندفاع خالق ! .

قلت فيما سبق إن ابن حزم لم يكن الحلقة الإسلامية الوحيدة في السلسلة

التي تبدأ مع سينكا حتى يومنا ، كان ثمة مسامون كثيرون يمكن أن تضمهم هذه القائمة من التراث الرائع ، أسهموا بما هو إسباني بين من أمرجهم ، في بناء الحضارة العربية وثقافتها العظيمة ، وأكملوا رسالة جوهريّة من الحفاظ على الحياة الفكرية وتنميتها في عالم حوض البحر الأبيض المتوسط ، على حين كانت المسيحية تدب بطيئة عبر منظمة مظلمة من منعطفات التاريخ ، ومن ثم فإن ثقافة الغرب لم تخسر كل الجهد الخلاق للمفكرين والفقهاء والشعراء والعلماء في إسبانيا الإسلامية ، لأن هذه وقد تمثلت الثقافة الإسلامية المشرقية ، التي احتفظت بما هو جوهري من الحضارتين الهلينية والفارسية ، أضافت إليها أفكارها المشبعة بما هو غربي ، وعبرت بها إلى الأقليات المثقفة في شمالى جبال البرانس ، بفضل ترجمات « مدرسة المترجمين » في طليطلة ، فقدمت خدمات هائلة لأوروبا ، مصدر ثقافتنا العريقة . وعندما أتأمل سمو الفكر عند ابن حزم ، في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وسبق به بما يقرب من نصف ألف عام المغامرات الأوربية الشبيهة ، والأعمال الثقافية الأخرى المماثلة ، لعظماء آخرين من أبناء الأندلس ، مثل ابن حزم إسبانيين أصولاً وروحاً ، يتميز دائماً : أعماق سؤال محبر ، ويؤكد دوماً نظرتي فيما يتصل بالانحراف الأسوي لقدر إسبانيا نتيجة اعتناقها الإسلام ؛ كلها تقريباً . كيف لا نسال أمام إسبانية ابن حزم الواضحة ، وإسبانيين آخرين في مثل قامته ، وأمام سمو عترياتهم ، ماذا كان يمكن أن يصبح عليه عمل المفكرين والمؤرخين ورجال العقيدة والفقهاء والعلماء والكتاب من الإسبان ، في إنفراج الثقافة الغربية خلال العصر الوسيط ، لو ظلوا منتمين لها ولم يتعدوا عن هذا الجو الثقافي ذات يوم من عام ٧١١م ؟ وعندما أحصى الأعمال التي قاموا بها على امتداد حياتهم ، وكل إسبانيا الإسلامية ، وهم على هامش العالم الغربي المجاور ، وبعيداً عن مركزه ، طوال عصور التبلور الحاسمة ، أحس بالغم دائماً ، لأنني أدرك الأذى الذي لحق بوطني عندما فتحة الإسلام وحكمه .

## غراميات ابن حزم

ومشكلة الحب العذرى في الأندلس

في عام ١٨٤١ اكتشف المستشرق الهولندي الكبير رينهارت دوزي Reinhart Dozy (١٨٢٠-١٨٨٣) ، المتخصص في الدراسات الأندلسية ، النسخة الوحيدة من مخطوطة «طوق الحمامة في الألفه والآلاف» لابن حزم ، المفكر الأندلسي العظيم ، بين العديد من المخطوطات العربية والشرقية في مكتبة جامعة ليدين هولندا ، وعكف عليها قراءة ودراسة ، وأفاد منها في كتابه الرائع : « تاريخ مسلمي الأندلس Histoire des Musulmans d'Espagne » ووقف طويلاً عند اعتراف مفصل مشير لابن حزم ، تضمن في صراحة بينة خطاه الأولى في عالم الحب . وكانت مفاجأة مذهلة ، أفقدت العالم الأوربي الكبير توازنه العلمي ، وربما للمرة الأولى على نحو ما سنرى بعد قليل :

يقول ابن حزم في اعترافه :

« وإني لأخبرك عني : أني ألفت في صباي ، ألفة محبة ، جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمايتها ، عديعة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسيلة السر ، فقيدة اللدام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقيه من العيوب ، دائمة القلوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار . لا توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجذ في أمرها ، غير راغبة في اللهو .

« على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها ، وأحببتها

حياً مفراطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن نجيبني بكلمة ، وأسمع من  
فيها لفظة - غير ما يقع في الحد يث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعي فما  
وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

« فلهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ،  
تجمعت فيه دخانتنا ودخلة (١) أخي - رحمه الله - من النساء ، ونساء فتياننا ،  
ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبث صدرنا  
من النهار ، ثم انتقلنا إلى قصبة كانت في دارنا ، مشرفة على بستان الدار ،  
ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها (٢) ، مفتحة الأبواب ، فصرن  
ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن .

« فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه ، أنسا بقربها ،  
متعرضاً للذنوب منها ، فما هي إلا أن تراني في جوارها ، فترك ذلك الباب  
الذي صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت  
قد علمت كلفي بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً  
كثيراً ، وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض  
الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها : واعلم أن قيافة النساء في من  
يميل إليهن أنفذ من قيافة مدابج في الآثار .

« ثم نزلن إلى البستان فرغب عجايزنا (٣) وكراثمتنا إلى سيدتها في سماع  
غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته في تخمر ونحجل لا عهد لي بمثله ،  
وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة ، ثم اندفعت تغني بأبيات  
العباس ابن الأحنف ، حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت	كانت مغاربها جوف المقاصير
شمس ممثلة في نخلق جارية	كأن أعطافها طي الطوامير
ليست من الإنس إلا في مناسبة	ولا من الجن إلا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عبهرة	والريح عنبرة والسكل من نور
كأنها نحن تمخطو في مجاسدها	تمخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكان المضراب انما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ،  
ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن  
من رؤيتها وسماع كلامها ، (٥)

نقل دوزى النص كاملاً ، في فرنسية راقية ، شفافة ومثيرة في كتابه  
الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم عقب عليه بقوله :

« يلاحظ دون ما شك في النصة التي انتهينا من قراءتها ، ملامح  
عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب ، الذين يفضلون بصفة عامة ،  
الجمال المثير ، والعيون الفاتنة ، والابتسامة الآسرة ، والحب الذي كان  
يحلم به ابن حزم يختلط ، دون ريب بما هو حسي جذاب ، وعند  
ما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس ، يصبح الإحساس أقل قسوة  
لكن فيه أيضاً ميل إلى ما هو أخلاقي ، من رقة بالغة واحترام وحماسة ،  
وما بأسره جمالاً رائعاً وديعاً ، فياض بالكرامة الحلوة لكن يجب ألا ننسى  
أن هذا الشاعر الأكثر عفة ، وأكاد أقول الأكثر مسيحية ، بين  
الشعراء المسلمين ، ليس عربياً نخالض النسب ، إنما هو حفيد إسباني  
مسيحي ، لم يفقد كاية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه ، هؤلاء  
الإسبان المتعربون يستطيعون أن يهجروا دينهم ، وأن يتهلوا بمحمد  
بدل المسيح ، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم التقدمي في الدين والوطن ،  
ولكن يبقى دماً في أعماق أرواحهم شيء صاف رهيف وروحي ،  
غير عربي (٦) .

نشر دوزى كتابه « تاريخ مسلمي الأندلس » الذي ضمنه هذا الرأي ،  
عام ١٨٦١ م ، ولأن الرجل حجة في الدراسات الأندلسية ، وصاغ  
النصة في نثر فرنسي بليغ ، فقد أصبح كتابه مرجعاً ، ورأيه عقيدة ،  
وفكرته الصواب قاطعاً ، وتابعه فيه جمهرة الأوربيين من بعده ، إلى  
قريب من نهاية الثالث الأول من هذا القرن حين نشر الراهب الإسباني  
ميغيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (١٨٧١ - ١٩٤٥)

دراسته العميقة عن العالم القرطبي الجليل، وكان أسين بلاثيوس عالماً ثباتاً وحيجة في الفلسفة الإسلامية ، وقف عليها حياته : نشر مخطوطات ، ودراسة تراث ، وحرر فيها عدداً هائلاً من الرسائل والأبحاث ، وترجم إلى الإسبانية أمهات كتب الفلسفة الإسلامية في الأندلس بينها كتاب : «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم وجعل من دراسة حياة المؤلف كالمقدمة لترجمته ، وجاءت الدراسة والترجمة في خمسة أجزاء كبار (٧) .

عرض أسين بلاثيوس لفكرة دوزي ، كما أوردناها ، وناقشها تفصيلاً ، ووجهة نظره تستحق أن نوردتها بكاملها ، ولنا عليهما استدراك وتعليق . يقول : « الفكرة التي دافع عنها دوزي بوضوح في تعليقه هذا ، وفي أمكنة أخرى من كتابه : « تاريخ مسلمي الأندلس » ، يمكن أن نوجزها ، لتسهل مناقشتها ، في النقاط التالية :

● إن الإطار الذي رسمه ابن حزم لحبه في هذه الترجمة الذاتية ، في لهجة صادقة وسلامة نية فطرية ، يظهر لنا من نفسية البطل شعوراً ممتازاً ، أشد رقة وكمالاً من الحب الحسي غير المحتشم . ويمكن اعتبار ابن حزم في هذا الجانب مثلاً استثنائياً نموذجياً للحب الروحي والضعيف ، الذي يسميه علماء النفس الحب الإفلاطوني أو الرومانتيكي .

● إن النفسية التي تكابد هذا الحب ليست من خصائص الجنس العربي ، ولا الأدب الإسلامي ، وكلاهما في عواطفه الغرامية يستمد إلهامه غالباً من الرغبات الجنسية المبتذلة .

● إن حب ابن حزم الرومانتيكي ، وبالتالي كل حيلته العاطفية ، لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء أنها ورائه نفسية ، وارتداد منه لخصائص جنسية المسيحي والإسباني .

« فيما يتصل بالنقطة الأولى من هذه النقاط ، أبادر إلى القول ، قبل كل شيء ، بأن روعة الأسلوب الأدبي لدوزي ، وقد تجلت في ترجمته الجميلة



لقصة ابن حزم السابقة ، مقارنة بترجمة نخوان فالبرا (٨) تثير في أعماق روح القارئ العلماني ، ، غير اليقظ ، فكرة أن ابن حزم كان ضحية ذلك الحب الأول لأيام شبابه ، يبكي بلا أمل ، بقية حياته ، الحظ التمس لقلبه المصدود . ومعنى آخر أعطى النغم الرومانتيكي لهذا الحب القصة مزيداً من القوة ، لأن درزي تركنا في مهارة تخيل أنه الحب الوحيد في حياة ابن حزم ، على حين أنه لا يمكن أن يجهل ، وقد استفاد من كل كلمة في النسخة المخطوطة لطوق الحمامة ، أن ابن حزم لم يصبر طويلاً ، وهو يمثل الدور الرومانتيكي لعاشق يائس ، إذ سرعان ما جفف دموعه ، لينسى في حب آخر ، أكثر سهولة ، أحزان حبه الأول ،

يقول : « كنت أشد الناس كلفاً ، وأعظمهم حباً ، بحارية لي ، كان فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية المتمنى ، وغاية الحسن خلقاً وخلقة وموافقة لي ، وكنت أباً عندها ، وكنا قد تكافأنا في المودة ففجعني بها الأقدار ، واخترمتها الليالي ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، سني حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن ، فقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفر لي دمة على جمود عيني وقلة إسماعها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وبيعض أعضاء جسمي العزيزة على مسارعا طائعا ، وما طاب لي عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله ، وحرمت ما كان بعده .

وليس هذا الحب الثاني هو الأخير لأيام شبابه ، فبعد ذلك بأعوام ، عندما استطاع أن يعود إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية الواسعة ، يحدثنا عن نفسه : وقد ضمنى المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارف مشهورة بالصالح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قرابتها ، من اللاتي قد ضمها معي النشأة في الصبي ، ثم غبت عنها أهواها كثيرة ، وكنت

تركها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض  
وانساب ، وتفجرت عايمها ينابيع الملاحة فترددت ونجمرت ، وطامت في  
سماها وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقأت ، وانبعثت في نخديها أزهبر  
الجمال فتمت واعتمت ... (١٠)

إذن لم يخفق ابن حزم في حبه مرة واحدة ، بل مرات ، ومن هذه  
الزاوية الجديدة ، التي لم يردد وزى أن يضعها أمام عين القارىء ، يفقد  
الحب الفنى لبطلنا ، دون شك ، درجات من مثاليته وأفلاطونيته ، لكن لا يمكن  
الإنكار أنه ينطوى على مشاعر رقيقة لم تفقد توهجها بعد ، ولا تعرف ما  
هو حسى . ومصدر ذلك تعاسة مزاجه ، أو بمعنى أدق ، جاء نتيجة ميل  
فطرى عنده ، ويعترف ابن حزم نفسه بأن لديه دائماً قدرة بالغة ، وعزوفاً  
عن كل ما هو جنسى (١١) . ويرى أن اجتماع الأرواح ، وليس التقاء  
الأبدان ، هو الذى يبقى على الحب (١٢) . لقد كانت روحية عشقه حقيقة  
واقعة وظل صداها يتردد ، بعد قرن كامل من وفاته ، في نغمريات الشاعر  
العربيد ابن قزمان القرطبي ، وهو يصف لنا سهراته وليلاليه الحمراء (١٣) .

لكن ليس صحيحاً أن حبه الأفلاطوني يجب أن يعد شيئاً شخصياً ، وطابعاً  
يتصل بخلاقه ، وأنه استثناء واضح فى نفسية الإسلام الإسباني ، ذلك أن  
الحقائق التاريخية فى كتابه « طوق الحمامة » وهى مسلم بها وليست موضع  
شك ، لأن مؤلفه يؤكد ذلك حرفياً فى مقدمة الكتاب ، يقول : « كلفتنى -  
أعزك الله - أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه  
وما يقع فيه . وله على مسيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا مفضلاً » (١٤) وأغلب  
فصول الكتاب تتكون من روايات معاصرة عن شخصيات تذكر بأسمائها  
وألقابها وهى شاهد على العنصر العميقة التى بثها الحب الرومانتيكى فى الأرواح  
وتعترضك فى كل خطوة ، على امتداد صفحات الكتاب ، أسماء خلفاء  
وزراء وقواد ، وشخصيات من أعلى طبقات الأرستقراطية العربية ،  
وفقهاء وأدباء وشعراء ورجال ، وباختصار من كل الطبقات المثقفة فى

المجتمع القرطبي ، وهم يهتدون في حياتهم الغرامية بهذا الروح المثالي الراقى نفسه ، تشيع البهجة فيهم نظرة عابرة من فتاة أحلامهم ، أو مجرد زيارة شريفة وخصية ، وتبتل صامت إلى المعبود في محراب الروح الخفي وتقديس يكاد يكون دينيا لما خلف من أشياء وحاجات شخصية يحتفظون بها تذكرة . ويبلغ نهاية الطرف المقابل للحب الأفلاطوني ، فيروى بالدموع عند احتداد الخيبة ، رسائل يطلب فيها صدقة من حب ، أو يكتبها بدمه ، أو ينهي في قسوة مأساة حبه المصدود ، مضنيا الحبيب شيئا فشيئا ، أو ينطفئ بغتة نور عقله ، في انجاس غرامى مجنون (١٥) .

عند ما نقرأ هذه الصفحات الزانحة بالشعر ، يمكن أن نفهم من مجموعها نفسية تلك الحضارة القرطبية ، وهي تقدم لنا في قمة توهجها ، الدلائل على رقيها الثقافي والعاطفي ؛ وهما دائما طلائع أى انحدار . لم يكن إذن حب ابن حزم الأفلاطوني وايد عدوى سلالية فحسب ، أو أنه تلقاه من نفسية أسلافه المسيحيين ، لأن من أبطال الغزل الرومانتيكيين كثيرين جدا ينحدرون من أصول عربية خالصة ، ولا يمكن أن تجرى في دماهم الخصائص الموروثة التي نفترض أنها عند ابن حزم ،

ولقد حفظ لنا «طوق الحمامة» عن الرمادى أبو عمر يوسف بن هارون من كبار الشعراء الغنائيين الملهمين في عصر المنصور بن أبي عامر ، وهو كندى القبيلة ، يبنى الأصل ، رواية لطيفة ، ثابتة الوقائع ، جديرة بأن تروى لما فيها من عاطفة عميقة : « كان يوسف بن هارون مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلل حبا جميع أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع ، وجعل يتبعها وهي تاهضة نحو التنظرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان رحمهم الله ، المبنية على قبورهم في مقبرة الربض ، خلف النهر ، نظرت منه منفردا عن الناس لا همة له غيرها ، فانصرفت إليه ، فقالت له : مالك تمشى ورائي ؟ »

فأخبرها بعظيم بليته بها ، فقالت له : دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي ، فلا مطمع لك في البتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل . فقال : إني أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مباح لك . فقال لها ياسيدتي : أحررة أنت أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة ، فقال لها : ما اسمك قالت : خلوة (١٦) . قال : ولمن أنت ؟ قالت له : علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع الحال . فقال لها : ياسيدتي وأين أراك بعد هذا ؟ . قالت : حيث رأيتني اليوم ، في مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له : أما أن تنهض أنت ، وأما أن أنهض أنا . فقال لها : أنهض في حفظ الله . فنهضت نحو المنطرة ، ولم يمكنه اتباعها ، لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت المنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على خبر ، ولا أدري أسماء لحستها أم أرض باعها ، وأن قلبي منها لأحر من الجمر . وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره ، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سبيلها إلى سر قسطة في قصة طويلة (١٧) .

لقد تأثر دوزي بما هو شائع معاد عن حسية الحب عند الجنس العربي أكثر مما تأثر بما هو حق ( ما زال أسين بلاثيوس هو الذي يتكلم ) وهذه الأفكار المطروقة وليدة دراسات جزئية وسطحية وجانبية للأدب الإسلامي ، وهي مضطربة ، مثالها في ذلك خرافة لا تقل عنها انتشارا ، وهي عجز الجنس السامي عن الدراسات الفلسفية . لقد كرس الاستشراق الأوربي أغلب جهده ، في البدء ، بل وحتى كل جهده ، لدراسة شعراء الجاهلية ، وأدباء الإسلام في العصر الكلاسيكي ، ونجدع أوائل الباحثين منهم ، بما كان يتراقص في هذه النماذج من عبادة وثنية للشكل والجمال الحسي ، دون أن يكون لديهم متسع من الوقت لكي يستوعبوا ، أو حتى يبدأوا ، تحليل المعاني العظيمة للأدب الإسلامي ، وما زال مطويا لم ينشر ولم يدرس بعد ، ومع ذلك جرعوا على أن يستخرجوا من المقدمات الناقصة والحادة نتائج عامة وفجأة ، وأن يرتفعوا بها إلى مرتبة

القانون التاريخي أو الاجتماعي . ولكن خلال قرن مضى ( كتب أسين بلاثيوس كتابه عن ابن حزم بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٨ ) حلت جوانب جديدة عديدة للنفسية العربية ، ومن الممكن الآن تكوين فكرة أكثر شمولا ودقة عن ذي قبل .

ومن جانب آخر ، وكمقابل لهذا الاتجاه المحسى ، ظهر منذ العصر الجاهلي لون من الغزل العاطفي ، عفيف وروحي ، كالحب المسيحي ، ففي الصحراء العربية ، قريبا من اليمن ، عرفت قبيلة بدوية كيف تسمو بفهمها إلى أدق ما يمكن أن يتصور من الحب البشري . فبنو عذرة يفضاؤون الحزن الحلو المستسلم المشوق في الحب الأفلاطوني ، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة ، ويعرفون كيف يموتون من الحب ، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عر من الأرواح العفيفة ؛ لقد تغنى أعظم شعرائهم إلهاما ، في قصائد تفيض رومانتيكية ، وبالحنان المرة ، للرجبة الكظيمة إلى الأبد ، وكان جميل بن عبد الله العذري ، إلى جانب شعراء آخرين من بني هذيل ، النموذج الكامل الذي تتحقق فيه العفة المثالية . لقد مات من الحب دون أن يجرؤ يوماً على أن يمس بيده محبوبته بشينة :

إن عبادة العفة والعذرية ، وهما من خصائص الرهبنة المسيحية الشرقية في العصور الوسطى ، لا يجب أن تكون بمنأى عن هذه الحركة الرومانتيكية ، والراهب المسيحي شخصية شائعة في القصيدة الجاهلية ، وكانت الأصوام والأديرة تتناثر عبر صحراوات الجزيرة العربية ، وكان قرى الحجيج فيها تقليدا مرعيا ، والتعاشيس والعرفان يؤديان إلى التقايد ، والحق أن شيئا كثيرا من ذلك تخلف في الأدب الديني للقرن الأول الهجري إن حكايات رهبانية ، ونماذج لأبطال متقشفين مما يوجد في كتاب « حياة الآباء Vitae Patrum » انتقلت في مرحلة كبيرة للغاية إلى التراث الأدبي الإسلامي . وأحد هذه الأمثلة ، وربما كان أروعها جميعا ، عبر مريعا البلاد الإسلامية التي تفصل موطنه عن الغرب ، حتى وصل

إسبانيا ؛ إنها حكاية راهب مسيحي من طيبة أحرق أصابعه بالنار ليقاوم محاولة امرأة عارية . وقد قص ابن حزم الحكاية في « طوق الحمامة » ، بعد أن جردها من طابعها المسيحي (١٨) .

« الحب العذري والعميف لبني عذرة ، والمطهر هكذا شيئا فشيئا بحرارة الزهد البدوي الإسلامي ، والسابق للصوفية ، أخذ شكله النهائي في بغداد قريبا من القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، كنموذج مثالي للحب السامي ، وحتى للفضيلة الدينية . وكان البلاط العباسي ، وقد بلغ قدرا عاليا من الثقافة المصقولة ، يعاني في الوقت نفسه من تفاقم المشاعر المريضة ، وهو طابع كل المراكز الحضارية الكبرى ، وقد عانت منه قرطبة بعد وفاة ابن حزم بقرن من الزمان . وفي نوادي بغداد الأدبية كانت هذه الرومانتيكية التقليدية تباشر تأثيرا قويا على النفوس ، حيث شاع الحديث المنسوب إلى النبي : « من عشق فعم ومات ، مات شهيدا » . وهذه المثالية العالية ألهمت روحا عظيما واسع الثقافة ، هو ابن داود الأصفهاني ، ابن منشيء المذهب الظاهري وخلفه فيه ، فعرف كيف يرفع حينئذ تماثلا أدبيا خالدا للحب الأفلاطوني بكتابه « الزهرة » ، وفيه يعترف بالأصل المادي والشهواني للميول العاطفية في الروح الإنساني ، وأنها تخضع لمثير دائم ، يتوقف على قدرها من التركيب الفسيولوجي . ومع ذلك ، عرف كيف يجعل منها مثالا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعتها ، لتصبح الرغبة أملا خالدا .

ومهما تكن خصائص الجنس البعيد لابن حزم ، التي نسبه إليها دوزي ، فقد نهاوت كلها أنام هذا العرض ؛ وإذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية يمكن أن ينبض بها قلب ابن حزم ، العدو اللدود للعميدة المسيحية ، وللأخلاق الإنجيلية ، فليست بالتأكيد المشاعر التي ورثها عن أجداده عبر دمائهم ، وإنما تلك التي اكتسبها لاشعور يا ، وعلى الرغم منه ، بفعل عدوى لا محيص عنها ، لجو المثالية المسيحية القوي ، والذي ازدهرت فيه الحياة الأدبية الإسلامية في المشرق طوال حياتها . . . . . (١٩)

تلك هي وجهة النظر غير العربية ، كما يعرضها مستشرق هو لندي غير منهم في حياته ، وعرف بكرهه لرجال الدين ، وبعده عن التعصب . وكما تصورها راهب كاثوليكي إسباني ، عرف بغزارة علمه ، وتمكنه من العربية ، وبمعالجته للقضايا العلمية والأدبية في موضوعية لاتحدها لإرسالته كرجل دين تخضع كل كتاباته لمراجعة السلطات الكنيسية ورقابتها .

لكن دوزي كان متأثرا بما كان شائعا في أوروبا على أيامه ، من أن السمو في الحب وليد المسيحية ، فطبق هذا الاتجاه في دراسته لابن حزم ، وكتابه « طوق الحمامة » . وحاول أسين بلاثيوس ، في مهارة ذكية ، أن يرد الغزل العذري كله ، لا الأندلسي منه فحسب ، إلى أصول مسيحية .

ونظرية كليهما ينقضها واقع الأندلس ، فهما يعرفان جيدا ، أن مسيحية الإسبان عند الفتح كانت رقيقة ، وأن علم الناس بها - خارج رجال الدين - كان مشوشا . وأن جانبها لا بأس به من السكان كانوا وثنيين . وإذا كان من المرجح أن ابن حزم ينحدر من أصول إسبانية ، فمن المرجح أيضا أن أجداده لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام ، لأنه من المنطقة الفقيرة ، في جنوب غرب إسبانيا ، وغالبية أهلها عند الفتح كانوا من الوثنيين . وعلى أي حال فإن ما كان يجري في الجانب العربي والإسلامي من الأندلس من مظاهر الحب الحسي ، كان يجري مثله ، وأفحش منه ، في الجانب الإسباني المسيحي ، ولم تجر في عروقهم دماء عربية ، ولا اتخذ جدودهم الإسلام ديناً .

كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاء إلى الحياة بعد عامين من وفاة ابن حزم ( ت ١٠٦٣ ) ، ملكا كاثوليكيًا ، أفنى حياته يقاتل من أجلها ودفاعها عنها ، ولكن الكاثوليكية بطقوسها لم تمنعه من أن يجمع بين ست زوجات ، في وقت واحد ( ٢١ ) . وكان على علاقة جنسية مع أخته أراكة Urraca وتذكر ذلك المصادر العربية المعاصرة له صراحة ( ٢١ ) ، وتحدث عنها الأغا الشعبية الإسبانية منكورة أحيانا ، ومتشفية أحيانا أخرى . وكان إنريك الرابع ملك قشتالة ( ت ١٤٧٤ ) إسبانياً حتى آخر قطرة في دمه ، كاثوليكيًا من نخس

قدمه إلى قمة رأسه ، وكان شاذاً جنسياً مخنثاً ، يلاحق من لا يخضعون لرغباته المخجلة من حاشيته بالقتل والسجن والنفي . ولم ير حرجاً في أن يعين عشيقته كتالين سندوفال رئيسة لدير راهبات القديس بطرس ، في ضواحي طابطة ، بعد أن طرد رئيسه السابقة ، متحدياً أوامر المطران ، وقرار حرمانه من الكنيسة (٢٢) . ومن الثابت أنه كان عقيماً لا يلد ، وأنه طلق زوجته الأولى رغم كاثوليكيته وتزوج ثانية ، وأن زوجته الثانية جاءت به بنت نسبت إليه ، وكان معروفاً أن أباه الحقيقي أحد رجال الحاشية ، ولم يكن إنريك هذا حالة شاذة ، فهو نفسه يشك أنه ابن حقيقي لأبيه المنسوب إليه : خوان الثاني (٢٣) .

وكان فليپ الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا ، كاثوليكياً متعصباً ، ضيق الأفق في مفهومه الديني ، وله العديد من العشيقات ، وأولاد كثيرين غير شرعيين ، كما كان أبوه من قبل (٢٤) ، ومن الشائع أن كارلوس بن فيليب الثاني ، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه إيزابيل ، ولذلك سجنه ، ومات في السجن في ظروف غامضة ، مسموماً أو مذبوحاً أو مخنوقاً ، فبكته إيزابيل بكاء مراً ، فأصدر لها فيايب أمرا إمبراطورياً بأن تكف عن البكاء عليه (٢٥) .

ويقص علينا رحالة ألماني طاف بالجانب المسيحي من الأندلس في القرن الخامس عشر ، أنه وجد الشذوذ الجنسي شائعاً في قشتالة ، وقشتالة هذه من أشد مقاطعات الأندلس في العصر الوسيط ، وحتى أيامنا هذه ، تعصبا للكاثوليكية ، وتعلقاً بالإسبانية ، حتى أن اللغة القومية تنسب إليهم في أحيان كثيرة ، فيقال اللغة القشتالية بدل الإسبانية ، لأن حججهم هي التي سادت بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس (٢٦) . ويلاحظ أن من العسير علينا عند دراستنا لهذا الأمر في الجانب المسيحي من الأندلس الحصول على معلومات كافية ، لأنه لم يكن يتمتع بما يتمتع به الجانب الإسلامي من حرية في الإبداع والتسجيل والنشر ، لأن الرقابة الدينية على المؤلفات

(م ١٣ - ابن حزم)



كانت عنيفة وقاسية ولا تسمح بالإشارة إلى مثل هذه الأشياء (٢٧).

• • •

ويقول مؤلف كتاب : « تاريخ إسبانيا وأمريكا ، اقتصادياً واجتماعياً » ،  
وصدرت الطبعة الأولى منه في برشلونة بإسبانيا عام ١٩٥٧ ، وخضع  
لرقابة الدولة والكنيسة على السواء : « شهد القرنان الرابع عشر والخامس  
عشر أشد فساد شهدته الكنيسة الإسبانية ، وبخاصة في مملكة قشتالة .  
والدراسات التي قام بها أوليز روبر Ulises Robert أظهرت الحالة  
المؤسفة التي انتهى إليها عدد كبير من الأديرة البندكتية . حيث يعيش  
الرهبان مع عشيقاتهم ؛ ويربون ويعلمون أولادهم في الأديرة نفسها . وثمة  
تعليمات أصدرها مطران أوفييدو في القرن الرابع عشر يمنع فيها الرهبان من  
السماح لعشيقاتهم ، أو أولادهم ، أو الراهبات ، أن يتواجدن على أبواب  
الأديرة ، أو يعشن فيها ضيوفاً على الرهبان . وثمة وثيقة أخرى نشرها  
فوشيه دلبوس Fouché-Delbos تشير إلى السمعة السيئة التي كان يتمتع  
بها رجال الدين الدومينيكان في القرن نفسه ، مما يؤكد أن الأوامر الخاصة  
بالسلوك المستقيم قد تنوسيت سريعاً . وفيما يبدو كان فساد الأخلاق عاماً  
في كل الأديرة ، إلى حد كبير ، وفيما يتصل بسلوك رجال الدين خارج  
الأديرة ، هناك أدلة وافية للجزم بأن الفساد كان أكثر شيوعاً في قشتالة  
منه في أرجون ، والبلاد الأوربية الأخرى . ففي منتصف القرن الثالث  
عشر ( أي مائتي عام بعد وفاة ابن حزم ) شاعت أغنان تتحدث عن رجال  
الدين ممن فاض بهم الشبق ، وفي كتاب « الحيل » قصة رئيس دير أخفى  
عنده امرأة متزوجة ...

و نعرف من قرارات مجمع شنت ياقب Santiago : عام ١٢٨٩ م ، أن  
من الشائع بين رجال الدين في المدينة ، أن يعيشوا على نحو ما يعيش اللمانيون ،  
يرتدون أفخر الثياب ، ويأكلون في الحانات ، ويلعبون « الزهر » علانية ،  
ويحذون الأساحة ، ويأخذون بحظهم من حياة الليل ، ويتشاجرون مع

الأهالي والجنود ، وهذا المجمع نفسه أصدر قراراً بمنع رجال الدين من اتخاذ العشيقات علانية ، ومن أن يوقفوا أنفسهم على كتابة الرقى . أو قراءة الطالع ...» .

« وفي عام ١٣٨٠ م ، أصدر مجلس سورية إقراراً يحول بين أبناء الرهبان من عشيقاتهم وبين أن يرثوا آباءهم ، لكي يحول بين نساء أخريات مستقيمات ، أرامل وعذراوات ، أن يصبحن لهم عشيقات ، وأن يقعن في الخطيئة ... » . وبعد سبعة أعوام أصدر مجلس بريفيسكا قراراً بمعاقبة أى امرأة تصبح علناً عشيقة لواحد من رجال الدين ... تعاقب في كل مرة تستعلم فيها له .» .

و يعضى بنا الكاتب إلى القرن الخامس عشر فيقرر : « إن عدداً كبيراً من الأديرة لم يكن إلا موضعاً لحياة اللذابة والمرح ، وعدد كبير من أديرة الراهبات سقط إلى الخضيض : وإذا لم تصبح بيوتنا للدعارة فعلاً ، فقد كان بينها وبين أن تصبح كذلك خطوة واحدة .» . وخلال حصار مدينة فوسة Fosa ، في الشمال الشرقى من إسبانيا ، عام ١٤٦٢ ، وجهت رئيسة الدير توبيخاً لقائد الجيش المحاصر ، لأنه سمح لضباطه بأن ينسوا واجباتهم العسكرية ، وأن يمضوا الليل مستمتعين في دير « سنتا كلارا » للراهبات ، وكان خارج أسوار المدينة . وبعد ذلك بأعوام طلب المطران مساعدة السلطات المدنية لكي تساعد على طرد راهبات هذا الدير بالقوة ، ماعدا الرئيسة ، لأنها وحدها حافظت على كرامتها بين هؤلاء الراهبات الرجسات ، وقد أوقعن الرعب في قلب رئيسة الدير ، وأصبحت عملياً أسيرة الدين ...» .

« وتكرر في أديرة كثيرة ، في قشتالة وأرجون ، المشهد الذي حدث في فوسة » ، وقد دافع رهبان سلمنقة عن أنفسهم مستخدمين كل شيء حتى الأسلحة ، قبل أن يغادروا الدير ، بينما الرهبان الفرنسيهسكان في المدينة نفسها خرجوا يجرون في الشوارع رفقة عشيقاتهم : أما رهبان طايطة

فقد خرجوا في مشهد ديني ، يطوفون الشوارع ، ويرفعون الصلبان ، ويرنمون بنشيد الخروج .. وأخيراً فإن ما يقرب من ٤٠٠ راهب أندلسي هددوا بأنهم سوف يهاجرون إلى شمال إفريقيا ، ويعتقدون الإسلام ، قبل أن يتخلوا عن عشيقاتهم» (٢٨)

ويعض المؤلف بعدد أحداثاً أخرى كثيرة من هذا القبيل ، ويطول بي الحديث لو أشرت إليها جميعاً . ولكنني أكتفي منها بما أوردت وأدعها إلى حديث آخر . ففي العام الذي سقطت فيه دولة الإسلام في الأندلس ، ٢ يناير ١٤٩٢ ، كانت الملكة إيزابيل تستقبل مغامراً إيطالياً يدعى كولون ، أو كولومبوس ، يعرض عليها مغامرة يريد لها تمويلاً ، وقبلت الملكة ، ومضى كولون في مغامرته ، وكانت النهاية اكتشاف العالم الجديد ، ومعه أصبحت إسبانيا أقوى دولة في العالم ، لاتغيب الشمس عن أملاكها ، كما قبل عن بريطانيا فيما بعد ، وتدفق الإسبان على العالم الجديد ، وبخاصة من مقاطعة الجوف ، في الجنوب الغربي من إسبانيا ، وبعض القرى نزلت من الرجال تماماً ، ولم يعد فيها غير النساء ، يلفها ظلام صيفي وشقاء مرعب ، وملل يتجاوز الوصف . النساء تعسات ، حياتهن جافة ومنسيات : لا أمل لهن في أن يرين أزواجهن مرة أخرى ، دون أن يعنى هذا أن إحساسهن بحاجتهن الجنسية قد هدأ ، وحوهن في كل مكان تظاهرات دينية : صلوات ، ودعوات ، وسحر .

والحقيقة المرة أن رجال الدين أصبحوا سادة «الفراخ» ، كثيرون عرفوا كيف يقاومون الرغبة في داخلهم ، وليسوا جميعاً . . . إن للعناصر التي تتركب منها الشهوة بسببها للغاية ، بسببها مثل ذكاء أولئك الأشقياء أنفسهم : قليل من الدين ، وكثير من الهيجان ، يتخفى تحت ستار الكهانة ، وجسد يلهب شهوة ورغبة . وفي مدينة ليرنا Llerena ، وما يتبعها من قرى ، قام ثمانية من رجال الدين ، في مطلع القرن العاشر ، أطلقوا على أنفسهم اسم «المتنورين» وجوهر محاولتهم

أحظ ما عرف من اتجاهات الفرق الدينية ، ، لأن دعوتهم لا تذهب إلى أبعد من إشباع شهواتهم الحسية ، وقد استطاع أحدكم ، الأب شاميثو Chamizo أن يهتك عرض ثلاثين امرأة ، ممن جئن يتلقين على يديه مبادئ الدعوة الجديدة ، وربما كان ينقص هؤلاء ، وغيرهن ممن لقبن المصير نفسه ، القدرة على إدراك الانحراف الذي يكمن وراء هذه الدعوة ، ولكن من المؤكد أنهن وجدن فيها فسحة ليشبعن رغباتهن ، وقد تركت الأساليب التي اتبعت معهن إصراراً وهوساً واضحاً فبن جميعاً .

« ونبت يرينا كان واحداً من أشد الحالات شهرة ، ولو أنه جاء متأخراً بالنسبة لحوادث أخرى . وكانت قضية هؤلاء « المتنورين » تقلق المسؤولين منذ زمن . وأول « متنور » في زمن الكاردينال ثيسنيروس ، كان من طائفة الكاثوليك الفرنسيين ويدعى أوكانيا Ocana ، وادعى أنه يتلقى للوحي . وأن الوحي أشار عليه بأن يضاجع ألواناً من النساء ، لكي يحملن منه بأنياب ، وقد انتهى به المطاف إلى سجن تحت الأرض ، ومالبث أن سارع بالارتداد عن دعواه (٢٩) .

ولتكشف إسبانيا أمريكا ، وتصبح هذه من أملاك التاج الإسباني ، ويتدفق عليها الإسبان من كل لون ، مغامرون ومقاتلون ولصوص ومجرمون وباحثون عن الثراء ، ومعهم أوحى قبلهم رجال دين ينشرون للكاثوليكية هناك بين سكان العالم الجديد ، وما كان من هؤلاء فيما وراء الإطلنطي شيء فوق التصور ، كأنما كانوا خرائز انطلقت من عقالها ، لأتههد منها تقاليد ولا حدود ولا قيم . وقد صورت الكاتبة البيروانية كلورندا ماتو Clorinda Matto ، وهي كاثوليكية ، في روايتها : « طيور لا عش لها Aves sin Nido » في دقة واقعية شيئاً مما حدث ، فأحداث الرواية تدور في قرية ريفية في بيرو ، وثمة أسرة من هنود أمريكا تعيش في حماية زوجين من البيض ، والسكن القسيس والحاكم والرئيس

السياسي طمعوا جميعاً في زوجة الرجل الهندي وبنتيه ، واستطاعوا أخيراً أن يقنعوا السكان بالهجوم على منزلهم وتدميره ، ودفاعاً عن بيته قتل الرجل الهندي وزوجه ، وخلف وراءه بنتين عشق ابن الحاكم إحداهما ، وعند ما أراد أن يتزوج منها لم يستطع ، فقد اكتشف أنهما أخوان ، لأن القسيس كان أباً لهما ، أباً غير شرعي ، لأنه كان عشيقاً لزوجة الهندي وزوجة الحاكم معا .

تلك وقائع أوردها كتاب إسبان معاصرون وكاثوليك ، ولنا عليها محفوظان : أولهما أن ما كان يحدث أسوأ بكثير مما تحدثوا عنه ، وأعرف قراءة وواقعاً ما هو أشد تهتكاً . وثانيهما أننا لا نقع في الخطأ الذي يقعون فيه تعصبا ، فرى رجال الدين في المسيحية كلهم كذلك ، إنني شخصياً أعرف بينهم أناساً يملأ الإيمان قلوبهم ، وتميز حياتهم بالطهر ، ووهبوا قواهم ونشاطهم لكل ما هو فاضل وجميل في الحياة .

\*\*\*

إن ربط العفة بالمسيحية ، والتبذل بالإسلام ، فضلا عن مخالفته للواقع التاريخي يتنافى مع بسائط أى منهج علمي ، مثله في ذلك : القول بأن مسلمي الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية ، كانوا أرقى في عواطفهم من الذين عبروا إليه المضيقي فاتحين أو وافدين ، إن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام في الأندلس ، فقدوا شيئاً قشياً الإحساس بأصولهم التي انحدروا منها ، حتى أن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية ، ترفعه إلى قبائل معروفة ومشهورة ، مقابل أثمان دفعوها ذهباً . وحافظ آخرون على ألقابهم الرومانية الأولى ، فكان هناك بنو أنجيلين Banu Angelino وبنو شبريق Banu Sabrico في إشبيلية (٣٠) . وما كان المرء يستطيع أن يفرق بين الذين صنعوا لهم نسباً عربياً ، والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية ، وبين الوافدين على الأندلس ، عرباً أو بربراً ، لقد صنعهم الإسلام على هواه ، وصاغ منهم مجتمعا متجانسا .

ويأتي أميركو كاسترو و Americo Castro ، أحد كبار المفكرين الإسبان المعاصرين ، فزيد الأمر دقة ووضوحاً : « إن تحليل دم الأندلسيين عمل علماء الأحياء ، وليس من صناعة المؤرخين . فلم يكن الأندلسيون ( يعني بهم الماليك المسيحية في شمال الأندلس ) إسبانيا ، ولم يشعروا بهذه الإسبانية أبداً قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، وكان الذين يتقاتلون أو يتوادون على بطحاء الأندلس ، إما مسلمون أو مسيحيون » . « إن تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية في العصور الوسطى ، لا يمكن أن يرى بوضوح ، ما دام ثمة مستشرقون كبار ، وآخرون غير مستشرقين ، يواصلون الحديث عن « جنس إسباني » واصل وجوده في إسبانيا وراء الذين هم من دم عربي » . « إن المستشرقين الإسبان يطبقون مفهوم الإسبانية على كل الأندلس ، مهما تكن الأجيال التي تفصل بين الأندلسيين المسلمين وأصولهم المسيحية ، فإذا ذهب مسلمو الأندلس ليقاتلوا في المغرب سموهم إسبانيا ، وابن حزم إسباني ، وتغليب هذه الفكرة يعني أن المسلمين تنقصهم الشخصية التاريخية الصريحة ، فهم جميعاً يصبحون بربراً في المغرب ، ومصريين على ضفاف النيل » . ثم ينتهي إلى هذا القانون الاجتماعي : « الذين يتكلمون لغة جماعة إنسانية ، ويعتقدون دينها ، ويطبقون نظمها السياسية والإدارية ، يصبحون جزءاً منها ، مهما كانت الظروف التي عاش فيها أسلافهم » (٣١) .

أما قول أسبن بلاثيوس بأن الحب العذري نشأ بين بني عذرة نتيجة تأثير مسيحي ، فينقضه أن بني عذرة هؤلاء كانوا بدوا ، يأخذون للدين مأخذاً سهلاً ، وقالما يبلغ من عقولهم ونفوسهم مبلغاً قوياً يتأثرون به ، وبكيفون حياتهم وفق مثله ، ولو كانت المسيحية وراء هذه الظاهرة لكان أولى أن تكون على نحو أوضح ، وأسبق ، في نجران أو الحيرة أو بين الغساسنة ، حيث استقرت المسيحية زمنياً ، وباشرت ساطانها على النفوس ، وأصبحت دين الأسرة الحاكمة ردحاً من الزمان .

ويبقى بعد ذلك ، أن نشأة الحب العذري في الأدب العربي بعامة ،

عما تزال أرضاً بكرّاً تنتظر من يبحثها في ضوء مناشج البحث المتطورة ،  
علنا نصل فيها إلى جايد مقنع ومفيد .

الهوامش والتعليقات :

(١) أسرتنا وأسرة .

(٢) الفحوص : الوديان والسهول والجبال المخضرة التي تحيط بقرطبة .

(٣) لفظ «عجوز» كان يطلق في الأندلس على أية فتاة متزوجة ، حتى ولو كانت  
شابة ، وما زال هذا المعنى مستخدماً في كل من المغرب والجزائر وتونس حتى الآن .

(٤) فوز صاحبة عباس بن الأحنف .

(٥) اقرأ القصة كاملة في :

ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ص ١٤٤ وما بعدها ، تحقيق مؤلف هذا  
الكتاب ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ .

(٥) Dozy, R. : Histoire des Musulmans d' Espagne, Tomo  
II, pag. 263, Trad. Espagnole, Buenos Aires, 1940 .

(٧) ترجمنا هذه الدراسة إلى اللغة العربية ، وسوف تأخذ طريقها إلى النشر قريباً .

(٨) Juan Valera (١٨٢٧-١٩٠٥) وواثق إسباني ، وقد ترجم إلى الإسبانية  
كتاب المستشرق الألماني فون شاك : « شعر العرب وفهم في إسبانيا وصقلية » . وشهرت ترجمته  
بأنها ذات لغة رصينة ، وأسلوب أدبي رفيع ، وقد تضمن الكتاب القصة التي نحن بصدددها .

(٩) القصة كاملة في : ابن حزم ، طوق الحمامة ، بتحقيقنا ص ١٢٤ .

(١٠) القصة كاملة في المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(١١) أنظر مثلاً كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، ص ١٠٢ ، وكتاب طوق  
الحمامة بتحقيقنا ص ١٦٥ ، ونص عبارته فيه : (إني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حلت له زرى  
على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا) .

(١٢) الأخلاق والسير ، ص ٨٦ .

(١٣) ديوان ابن قزمان ، ج ١ ص ٢٧٢ ، الزجل رقم ٥٣ ، تحقيق غرسية غومث ،  
مدريد ١٩٧٢ ، والنقد المشار إليها هي :

يتعجب ابن حزم وقتنا ينشد

ويشتهي كل حيننا يقصد

فمدحى له من سخاه يتولد :

فاز من جمر وندم من قصر

من كان كريماً في ثنائى يظهر .

(١٤) طوق الحمامة ، ص ١٦ ، طبعة دارالمعارف بتحقيقنا .

(١٥) أورد ابن حزم في كتابه ( طوق الحمامة ) مثلاً لكل واحد من هذه الحالات ، أنظر :  
الفصل ١ ، ص ٥ - ١١ ، والفصل ١٠ ص ٣٠ - ٣١ ، والفصل ٢٥ ص ٨٨ ، ٩٤ ، والفصل  
٢٦ ص ٩٥ - ٩٦ . والفصل ٢٨ ص ١٠٧ ، ١١٣ .

(١٦) هكذا في الأصل ، وأظنها « حلوة » ، وهذا المعنى الأخير ترجمها أمين بلاثيوس .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٨) الأصل المسيحى لقصة ورد في كتاب « حياة الآباء Vitae Patrum » من تأليف  
Rosweyde وأوردها ابن حزم منفصلة في كتابه « طوق الحمامة » ص ١٨٥ طبعة دار المعارف  
بحقيقنا ويلاحظ أن الذى روى للقصة لابن حزم طبيب يهودى .

(١٩) أنظر بقية رأيه في كتابه : ابن حزم القرطبي ، الجزء الأول ، وقد ترجمناه إلى  
اللغة العربية وسوف ينشر قريباً .

(20) William C. Atkinson : Histoire d'Espagne et du Portugal.  
p. 81, Paris 1995 .

(٢١) ابن مغازى : البيان المغرب ، ص ٤٤ ، ٥١ .

(22) Maranon Gregorio : Ensayo Biologica sobre Enrique-  
IV, p. 94. 9 edicion, Madrid 1960.

(٢٣) المرجع السابق ص ٣٤ ، ٤٩ .

(24) Fornieles Salvador : La Espana del Siglo XVI pag. 88,  
Buenos Aires, 1951.

(25) Pfandal Ludwig : Juana la loca, p. 181 ss , Madrid,  
1959.



(٢٦) المرجع السابق ص ١٠ .

(27) Marañon, *op. cit.*, p. 107.

(28) Historia de España y América : Social y Económica, dirigida por : J. Vicens Vives 3 ed. p. 149 ss., Barcelona 1971.

(29) Federico Revilla : El sexo en La historia de España, p. 158 ss., Barcelona 1975.

(30) Lévi-Provencal, E. : España Musulmana, p. 47. Madrid, 1950 .

(31) Américo Castro : La Realidad histórica de España, pag. 191 ss., 2 edición, Mexico, 1962.

## مقدمة لطوق الحمامة \*

للفيلسوف الإسباني الكبير : أورتيجا إي جاسيت

صداقي لإميليو غرسية غومث مترددة : تتأرجح بين أن تكون أخوة وبين أن تكون أبوة ، الأبوة تأتي من أن عمري أكثر اتساعا من عمره ، وتعود الأخوة إلى أن طريقتنا واحدة ، وعندما نتحدث عن فلان نتفق .

وعندما يتفق إثنان أو أكثر في رأيهم عن فلان ، يتفقون فيما عدا ذلك ، والعكس صحيح أيضا ، ولا يتطلب الاتفاق ، وحتى لا يفضل ، أن يكون الرأي متطابقا . ولسنا بصدد اتفاق الآراء ، وإنما توافق الحياة ، فليس في الدنيا من تماثل آراؤه مع آخر ، إذا كانت لديه آراء حقا ، لأن الرأي شيء ذاتي للغاية ، وغير قابل للانتقال . وعندما تكون لدينا فكرة مشتركة تأتي المخاطرة الكبرى في ألا تكون رأيا ، وإنما عكس ذلك تماما ، أن تكون شيئا مكرورا ، والشيء المكرور موضع ، والموضع عام ، إنه المكان الذي يتفق فيه الناس كثيرا ، ويتميزون ، وتختلط عليهم الأمور ، شيء لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الأفراد معادن ، ويفقدون صفتهم الإنسانية ، لأن الرجال في أصلهم ، وحققتهم ، اجتماعيون إلى حد كبير . و « المدرسيون » أنفسهم ، وإحساسهم يمثل هذه الموضوعات متواضع للغاية ، يعرفون الشخص بأنه غير قابل للانعزال ، ويرون أن الآراء يمكن أن تختلف إلى حد بعيد ، ولكنها تتفق فيما هو وحيد ومهم : في أنها كانت موضع التفكير من نفس المستوى . وأخيرا فإن معاناتنا عندما نتعامل مع الغير ، تجيء عادة من أننا نفكر ونشعرون نحن فوق مستويات مختلفة :

---

\* كتب أورتيجا إي جاسيت هذه الدراسة كمقدمة لترجمة الإسبانية ، لكتاب « طرق الحمامة » ، وقام بها المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث ، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٥٢ ، وأعاد نشرها في كتابه « دراسات عن الحب » ، وهو كتاب واسع الانتشار ، وبلغت طبعاته ، في سلسلة واحدة ، حتى كتابة هذه السطور خمس عشرة طبعة ، فيما أعلم . ( المترجم ) .

وهذه بالدقة إحصاء الهبات السحرية التي تملكها الحب ، وعنهما يتحدث هذا الكتاب في عمق . إليه - مثلاً - تعود الظاهرة الرائعة في أن المرأة عشيقة الرجل ، تبدو صفاتها أرفع بكثير من صفاته ، ولاندرى كيف ، أتجرد أنه عاشق يرتفع إلى مستواها ، أو العكس . وقد التقط الشاعر الألماني الكبير جوته ، في بيتين من شعره ، في نهاية كتابه الخالد « فاورست » صورة هذا المستوى . فالأنوثة الخالدة حقيقة محلقة ، وعندما يحب الرجل يرتفع إلى مستواها ، لا بقوة الصعود نفسها ، وإنما بقوة الجذب ، فهو مجذوب إلى عالم أكثر سمواً . ولا ينكر أحد على أن المرأة ، إذا كانت شيئاً ، تكون جذابة ، جذابة بالضرورة ، ولكن جوته يسترعى انتباهنا بأن جاذبيتها دائماً ، دائماً ، قمة ::

ما هو أنثوى

يجذبنا إلى أعلى

وبذلك سقطنا من باب مسحور في عمق هذا الكتاب ، وقد بذل إمبليو غرمنية غرمت جهداً كبيراً ومضنياً في ترجمته ، وهو دين في عنق الإسبانيين فهض به متعاونين ، لأن هذا الكتاب أروع ما خط عن الحب في الحضارة الإسلامية ، ولأنه وليد فكر وحياة إسبانيين ، وكتبه عربي « إسباني » على أرض إسبانية ، وقد ترجم من زمن إلى لغات أخرى ، ولكن لأحد لم يجرؤ قبل غرمنية غرمت على أن يمسك بمادته ؛ ويدفع بها خلال اللغة الإسبانية .

ومن الواضح أنني حين أدعو ابن حزم عربياً إسبانياً ، فإنما أنسبه إلى العربية جادا ، وإلى الإسبانية بصورة غير جدية ، ودون أن أحول بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما يحلو لهم ، ولست مستعداً من جانبي أن أغامر فأدعو « إسبانيا » في جدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ، حتى ولو كان من دم إيبيري أصلاً ، وحتى لو كان قد عاش فيها كل حياته . فالأرض والجبلة للدموية تأتي في آخر قائمة الخصائص التي يمكن أن تحدد قومية الإنسان . لأن هذه خلاصة الراقع التاريخي ، وإنما تكون لهما فعالية فحسب ، حين تحتلان منه المكان الأول ، قبل كل الخصائص الأخرى . والدليل عليه ، بسيطاً وشهيراً ،

يتمثل في أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانياً ، بأقصى ما تحتمله الكلمة من معنى ، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقاً . وعلى النقيض ، يمكن أن يكونه ، وبالمستوى نفسه ، دون أن تجرى في عروقه نقطة من دم جنسنا ، أو فيه منه شيء قليل للغاية .

ويصدق ذلك في عصرنا الآن ، لأن إسبانيا ، منذ وقت طويل ، حقت كامل قوميتها ، أعظم بكثير جداً عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، عندما بدأ الشيء الذي يدعى «إسبانيا» ينبثق فحسب . وكل هذه الصفات القومية تعني ، إذا أخذت بمعناها الدقيق ، الانتماء الأصيل لمجتمع محدد ، وكان مجتمع الأندلس العربي مختلفاً ، وشيئاً آخر غير المجتمع ، أو المجتمعات غير العربية ، التي كانت تسكن إسبانيا إذ ذاك (١) .

ولكن ذلك لا يلغى ، كما قلت ، علاقاتنا مع عرب الأندلس ، أو الإسبانيين ، ولا يعفينا من بعض الواجبات فيما يتصل بتاريخهم : واجبات عمادها ، في النهاية ، الفائدة التي تعود علينا من وراء القيام بها ، لأننا بهذا نغذي ذات جوهرنا ، ونثرى حاضرنا ، ونعلى من قدر إسبانيتنا . لأن مجتمعتنا عايش على امتداد قرون طويلة هذا المجتمع الأندلسي ، وجهاً لوجه ، في احتكاك مباشر ، من للقبيلات والسهام ، والأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر . وإحدى المنجزات الكبيرة التي تعيب الدراسات التاريخية أنها في أوج تقدمها ، لم تستطع أن تجاؤ ، ولو من بعيد ، حقيقة العلاقات بين كلا المجتمعين : وذلك هو سبب التارجح المتطرف بين الآراء ، عن التأثيرات بين جانب وآخر ، والذي أشار إليه غرسية غومث في مقدمته . ومن الحق أن نعترف بأن المستشرقين الإسبان ، ابتداء من خوليان ريبيرا ، تقدموا خطوات هامة على طريق المحاولة ، وأظهروا في دقة كبيرة كيف تعايش

---

(١) لكي لا تبقى الفكرة غامضة ، أضيف أنني أنهم من «المجتمع» مجموعة من البشر يحكمها نظام معين من العادات .

الأندلسيون والإسبان ، ولكن القضية لا يمكن أن نتقدم كثيراً إذا لم تؤخذ  
على نحو أكثر عمقاً . ومن الضروري بمكان في الحقيقة أن نحدد بالدقة  
تركيب المجتمعين ، تحديداً منفصلاً وجيداً ، لكي نستطيع فيما بعد أن نظهر  
التكامل والتلاقى بينهما :

ومع ذلك ، لا يمكن أن نهمف بالقضية عند حدود إسبانيا وحدها ،  
فهى أكثر اتساعاً ، لأن الجانب الأكبر من أوروبا كانت له أيضاً صلات  
مستمرة مع الحضارة العربية ، وتجاوز مباشرة معها ، ولكن المؤرخين  
الأجانب أيضاً لم يسكبوا شيئاً من الوضوح فوق هذا العمل ، وهو إحدى  
الحقائق الكبرى في تاريخ الغرب ، وكان ذلك التقصير أحد الأسباب  
الجوهرية التي عاقت الذكاء الأوربي الوسيط . وليس ممكناً أن نفهم حدثاً  
تاريخياً ، مهما يكن ، إذا لم ننجح في تأمله من وجهة النظر التي تظهر ،  
على نحو أفضل ، معناه الأكثر دقة ، أى من تلك التي تدرك متذوقة ، وبكل  
طاقتها ، مساحة الواقع الإنساني التي ينتسب إليها الحدث التاريخي . وكل  
نظرة إلى الواقع من خلال مساحة جزئية ، مهما تكن عميقة ، يشوهه  
أو يزيفه آلياً . وعلى أية حال فمنذ أعوام طويلة ، وإميليو غرسيه غومث  
شاهد عظيم على ، وأنا أرى أن العصر الأوربي الوسيط لا يمكن أن يرى  
بوضوح إذا نظرنا إليه وقد ركزنا تاريخ تلك القرون في تطور المجتمعات  
المسيحية وحدها .

إن العصر الأوربي الوسيط ، في حقيقته ، لا ينفصل عن الحضارة الإسلامية ،  
لأنه يقوم بالدقة على التعايش ، إيجاباً وسلباً في الوقت نفسه ، بين المسيحية  
والإسلام ، فوق رقعة مشتركة ، مشبعة بالحضارة الإغريقية الرومانية ،  
ومن هنا فإن وجهة النظر الوحيدة المناسبة من عدم المبالاة أمام هذين  
المتحدرين من حياة العصر الوسيط ، متأملين ظاهرها المزدوج ، واختلافها  
وحدة وانفاقاً ، بحملان في داخلهما نموذجين مختلفين : والسبب القوي  
في هذا أن كلا العالمين المسيحي والإسلامي وجهان لعالم جغرافي واحد ،

يشكل تاريخياً من الثقافة الإغريقية الرومانية ، والإسلام نفسه يجيء امتداداً للمسيحية (وناسخاً لها ١) (١) ولكن هذا الامتداد ما كان ممكناً أن يتضح بدوره لو لم تتلاق الشعوب الأوربية والشعوب العربية ، على مساحة احتلتها الإمبراطورية الرومانية على امتداد قرون من الزمان ، فالعرب والجرمان شعوب خارجية ، تعيش على حافة هذه الإمبراطورية ، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ ما يجري بين هذين الشعبين ، تبعاً لتوغلهم في عالم الإمبراطورية الرومانية ، مقيمين فيه ، وممتصين جوانب من ثقافته ، جاسئة ونخرة . والمعصر الوسيط ، في جانب منه ، نستق من التلقى العملاق ، تلقى الشعوب ذات الثقافة البدائية للثقافة القديمة ، والسوابق المسيحية للإسلام ليست إلا حالة خاصة في مجال هذا التلقى ، أحدثته نفس الآلة التاريخية التي حملت عرب القرن التاسع على تلقى أرسطو وأبقراط وجالينوس وإقليدس وديوفان وطلميوس ، وما أكثر ما ننسى أن العرب قبل محمد عاشوا سبعة قرون تحيط بهم من كل الجوانب شعوب كانت ، في قليل أو كثير ، مشبعة بالثقافة الهلينية ، وعاشت تحت الإدارة الرومانية ، لا في سوريا فحسب ، حيث هبت فوق العرب عاصفة القديم الكبرى ، وإنما في فارس وبكرانيا والهند : وعلى النقيض من ذلك ، ظلت أوروبا في جانبها الشمالي متحررة من التأثير الإغريقي الروماني ، واستطاعت أن تحتفظ لزم أطول بأصولها البدائية سالمة .

أطوار هذا التلقى تتشابه في البدء كثيراً ، والاختلاف الوحيد في تلك الفترة ، وهو مهم دون شك ، يتمثل في أن العرب تلقوا (القديم) في شكاه الإمبراطوري الروماني الشرقي ، وتلقاه الأوروبيون في صيغته الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأدى هذا - مثلاً - إلى أن العرب استطاعوا في سرعة فائقة أن يكون لهم أرسطو الخاص بهم ، وعلى النقيض

---

(١) الإضافة التي بين القوسين من عندي ، لتوافق الجملة وجهة النظر الإسلامية

(الترجم) .

فإن المسيحية التي جاورت الإسلام كانت للنسطورية ، ومسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وهما وجهان قد يمان للعقيدة المسيحية . وفي الأطوار التالية أخذ التلقى شيئاً فشيئاً ملامح أكثر تميزاً ، إلى أن ترقف في القرن الثالث عشر بين العرب ، فبجفت حضارتهم وتنجرت ، وقنعت بالقرآن ، وركنت إلى الصحراء ، ولأن الصحراء تطوق العالم الإسلامي من الشرق والجنوب كانت تدفع فوقه من حين لآخر بموجات من التمسك العنيف بالدين ، وكان البدو حملتها ، وآخر الموجات وصولاً ، وحدثت من قريب حركة الوهابيين في نجد ، وقد أطبقت بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبقيادة ابن سعود ، على الجزيرة العربية ، واستولت على مدينتي مكة والمدينة .

فكرتني إذن أنه عندما بدأ ما يدعى بالعصر الوسيط ، كانت الجرمانية والعربية جسمين تاريخيين متجانسين إلى حد بعيد ، فيما يشكل اللبنة الأولى لحياتهما ، وفيما بعد ، وشيئاً فشيئاً ، أخذتا يتمايزان تدريجياً إلى أن وصلتا في هذه القرون الأخيرة إلى تباين جذري . والرأي المعارض ، وهو الشائع دفع به جيل تلقائي بلا تفكير ، وهو شيء يحدث كثيراً في عالم المؤرخين ، لأنهم رسموا لتلك القرون صورة بالغة الخلف عما نجده الآن عند مجموعة هذه الشعوب أو تلك . ولكن ذلك بدوره ما كان ليوقع لوتحت تحليلاً عملياً إعادة بناء التركيب الأسامي للحياة الإنسانية في العصر الوسيط ، إذن لبدا لهم ساعتها إلى أي مدى كان حاسماً ، في تكيف ماركس الإنسان وفي الحياة ، واقع أن شعوباً ذات ثقافة بدائية واحدة ، جاءت لتعيش في حيز اجتماعي ، حيز الإمبراطورية الرومانية ، حيث سبقت إلى الوجود حضارة وصلت إلى آخر مراحل نموها ، وبالتالي أوج تعقدتها وصقلها . ولحسن الحظ فإن هذه الحضارة توقفت نموها ، وشاخت ، وبلغت قادراً كبيراً من الانحطاط ، وبالتالي فقدت بالضرورة جانباً كبيراً من ثرائها الوافر ، وعادت اختصاراً لما كانت عليه في سابق أيامها . تذكر مثلاً ، في الخيال الثقافي ، الثقافة

الإغريقية الرومانية قريباً من القرن الخامس الميلادي ، لقد انحصرت وتركزت  
الملاحظات والموسوعات والمعاجم ، ولولم تكن هكذا لأصبح الصدام ،  
ويدعوه اليوم علماء الأجناس البشرية من الأنجلوساكسون الاصطدام  
الثقافي ، مفرطاً وعنيفاً ومختلف النتائج إلى حد بعيد ، ولضاعت الشعوب  
الجديدة كما لو كانت في غابة مرعبة من فيض الحياة الكلاسيكية . ولحسن  
الحظ ، وأعيد القول ، فإن هذه تعرضت للاختصار ، على نحو ما في طبقات  
الدلفين ، سواء أكان الدلفين عربياً أم جرمانياً (١) :

ونصل الآن إلى الملاحظة المشهورة حقاً ، ومعها نضع يدينا على مفتاح  
ذكاء العصر الوسيط ؛ ولم نر أبداً من عبر عنه . فالثقافة الكلاسيكية حتى  
وهي متقلصة ، وجفت أنسجتها ، كانت ترمز إلى مجموعة من أشكال حياة  
بالغة التعقيد إلى حد بعيد ؛ وأرق من الحياة التقايدية لتلك الشعوب المغيرة ،  
ولم يستطع الجرمانى ولا العربى فهمها جيداً ، لا لأنها معقدة وريقة  
فحسب ، ولكن لأنها انحدرت من أصول بعيدة عنهما ، أوحى بها  
تجارب تاريخية تختلف عن تجاربهما ، ولكنها من جانب آخر فرضت عليهما  
في بعض المجالات لأسباب عملية ، كما في الإدارة ، ودائماً بسبب مكانتها  
الفريدة . ولست أعرف ، أخيراً ، ما إذا كان يمكن القول بأن الإمبراطورية  
الرومانية كانت الحدث الأعظم أهمية في التاريخ حتى وقتنا هذا ، ولكنى  
لا أرى مبالغة القول بأن ما كان لها من مكانة ، وقوة شديدة التماسك لما يزل  
يلقى بثقاه علينا . ويمكن القول أن هذا أدى إلى ازدواجية درامية في أسس  
حياة العصر الوسيط نفسها ، عندما التقى الجرمانى والعربى في مجموعتين  
مختلفتين من الأشكال أمامه ، وكل واحدة منهما مثل مجرى ، تغرى الإنسان

---

١ - للدلفين لقب كان يطلق في فرنسا الملكية على ولي العهد منذ عام ١٤٣٩ م ، ثم  
أصبح يطلق على الطبقات الممتازة للأدب الكلاسيكى اللاتينى التى تطبع ليستخدمها الدلفين ،  
ابن لويس الرابع عشر ، وكانت تحذف منها النصوص ذات المجون الشبقى ، وتطلق  
الآن سخريه على الطبقات التى تخضع لرقابة الكنيسة أو غيرها .



بأن يتدفق معها عبر سلوكه الحياتي . والأنماط الموروثة من ماضيه تكشف ، على الأقل ، عن حياته اليومية ، ولكن هذه لا تترك الأثر بأنها «حياة» ، لأنها عادة خالصة ، وعندما نخرج عن عاداتنا التي اكتسبناها عن طريق العادة الخالصة فحسب ، ولا نقف عندها آلياً ؛ نصنع قضية «الحياة» ، وعندما نبحث عن التقيض المقابل «للحياة المعتادة» نبحث عن «الحياة كما يجب» ، وأشكال الحياة الإغريقية الرومانية تبدو ، لمكانتها ، أمام الشعوب الجديدة في ملامح «الحياة كما يجب» في مواجهة «الحياة كما هي عادة» ، ولهذا كانت الحياة في العصر الوسيط بالغة الإثارة . إنها حياة من طابقين دون انسجام كاف بينهما ، فهناك في أسفل طابق العادات القديمة المتأصلة ، وفوقها طابق السلوك النموذجي ، ذلك يعاش حقيقة ، وتلقائياً ، وهذا سلسلة اندفاعات مقلدة ، والعلاقة بين الإنسان وما يصنع ليست في التلقائية ، ولا في هذا الإحساس الصادق ، وإنما في الرغبة أن يكون غير ما هو

كائن . فالجرمان والعرب عكفوا على تقليد الإغريق والرومان ، في محاولة لصياغة أشكال حياتهم في الإدارة والقانون ومفهوم الدولة والعلم والشعر (١) . والدين نفسه أخذ عندهم جوانب مثيرة من الانسجام مع البيئة . فالإسلام امتداد للمسيحية ، بطريقة مختصرة للدلفين الذي يعيش في الصحراء ، ومسيحية الجرمانى أيضاً ليست إلا تقليداً لمسيحية آباء الكنيسة .

هذا التركيب الأساسي لحياة العصر الوسيط كان وراء حدث بالغ للإثارة والروعة ، وراء المدرسين ، مثلاً ؛ أعنى وراء الفلسفة التي غرستها الجامعات الغربية بقوة خلال ذلك العصر ، وهو حدث مازال ينتظر من يجلو غوامضه ، لأن أحداً لم ينظر إليه حتى الآن في ضوء «فلسفات

---

١ - لا أود بهذا أن أقول أن كليهما متساويان في الإفادة من هذه الفروع ، فعلى حين أن العرب - مثلاً - تشرّبوا العلوم الهلينية في الحال ، ظلوا جامدين في مواجهة الشعر القديم ، وكان الأوربيون على التقيض منهم تماماً .

مدرسية ، أخرى كثيرة . وما شهر بهذا الاسم ليس إلا حالة خاصة في طبقة تاريخية واحدة ، من المدرسية في طابعها الشامل ، وأثمرت ولا تزال تعطى ثمارها في كثير من العصور والأمكنة . ونطاق المدرسية على كل فلسفة متلقاة ، في مواجهة كل فلسفة مبدعة ، وأطلق لفظ « متلقاة » على كل فلسفة تنتمي إلى محيط ثقافي مختلف ، ويبتعد في الحيز الاجتماعي أو الزمن التاريخي ، عن الفلسفة التي يتعلمها أو يطبقها .

والذين يجهلون من أية مادة تتكون الآراء يعتقدون في سهولة تسربها من شعب إلى آخر ، ومن عصر سابق إلى عصر لاحق ، يجهلون أن ما هو أطول حياة في هذه الآراء ليس ما تفكر فيه بوضوح ، ثم يجيء ثمرة الإحساس بالتفكير فيه ، وإنما الغاية التي تفكر في ظلها ، ومما يبقى مما ذكرنا عند استخدامها . وهذه العناصر غير المرئية ، والخفية ، هي أحياناً تسبج شعب تكون خلال آلاف الأعوام . وهذا العمق النابض بالآراء ، والذي يبقى عليها فياضة ومغذية ، لا يمكن أن ينتقل ، كأي شيء هو حياة إنسانية حقيقية . إن الحياة لا تنتقل أبداً ، إنما قدر تاريخي !

الانتقال الكامل للآراء نخادع إذن ، إنما ينتقل « الساق » ، و« الزهر » بحسب ، وربما متديلاً من الأغصان ، ثمرة تلك السنة ، وهو الشيء النافع منها في تلك اللحظة مباشرة . ولكن في تربة المصدر ما هو حي من الآراء ، يبقى جذرها ، والنبت الإنساني أقل قابلية للانتقال من الأشجار بكثير ، لأنه تحديد مرعب ، ولكنه حتمي ومأسوي !

والادعاء بأن أولئك الرهبان من ذوى الرؤوس الخليفة ، كانوا قادرين على إدراك المفاهيم الإغريقية ، كفكرة الوجود مثلاً ، جهل بالبعد المأسوي الذي يصحب الحدث التاريخي كالحيط الأحمر يمتد مع كل حبال البحرية البريطانية . وعندما نتلقى فلسفة بعيدة عنا ، فإن الجهد العقلي يستغل قيادته ويعمل ، لا لكي يفهم المشكلات ، والأشياء كما هي ، وإنما لكي يصل

لفهم ما فكر فيه آخرون حولها ، وعبروا عنه في تعريفات معينة . والتعريف ليس كلمة من اللغة ، وإنما رمز مصطنع ، ولهذا لا يفهم دون زيادة . وقد وضع بمقتضى تحديد ما ، ويجب أن نصل إليه وفي ذهننا هذا ، وهو بدوره مكون من ألفاظ ، ومن هنا فإن « المدرسية » كلها ليست إلا تجريداً للمعرفة لتصبح مجرد مصطلح (١).

ولم يكن أوائل « المدرسين » رهبان الغرب ، وإنما هرب المشرق ، فقد تعلم توماس الإكويني على أرسطو عن طريق ابن سينا وابن رشد ، وفضلاً عن ذلك فإن ملامح المدرسية أشد وضوحاً في الحضارة الإسلامية منها عند الشعوب الأوربية الوسيطة . وهذه الشعوب ، حتى وهي في دور المراهقة ، كانت تملك منذ زمن مبكر جداً ، ربما بفضل تركيبها الجرمانى ، أساليباً خالفاً لم يكن عند العرب أبداً ، ولهذا تجمد هؤلاء في اللحظة التي توقفوا فيها عن التلقى . وما يهمنا هنا إبراز الطابع المدرسى المشترك بين الحضارتين ، والذي يعود إلى التكوين المزدوج ، غير الطبيعى ؛ للحياة الإنسانية خلال العصر الوسيط ، ليس من الختم ، إذن ، أن نبحث عن سبب هذا الطابع في نزوعات سلافية مزعومة ، لأن « النوع » فى إحدى المجموعتين من الشعوب ، يختلف عنه فى المجموعة الأخرى ، ولكن كليهما خضع لضغط الظروف الأساسية نفسها : ظروف الحياة فوق تربة تحتلها ثقافة عظيمة ، وغربية عليه .

هذا الرأى عن الحياة فى العصور الوسطى هو ، لأكثر ولا أقل ، ما يجب أن يكون عليه أى رأى ، أى مشروع مربعات هائلة ، علينا أن نخلط فوقها واقع الحياة العربية الأندلسية ، وليست إلا كتاب الحب هذا ، وقد نسجته يراع ابن حزم . لأن الكتب ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، أعمال الرجال ،

١ - أستخدم هنا فقرات من كتاب « فكرة المبدأ عند ليبنتز وتطور نظرية الاستدلال » ومن ثم فإن « الإنسانية » عدوة « المدرسية » لم تكن بدورها إلا مدرسية ، ذات شعار مختلف ، ولكن النتائج متشابهة ، ولا تزال تلقى بثقلها على العقل الأوروبى .

وليست زوائده نباتية في الأشجار ، أو رواسب جوية ؛ وقد وقف الكتاب على الحب ، وفي منهج حديث ، على نحو ما أدعو وأصر عليه من زمن طويل ، وأول ما يتطلبه الكمال أمام نص أن تضع نفسك في موقف واضح من الشيء الذي يتحدث عنه . من الضروري أن تنتهي من هذا التحديد اللغوي الجرفي الخالص ، وأعتقد أنه أدى مهمته في ربط نص بآخر ، وهكذا إلى ثم ما لا نهاية ، ونحن نطلب تحديداً لغوياً عملياً ، ومن ثم يجب أن نبدأ ، أمام هذا الكتاب الحقيق ، وقد شغل بالمهمة الإنسانية العظمى ، التي تسمى الحب ، بأن نوضح قليلاً ماهية هذا الشيء . ولكن ذلك مستحيل الآن ، وهنا ، لأنه يحملنا بعيداً فحسب ، وليس من المناسب كتابة « رسالة » أخرى عن الموضوع الذي تعمق فيه القرطبي الصالح ، بل لأن كثيرين من حولنا الآن مقتنعون تماماً بأن العالم خلق لصالح الراهبات ، والحديث عن الحب حرام Tabu ، كما لو كان شيئاً شاذاً ، مرضياً تفجر في هذا العالم ، وهؤلاء الناس يزعمون السيطرة عليه لصالحهم ، ووفق طموحهم .

أول فصول أحسست به ، وأنا أطل بين صفحات « طوق الحمامة » ، تقصي ما إذا كان الحب عند العرب نفس الحب الذي بيننا . والظن بأن ظاهرة كالحب ، موهبة في الإنسانية ، وجدت دائماً ، وتوجد إلى الأبد ، على صورة مماثلة ، خطأ فادح ، كالاعتقاد بأن الإنسان ، مثل المعدن والنبات والحيوان ، له طبيعة ثابتة ودائمة ، وجهل بأن كل شيء فيه تاريخي . نعم ، كل شيء فيه ، حتى ما ينتمي منه فعلاً للطبيعة ، كما هو الحال فيما ندعوه غرائز .

وليس ثمة شك أنه يوجد في الإنسان - وشكراً لله ! - مجموعة باقية من الغرائز ، بينها هذه الجاذبية الجنسية المثيرة بين شخص وآخر . ومن الواضح أن ذلك موجود دائماً ، ولكن من الضروري أن نضع في حسابنا أن بقية الغرائز حتى ولو كانت فعالة في الإنسان ، لا تؤثر ولا تعمل منفصلة أبداً . وحتى غريزة « حفظ النوع » ، وهي الأقوى بين كل الغرائز ، تبدو متداخلة مع أشد المواضع غموضاً وإنسانية في نوعيتها ، كالشرف والإيمان بعقيدة

دينية والياض ، وتستطيع هذه أن توقف عمالها ، وهذا التوافق بين ما هو  
طبيعي وما هو ثقافي يجعل الغريزة متناقضة ، ويحولها إلى عظمة تاريخية ،  
تولد يوماً لتختفي في يوم آخر ، وبينهما تعاني من أشد التغييرات عمقا .  
ولسوء الحظ- فإن فهم هذه الحقيقة مضطرب ، ولأنها أساسية يجب  
أن تكون متألفة ، وقد جرت العادة ، معيبة ومتأصلة ، أن نطلق كلمة  
الحب وحدها على أشياء بالغة التباين ، وهو نفس الخطأ حين نطلق كلمة  
شعر فحسب على ما أبدع هوميروس ، وما أنشد فرلين ، على حين أننا ، في  
الحقيقة ، بصدد اهتمامات لا تكاد تتسارى ، وفي الحالة التي نحن  
بصددنا نجد الموقف اللغوي تعسفاً على وجه خاص ؛ لأن كلمة حب amor  
تطلق في اللغات الرومانشية romances على هذه المجموعة من الشعراء ،  
وهي كلمة ، بالنسبة لنا غامضة إلى حد بعيد ، لأنها تنحدر عن أصل ميت  
لا معنى له ، أخذته لغاتنا من اللاتينية ، ولكن الكلمة ليست لاتينية ،  
لأن الرومان تلقوها بدورهم من لغة الإيتروسك Etrusco (١) ، وهي  
اليوم لغة مجهولة وغامضة . وهذا الواقع اللغوي يبيع جداً بنفسه . ماذا  
يعني أن يطلق الرومان على حقيقة بالغة الشفافية ، وإنسانية عالمياً ، فيما يبدو ،  
مثل التور العاطفي ، كلمة ذات أصل أجنبي ؟ . هل يعني هذا أن الرومان  
قبل أن يحضروهم الإيتروسك لم يكونوا يعرفون هـلما الشيء الذي كان  
هؤلاء يطلقون لفظ «حب» ، ومن ثم كان هذا بالنسبة لهم نظاماً جديداً ،  
شيثاً يشبه تغيير النسق في الحياة الخاصة ؟ لو أن شيئاً حدث شبيهاً بهذا ،  
يصبح دليلاً على أن هذا الحديث لغوي . وحينئذ يسأل كل واحد منا نفسه ،  
أي شيطان هذا الذي اخترعه الإيتروسك ، وانكب عليه وصقله أوائل  
الذين تلقوه عنهم ، ولأسباب ترتبط بمعاني الكلمات ، وتخفي علينا ،  
فإن لفظ «حب» نطاق على هذا الهدف السامي ، والتاريخ ، إذا عرفنا  
كيف ننظر فيه ، مليء بأبواب مسحورة مثل هذه . وما يعرف من حياة  
الإستروك يوضح في كفاية أن «الحب» كان في حياة ذلك الشعب شيء

(١) الإيتروسك : شعب مجهول الأصل عاش في توسكانيا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

يختلف للغاية عما سوف ينتهى إليه بيننا ، وربما عندما نطلق لفظ «حب» على مشاعرنا الأكثر دفئاً وصفاء تجاه امرأة ، إنطلق عليها دون أن نعرف شيئاً قبيحاً . وكان شعب الإيتروسك واحداً من أشد الشعوب شهوانية على ظهر البسيطة ، وكانت شهوانيته مرعبة ، مغيظة ويائسة ، ولدى أفراده عبقرية أن يموتوا من شدة الشهوة .

في صفحة ١٥ من كتاب ابن حزم نقرأ هذه الأبيات (١) :

أودك وداً ليس فيه غضاضة      وبعض مودات الرجال مراب  
وأعجضتك النصيح الصريح وفي      الحشى لودك نقش ظاهر وكتاب  
فلو كان في روى هواك اقتلعته      ومزق بالكفين عنه إهاب  
ومالى غير الود منك إرادة      ولا في سواه إليك خطاب  
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى      هباء ، وسكان البلاد ذباب

والقارئ غير المستول ، وهو الأكثر شيوعاً ، ينزلق بعينه عبر هذه الأبيات ، ويعتقد أنها مفهومة ، لأنها لا تضم رموزاً رياضية مبهمه ، ولكن القارئ الجيد ينتهى من قراءتها ولديه انطباع ، يكاد يكون دائماً ، أنه لم يفهمها تماماً . والحقيقة أن هذه الأبيات لا يمكن أن تفهم بدقة ، لأننا لا نعرف ماذا يريد المؤلف بكلمة «حب» ، أو «ود» .

لا أظن أن فقه اللغة العربى أصبح على قدر من التقدم والدقة في دراسة معانى الألفاظ ، وأنا نستطيع معه أن نصل إلى تحديد ما كان يفهمه المجتمع الأندلسى من كلمة «حب» في القرن العاشر الميلادى ، عندما يسمع هذه الكلمة أو يقرأها ، لأنها ، وأعيد القول ، كانت تعنى شيئاً مختلفاً إلى حد بعيد . يكفى أن نلاحظ أن الشاعر يتوجه بهذه

(١) أرقام الصفحات في الأصل تشير إلى الترجمة الإسبانية ، أما هنا ، وفي المواضع التالية ، فقد جعلتها تعود إلى (ملوك الحمامة) في نصه العربى ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، القاهرة ١٩٧٥ .

الأبيات إلى رجل ، وطبعاً أعرف أنه يوجد بيننا أيضاً حالات من الشذوذ الجنسي ، حب الرجل لرجل ، ولكن المسلم به في أوربا أن كلمة « حب » تعني أولاً ، وبالتحديد ، شيئاً يودعه الرجل في المرأة ، وترسله المرأة إلى الرجل ، أما حب الرجل لرجل ، والمرأة لامرأة ، فلا نفهمه ، دون أن أزيد شيئاً . بل علينا أن نمارس عملية صعبة تقوم على تجريد الكلمة من معناها الأول ، وأن نحاول نخبط عشواء أن نلبسه معنى آخر مختلفاً ، لكي نتصور عشق الرجل لرجل . وقد أثبت غرسية غومت في مقدمته لهذا الكتاب أن الحب لا يبالي بالتباين الجنسي ، وذلك كاف لكي نتصور الحب العربي حقيقة شديدة الاختلاف عما يشرناه ، ونباشره ، معشر الغربيين . وأيضاً لا يمكن القول أنه يشبه الحب الذي وصفه أفلاطون ، لأن الحب عند أفلاطون لا يدبر ظهره للجنس ، ومعناه الأصلي عنده حب الرجل لرجل ، وهو - أي أفلاطون - على النقيض منا ، لا يفهم جيداً ما يمكن أن يكون حب رجل لامرأة .

لست أهداف من وراء كل هذا ، إلا أن أدفع بمزيد من الحيوية ، بأشد الطرق إيجازاً ، إلى الإحساس بأن موضوع الحب هذا خطير للغاية ، ولا يوجد حب طبيعي نضع في مواجهته ، كمتقابل له ، الغراميات الشاذة ، نعم ، يستطيع الذين يتخذون الرأي المقابل لهذا الحكم ، الزهو إلى حد كبير بعقائدهم الأكثر سمواً ، وبدل أن يحتمسوا في طبيعة مفترضة ؛ تنصح بحب تراه طبيعياً ، وترفض أنواعاً أخرى منه تراها شاذة ، أن يتحاشوا في حماسة عن ألوان معقولة منه ، وألوان أخرى غير صحيحة ، عما هو مستقيم وما هو غير أخلاقي ، والحب ، كما أُلحقت من قبل ، نظام وابتداع إنساني ، وليس ابن عم المضم أو زيادة الكلمة في المعادة .

هذا الكتاب ذو العنوان الجميل (١) يبدأ بأفكار فلسفية مختلفة عن الحب ، ذات طابع « مدرسي » خالص ، وكان يمكن أن يقال بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان ، في لاتينية هزيلة ، على لسان أي راهب في الغرب . ففي صفحة ٢١ نلتقي عنده بأفكار استخاصها مما قال أرسطو ، وفي صفحة ٢٢ نصطدم « بمدرسية » تقليدية متحذلقة ، وفي صفحة ٢٣ يحدد لنا أسباب الحب ؛ فياجأ إلى الجانب الآخر من المدرسية ، أعني الأفلاطونية . ومن المؤكد أن ابن حزم في هذه النقطة صوب فكر ابن داود ، وقد سبقه في محاولة وضع « نظرية الحب » ، ويتيح لنا هذا التصويب إدراك التقدم الذي أحرزته الأوساط العربية في معرفة أفلاطون ، على امتداد قرن ونصف من الأعوام . وفي الحق أن ابن داود ، ويدعي أنه أفلاطوني ، ارتضى في جد مضحك القولة الساخرة لتفسير الحب ، ووضعها أفلاطون على لسان أرسطوفان البالغ السخرية ، وطبقاً له : « أن الله ، جل ثناؤه ، خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع ، من النصف الذي معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس في ذلك حسب رقة طبائعهم » (٢) .

(١) فيما يرى غرسية غومث فإن كلمة « طوق » تعني عقد ، ولكن أليس من الأفضل أننا بصدد ما يدعى في الغرب ، منذ الإغريق ، « عنق Cuello الحمامة » ، وكان رمزا لثروة لا تنفد من الألوان ؟ ففي صفحة ١٠٩ أجد هذه الفقرة : « إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط ، وهذا أمر كان يطول جدا ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرا » .

(٢) آثرت أن أجيء بنص ابن داود كاملاً ، لتبدو فكرته ، أي فكرة أفلاطون ، أكثر وضوحاً ، وقد نسبها ابن داود إلى « بعض المتفلسفين » ، دون أن يذكر اسم أفلاطون صراحة . أنظر :

« كتاب الزهرة ، النصف الأول ، ص ١٥ ، الطبعة الأولى ، تحقيق لويس نيكول وإبراهيم طوقان ، بيروت ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ » .  
(المترجم)



وقد اتخذ ابن حزم الأندلسي من هذا الكلام «المدرسي» المطروق إطاراً فحسب ، عالج من خلاله موضوع العشق في دقة ، وهو في هذا ليس «مدرسياً» على الإطلاق : وتفيض كتابات ابن حزم بذكرياته الذاتية ، وذكرياته عن غيره ، يقصها بطريقة مباشرة دقيقة وقويماً ، ويحلل في مواطن أخرى ، واضحاً وفطناً ومدهشاً ، مواقف مختلفة تتصل بالحب . وليس مهماً أن أنقل هنا فقرات من النصوص التي سوف يجري بينها القارئ ، وأكتفي بأن أشير من بينها إلى عدد من الفقرات يبدو لي مفيداً أن أوصي بها : في صفحة ٧ مجموعة رقيقة من الأشياء التي تدل على أن اثنين في حالة عشق ، وفي ٧٩ نلتقي بأسباب تمكن الحب من النساء ، إنهن ، فيما يرى ابن حزم : «متفرغات البال» ، إلا من الحب ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتألف ووجوهه ، لا شأن لمن غيره ، ولا خلقن لسواه ، وفي صفحة ٤٤ حديث عن تفاوت رد الفعل عند ممارسة الحب ، وما يترتب على ذلك سلباً وإيجاباً ، وهي مشكلة حقيقية ، وشائعة بين الجنسين ، وتهم أطباء اليوم كثيراً . وفي صفحة ٤٧ إشارة إلى تأثير الحب الأول في الغراميات اللاحقة ، مما يعيد إلى الذاكرة ما ذكره ديسكارت Descartes (١) عن نفسه ، وكيف أنه أحب أول مرة حولاء ، فظل يشعر دائماً بالميل والاهتمام بكل النساء الحوليات ، وفي صفحة ٩٠ إحساس واضح بما للحب من تأثير نافذ على الكيان الإنساني لا يدانيه شيء . وتذكر معي في صفحة ٩١ أن الجلسة في الوصل قمة الحب - ويالها من حقيقة كبرى ! - وفي صفحة ٩٦ وصف رائع للقاء غير متوقع بين حبيبين ، يحكيه صاحبه وأعضاؤه تضحك كلها بهجة ، وفي صفحة ١٧٢ قصة البحار وآلته وسكينة ، والعائدات [ من الحج ] .

لا يمكن أن نستقصى أفكار ابن حزم ، وهو يعرض لنا ما كانت عليه ملامح الحب الأندلسي في أيامه ، ولا أن ندرك حقيقتها التاريخية ،

(١) فيلسوف ورياضي وعالم طبيعة فرنسي (١٥٩٦ - ١٦٥٠) (الترجم) .

ولا نستطيع أن نقارن بينها وبين الحب عند شعوب أخرى . إنما علينا أن نتمعن جيداً ما يقصه علينا ، وفيما يحدده لنا ، وفي الملامح المميزة لطريقة الحب تلك ، وصوف يبدو لنا للوهلة الأولى ، أنه لا يوجد خلاف ، وهو نفس ما يحدث لنا عند نقرأ الكتاب الوحيد ، الدقيق والحجة ، عن الحب عند شعب بدائي : « الحياة الجنسية عند البدائيين » ، لمؤلفه مالنوفسكى Malinowski (١) ، ونعرف منه أنه لا يكاد يوجد خلاف بيننا وبين « تروبرياند Trobriand » ، شعب بدائي للغاية يعيش في جزيرة غينيا الجديدة ، في الواجبات العاطفية ، أكثر من أنهم يجهلون ، مثل شعوب آسيا ، تأثير القبلة الحلو ، وعلى النقيض يستالمون عض الأهداب ، أمراً يبدو لنا غريباً وغير مألوف . وهذا الظاهر ، وهو ذاتي يمت إلى حد كبير ، يدفع إلى عقولنا بتحديد جوهرى ، في أن العواطف الإنسانية ثرية بقدر هائل لا يصدق ، في نباتها وفي حيوانها ، ولكن لا تستطيع وفقاً لطبيعتها أن تعبر عن نفسها ، وإنما تعتمد على الأعمال واللامح الجسدية ، ومجموع مفاتيح هذه الملامح الجسدية التي تجدها عواطفنا تحت تصرفها ، لتعبر بها عن نفسها ، محدود للغاية إذا قورن بالتنوع الوفير لأشكال الحياة في مشاعرنا . ومن هنا عليها مع الملمح نفسه أن تظهر حقائق حنوناً ، بليغة التباين ، رغم أن كل الغراميات إذا تأملناها من بعيد تبدو متشابهة .

أعمال قليلة ، كهذا الكتاب ، أتاحت لى متعة عظيمة ، ولقد اقتنحت صفحاته بمجهر أحاول ، مبتدئاً بما يقصه علينا وما يفسره لنا ، الوصول إلى صيغة مميزة لما كان عليه الحب عند هؤلاء العرب المصقولين في القرن العاشر الميلادى ، وما تعنى بالنسبة لنا ، وهو موضوع يحتاج إلى مزيد من الوقت ومن الفراغ ، لأنه يستطرد بنا إلى موضوعات تنتمى إلى عالم العلاقة بين الرجل والمرأة ، وعنهما ، ولو أنه يبدو أكذوبة ، كل شيء تقريباً فى انتظار من يدرسه أو يقول عنه شيئاً .

(١) عالم أجناس بريطانيا الجنسية ، بولندى الأصل (١٨٨٤-١٩٤٢) (المترجم)

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً بالغ الروعة للإهمال الذي تعانيه هذه النماذج الإنسانية من الحب ، يكفي أن نتوقف لحظة عند الكلمات الأخيرة للفترة السابقة : « ما يكون الحب اليوم بالنسبة لنا » . عن أي « يوم » يتحدثون هنا ؟ لأننا لا نستطيع أن نقول إن العشاق الأوربيين منذ خمسين عاماً وعشاق اليوم شيء واحد أو متطابق ، رغم أن المسرح واحد ، وأن البعد بين الاثنين قصير جداً ، ومع ذلك فإن مسافة الخلاف بين حب تلك الأيام وحب الأجيال الجديدة واسعة إلى حد بعيد .

لقد تسلطت الحروب والثورات على عقول الناس ، فلم يعيروا اهتمامهم الموضوع واضح ، وهو أن التغيير الأبعد غوراً في شكل الحب الأوربي ، منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، حدث في هذه المسافة القصيرة ، وفسدت خلالها ، في كثير من الحالات ، التقاليد العالمية المتنوعة ، وربما كان أبلغها فساداً ، ووقع صامتاً دون دوى ، وعلى نحو لم يحدث مع أي شيء آخر ، وبطريقة جذرية عنيفة ، ما حدث في أساليب الحب . ومنذ تلك الأيام أخذت نماذج الحب تتطور على نحو مستمر ودقيق ، كجنس أدبي ، وهو كذلك على نحو ما ، حتى بداية هذا القرن . ولهذا مرت العلاقة بين الرجل والمرأة بعصر من الاضطراب الحزيف ، وليس من موضوعنا هنا أن نتحقق فيها دراسين .

لكي نعرف جيداً ماهية الأشياء يجب أن نمشي معها على مهل وأن نضع بعضها في مواجهة البعض الآخر ، ومع المقابلة تتوهج خصائص كل واحدة . وهكذا من الأوفق لنا الآن أن نضع طرائق الحب التي اكتشفها ابن حزم ، والذي ندعوه بالحب الأندلسي ، في مواجهة حب البدو ، وينتشر بين القبائل التي تحتفظ اليوم بأصولها العربية في نقاء كامل ، وتعيش في الصحراوات العطشى لشرقي شبه الجزيرة العربية ، على ضفاف الخليج العربي : لقد نشر ديكسون H.R.P. Dickson في ١٩٤٩ م كتاباً مفصلاً وممتعاً عن الحياة بين هذه القبائل ، وقد ولد ديكسون في سورية ، وأرضيته بدوية تنتمي لهذه القبائل ، واعتبر كواحد من أبناء القبيلة الأقوى نفوذاً ، وهو يحدثنا كيف

أن هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، وعلى نحو ما كل شبه الجزيرة ، لا تعرف الحياة الزوجية . صحيح أن سهولة الطلاق لاتدع فراغاً يمكن لهذه أن تأوى إليه ، ومن جانب آخر تمضى المرأة محجبة ، وقد أخفت رأسها تماماً ، ولا يستطيع من يصنف نفسه حبيباً لها أن يعرف منها أكثر من مجرد رؤيتها على هذا النحو ، وإلا فسوف يرى نفسه مضطراً لأن يشك فيها ، فالمرأة إذن تدخل عالم الحب مثل كائن مجهول ، ولهذا لا مجال للدهشة إذا انطوت ليلة الزفاف على كفاح عنيف بين الزوج والزوجة ، عنف يبلغ حد أن تتعرض الزوجة غالباً لكسر واحد من أضلاعها أو أكثر .

كيف يمكن أن يكون الحب الذى يتحرك بين مثل هذه للعادات ؟ والملك الحالى للجانب الأكبر من الجزيرة العربية ، ابن سعود العظيم ، وهو مسلم متشدد ورئيس الوهابيين المتشددين ، قص على ديكسون أن عنده ، حتى وقت الحديث ، أكثر من أربع مئة امرأة ، لم ير وجه واحدة منهن . وبالنسبة لنا معشر الغربيين ليس سهلاً أبداً أن يكون حب بدون وجه ، لأن الوجه بالدقة هو المكان حيث يتدفق الحب الحقيقى ، ومن ثم ووجب أن يعنى كثيراً بظاهرة أن الوجه الأنثوى لايشير للشهوة فى الرجل ، على حين أن بقية جسمها كاه ، حتى اليدين ، يمثل دائماً إثارة خطيرة وسريعة . وربما كانت الشفاه تقوم بواجب يتجاوز حد الحنان ، ولكنها تقريباً تأتي فى المقام الثانى ، عندما تكون الشهوة قد اندفعت عبر مجالات عاطفية .

والقضية التاريخية الكبرى التى تتخذ من هذا الكتاب منطلقاً ، يجب أن يكون واجها مهاجمة القول بتأثير العرب فى شعر الغزل الأوروبى الوسيط بعامة ، وفى شعر وتقاليد التروبادور بخاصة ، وهى نظرية شائعة ، وموطن نقاش فى الوقت نفسه . وهذه القضية عش زناييز لم يحاول أحد حتى الآن أن ينظمه .

ففى نهاية القرن الحادى عشر ، ومطام القرن التالى ، بدأت فى فرنسا طريقة لإحساس الرجل بالمرأة ، ليس لها صلة مباشرة لا بالثقافة القديمة ،

ولا بقرون العصر الوسيط السابقة ، يسعد الرجل حين يهتبر المرأة شيئاً أسمى منه ، ويخضع لها خاشعاً ، وتقوم العلاقات العاطفية بين الجنسين على فكرة « الفتي » ، الذي يبدأ في الاحظة نفسها بإعلام المجتمع ، والمرأة مبيدة ، والرجل تابع لها ، والشهوة التي تتناثر هنا وهناك في أشعار الفزول ؛ تأخذ في أسلوب شعراء التروبادور بعامة طابعاً شاردناً فحسب ، وعلينا أن نؤكد ذلك إزاء إصرار بريفر Briffautl على التقاط النصوص الجريئة (١) . ومشاعر التروبادور نحو المرأة تتطلب البعد ، فيما يبدو من نصوصهم ، وتبدو الحبيبية بالضرورة نائية المقام ، ويتردد بكثرة أنها كالثريا بعدا ، وليست في متناول اليد ، وبالتالي ليست موطن مداعبة ، ليست شيئاً يداعب ويستمتع به ، وإنما شيء يبتعدون عنه في ألم ، ويشناقون إليه دائما . ومن ثم يزهر شعر التروبادور الأنيب والشكوى ، ويعرض الحب كالم لذيذ ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروي رودال Geoffroi Rudal في بساطة إن حبه « حب الأرض للقمر » ! .

ملاحظ حب التروبادور هذه لها خصائص أخرى كثيرة ، لا أستطيع أن أضيفها هنا ، وكانت سبباً في أن نبحث لها عن أصل في صورة الحب الذي أزدھر بين العرب قبل ابن حزم بقرن من الزمان ، ويطلقون عليه عادة « الحب البغدادي » . ولكن حب بغداد هذا ليس إلا واحداً من التأثيرات التي حدثت في جماعات كبيرة ، وأتخمت ثقافة على مائدة الأفلاطونية التي شاعت في ذلك القرن ، وبين هذه الجماعات تشكلت أسطورة قديمة تتحدث عن قبيلة بني عذرة ، وفيها يموت الرجال من الحب ، لعزوفهم عن التمتع بالمحبة . هل يمكن حقاً تفسير الحب عند التروبادور بما يقابله من أشكال الزهد المتطرفة ذات المحتوى العاطفي ؟ وهنا يحق لي أن أشكو من الطريقة التي عولجت بها كل القضايا التي

(١) Robert Briffaut, Les Troubadours et Le Sentiment romanesque , 1945 , pp. 92 - 94 .

تنصل بالشعر في القرون الثلاثة : الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر . فمن الواضح أنه قبل أن نقارن بين شعر الغزل الأوربى فى هذه القرون ، وبين نماذج منه عند الشعراء العرب ، من الأوفى أن نحدد فى دقة خصائص كل منهما ، ولو تحقق هذا لرأينا أن شعر الغزل الأوربى رغم أنه مشاعر تنأى عن « الحنين والشوق » ، إلا أنها لا تتطلب العزوف ، بل على النقيض ، ترغب فى كل شىء ، ولكن من بعيد : وهو ما يفسر لنا النصوص التى تنضح أدباً جنسياً ، والتى للتقطها بريفو ، ومن يدرى ربما كانت الشهوة الإنسانية الحقة ابنة التنائى ، ولا تنبثق أو تزدهر إلا مع بعد الغاية !

## مزاج ابن حزم

من خلال اللطوق

صورة له بقلمه

لست أعرف فقيهاً كابن حزم ترك الآخرين يندسون عيونهم وعقولهم في أعماقه ، لبروا على هدى من اعترافاته ، وفي ضوء ما على لهم من حياته كيف هو ومن يكون . ولقد حطم كل الحياء المصطنع ، وأتى على كل الأسوار العالية ، التي تعزل الفقه عن الحياة ، حين يقول الفقهاء للناس شيئاً ويصنعون شيئاً آخر ، أوحين يمسكون بخناق الناس تضييقاً ، جريماً وراء فهم قاصر ، أو نفاقاً للسلطان ، أو بحثاً وراء زائل من عرض الدنيا ، ويجعلون من سماحة الشريعة قيوداً ، ومن وعيها جهوداً ، وكان هذا هو الفارق الكبير بين ما يجري في الحياة الإسلامية واقعاً ، وما يكتبه الفقهاء في مؤلفاتهم تشريعاً ، أو يلقونه في حلقهم درساً ، أو يبشرون به بين الآخرين واعظين .

لقد تركنا ابن حزم نطل على حياته من خلال مؤلفاته كلها بعمامة ، وعرى نفسه في كتابين محددين بخاصة ، نخط أحدهما وهو في ريعان الشباب ، يفيض تحدياً ويلتهب حماسة ، ويعترض بكل ما أوتي من قوة أحداثاً كباراً تجرف في طريقها الخلافة ، نظاماً وأشخاصاً ، وكان يراها شرعة قائمة ، يلوذ بها الخائف ، ويستظل فيها المظلوم ، ومعها تقوم الدولة ، وتطمئن الجماعة ، وتتطور الحياة ، فدافع عنها ، عن الشرعية الدستورية في لغة السياسة الحديثة ، بكل قدرته ، وبما هو فوق طاقته ، ثم رآها تنهار ، وينهار معها المجتمع والدولة وكل القيم الجميلة ، فأشعل الحرب على كل أمير خائن ، وكل إفتية مرتش ، وكل شاعر منهحل ، ولم يلق السلاح إلا جديناً محمولاً على الأكتاف ، إلى رحاب الله الواسعة ، وكان هذا للكتاب هو : طوق الحمامة .

أما الكتاب الثاني فقد نخطه حين أدار ظهره لعالم الخديعة محوله ، وقد أثقل كاهله النضال على كل الجبهات ، ورأى القيم التي عاش لها وعليها تنهوى واحدة وراء أخرى ، فلم يستسلم لها ، وانسحب إلى قريته منت لشم ، من بادية لبلة ، وقنع بعلمه وكتبه وطلابه ، وكان بين ما نخطه منها ، في هذه الأيام ، كتابه : « الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس » ، وهو مجموعة رائعة من الاعترافات الذاتية ، نخطها ابن حزم وقد حنكته التجربة ، وصقلته الأحداث ، وصهرته المعاناة ، وهدهد الزمن من جموحه : ولإنها لمعة رائعة حقاً أن يقارن الإنسان بين تجارب وأفكار ابن حزم في « طوق الحمامة » ، ولما يتجاوز الثمانية أو العشرين من عمره ، وبين أفكاره شيخاً على أبواب السبعين ، ومنضع يدنا على الحقيقة بيضاء ناصعة : إن أفكار وآراء ابن حزم على امتداد نصف قرن من الزمان تقريباً ، رغم كل ألوان المعاناة ، لم تتغير شيئاً .

ليس من قصدي هنا الموازنة بين الكتابين ، ولا أنا بصدد دراسة الكتاب الثاني ، فإذ لك مكانه من فرصة قادمة إن شاء الله ؛ وإنما أحاول أن أعرض صورة لجانب من مزاج ابن حزم ، في زهوة شبابه ، كما رسمه لنا بقامه ، في كتابه « طوق الحمامة » .

• • •

لا تكاد تمضي خطوات مع ابن حزم في طوق الحمامة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكرياته ، عن نفسه وعن أصدقائه ، وآخرين مجهولين ، وكلهم من العشاق ، زفراتهم حارة ، وأحاسيسهم صادقة ، يخلطون المداد بالدمع أو الريق ، ويستخدمون في التراسل الحمام والعيون والرسل ، ويعانون من الوشاة ، ويموتون من الحب . وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم ، والشخصيات العامة في قرطبة ، وبالإشارات التاريخية ، والأحداث الهامة ، والحفلات الخاصة ، وتخطيط العاصمة ومعمارها ، ومساكن آل حزم ومستواها ؛ وكلها تتحرك نابضة



بالحياة ، وتمضى متماسكة مثل عنقيد العنب ، وهو قبل ذلك كله سيرة ذاتية للمؤلف ، خطها بقلمه ، واعترافات مخلصه التي بها في جرأة وصدق غير معهودين في الفكر العربي على أيامه وما بعدها إلى أيامنا .

هل تصلح اعترافات ابن حزم وثيقة لتصوير ما كان عليه مزاجه ؟ . لا يمكن القول بداهة أن ابن حزم حدثنا عن كل شيء في حياته ، لأن هناك منطقة في حياة الإنسان تظل مرآة مكتوماً إلى الأبد ، لا تتجاوز طيات ضميره ، ويحملها معه إلى القبر ، نجد ذلك عند ابن حزم ، وعند غيره ، وكل ما هناك أنها تضيق عند البعض ضيقاً كبيراً ، فلا تمس إلا أشياء محدودة مغرقة في الخصوصية ، وتتسع عند آخرين حتى تشمل كل شيء في حياتهم ، ومن جانب آخر لم يكن قصد ابن حزم بكتاب «طوق الحمامة» أن يكتب سيرة حياته ، وإنما عرض لجوانب منها تتصل بموضوع الكتاب . والواقع أن أباً من أشد خصومه ، وفي أعنف المارك الآخاضها ، لم يجرؤ على تكذيبه ، وواقع حاله ، مؤرخاً وفتياً ، يدعم صدقه فيما يقول ، وتاريخ حياته شاهد على ما حدث به عن نفسه . ولم يكره ابن حزم في حياته شيئاً كما كره الكذب والكذابين ، وأدان هذه الخصلة الذميمة بأعنف ما يملك من وسائل التعبير .

يقول عن نفسه : « وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيماً ، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل ، وأخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشي من أعلامه يكذب ، فهو عندي ماح لكل محاسنه ، ومعف على جميع خصاله ، ومذهب كل مافيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلاً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به ، والتوبة منه ، حاشي الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانته حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرني من رأى ، كذاباً ترك للكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت بقطعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا للقاصد إلى مجانبته ، والمتعرض لتاركه ، »

وهو يرتفع بالكذب إلى مرتبة للكفر ، بل إن شئت يرى الكفر شعبه من الكذب ، لأنه إخبار عن الله بغير ما هو عليه ، ويورد ، هل غير حادثه ، الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، الدالة على فضل الصدق وبشاعة الكذب ، ويأتي بشواهد تاريخية ، ويعدد أفراداً شهروا بالكذب على أئمة . وبرى الراشى والناقل والنمام بشر جميع الناس ، وإن النعيمة لطبع يدل على نين الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، وخبث النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب . والنعيمة فرع من فروع الكذب ، ويؤنوع من أنواعه ، وكل نمام كذاب . وهو أصل كل فاحشة ، وجالب كل سوء ، ولا يقف ابن حزم بدوره عند الأفراد ، وإنما يتجاوزهم ، في نظرة متقدمة ، ليدرك دوره في تدمير حياة الأمم والجماعات : « وما رأيت أخرى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا صفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النمام والكذب » .

ويفرق النام بين الناصح والنمام ، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر ، متعاونتان في الباطن ، أحدهما داء والأخرى دواء ، والثاقب القربحة لا يخفى عليه أمرهما . فليس ناقلاً من نيه غافلاً ، أو نصيح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكى عن فاسق ، أو حدث عن عدو ، مالم يكن يكذب أو أو يعتمد للضغائن : « لكن الناقل من كان تنقبله غير موصى في الدبابة ، ونوى به النشيت بين الأولياء ، والضريب بين الإخوان ، والتحريرش والتوبيش والترقيش » .

وهو رجل مجدد ، يكره التقليد ، ويعاف أن يسير في طريق سار فيه الآخرون ، ومن هنا كانت صرخته في بداية الكتاب : « دعني من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سواء ، ولا أتحملي بحلى مستعار » .

وكان إحساس ابن حزم بطبقته واضحاً ، إذ تحدث عن أبيه ذكر : « أيام وزارة أبي ، أو إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ، » وأيام

دولتنا وامتداد ظلنا . وعندما يعرض لواحد من أبناء الخلفاء بإحقتها بقوله وهو صادق فيما يقول ، وكان لي صديقا ، وعندما يتحدث عن أبي عامر ، حفيد المنصور بن أبي عامر ، يقول : إن دارهم ملاصقة لدارنا ! ولأنه كان من أبناء الصفوة لم يهتم أبداً بالطبقة الدنيا في قرطبة ، ولم يلق بالا إلى حياة المستعربين أو المولدين ، أو الطبقات الشعبية باختصار ، ولم تنسرب إلى كتابه . طرق الحمامة ، لفظة رومانسية واحدة . والمرّة الوحيدة التي عرض فيها لواحد من غير طبقتة كانت في نهاية الكتاب ، في الخاتمة منه ، حين احتاج للمثل يضربه في الصبر على المكاره ، وتحمل شظف العيش ، فذكر أن ميسورا البناء جارهم في قرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين في حمارة القبط ، ويكتفى بما في غذائه من رطوبة . ومع ذلك فالبناء ، كبقية الحرفيين في حاصمة الخلافة ، يقف على أكتاف الطبقة الدنيا ، ونحت أقدام الطبقة الوسطى ، يهرب من الأولى ، وتصدده الثانية ، فلا ينسب واقعاً في أي منهما .

وكان ابن حزم حفيهاً بالصدقة ، يرى فيها السند عند الشدة ، ورواه للروح لحظة الهجعة ، أصدقاؤه لدائه ، في عمره ومن طبقتة ، أبناء كبار الموظفين والبيوتات العريقة ؛ ومرت على قلبه ألوان منهم : هناك من عرفهم ، أو عرفوه ، شهرة وتراسلا ، فلما التقيا تأكدت بينهم المودة واتصلت وتمادت ، ومن كان له على ود أكيد ، ونخطاب كثير ، وما تراءى ، ثم منح الله له لقاءه ، فما هي إلا أيام قليلة حتى وقعت المنافرة عظيمة ، والوحشة شديدة ومتصلة . ومنها ما بدأ منافرة ووحشة وانتهى صداقة وودا ، كالذي جرى بينه وبين أبي عامر ، حفيد المنصور بن أبي عامر ، وكانت الكراهية شديدة بينهما في البدء ، ولم ير أحدهما الآخر ، وكان أصل ذلك تنقيلاً يحمل إليه حتى ، وإلى عنده ، ويؤكد انحراف بين أبويننا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا ، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لي أود الناس ، وصرت له كذلك ، إلى أن حال بيننا الموت .

ولم يكن أصدقاؤه من معدن واحد ، في فترة قلقة سياسياً واجتماعياً ،  
تهبط بالمرء في لحظات من العرش إلى اللحد ، وترتفع به من عامة الناس إلى  
قمة المجد ، فمنهم من تغير مع الدنيا ، أقبلوا عليه حين كانت منه مقبلة ،  
وأعرضوا عنه حين أدارت له ظهرها ، لقد اتصل به محمد بن وليد ،  
وانقطع إليه حين كان أبوه وزيراً ، فلما اقتحم البربر قرطبة ، وتغيرت  
الأحوال ، خرج محمد بن وليد إلى بعض النواحي ، واتصل بصاحبها ،  
وعرض جأه ، وحدثت له وجاهة ، وحالة حسنة ، وحل ابن حزم تلك  
الناحية في رحلة له ، فلم يوفه حقة ، وثقل عليه مكانه ، وأساء معاملته  
وصحبه ، وكلفه حاجة فلم يقيم فيها ولا قعد ، واشتغل عنها بما ليس  
في مثله يشغل ، ومن الوزراء من عرض جأه فأمسك عن ابن حزم ،  
فلما ذهبت أيامه ، وانقضت دولته ، عاد يبدى له من المودة والأخوة  
غير قليل .

وكان يرغب في أن يكون أصدقاؤه معه ، إلى جواره ، في أي  
المواقف يختار ، وعتب على أبي السري عمار بن زياد صديقه ، لأنه أكثر  
من عدله في نحو نجاه ، وأعان عليه بعض من لامه في ذلك الوجه ، ويعقب  
ابن حزم على ذلك الموقف : « وكنت أظن أنه سيكون معي ، غطئاً أو مصيباً ،  
لو كبد صدقي ، وصحيح أخوتي به » ، ولقد تمسك بالصدقة رغم كل  
اللهزات التي تعرض لها ، والتي جعلت جانباً من الذين أحاطوا به ينفذون من  
حواله ، نجاة بأنفسهم أو تقية أو بحثاً عن الجاه والمغانم ، وكان يأخذ من أصدقاؤه  
ما ظهر له من أخلاقهم ، فلا يلتبس لهم عيباً لا يراه ، ولا يؤاخذهم بتقصية  
لا تمسه ، ومحسن الرأي فيهم دائماً ، متمثلاً بقول عمر رضي الله : « ضع  
أمر أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك على ما يغلبك عليه » . ويبقى على أسرارهم  
معه ، حتى ولو جاءت القطيعة ، وسقطت المثونة ، وأفشى صاحبه بما يعرف  
عن أسرار عنه .

كان أبو بكر محمد بن إسحاق أظهر أصدقاء ابن حزم ، ويردد في

صفحات الطوق كثيرا، ويروى عنه ابن حزم عدداً من الأحاديث والأقاصيص،  
ويدعوه دائماً : « صاحبي » ، وكان أبوه فيما يبدو ، مثل والده ابن حزم ،  
من وزراء المنصور ، ولا نجد له في كتب التراجم ، التي بين أيدينا ، غير  
سطين نخصهما به الضبي في كتابه « البغية » ، وإليه توجه ابن حزم برسائله :  
« فضائل أهل الأندلس » ، وفيها يناديه : « أما بعد ، يا أخي أبا بكر ،  
سلام عليك سلام أخ مشوق طالمت بينك وبينه الأميال والفراسخ ، وكثرت  
الأيام والليالي ، ثم لقيتك في حال سفر ونقاة ، ووادك في نلال جولة ورحلة ،  
فلم يقض من مجاورتك أرباباً ، ولا باغ في محاورتك طلباً . . » وقد صحب  
ابن حزم في هجرته من قرطبة مضطهداً ملاحقاً ، حينما اقتحم البربر العاصمة  
ونهبوها ، ومعهما صديق ثالث لهما ، أبو عامر الذي أشرنا إليه من قبل ، وكان  
ثرياً وجيهاً ، شريفاً ونبيلاً ، تضرب به قرطبة المثل في الملاحة فيقال : « أجل  
من وجه أبي عامر » . ويقص علينا ابن حزم في الطوق شهيداً إنسانياً مؤسباً  
وموثراً : لقد فر الثلاثة بحياتهم وحررتهم من قرطبة ، ثم استقر بهم المقام  
في مالقة ، وفي هذه المدينة آثر ابن أبي عامر أن يرحل إلى شرق الأندلس ،  
وتخلف أصحابه فيها يدبران أمرهما ، ولحظة الفراق وقفوا على شاطئ البحر  
الأبيض يلوحان له مودعين ، وفي أعماق كل منهما ، والحوادث الهوج  
تعصف بالأندلس ، أنهما لن يرياها ثانية ، فجعل أبو بكر يبكي لحظة وداعه  
وهم وقوف على ساحل البحر ، ويردد بيت أبي عطاء السندي متمثلاً :

ألا إن حيناً لم تجد يوم واسط      عليك بباقي دمعها لجمود

وجعل ابن حزم يكثر التفجع والأسى ، وعينه لا تساعده ، فأجاب  
أبا بكر ببيت له ارتجله <sup>ج</sup>

وإن أمراً لم يفن حسن اصطباره <sup>ج</sup>      عليك وقد فارقتك لجايده

وكان ابن حزم شحيح الدمع ، ويعمل ذلك بأنه أصيب بنفقان في القلب ،  
فأدمن على للسكندر ، فإذا عرضت له المصيبة الفادحة تفطر قلبه ، وفاض

بغصة أمر من العلقم ، تحول بينه وبين توفية الكلام حق مخارجه ، وتكاد تشوقه نفسه أحياناً ، ولما سكن عينه لا تستجيب له ألبته إلا في الندرة ، بالشيء اليسير من الدمع :

وابن حزم رقيق الإحساس ، سريع التأثر ، بهوى الشكل الجميل ، أو الصورة الحسنة فيما يقول ، ويعي جيداً ما يحدثه في الأرواح من هزة ، وما يثيره في النفوس من رجة ، لأن « النفس الحسنة تواع بكل شيء حسن » ، ويرى في إثارة الجمال سلطاناً لا يقاوم ، والقرآن الكريم محدثنا عن افتتان المصريين بالجمال الذي كان عليه يوسف ، وما أحدثه في أعماقهن من أثر. لقد راودته امرأة عزيز مصر ، « التي هوى في بيتها عن نفسه ، وغاقت الأبواب وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله إنه ربي ، أحسن مثواي » ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، وشاع خبرهما ، وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت إليهن ، وأعدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت أخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقان : حاش لله ، ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم .

ولقد عاش ابن حزم في بيئة عامرة بالصبايا الجميلات ، وأحب في سن مبكرة للغاية ، صبا قلبه ولما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وكان في حبه غربياً عصرياً للغاية ، يتميز عن الروح الشرقي والعربي تماماً ، فلا يؤمن بالحب مع النظرة الأولى ، ويعجب ممن يدعى أنه يحب من نظرة واحدة فقط ، ولا يكاد يصدق ، ويجعل مثل هذا الحب ضرباً من الشهوة ، لا ينفذ إلى حجاب القلب ، ولا يتمكن من صميم الفؤاد ، فالشهوة تسقط على المرء مع أول نظرة ، والحب يحتاج إلى زمن ومعاناة وفهم متبادل ، ويقول عن نفسه معترفاً : « ما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل » : فالشهوة تتعدد باختلاف ما تقع عليه العين من أشكال الجمال ، والحب

متوحد دائماً ، فإذا رأيت من يحب اثنين في الوقت الواحد ، فأعلم أنها الشهوة ، تسمى على المحازحياً .

والفرقة بين الحب والشهوة نظرة عصرية للغاية ، وما زال في ذهني صور من أيامنا الأولى في إسبانيا ، عرب وشرقيون ، نطل على عالم جديد لم تكن لنا به صلة من قبل ، اللقاء فيه سهل ، والاختلاط متاح ، والحلوة ممكنة ، وإذا بالواحد منا يقول لأول فتاة جميلة يلقاها : إنني أحبك . وتنظر إليه في دهشة : كيف وما التقينا إلا منذ ساعات ١٩ تقصيد تشبيني ؟ ، ذلك شيء مختلف . ولم نكن قد قرأنا ابن حزم بعد ، لأن أحداً لم يهدنا إليه في دراستنا ، لم يشر به أحد علينا ولو كمصدر نقرأه أو نعود إليه في أبحاثنا ، ربما لأننا مع التخلف نراه كتاباً لا يصح أن يقرأ ، ولأن أحداً لم يعرفني به قبل أن أذهب إلى إسبانيا دارساً ، لم أكن أعرف أن ما قالته لي أول فتاة إسبانية عرفتها ، قاله ابن حزم قبلها بما يزيد عن تسع مائة عام .

وما من ضرورة تدعو إلى أن يهرب المحب بأشواقه ، نخوف أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، يفر منها ويتفادى ، وليس هذا بصحيح ، فبحسب المسلم أن يعرف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ، وبحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن ، وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبيها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخلقته ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة . ولم يجد ابن حزم حرجاً في أن يعترف بعدد من غرامياته ، على غير ما هو معهود في أيامه وما بعدها ، وحتى يومنا هذا . حدثنا عن حبه لنعم ، جاريتته الشقراء ، أكثر من مرة ، مصرحاً باسمها تارة ، أو مفهماً أخرى ، ومن خلال قصائده أحياناً وبدأ حياته العاطفية معها في سن مبكرة ، وكانت فيما يبدو أول من أحب ، وأصبحت الفتاة امرأة على يده ، فيما يقول عن نفسه : وكنت

أبا عندها! ، ، وتكافأت المحبة معه ؛ وتركت في أعماقه ذكريات لا تنسى ،  
وترصد بأخرى زمناً طويلاً ، ولم ينته حبه إلى غاية ، ونحشى مع الثالثة  
أن يقع في مهاوى الفتنة فأمسك من التردد على بيتهم .

، وأعطانا، خبيراً ومجرباً ، صورة دقيقة للسعادة التي تغمر أعطاف  
المحب الناجح ، وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ،  
وأمننا الوشاة ، وسلمنا من البين ، ورغبنا عن الهجر ، وبعدا عن الملل ،  
وفقدنا العذل ، وتوافقنا في الأخلاق ، وتكافينا في المحبة ، وأتاح الله  
لنا رزقاً داراً ، وعيشاً قاراً ، وزمناً هادياً ، وكان اجتماعهما على ما يرضى  
الرب من الحال ، وطالت صحبتتهما ، واتصلت إلى وقت حلول الحمام  
للدى لا مرد له ، ولا بد منه ، ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت  
محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ؛ ورأيت  
تمكن المتغلبين على الرؤساء ؛ وتحكم الوزراء ، وانبساط مديري الدول ،  
فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم سروراً بما هو فيه ، من محب أيقن  
أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحت مودته له .

ويدهنا نفهم دون مواجهة ، وفي غير موارد ، أن حبه ليس علرياً  
وكلمة علري لا ترد على امتداد كتابه ولا مرة واحدة ، وليس فاجراً في  
الوقت نفسه ، ولقد اعترف بأنه بلغ مع « نعم » غايته ، وكان في غرامياته نهماً  
لا يتوقف عند حد ، يقول :

« مارويت قط من ماء الوصل ، ولا زادني إلا ظمأً ، ولقد بلغت  
من التمكن من أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرقى ، فما  
وجدتني إلا مستزبداً ؛ وحين يكون مع من يحب لا يحول بخاطره فن من  
فنون الوصل ، إلا وجدته مقصراً عن مرادى ، وغبر شاف وجدى ، ولا قاض  
أقل لبانة من لبانتي ، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت ولوعاً ،  
وقد حث زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي . ويرى التوافق في ممارسة  
الحب يقويه ، إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس وموئديات نحوها ،



ويرد العفة إلى أسباب موضوعية ، إلى طبع يميل بالرجل أو المرأة إلى غير هذا الشأن ، واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه ، فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ، ولا في يوم ولا في يومين ، ولو طال على هؤلاء המתحنين ما امتحنوا به الجادات طباعهم ؛ وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك. وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت ، ونخاطر تجرد انقمعت به طواع الشهوة ،

ويقرر حاسماً وصریحاً : « وبالجملة فإني لا أقول بالمرءة ، ولا أنسك نسكاً أهجماً ، ومن أدى الفرائض المأمورها ؛ واجتنب المحارم المنهى عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان » ، ورأى ابن حزم أن يقطع السبيل على كل راغب في النيل منه ، أو متخذاً من اعترافاته سبيلاً إلى اتهامه ، فكان بيانه القاطع : « يعلم الله ، وكفى به علماً ، أني بريء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجزرة ، وإني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا ، مذ عقلت إلى يومي هذا » .

وكان ابن حزم يحترم أسرار الناس ، أو ما نسميه في عصرنا بالحياة الخاصة للآخرين ، فلما كلفه صاحبه أن يكتب له في الحب ، وأدرك أن ذلك يحتاج إلى أمثلة وشواهد يلتقطها مما رأى بعينه ، وأدرك بنفسه ، وحده به الثقات من أهل زمنه ، لم يترك نفسه على سجيتها في رواية الأحداث ، لأنها تمس الجانب الشخصي البحت من حياة الناس ، وهو ملك لأصحابه وحدهم ، ليس من حق أحد أن يشاركهم فيه ، أو يطل على داخلهم منه ، ويربأ بالحياة الخاصة لرجال الدولة ، من الأمراء والخلفاء ، مما ينفردون به في قصورهم مع عيالهم ، أن تكون مجالاً للقول . ولكنه ذكر من لا ضرر في تسميته ؛ ولا يلحقه والمسمى عيب في ذكره ، إما لأن الخبر ذاع واشتهر فطيه لا يغني عنه شيئاً ، أو لأن الخبر منه راض بظهور خبره ، غير منكر لنقله ، أما الآخرون فقد أكنى عنهم ، لأن في ذكرهم

عورة لا يستعجز كشفها ، أو لأنها تفسد صديقاً ودوداً ، أو رجلاً جليلاً .

وهو يقدر محن الناس العاطفية ، يوردها مثلاً ، وقد يذكر معها أسماءهم ، ولكنه لا يتشفي فيهم ، ولا يجدها وسيلة للنيل منهم ، والولوع في أعراضهم ، أو التظاهر عليهم بالصلاح والتقى ، ويورد قصص أولئك الذين انحرفت بهم عواطفهم ، أو يعشقون صورة الجمال الكامل في وجوه الغلمان ، فلا يرفع في وجوههم سوطه الفارع ، أو يلاحقهم بالسب القارص ، ولا يزيد قواه عن : « عفا الله عن الجميع » .

ويقوم ابن حزم على الوفاء لمن عرف ، ويمد لأصحابه جبل الود وإن أساءوا إليه ، أو قلبوا له ظهر الحن ، ويحن إلى كل عهد تقادم حتى ليغصه بالطعام ، ويشرقه بالماء ، ولا يعمل شيئاً إذا عرفه ، ولا يسرع في أنسه مع أول لقاء ، ولا يميل إلى استبدال ما يألف من الإخوان ، أو الأشياء من ركوب ومطعم ، وراثته لذيابهم في بلاط مغيب ، وقد أخبر بانتهاب البربر لها ، مثال صادق لهذا الشعور ، إلى ما فيه من تصوير دقيق لمنازل آل حزم ، وما آلت إليه ، وما تعكس من حنين جارف وارتباط بالمكان . ويرى الوفاء فضيلة يزهر بها : « لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلى بلقية واحدة ، ووهبني من المحافظة لمن يتدمم مني ولو بمحادثته ساعة . عطا دويق فراق الأحبة من نفسه موقعا ألماً ، ويعترف : « ما انتفعت بعيش ، ولا فارقت الإطراف منذ ذقت طعم فراق الأحبة . وإنه لشجى يعتادني ، وولوع هم ما ينفك بطريقي ، ولقد نغص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه » . وإذا نعى إليه من يحب ، وواجه الفراق الأبدى ، وكان نازحاً وحيداً ، فر بنفسه إلى المقابر بمشى بينها ، ويتعزى بأبيات من الشعر يترنم بها ،

وظل يعاني مما يفرضه عليه الوفاء ، مما يصطدم أحياناً بعزة نفسه ، واحترام ذاته وكرامته ، « وعنى أخبرك : أنى جبلت على طبيعتي لا يهتني

معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما ، وأود التثبث من نفسي أحيانا ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عماد ريتي ، ولا تتطالع إلى عدم من صحبته . وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه ، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعوا إلى نفسها ، وإني لأجفى فأحتمل ، واستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسي ، تصبرت .

وما شئ أثقل على نفس ابن حزم من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلى ذنوبه ، ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوءي إلا بالحسنى .

وابن حزم واسع الصدر في القضايا العامة والاجتماعية ، عنيد الحوار ، يناقش ويبدل برأيه ، ويسمع وجهة نظر معارضه ، لا يضيق بها ، ولا يفقد هدوءه بإزاء محدثه ، يفانئ أبا عبد الله من أهل القيروان ، وكان طويل اللسان جدا ، مثقفاً للسؤال في كل فن ، أيام كان لاجئاً في المرية ، حول الحب ومعانيه ، وماذا يصنع محب كره المحبوب لقاءه ، وتجنب قربه . يرى ابن حزم : « أن تسمى في إدخال الروح على نفسك بإلقائه وإن كره » . ويرى أبو عبد الله : « بل أوتر هواه على هواي ، ومراده على مرادي ، وأصبر ولو كان في ذلك الختف » . ويمضي الحوار على النحو الذي أورده ابن حزم في الطوق ، عالم قرطبة يقف على أرض صلبة من الواقع ، وأديب القيروان يتشبه بما هو نظري ومن صنع الخيال ، ويفقد صبره في مواجهة ابن حزم ، ويصبح به : « أنت رجل جدلي ، ولا جدل في الحب » .

وكان ابن حزم يفرق بين الصلات الشخصية ، والخلافات الفكرية

والعقائدية ، لقد تعرف خلال إقامته بالمريّة على طبيب يهودى ، يدعى إسماعيل بن يونس ، وتعود أن يختلف إلى دكانه ، ويصف اليهودى بأنه كان بصيراً بالفراسة محسناً لها . وأست أشك في أنه تعرف بها إلى يهود آخرين ، فقد كانت المريّة فى تلك الفترة من التاريخ ، أى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، موطناً لحركة ثقافية وأدبية مزدهرة ، وموطناً لليهود كثيرين ، علماء وأغنياء ، وأرجح أنه تعرف فيها إلى صمويل ، أو إسماعيل ، بن النغرة ، قبل أن تؤهله مواهبه العالية لأن يصبح وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة ، ويسيطر على مصائر الدولة دونه ، ثم يورثها ابنه يوسف من بعده ، فيثير جمهرة المسلمين بحمقه وتخديه واستهتاره ، فتأتى عليه وعلى نفوذ اليهود ثورة عارمة ، لعب الشعر فيها دوراً رئيسياً (١) . وقد وقف ابن حزم موقفاً متشدداً من اليهود ، حين طما طغيانهم السياسى ، وتجاوزوا حد الأدب فاستطالوا على المسلمين ، واستباحوا مقدساتهم ، وناقش اليهودية كعقيدة وواعياً عنيفاً ، وأميل إلى أن بداية دراسته لليهودية بدأت فى هذه المرحلة من حياته .

وكان له فى المرأة رأى عرضنا له من قبل ، ويعرف ابن حزم للأستاذية جلالها وقدرها ، فلا يتحدث عن أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى ، إلا وأردف قائلاً : أستاذى :

وبرئى ابن حزم من عادة الشراب ، وكنت شائعة على أيامه ، ووجد كثير من مندوحة لهم فى المذهب العراقى ، وأوجز ابن عبد ربه أنجاهم فى بيته الشهير :

ديننا ، فى السماع ، دين مدينى ، وفى شربنا الشراب عراقى  
وجاء رفضه له عرضاً حين تحدث عن مذهب الشعراء المحددين فى ذم  
البكاء على الدمى ، والثناء على اللذات ، وأن الحسن بن هانىء ، أبانوا ،

---

١ - أنظر : غرسة غوث ، مع شعراء الأندلس والمنتخبى ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ،  
صفحة ١١٧ وما بعدها ، القاهرة ١٩٧٤ .

أكثر في هذا الباب وافتخر به ، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح  
في أشعاره ، تحكماً بلسانه ، واقتداراً على القول ، : ثم يشجذ ابن حزم  
قريحته بأبيات على مذهب أبي نواس فيقول :

نخل هذا ويادر الدهر وارحل      في رياض الربى مطى الغفار  
واحدتها بالبديع من نغمات الـ      عمود كيا نحث بالمزمار  
إن خيراً من الوقوف على الدا      ر وقوف البنان بالأوتار  
وبدا .. الترجمن البديع كصب      حائر الطرف مائلا كالمدار  
لونه لون عاشق مستهام      وهو لاشك هائم بالبحار

ويعقب على هذه الأبيات بقوله : «ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس  
طبعاً لنا ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ...  
ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ ، . والحق أن الطوق عرض  
لألوان من الحب مقبولة وشاذة ، حلالاً ومحرمة ، ولكن حديث الشراب  
ومجالسه وألوانه لا ترد فيه أبداً .

## المرأة في قرطبة

من خلال طرق الحماسة

مع قلة الوثائق وغيبة الشواهد تختلف الآراء حول المرأة الأندلسية اختلافاً بيناً ، وفي دوائر المستشرقين بمخاصة ، لأن أبحاث الدارسين العرب في مجال الأندلسيات لما تزل محدودة ، وقليل جداً بينها من يقول شيئاً نافعاً ، أو يضيف إلى ما نعرف جديداً ، لأن الاهتمام بالأندلس ، تاريخه وحضارته وأدبه ، جاء متأخراً ، والقائمون عليها الآن ، وهم قلة ، أمامهم سنوات مضمنية من العمل ، لكي يزيحوا عن هذه المنطقة من تراثنا غبار الإهمال ، ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث ، من نشر المخطوطات ، وتوفير المصادر ، ودراسة اللغة الإسبانية ، وكل تخصص في مجال الأندلسيات دون التمكن منها ، ثمارة عقيمة ، وحظه من النجاح محدود .

حاول المستشرقون إذن أن يدرسوا وضع المرأة الأندلسية ، ويذبوا جهوداً طيبة ، وقد أخفق بعضهم ، على ما سنعرف ، في جانب من آرائه ، قليل أو كثير ، لأن عقدة التعالي على العرب ، أو البغض للإسلام ، كانت تحكم أبحاثه . وضل الطريق آخرون ، لأن دلالات النصوص البعيدة ، والتي تعتمد على تذوق اللغة ، وإدراك الفروق الدقيقة بين معاني الألفاظ المختلفة ، كانت تفلت منهم ، وهو شيء طبيعي ؛ فأدى بهم ذلك إلى أحكام خاطئة وجائرة أحياناً ، ولكنهم في كل الأحوال أسدوا إلى هذا التراث يداً ، يستحقون عليها أن نقول لهم شكراً ، ومن عمل وأخطأ ، خير ممن لا يعمل شيئاً على الإطلاق .

ليس في نيتي ، ولا بإمكانني أيضاً ؛ أن أتبع آراءهم جميعاً ، ولكنني سوف أحاول أن أعطي صورة لهذه الاتجاهات المختلفة ، في خطوطها العامة ، موجزة نعم ، ولكنها كافية لكي نعرف كيف يفكرون في هذا الجانب ، وأين نقف منهم .

كان المستشرق الألماني ، البارون فون شاك Von Schack أول من تحدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كتابه : « شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية Poésie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien » وصدرت الطبعة الأولى منه في برلين عام ١٨٦٥ م ، عن المرأة الأندلسية ، وجاء حديثه عنها كقائمة للفصل الرابع من الكتاب ، وأوقفه على دراسة شعر الغزل في الأندلس ، وانتهى فيها إلى « أن وضع المرأة في إسبانيا كان أكثر نحرراً عما كان عليه في بقية الشعوب الإسلامية الأخرى ، فأسممت بجهودها في كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها ، وليس بقليل عدد أولئك اللاتي بلغن شهرة واسعة لدورهن في مجال العلم ، أو مزاحمتن الرجال في قرض الشعر : وفي ظل هذه الحضارة الراقية بلغن في إسبانيا احتراماً لم تعرفه المرأة أبداً في المشرق الإسلامي . فعلى حين أن الحب هناك ، باستثناء حالات نادرة ، ينهض على الشهوة ، كان هنا ينطلق من تعاطف روي عميق ، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل ، وكثيراً ما كانت عبقرية المرأة وثقافتها أشد جاذبية للعاشقين من جمال جسمها وسحر مفاتها ، وعادة يكون الميل المشترك إلى الشعر أو الموسيقى الخيط الرفيع الذي يربط بين قلبين عاشقين » .

ثم جاء المستشرق الإسباني الجليل خوليان ريبيرا (١٨٨٧ - ١٩٢٧ م) فعرض لجانب من قضية المرأة ، في بحثه الذي ألقاه في المجمع الملكي الإسباني . عند اختياره عضواً فيه عام ١٩١٢ م ، وكان عن « ديوان ابن قزمان » ، ولم تكن المرأة موضع دراسته بدءاً ، وإنما عرض لها عند حديثه عن اللغة التي كان يتكلمها سكان الأندلس ، وهو أول من اكتشف بين الباحثين المحدثين أن الأندلسيين كانوا يتكلمون لغتين عاميتين مختلفتين معا ، العربية والرومانشية ، وإذا نحينا المبالغات التي شابت بحثه ، وكان فيه رائداً ، وتحكمه حماسة مخلصه وصادقة ، فإن النتائج التي انتهى إليها كانت فتحاً جديداً في عالم الأندلسيات .

تحدث ريبيرا عن دور المرأة البالغ الأهمية في أسبنة المسلمين القدامين من

المشرق أو من شمال إفريقيا ، وفي إشاعة اللغة الرومانشية والإبقاء عليها ،  
والحفاظ على الخصائص البيولوجية الإسبانية ، والتقاليد التي كان عليها الإسبان  
قبل الفتح الإسلامي بعامه ، وفي مجال الحياة العاطفية والأميرية على نحو خاص ؛  
لقد جاء العرب أو البربر جنوداً فاتحين ، أو أفراداً مهاجرين ، وتزوجوا  
في الأندلس من نساها ، جوارى أو حرائر ، وفي كل الأحوال كن ينحدرون ،  
في الأعم الأغلب ، من أصول إسبانية ، ونشأ أولادهم هجناء في بيت مختلط ،  
يعيشون طفولتهم على الأقل في مناخ إسباني . ويمضي ريبيرا بعيداً مع فكرته  
لينتهي بها إلى أن العرب القادمين إلى الأندلس فقدوا خصائصهم السلالية  
كجنس سامي ابتداء من الجيل الثالث ، واتخذ من الأمويين أمراء الأندلس  
ونخلفائه مادة لتحليله ومثلاً .

« لأحد يشك ، فيما يقول ، أن الأميرة الأموية التي استولت على الإمارة  
في إسبانيا تنتسب إلى أعرق الأصول العربية ، وإذا حاول متخصص في علم  
الأنساب أن يقيم نسباً لهشام الثاني المؤيد فسيلتقى بقائمة طويلة من الأسماء  
العربية . إلى أن يبلغ بها أكرم القبائل وأعرقها في الجزيرة العربية ، بل  
وسوف تتصل بنسب الرسول عليه السلام ، فهو هشام الثاني ، ابن الحكم  
الثاني المستنصر ، ابن عبد الرحمن الثالث الناصر ، ابن محمد ولم يتول الإمارة ،  
ابن عبد الله ، ابن محمد الأول ، ابن عبد الرحمن الثاني ، ابن الحكم الأول ،  
ابن هشام الأول ، ابن عبد الرحمن الأول الداخل ، ابن معاوية بن هشام  
ابن عبد الملك بن مروان ، حتى نهاية السلسلة ، أي أننا إذا نظرنا إلى هشام  
الثاني المؤيد من خلال نسبه الأبوي فحسب ، وجدناه عربياً خالص النسب  
تماماً .

« ولكن الطبيعة تسلك طريقاً آخر غير طريق الزهو الإنساني ، لأن أي  
وليد ليس نتاج أبيه فحسب ، وإنما لأمه نصيب منه أيضاً ، وتصيب أكبر  
بالتأكيد ، لأنها حملته في بطنها تسعة أشهر وأرضعته عشرة . ولو أعددتنا سلالة  
للنسب من جانب الأم ، نخرجنا بانطباع آخر مختلف للغاية :

( م ١٦ - ابن حزم )



« نحن نعرف يقيناً أن كل الأمويين الذين تولوا الإمارة في الأندلس ينحدرون من أمهات عشيقات أو جوار ، أي من نساء لسن من أصل عربي ، وطبعي ألا تولد الجوارى من السلالة الحاكمة ، وإنما بين السلالات المغلوبة ، من الشعوب التي فتحها الإسلام : كان عبد الرحمن الأول الداخل ، ابناً لجارية بربرية ، وهشام ابنه ولداً لجارية إسبانية ، أهدتها إلى أبيه ابنة يوصف الفهري ، وعلى هذا النحو نلتقى بهم جميعاً ،

« وإذا أردنا أن نحدد للعنصر السلالي بطريقة رياضية ، وأخذنا في اعتبارنا جانب الأم ، وأضفنا إليها ما يمد لها من جانب الأب ، نجد أن نصف عبد الرحمن الداخل كان بربرياً والنصف الآخر عربياً ، هذا إذا افترضنا نقاء سلالة السابقة تماماً ، وبلغت الأرقام يصبح ٥٠٪ منه عربياً ، و ٥٠٪ منه بربرياً ،

« وابنه هشام الأول ابن جارية غير عربية ، فيه ٥٠٪ من سلالة أمه ، و ٢٥٪ من بربرية أبيه و ٢٥٪ فحسب كل ما تبقى له من العروبة .

« وإذا مضينا مع أحفاده على هذا النحو ، فسنجد أن الحكم الأول ليس فيه من العروبة إلا ١٢,٥٪ ، وعبد الرحمن الثاني ٦,٢٥٪ ، ومحمد ٣,١٢٪ ، وأنحوتة المنذر وعبد الله ١,٥٦٪ ، ومحمد ولم يتول الإمارة ، ٠,٧٨٪ ، وعبد الرحمن الناصر ٠,٣٩٪ ، والحكم المستنصر ٠,١٩٪ ، فإذا وصلنا إلى هشام المؤيد تهبط بنا النسبة إلى ٠,٠٩٪ ، أي أن نسبه يحفل بالأسماء العربية ، أما إذا درسنا الأمر رياضياً فليس فيه من السلالة العربية ما يصل إلى ملايين واحداً .

وقد تساءل خوليان ريبيرا عن السلالة التي ينتمي إليها الأمويون في ضوء نظريته هذه ، فدرس في أناة وثائق بيع الرقيق ، ووجد أن الغالبية العظمى بينهم من شمال إسبانيا ، من غاليسية ، أو جليقية في المصادر القديمة ، أو من مقاطعة ليون ، أو من أشتورياس ، أو من قطلونية ، وانتهى إلى أن هؤلاء الأمويين كانوا ، طبقاً لنظريته السابقة ، إسبانيين دماً ، ولم لا ؟ ألم يكن

عبد الرحمن للناصر أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ؟

وهي دراسة فيها الكثير من المنفعة ، ومن رياضة الذهن ، ولكنها تبسط  
الأمور بأكثر مما يجب ، ومما تجعل ، وتعمل من القضايا الاجتماعية المعقدة  
المتشابكة شيئاً ذهبياً مجرداً ، كما لو كانت لعبة شطرنج أو تمارين هندسية ،  
من الذي قال - مثلاً - إن الابن يأتي إلى الدنيا حاملاً من خصائص أمه  
وأبيه نسبة متساوية ، ٥٠٪ لكل منهما ؟ . ليس هناك قاعدة علمية واحدة  
تتحكم هذه الظاهرة ، فيما أعلم ، والذي أعرفه أن الطفل يأخذ من أبيه ومن  
أمه بنسب متفاوتة ، أحياناً ، إلى حد كبير ، لصالح الأب أو لصالح الأم ،  
وأحياناً تعود به هذه الخصائص ، من لون العينين ، وطول القامة ، وشكل  
الوجه ، وأشياء أخرى جسمية أو نفسية ؛ إلى أفراد سبقوا في نسبة الأموي  
أو الأبوي ، دون أن يكون في أبيه أو أمه شيء مما فيه ، ونعرف أن  
المناخ الاجتماعي الحيواني المختلفة ، والظروف الطبيعية في مظاهرها  
المتعددة ، تلعب دوراً هاماً في حقل هذه الخصائص وتطورها ، حتى  
البيولوجي منها .

نحن إذن مع نحوليان ريبيرا في الدور الذي لعبته المرأة الإسبانية  
بوصفها هنا ، في مجال الحياة الأندلسية ، وكان واضحاً ومقدراً ، ولكننا  
لانتابعه في لعبة الأرقام التي اعتمدها ، وأدارها في مهارة ، وسذاجة في  
الوقت نفسه ، لأن العلم والشواهد التاريخية ، والظواهر النفسية والاجتماعية ،  
تقف في الجانب المقابل منها .

شأما سانتشيث البرنس فيصدر في دراساته لتاريخ الأندلس ، وهي كثيرة  
وعميقة ومتنوعة ، عن روح قومي متشدد ، يفضل معه أحياناً جادة الصواب ،  
ولست أريد أن أعرض لكل ما قال ، ودراساته تقوم على أن المسلمين  
جاءوا الأندلس نحلوا من كل شيء ، وأن الذين كانوا يقيمون على بطحاء  
شبه الجزيرة الإيبيرية قبل مجيء المسلمين ، ورآهم أرقى ثقافة وعادات  
وتقاليداً ، هم الذين أعطوها الصورة الوضيفة الحضارتها المزهرة والراقية .

وبحسبي أن أشير إلى كتاب محدود الحجم بين دراساته ، نافع ومفيد ، وزحمه بمصادر لا حاد لها تتجاوز مادة الكتاب نفسها ، عن « إسلام إسبانيا والغرب (El Islam de Espanay el Occidente) » ، ونشره تحت صور مختلفة ، وآخر طبعة له فيما أعلم صدرت في مدريد عام ١٩٧٤ ، في السلسلة الثقافية الشهيرة : « مجموعة أوسترال » ، التي تصدرها دار « إسبانيا كالي » ؛ وكان قبلها محظورا على الناشرين في إسبانيا ، أن يطبعوا أو ينشروا له شيئا ، لأنه جمهوري ، وكان رئيس حكومة الجمهوريين في المنفى .

تدور مادة الكتاب كلها عن إسبانيا ما قبل الإسلام ، وما أسهمت به إسبانيا الإسلامية في مجال الثقافة والمعمار والموسيقى في إنحاء أوروبا والعالم المسيحي في الغرب ، ولن أقف عند هذا كله ، لأنه خارج عن نطاق القضية التي أعرض لها هنا ، إنما يهمني منه إشارته إلى قضية المرأة في الأندلس ، ويعرض لها قليلا ، وإشارته إليها عابرة ، ولكنه يأتي بها في صورة قاطعة ، وهنا موضع للخطورة . فهو يرى أن الأندلسيين « كانوا يتيحون للمرأة حرية فريدة في خروجها للشارع » ، من الصعب ربطها بالعادات الإسلامية ، والدليل عليها ما أورده ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » ، روايات تاريخية أخرى معروفة ، فهم يحترمونها ويضعونها موضع التقدير ، وكلاهما إرث إسباني خالص . وقد أشار هنري بريس إلى موقف المرأة المسلمة المتميز بالنسبة للمرأة الشرقية ، وبلغ الأمر بليفى بروفنسال أن صرح بأنهم كن في أيامهن تلك ، على نحو ما يعترف به لمن اليوم في المغرب الأقصى ، بين البيوت الإسلامية ذات الأصل الإسباني ، من حق مشاركة الرجل في كل تصرفاته ، وكما بلغ التأثير مسامى شبه الجزيرة الإيبيرية أدرك المساميين الإفريقيين ، وعلى العكس يزيد الأمر وضوحاً ما نعرفه عن دور المرأة في إسبانيا البدائية .

وكان المستشرق الفرنسي هنري بريس أكثر تعقلا من غيره ، فقد

نحدث عن « المرأة والحب » في فصل خاص من كتابه القيم : « الشعر الأندلسي حتى القرن الحادي عشر : جوانبه العامة ، وموضوعاته الرئيسية ، وقيمه وثيقة » ، وسحاول فيه أن يستنطق قصائد الشعراء وإشاراتهم ، وانتهى إلى أن الإسلام استطاع أن يسم المجتمع الأندلسي و بطابعه في بعض مظاهره الخارجية دون أن يشككه بعمق ، واستطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دوراً رئيسياً ، وأوضح مظاهره هذا القلق الذي تثيره فكر الرجل ، ولم تكن المرأة الأندلسية « منزوية على نحو ما كانت نظم الإسلام تريدنا أن نراه في كل امرأة مسلمة . وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية . فالرمادي يتجول في يوم الجمعة ، بين رياض بنى مروان في قرطبة ، ويلتقي بفتاة شابة تأخذ بمجامع قلبه فيحادثها ، ولا يدعها تمضي إلا بعد أن يحصل منها على موعد بلقاء في يوم الجمعة التالية . وكانت هذه الفتاة الشابة تسمى « خلوة » ، وكانت تضع خماراً على التأكيد ، ولكن كيف نتصور رجلاً يستطيع أن يتحدث طويلاً وعلانية إلى امرأة ، على قارعة الطريق ، دون أن يتعرض لنظرات « شلوقة » ، لو لم يكن الجنس اللطيف يتمتع بحرية حقيقية ؟ ، ويستشهد بوقائع متعددة ، في قرطبة وغيرها ، وردت في طوق الحمامة ، أو نفع الطيب ، أو قلائد العقيان ، وفي مصادر أخرى ، دون أن يجزم برأى قاطع . ودعا إلى التفرقة بين ما هو غربي أصيل ، وما هو شرقي وافد ، ورد عددًا من مظاهر حرية المرأة إلى المناخ المسيحي الذي تحرك عليه الإسلام في أرض شبه الجزيرة الإيبيرية .

وموقفنا من مثل هذه الآراء أن إلقاء أحكام عامة ، في قضية اجتماعية كهذه بالغة التعقيد ، تمس مجتمعاً متعدد السلالات والأديان والطبقات ، عرضة للاختلاف الجسيم ، فالمرأة اليوم في مصر وبلاد عربية أخرى تتمتع بحرية واسعة إلى حد كبير ، تذهب إلى الجامعات ، وإلى بلاد أجنبية لتتعليم ، أو لتتاجر ، أو لتسافر ، وتلبس أحدث نماذج الأزياء ، دون نظر لغير متطلبات العصر ، وثمة فتيات أخريات قعيدات البيت ، يؤثرن الانزواء ، أو يرادهن ، يغطين الرأس ،

ويلبس للماتر من الثياب ، ويرين مخاطبة للرجل وإنما ، فهل يعقل أن نرسل عن الأندلس حكماً عاماً ، استناداً إلى رواية وردت في كتاب ، أو بيت من الشعر جاء في قصيدة ؟ .

وإذا أخذنا العربية السعودية ، وأعمالها من أشد البلاد العربية محافظة في قضية المرأة ، ويراها المستشرقون مثلاً أبلغ لما هو أسوأ من المحافظة ، وتجاوزنا للسطح إلى العمق ، الشكل الخارجي إلى واقع الحياة ، فنجد من الخطأ إرسال حكم عام عليها ، لأن المرأة في البادية غيرها في الحاضرة ، وهي داخل الجزيرة غيرها في الخارج . ولقد أتبع لي في بعض رحلاتي إلى أوربا أن التقى بفتيات سعوديات ، كن مثلاً عالياً في الشخصية والثقافة والأناقة والجمال ، في مستوى أرقى ما وصلت إليه المرأة في عالمنا المتحضر .

إنما تجيء أخطاء المستشرقين من المقارنات الخاطئة ، ومن دراسات تقوم في جلها على كتب الفقه ، وهي لا تقدم ما يحدث في واقع الحياة ، وإنما تعكس في الكثير من الحالات مطامع أصحابها وعقلياتهم وانحرافاتهم أيضاً ؛ ولورجعوا إلى واقع المرأة العربية ، في حياتها اليومية ، خلال عصر النهضة الإسلامية ، قبل أن تزحف على الإسلام ظلمات الفكر الأوربي الوسيط ، فوجدوها تعمل إلى جانب الرجل ، وموضع للرعاية والتكريم منه ، وعلى مستواه من حماية القانون ، واذن فالقول برفق المرأة الأندلسية لأنها تنحدر من أصول غير عربية فيه مجازفة للواقع ، وعدوان على العقل :

والذين يلمحون لأسباب دعائية غير علمية إلى أن المسيحية كانت وراء هذا القدر من الحرية ، يتناسون زعامدين أن إسبانيا لم تكن وحدها البلد المسيحي الذي اجتاحه الإسلام ، فمثلها كان الشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا ، في جانبه الساحلي على الأقل ، والذين يتشبهون بأسباب الحضارة الرومانية ، ينسون أيضاً أنها كانت في الشام والإسكندرية أوضح منها في إسبانيا ، وهذا إذا سلمنا جدلاً ، وهو أمر غير مسلم ، أن مستوى المرأة

في الحضارة الرومانية كان أرقى منه في الحضارة العربية أو الإسلامية ، وهو أمر ليس عليه شاهد من أحداث التاريخ .

وإذا أخذنا ذلك مثلاً من مقاطعة بروفانس ، في جنوب فرنسا ، على أيام ابن حزم ، ومنتصبج أرقى بلد أوروبي في تلك الفترة ، وبتأثير أندلسي ليس هنا مجال درسه ، فسنبجد مثلاً أن « الزواج يتم بين السيدين ، في ضوء مصالحهما الإقطاعية ، أكثر منه تحقيقاً لرغبة الشاب أو الفتاة ، ومع الزواج يملك الزوج جسد الفتاة كله ، ولم يكن في حاجة أبداً لأن يرضأها في شيء يملكه قانوناً ، وله حق تأديبها مادياً ، يضربها حين لا تقبل أو امره ، أو تشيره به ، تزعيجه ، شريطة أن يكون هذا باعتدال ، وألا يؤدي إلى موتها . وكانت التقاليد قاسية جداً على المرأة في حالة الحيانة ، فالمرأة المخطئة تسجن في الدير طوال حياتها ، وإذا ضبطت متلبسة ، فإن الزوج يأتي بأولادها ليشهدوا لحظة إعدامها . أما للزوج المخطيء فكان على التقيض ، يخرج سالماً من أوسع الأبواب ،

« كان العصر الأوربي الوسيط ، بتأثير المسيحية ، عدواً لدوداً للمرأة ، ولم يعطف عليها رجال الكنيسة أبداً ، ولا تأتي في كتاباتهم إلا مقرونة بوصف مسيء ، فهي : ذكري مزعجة ، والطريق إلى النار ، وسلاح الشيطان ، وحارس جهنم المتقدم ، وشبح إبليس ، وسهم الشيطان ، وغيرها من النوع ، نجد ذلك عند سان يوحنا ، وسان أنطونين ، وحننا الدمشقي ، والقديس جيروم ، وغيرهم . وسار على طريقهم من بعدهم كل الدعاة ، ورجال الأخلاق ، وهكذا ظلت قلوب رجال الدين طوال العصور الوسطى مغلقة في وجه المرأة ، ومغلقة بالقسوة ، وكان الفرسان الحديديون ، العائدون من الشرق الأوسط ، بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد غاراتهم أو رحلاتهم أو مساعدتهم لرفاقهم في الدين هناك ، أول من اعترف بها إنساناً لطيفاً . لقد عاش هؤلاء يتغنون بالبطولة ، لا يشغلون أنفسهم بغيرها ، حتى ولا ما اتصل منها بالدين نفسه ، وإذا لم تؤد الحروب الصليبية إلى

النتائج المنتظرة من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، وامتلاك بيت المقدس ، فقد أدى الاصطدام بين الشرق والغرب إلى نتائج هائلة ، في المجالين الاقتصادي والاجتماعي على الأقل ، فترك الشرق ، وكان أغنى ثروة وأرقى حضارة ، تأثيراً واضحاً في حياة الصليبيين ، وصرعان ما تهذبت هذه الأعداد الكبيرة ، بقدر لا يتصور ، فدرجت على تذوق الترف ، وتفتح عقلها ونخيلها على ألوان من الحياة الراقية كانت تفتقد تماماً . وفي حروب دينية كهذه لم يعفوا عن حمل الثروات والغنائم ، وما أسرع ما غيروا هاداتهم عندما عادوا إلى أوطانهم . وعاصرت الحروب الصليبية نمو التجارة في البحر الأبيض المتوسط ، وفي الموانئ الإيطالية بخاصة ، وشهدت أيضاً ازدهار المعارض التي تحمل كل منتجات الشرق : السجاد والمرايا والتوابل والأقمشة الجميلة ، وتحمل اسم دمشق موطن صنعها .

وشهدت بداية العصر الوسيط احترام المرأة في أوروبا ، وارتفاع الكنيسة إلى مستوى الفرسان ، وشعراء التروبادور من هؤلاء هم الذين انتقلوا بها من مخلوق لا يلعب في الملاحم وفي الحياة دوراً أكثر من عبادة الله والسيد والوطن ، إلى شيء جميل يحترمونه ، ويتغنون به ، ويغنون له ، ويعتبرون التسامي به ، والتدليل له ، والذوب صباية في حبه ، خلقة كريماً ، وعادة مرعية ، وشرفاً لا يبلغه غير الفرسان :

\* \* \*

كيف وجد المسامون المرأة في شبه جزيرة إيبيريا غداة الفتح الإسلامي ؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه ، لأننا تفتقد الوثائق التي تساعدنا على تحديد موقف المرأة ، والبناء الأسرى الذي كان سائداً في المجتمع الغربي بين القرنين الثامن ، وتم الفتح الإسلامي في بدايته ، والقرن الحادي عشر وعاش فيه ابن حزم جل حياته ، ومعها بدأت دول شمال الأندلس المسيحية تأخذ شكل مجتمع متميز ، رغم حاجتنا الشديدة إلى هذه المعرفة ، ذلك أن المرأة الأندلسية في جمهورتها الغفيرة هي أولاً وقبل كل شيء

إسبانية ، سواء أكانت حرة أم رقيقة ، زوجة أم عشيقه ، مولدة أم مستعربة . والقليل الذى وصلنا عنها ناقص ومضطرب ومتناقض .

والحضارت التى تركت فى أوربا تأثيراً واضحاً ، وهى : ما قبل الرومانية والرومانية والجرمانية والمسيحية كانت توجه المجتمع الغربى نحو التضييق على المرأة ، وتضع عليها قيوداً لن نلتقى بها فى الحياة الأندلسية فيما بعد ، وكلها تؤكد تميز الرجل ، فالفتاة تخضع لأبيها ، وإلى الأكثر قرباً عند غيابه ، ثم لزوجها فيما بعد ، وفضيلاً عن ذلك كانت روما تعرف وأد البنات . ويبدو أن المرأة تمتعت بين القرط ، وهم الذين حكموا الأندلس لحظة الفتح الإسلامى ، بقدر أكبر من الاحترام ، فنعرف أن من الرشد لها فى القرن السادس الميلادى كان مساوياً لسن الفتى ، وأنها أهل لأن تتولى الوصاية على أبنائها إذا كانت أرمل ، وأن تزوج ثانية إذا أرادت ، ويتوقف الزواج على موافقتها ، ويصبح المهر الذى يقدمه الزوج لاحقاً لها ، ومنذ القرن السابع نجدها فى القانون القوطى تتساوى مع الرجل فى الميراث . ومن المؤكد أن هذه الحقوق ظلت نظرية فى جانب منها ، واقتصرت فى جملتها على طبقات اجتماعية معينة وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحقوق دون ما تتمتع به المرأة العربية والمسلمة ، واقعاً ونظرياً بكثير . وينبغى ألا ننسى أن العنصر العربى على قلبه ، أعطى إسبانيا اللغة والعادات والنظم والدين ، ونماذج الحياة المشرقية ، ولون المجتمع الأندلسى بمثاه ، وكلها عربية ، وفيما يرى أمير كوكاسترو : «التعريب اللغوى يحمل معه التشريق الحلقى والعقلى ، وعالينا أن نضع فى الاعتبار دائماً أن تطبيق لغة سامية وانتشارها ، وإجلالها لهجة مشتقة من اللاتينية ، لا بد أن يردى إلى عدد من النتائج من بينها تطوير العقلية» .

\* \* \*

بماذا تحدثنا بخصوص «طوق الحمامة» عن المرأة ؟ لقد عرض للباحثون الكتاب كثيراً بوصفه دراسة فى الحب وعن المحبين ، لكن أحداً لم يقف



طويلاً إزاء ما يمكن أن يضيفه إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية في الأندلس خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ، وسندرس هنا صورة المرأة في قرطبة من خلال الطوق لالكي تدعم فكرة أوتناهنن أخرى ، وإنما لنصل إلى تصور قريب عما كان عليه حالها واقعاً في الحياة على أيام ابن حزم .

وعندما يتحدث ابن حزم عن المرأة في قرطبة فإنما يفعل ذلك خبيراً بهن ، عالماً بأمورهن ، فهو فيما يحدث عن نفسه : « شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يعلمه غيري ، لأنني ربيت في حجوورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب ، وحين تفيل وجهي » ، واهتم بالبحث عن أخبارهن ، وأنس منه الكتمان فكشفت له عن أسرارهن ، وأطلعته على غوامض أمورهن ، وأشرف من أسبابهن على غير قليل ، فشب يعرف الكثير من دنخائل القصور ، وموامرات النساء ، وحيل الجوارى ، وأكسبه ذلك شكاً فيهن ، وسوء ظن في جهتهن . ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف ، ولم يحدثنا بكل ما سمع ، فأبقى على عورات يستعاذ بالله منها في طي الكتمان ،

وأول ما نلاحظ في حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية ، أي فتيات الأسر التي ينتمى إلى طبقتها ، وحتى الجوارى منهن يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ، ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادراً ، في مجال الموازنة ، أو بالهفة في ثلاث حالات على وجه الحصر : عرض لقصة جرت في القاهرة ، حين أحب العزيز الفاطمي خليفة مصر ، جارية شغلته عن مولد ابنه المنصور ، والذي سيصبح فيما بعد خليفة مصر ، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر بالله . وحكاية موجزة لقرطبي كان في بغداد ، هام بعراقية ، وتزايد عليه أمرها ، ونخس الفتنة ، فخرج إلى البصرة ومات بها عشقاً . والحكاية الأخيرة رواها أبو بكر محمد بن بقى الحجري عن نفسه ، فقد التقى في

بغداد بابنة وكيلة الخان الذي ينزل فيه ، فأحبها وتزوجها ، واسكنها فارقته لسبب لا أرى ذكره مناسباً هنا (١) :

وأم يتعرض للمرأة في الطبقة للوسطى أو الدنيا ، ولا نجد لديه ولا إشارة واحدة ، حتى ولو من بعيد ، عن المرأة المستعربة أو اليهودية ، وهو أمر طبيعي من رجل لا يكتب بحثاً ، وإنما يدفع بذكرياته ، وما رأى أو سمع ، من خلال دراسته عن الحب ، وما كان لأي من هاتين الطبقتين أن ترتفع إلى مجلس ابن حزم ، خارج نطاق الدرمن ، ولم يجلس فيه أستاذاً إلا بعد سنوات من تأليفه « الطوق » ، أو يعبر أحداثها نصيباً ، من اهتمامه ، وبداهة كانت تحب وتعشق وتنحرك في حياتها العاطفية داخل قيم ، قد تلتقي أو تختلف مع مثل الطبقة العليا ، واسكنها متأثرة على التأكيد بوضعها الاقتصادي والطبقي الذي تعيش فيه .

يهدف كتاب « طوق الحمامة » إلى تحليل المشاعر العاطفية ، ومواقف العشاق ، ويأتي الحديث عن المرأة فيه بوصفها ط. فأفي هذه القضية ، وليدعم ابن حزم آراءه أورد عدداً من الوقائع الغرامية حدثت فعلاً ، ولو أنه يصعب علينا في أحوال كثيرة أن نحدد نوع المجهود : أهو فتاة أم غلام ، أو نعرف ظروفه الاجتماعية ، وأحياناً ترد القصص فضفاضة ، يعسر علينا أن نستنتج منها شيئاً محدداً ودقيقاً ، ويعتمد ابن حزم ذلك ، حفاظاً على أسرار الناس ، واحتراماً لحياتهم الشخصية ، وكثيراً ما يكفي عن الأسماء ، لأنها « إما حورة لا نستجيز كشفها ، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً » ، واكتفى بأن يسمى من لا ضرر في تسميته ، ولا يلحقه والمسمى عيب في ذكره ، « إما لاشتهار لا يغني عنه اللطى وترك التبيين ، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره ، وقلة إنكاره منه لنقله » .

١ - أنظر صفحة ١٣٨ من كتاب طوق الحمامة ، بتحقيقنا ، دار المعارف بالقاهرة

والقصص المتصلة بالحواري أكثر من تلك التي يرد فيها ذكر الحرائر ،  
وكلمة «جارية» في كتاب «الطوق» تستحق وقفة مستأنية . لقد وقف  
أورتيجا إلى جاسيت في مقدمته التي ترجمناها ، وأوردنا نصها فيما مضى من صفحات  
عند كلمة «الحب» ، وتساءل عما إذا كان فقه اللغة العربية قد توصل إلى تحديد  
دقيق للمفهوم اللفظ عند هرب الأندلس في القرن الحادي عشر ؟ . وبدوري  
أوجه السؤال نفسه : ترى ما هو مفهومهم ، ومفهومنا ، لكلمة «جارية»  
عند ما ترد في نصوص «طوق الحمامة» ؟ .

تجئ المرأة القرطبية محبوبة خلال «طوق الحمامة» في ثلاثين موقفاً ،  
وكلهن ينتمين إلى الطبقة العليا دون شك ، وفي خمسة وعشرين منها نجد  
أنفسنا . بإزاء حب المؤلف نفسه ، أوحب واحد من أصدقائه ، أو شخصية  
معروفة له ، لو احده يصفها بأنها «جارية» ، وفي الحالات الخمس الباقية  
يشير إلى نساء حرائر صراحة ، من الطبقة نفسها ، على قدر كبير من الثقافة  
والرقي والصقل ، لا يقل عما كانت عليه الحواري ، ويلعبن في الحياة العاطفية  
والاجتماعية دوراً ملحوظاً ومتقدماً . وفيما يتصل بالأحداث العاطفية المتصلة  
بالحواري نحن بإزاء لونين منهن : حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على  
أنهن جواري تجرى عليهن أحوال البيع والشراء ، أو يدعنا نفهم ذلك يقينا ،  
وفي حالات أخرى صمت وتركنا في حيرة ، ولو أن جو الأحداث يجعل  
من المؤكد أن «الجارية» في مثل هذه الروايات فتاة حرة ، وأن اللفظ يجيء  
صفة لها ، إيماء إلى ما هي عليه من ثقافة وصبي وجمال ، وأحياناً تأتي في  
سياق من المستحيل معه أن تكون أمة رقيقة . والسكثرة الغالبة من المستشرقين  
أقامت دراستها على أن لفظ «جارية» يعني دائماً أنها رقيقة مشتراة ، والقلة  
تجاوزت اللون الأخير ، الذي عرضنا له ، دون أن نتوقف عنده أو تبني  
عليه حكماً .

إزاء هذا الواقع بداني من المفيد أن نحدد أولاً معنى كلمة «جارية» .  
إذا عدنا إلى المعاجم العربية ، وهي بدايةً طريقة لتحديد المحتوى ، وجدنا

أبها تعنى في القاموس المحيط للفير وزبادة : « فتية النساء » ، وفي ديوان الأدب للفارابي : « التي نهديها » ، وتوسع المصباح المنير للفيومي ، وتميز من بين كل المعاجم بأنه يشير إلى الدلالات الفقهية للألفاظ ، فذكر أنها « الشابة لخصها ، والجارية السفينة ، سميت بذلك لجريانها في البحر ، ومنه قبيل للأمة جارية ، على التشبيه ، لجريانها مستسخرة في أشغال موالها ، ثم توسعوا حتى سمو كل أمة جارية ، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على السعى ، تسمية بما كانت عليه » . فأنت ترى أن كلمة جارية يراد بها لغة ، في الأصل : « الفتاة السكاعب الشابة » ، وأضيف أنا ، أنها كانت تطلق في قرطبة على الفتيات والشابات من الحرائر أيضاً ، ممن يجعن هذه الصفات ، وصفات أخرى ارتبطت بالجوارى في تلك الأيام ، من التربية العالية ، والثقافة الواسعة ، والعواطف الدافئة ، والتمسك من الموسيقى ، عزفاً وتلوقاً ، ومعرفة الغناء ، وحفظ الشعر ، وألوان من الجمال الحسى ، كبياض البشرة ، وشقرة الشعر ، وزرقة العينين ، مما حدثنا عنه ابن حزم نفسه ، وسنعرض له فيما بعد .

إذن ليست كل جارية « رقيقة » في كتاب الطوق ، وتجاهل هذه الحقيقة أدى إلى أخطاء فادحة في تقييم وضع المرأة الأندلسية ودورها ، وغراميات ابن حزم الثلاثة ، التي تحدث عنها في الطوق ، تدور حول جوار . في إحداهما يقول : « أحببت في صباى جارية . . . » ، ثم يضيف : إنها نشأت في دارهم ، ولسكننا سوف نجد في منتصف الطريق من القصة ، أنها لم تنتقل معهم ، حين تركت أسرته منية المغيرة إلى مساكنهم القديمة في بلاط مغيث ، لأسباب لم يفصح عنها ، واكتفى بقوله : « ولم تنتقل بانتقالنا لأمر أوجب ذلك » .

أما في القصة الثانية فيقول : « كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نعم . . . » . وتلاحظ هنا أنه أضاف الجارية لنفسه ، وأعطانا اسمها ، وتركنا نفهم في لباقة أنه بلغ بحبه لها غاية ، فعرف

الحياة معها لأول مرة ، وأصبحت هي على يده امرأة ، وكانت المودة بينهما متكافئة ، وأن الموت اخترمها منه فتية ، كان حين ماتت في سن العشرين ، وكانت هي دونه ، وأقام بعد وفاتها سبعة أشهر حزينا عليها ، لا يتجرد عن ثيابه (١) ، وأنه بكأها طويلا ، على شحيح دمه ، وجمود عينه .

وأما القصة الثالثة : فجرت في بيت امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والتقوى ، ومعها «جارية من بعض قراباتها» . من اللاتي قد ضمها معه النشأة في الصبا ، ثم غاب عنها أعواما ، تركها حين أعصرت ، وعاد فوجدها جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فرددت وتحيرت ، وطلعت في وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبهت في خديها أزاهير الجمال فتعت واعتمت ، وكانت من أهل بيت صباحة ، وظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وطبق وصف شبابها قرطبة : وبات عند المرأة التي يعرفها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عنه الجارية ، على جاري العادة في التربية ، وكاد قلبه أن يصبو ، ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل ، وامتنع بعد ذلك من دخول هذه الدار ، خوفاً على لبه أن يزدنيه الإحسان ، رغم أنها وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل .

فابن حزم ، كما ترى ، يستخدم في مغامراته الثلاث لفظاً واحداً ، ومع ذلك فأنت لا تشك أنك في المغامرة الثانية أمام جارية أمة ، أحبا وتركت في أعماقه ذكرى آسية ؛ ولكنها ذكرى موصول استمتع ، حزين على ماضع منه . على حين يتحدث في الثالثة عن فتاة حرة يقينا ، تنادي بجارية دلالة ،

---

(١) التمييز لابن حزم ، ومعناه في لغة للمواطن ، الخاصة غير ما يفهم من ظاهره تماما ، إنه يعني أن ابن حزم لم يمارس «الحب طوال هذه الشهور السبعة» ، هل نجو حلال طبعاً ، مع زوجة له ، أو جارية ملكتها يمينه ، وليس المراد منه ، كما يفهم من حرفيته ، أنه لم يغير ثيابه طوال مدة . والتمييز مستخدم حتى الآن بين عدد كبير من القبائل العربية المقيمة في أعلى صعيد مصر ، وبعضها قدم من المغرب .

لأن الجارية لا تنجب ، وهي موضع الطمع ، وليست لها عائلة تنسب فيها ، وإنما لها سادة ينصرفون في شأنها ، وفتاته هنا هي النقيض من ذلك كله ، من بيت كريم ولها أهل ، وليست مطمعا لأحد ، فاختصر الطريق وأمسك بنفسه عن الزلل ، وامتنع من التردد على بيتهم . ويرجح بك الظن في الأولى رجحاناً لا يبلغ حد اليقين ، أن الجارية فيها حرة وليست من الإماء ، لأن ابن حزم اشتهاها ، وتابعها في إصرار ، وصلته في لطف ، وبقي على الرغبة فيها عامين كاملين ، ولو كانت من الجوارى حتماً ، تباع وتشترى ، لا شراها لنفسه ، أو لا شراها له أبوه ، أو لأفصح عن رغبته هذه هي الأقل ، ولقد عرض أكثر من مرة لبيع وشراء الجوارى الماشقات أو المعشوقات .

وقد تتبع استخدام اللفظ ، في وقتنا الحاضر ، في بعض مناطق من العالم العربي ، فوجدت القبائل العربية التي استقرت في أعلى الصعيد من جنوب مصر ، قادمة من المغرب في القرن الحادي عشر الميلادي وما تلاه ، والأندلسيين الذين استقروا في الجزائر أو المغرب أو تونس ، بعد طردهم من وطنهم عام ١٦١٣ م ، ما زالوا يستخدمون الكلمة في حياتهم الأسرية ، ينادي بها الرجل زوجه تدليلاً لها وتودداً إليها : يا جارية ! .

وتحدث ابن حزم أيضاً عن فتيات حرائر ، يذكرهن بأسمائهن حين لا يسمى ذلك إليهن ، ولا يمس القاعدة التي اخبئها لنفسه في أول (الطوق) ، وأشرنا إليها من قريب ، وكاهن ينتسب في الطبقة العالية التي ينتمي إليها ، ونعرف من روايته أنهم لمن دون الجوارى ثقافة وتمكناً من المعارف العامة ، وإجادة للفنون الجميلة وإقبالا عليها ، فهو يحدثنا عن ضنى العامرية ، كريمة المظفر عبد الملك بن أبي عامر ، الذي ولي الحجابة بعد أبيه ، وكان يقرب منه هيبة ونفوذاً وإن قصرت أيامه ، ونعرف أنها تعزف الموسيقى ، وتصنع الألحان لنفسها وتطلب من ابن حزم أن ينظم لها شعراً تلحنه ، وتنغني فيه .

وعرض ابن حزم مرة واحدة لحالة في أمرتهم ، وذكرها بالاسم ،

حين حدثنا عن الحب العنيف المتبادل بين أخيه أبي بكر ، وزواجه عاتكة بنت قند ، وكانت فيما ، يقول : لا مرمى وراءها في جمالها ، وكرم أخلاقها ، وكان أبوها قائد الثغر الأعلى على أيام المنصور ابن أبي عامر ، وقد شفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأنحأها شدة كنفها به ، وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه ، لا يلهيها من الدنيا شيء ، ولا تسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقبائل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها . فلما توفي في الطاعون الذي اجتاح قرطبة عام ٤٠١ هـ - ١٠١١ م ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، لفها للسقم والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بهام . ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهي كذلك لم يكن لها غيره .

وتستطيع المرأة في المجتمع القرطبي إذا فاضت مشاعرهما أن تعشق ، وأن تعبر عن عشقتها ، وأن تأخذ زمام المبادرة ، وأورد لنا ابن حزم مثالين لهذا ، فتاتين حرتين ، وكليهما من طبقة هلي جاري عادته ، ذكر اسم الأولى ومن أحبته ، لأن غرامهما انتهى بالزواج ، وفارق الزوج والزوجة هذه هذه الدنيا في زمن متقارب ، قبل أن يحرر كتابه بسنوات ، فلم يجد في ذكر الأسماء حرجا ، وهي عاتكة بنت قند وأخوه أبو بكر ، على نحو ما ذكرنا من قريب . أما المثال الثاني فعن فتاة من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ، وأطلق عليها لفظ « جارية » ، رغم أنها حرة أكيدا ، لأن صاحبها كانت فيما يبدو على قيد الحياة ، وهو يكتب « طوق الحمامة » ، فلم يرد أن يكشف حالها ، ولأن الشاب الذي عشقته كان أكثر من صديق ودود لابن حزم ، فهو يصفه بأنه : « من إخواني جداء » ، وكان الفتي من أبناء الكتاب ، وبلغ بها حبه مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط ، واشتهر الأمر وشاع جدأ ، حتى علمه الأبعاد ، إلى أن تهوركت بالعلاج :

وكان الذين يجمعون إلى المركز الاجتماعي المرموق ، صباحة الوجه ، ورجاحة العقل ، واكتمال الصورة ، وارتقاء السالك ، يصبحون مهبط

الأطماع ، وقبيلة الفتيات ، ومحدثنا ابن حزم أن أبا عامر ، ابن المظفر  
عبد الملك الحاجب الثاني للعامريين ، وحفيد المنصور بن أبي عامر ، كان  
جاراً لهم ، وبه ملامح لبيبتهم ، حين كان آل حزم يسكنون منية  
المغيرة في الجانب الشرقي من قرطبة ، ويصفه بأنه « من أهل الأدب  
والخلق والذكاء والنبيل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب  
التمخيم ، والجاه العريض ، وحسن الوجه ، إذا صار إلى بيتهم تحفظته  
عيون الفتيات ، وتزاحم على رؤياه ، ومات كثيرات من محبته ،  
لأنهن علقن أوهامهن به ، وخانن ما أملنه فيه ، ويقدم لنا ابن حزم واحدة  
منهن ، جارية تسمى هفراء ، عرفها وعهدا لا تستر بمحبته حيث  
جاست ، ولا تجف دموعها ، ويضيف أن أبا عامر أخبره بأنه « رأى اسمها  
فضلاً عن غير ذلك » .

ويقص حديث امرأة مصرية النشأة ، عالية المنصب ، غايظة الحجاب ،  
رأت في من أبناء الكتاب عابراً قرب منزلها ، فعلقته وعلقها ، وتهادياً  
المراساة زماناً على أرق من حد السيف ، ويتركنا ابن حزم عند هذا  
القدر من القصة لا يزيد شيئاً ، لأن بطليها معاصرين له ، والمعاصرة  
حجاب ، ويعتذر لنفسه : « لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل  
وذكر المسكائد » ويدعو الله لهما ، ولجميع المسلمين ، أن يسبل  
عليهم ستره .

كانت المرأة الأندلسية إذن تتمتع بقدر من الحرية لا بأس به ، إذا قيس  
الأمر بأحوال تلك الأيام ، وهي حرية تتحرك في نطاق تقاليد العصر  
نفسه ، ومن الخطأ أن نوازن بينها وبين واقع المرأة في العالم المتحضر على  
أيامنا . مثلاً لم يكن طابع الحياة الاجتماعية يسمح بالاختلاط في دائرة  
واسعة على النحو المعهود بيننا ، ولكن الرجال والنساء كانوا يلتقون في  
ساحة الدرس ، وفي السمر العائلي ، وفي الحفلات الاجتماعية ، وأعجبني  
ابن حزم حين رد حجج الفتيات عن الفتيان الأجانب عن الأسرة في البيوت  
( م ١٧ - ابن حزم )



للى جارى العادة وحدها ، فهو يقول من الفتاة الجميلة التى التقى بها عند  
صيدة من معارفه بأنها : ولم تحجب عنى على جارى المادة فى التربية ،  
والعادة تختلف من طبقة إلى أخرى ، وتتمايز بجماعة وجماعة ، وتتفاوت  
من جبل إلى جبل ، وهو نفسه يفتننا عن جارية اشتد وجدها بقى من  
أبناء الرؤساء ، أهيف ومتصاون وبميد عن المعاصى ، ولا هلم عنده ، وكثر  
خدمها ، وطال أسنهما ، وضيت بحبه ، وهو بفرارة الصبا لا يشمر ، ويمنهما  
الحياء من إبداء رأيا إليه ، وكانا إلفين فى النشأة ، فلما تمادى الأمر  
شكت ذلك إلى امرأة صائبة للرأى ، كانت تثق بها لأنها قامت على تربيتها ،  
فنصحتها بأن تعرض له بالشعر ، ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يابى بها ،  
إلى أن عيل صبرها ، ووضاق صدرها ، ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها  
معه ، بعض الليالى منفردين ، فلما حان قيامها عنه ، بدرت إليه فقبلته  
فى فمه ، ثم ولت ولم تكلمه ، تهادى فى مشيا ، فبهت وسقط بيده ،  
وفت فى عضده ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرآ ، إلى أن جذت جملتها  
هد النبوى ٥

وسيدات الطبقة هى من ابن حزم أو خبر ما «مصورات» «ومحجوبات»  
على حد تعبيره ، ولكن كلمة «مقصورة» أو «محجوبة» لا تعنى  
أنهن بمنزل عن الرجل ، وأن أسواراً هالبة وصفيفة من المتفرقة تقوم بينهما ،  
ولنما تشير إلى مركزهن الاجتماعى من الثراء والرفاهية ، فهن لا يفارقن  
البيوت عاملات أو ساعيات فى طلب الرزق ، ولهن من الخدم والأعوان  
بها يغنيهن عن الخروج ، فهن يقضين حياتهن فى البيوت - وأى بيوت  
يجلسن جماعات ، تأتين الأخبار ، ويتبادلن آخر الإشاعات ، ويحببن على  
الوصف (أقاربهن من الرجال ، وسحب النساء فى هذا أثبت من حب  
الرجال) . ويقص علينا ابن حزم خير صديق له من سراوات الرجال ،  
هى بمحبة جارية مقصورة ، وهام بها ، وقطعه حبه عن كثير من مصالحه ،  
إلى أن كانت هى التى تعلمه على ما ظهر منه ، ومما يقوده إليه هواه : فكيف

تأني لهذه « المقصورة » أن تعذله له لو لم تكن نلقاه. وتحدث إليه ؟  
وبدرك ابن حزم واعياً دور الفراغ والتبطل ، والترف مع القدرة ،  
والسلامة والصحة ، حياة المرأة ، وكيف يصبح الزواج معها مطاباً  
وغاية وبهجة ، وإليها يرد دوران فكرها حول الجنس ، وإلحاحها عليه ،  
« وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهن متفرغات البال من  
كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ،  
لاشغل لهن غيره ، ولا يخفن لسراه ، والرجال مقتسون في كسب المال ،  
وصحبة الساطان ، وطاب العلم ، وحياسة العيال ، ومكابدة الأسفار ،  
والصيد وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ، وملاقة الفن ،  
وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهكذا كله متخيف للفراغ ، صارف  
عن طريق البطل » وهي لفظة هصرية ، رغم ألف عام مضت عليها ، تحسب  
لابن حزم ، وتلقى مع أحدث نظريات علم النفس الحديث .

وقدم لنا ابن حزم عرضاً ، وفي إلماحات خاطفة ، ألواناً من المهن التي  
أسهمت فيها المرأة أو اهتمت بها ، من غير طبقته بالطبع ، فهي تعمل مربية  
ومدرسة لأبناء الطبقة العليا ، وتربي هونفسه على يدها ، تعلم معها القرآن ،  
وأجاد الخط ، وتذوق الشعر ، ومنهن كانت الطيبية والحجامة ، والسراقة  
والدلالة ، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ،  
والصناع في المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك ، ومن نافذة الحديث القول  
بأن المرأة في الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقى ، وتعزف ألوانها المختلفة ،  
وتجيد الغناء في ألحان تصنعها أو تصنع لها ومن بينهن الثريات اللائي تتميز  
أملاكهن عن أملاك أزواجهن ، ويدرنها الحسابهن ، أملاك هريضة وواسعة  
ومن الحوارى من كانت للبهجة والمعاشرة ، فهي مثقفة قارئة ، تغنى وتجد  
الموسيقى ، وتقرض الشعر ، وتنشده لغيرها إن لم تحسن نظمها ، ومنهن التي  
ليست على شيء من ذلك ، أو حظها منه قليل ، فهن للخدمة وما شق من  
أعمال البيت .

وكانت المرأة تراسل مع من تحب ، وتلقى رسائله أيضاً ، وقدم لنا ابن حزم ألواناً من هذا التراسل ، صورته وطرائقه وحيله وكيف يجري ، فالرسالة تجيء في «الطف الأشكال ، وجنسه أماج الأجناس» وهي لا تعنى أن اللقاء بين الاثنين عمير دواماً ، فقد تكتب لهذا السبب ، أو لأنها أبلغ تعبيراً في بعض الأحيان ، لحصر في الإنسان ، أوجياء أو هيبة ، وبعض أهل المحبة ممن كان يدري ما يتناول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ، ويجيد النظر ويدقق في الحقائق ، لا بدع المراسلة وهو يمكن الوصول ، قريب الدار ، أتي المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة . ويحمل الرسائل عادة النساء من ذوات المهن اللاتي أشرت إليهن من قريب ، وكان دخولهن إلى البيوت سهلاً وميسوراً ، إلى جانب من لا يخشى خطره ، ولا يلفت النظر إليه ، لأنه خامل لا يؤبه به ، ولا يهتدى للتحفظ منه ، من الصبيان وأصحاب الهيثة الرثة ، أو البذاذة في الطلعة ، ومن لا يلحق الشك به لنسك يظهره ، أو سن عالية قد بلغها ، ويبدو أن دور النساء العجائز بين هؤلاء كان أكثر شيوعاً ، ينفدن إلى الحجب المصونة ، ويحرقن الأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، ويعرف ابن حزم أمثلة واقعة لكل هذا ، ولكنه لا يذكر أسماء أصحابها ، ولا يزيد الأمر توضيحاً حتى لا يئبه عليها ، ويكتفى بأن يؤكد على «ذوات العكاكيز والنسابيح ، والثوبين الأحمرين» ، ويشير إلى أن الفتيات الشابات كن يتلدين التحليل بهن ، ويحدث أحياناً أن تستخدم المرأة أو الرجل حاملاً للرسالة ذا قرابة من المرسل إليه ، لا يضمن معها عليه بهذا العون . وكان المقتدرون يستخدمون الحمام الزاجل أحياناً .

وكان العشاق يتبادلون الهدايا ، على قدر متساو بين المرأة والرجل ، نعرف ذلك من ألوان الهدايا التي ذكرها ابن حزم ، ويبدو أن الأمر كان شائعاً ، فقد جاء به عالم قرطبة الكبير مؤكداً في أسلوب التبصر :

« وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان ، نحصل الشعر بمبخرة بالعنبر ،  
مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت في أصلها بالمصطكى ، وبالشمع الأبيض  
المصفى ، و أنفت في تطاريف الوشى والخز ، وما أشبه ذلك ، لتكون  
تذكرة عند البين . وأما تهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثر  
استعمالها ، فكثير بين كل متحابين حظر عليها اللقاء . »

ونعرف أن الزواج كان يتم في سن مبكرة للغاية ، فقد تزوج أبو بكر ،  
أخو ابن حزم ، في الرابعة عشرة من عمره تقريباً ، على ما نفهم من قصة له  
في الطوق ، ونفترض أن زوجته كانت في مثل هذه السن تقريباً ، إن لم تكن  
أصغر قليلاً ، فقد توفي في الطاعون الذي اجتاح قرطبة في يولية من عام ١٠١١م ،  
في الثانية والعشرين من عمره ، بعد زواج استمر ثمانية أعوام . والعجائز كن  
يعين دوراً في تهيئة الظروف بين الخطيبين ، فالمرأة إذا أسنت وصادحت ،  
وانتقطع عندها الرجاء ، انصرفت إلى العبادة ، ونسكت بعمل الخير ، فهي  
تدلل العوائق ، وتحمل الرسائل ، وتحفظ السر ، وأحب الأعمال إليها ،  
أو أرجاها لقبول ، سعيها في تزويج يتيمة ، أو إعاقة ثيابها وحليها العروس مقلة ،  
ويؤثر أبناء الطبقة العليا أن يتزوجوا من فتيات ينسبن في طبقتهم نفسها ،  
إلى جانب ما يتسرون ، وتتدخل الأم إذا حاد ابنها عن هذا النهج ، ويقص  
عليها ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبي عريق ،  
أراد أن يتزوج من جارية كانت في بيتهم ، فباعها أمه على غير إرادته ،  
وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات ، ففقد عقله ، وأصيب بالجنون :

ونعرف من الطوق ، أن رجال الطبقة العالية يفضلون الشقراوات ، وكن  
تلمنصر الغالب بين نساء الأندلس فيما يبدو ، وكانت نعم صاحبة ابن حزم التي  
عرضنا لها من قبل شقراء ، ولم يكن يرضى بغير الشعر الذهبي بديلاً حتى ولو  
كان على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، ويجد ذلك في أصل تركيبه ،  
ولا تواتيه نفسه على سواه ، ولا يحب غيره ألبتة ، وجاء في هذا على مذهب  
أبيه كما يقول . وكان أمراء الأندلس ونخلفائه محبوبين على تفضيل الشقراوات ،

لا يختلف في ذلك منهم مختلف ، وكانوا أنفسهم شقراً نزاعاً إلى أمهاتهم ،  
وترك ذلك الاتجاه بصماته واضحة في شعر الغزل الأندلسي بعمامة ، وعند  
أبي عبد الملك مروان المعروف بالطليق بعمامة ، وكان أشعر أهل الأندلس على  
زمانه ، وجاء شعوه الغزلي كله في شقراوات (١).

وكانت عادة التسرى واتخاذ الجوارى إلى بجانب الزوجة شائعة ، لأن  
ابن حزم حين أراد أن يثنى على الحياة الزوجية لأخيه قال إنه لم يكن له قواها  
ولا معها امرأة غيرها ، وبالمثل يمكن القول ، وهو رد فعل طبيعي ، أن  
الرجل حين لا يقنع بزوجه ، ولا يخلص لحياة أمرته ، أن تمد للزوجة رغبتها  
إلى غيره ، ويذكر ابن حزم أيضاً ، في مقام الثناء على زوجة أخيه ، أنها لم  
يكن لها غيره . ولكن الجارية تستطيع أن تصد سيدها عن الاستمتاع بها ،  
وبخاصة إذا كانت تبيت على حب قديم ، ويحدثنا ابن حزم عن جارية رائعة  
جميلة كانت في دار ابن الركيذة ، محمد بن أحمد بن وهب ، سبق لها  
مولى ، وجاءته المنية ، وبيعت في تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ،  
وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله ، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ،  
ورضيت بالخدمة ، والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة ،  
وفاء منها لمن ذهب ووارثه الأرض ، والتأمت عايبه الصنائع ، ولقد رامها  
سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ، ويخرجها مما هي  
فيه ، فأبت . فضربها غير مرة ، وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك  
كله ، وأقامت على امتناعها .

وكانت المرأة صاحبة الرأي في زواجها ، ويحدثنا « الطوق » عن جارية  
جميلة كانت لسعيد بن منذر بن سعيد ، صاحب الصلاة في جامع قرطبة ،  
على أيام الحكم المستنصر ، أحبها وتعلق بها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها ،  
فطلبت منه ساخرة أن يتخفف من لحيته ، وكانت طويلة كثرة ، لأنها تستبشع

(١) أنظر دراسة كاملة عنه في « غرسة غرث » مع شعراء الأندلس والمنتخب ، ترجمة  
الدكتور الطاهر أحمد سكي ، ص ٨٣ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

ضحامتها ، فأعمل فيها الجاحمين ، على حد تعبير ابن حزم ، حتى لطفت ،  
ثم دعا بجماعة أئمة دهم على عنقها ، وحين خطبها لنفسه لم ترض به ، وكان  
في جملة من حضر أخوه حكيم بن منذر ، فأمر إلى واسع في المجلس أن  
يرض عابها رغبته في خطبها لنفسه ، فرضيت به ، وتزوجته في ذلك المجلس  
بعينه ، وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم ، على أسكته وورعه  
واجتهاده ، ولكن الجارية أنفذت رأيها ، وما كانت لتستطيع لو لم يكن لها  
ذلك حقاً مقررأ .

وقد حرص الخادون من الكبار والقادة على أن يقيموا دون حياتهم  
الخاصة أسواراً عالية ، وأسفاراً صفاقاً ، يتأون بها عن إحدب السمر ،  
ويجلون أشخاصهم أن تصبح موضع القال ، وأقد تغزل شاعر من قرطبة  
في السيدة صبيح أم هشام المؤيد ، لو كانت في فقرة من حياتها على صلة  
بالمصور بن أبي عامر ، ودفع بالشعر على لسان جارية تغنى في مجلسه ، فإن  
غنت به ، حتى أمر بقتلها . وكان البيت المالك ينأى بفتياته أن يصبح حديثاً  
يدور على ألسنة الشعراء تغزلاً وإعجاباً ، وحين تغزل أحمد بن مغيب ،  
وينسب أمرة قرطبية عريقة ، بإحدى بنات الخلفاء ، ولم يفصح لنا  
ابن حزم عن اسمها ، كجاري عادته في مثل هذه المواقف ، قتل وأهدت  
أسرته عن المناصب العامة ، وكان ذلك سبباً لملكهم وانقراض بيتهم .  
لأويقدم لنا ابن حزم صورة دقيقة ومفصلة للمرأة حين ترغب ، ولها  
حين تكره ، « وأقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل ،  
فعهدتها أصفى من الماء ، والطف من الهواء ، وأثبت من الحبال ، وأقوى  
من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون في الملون ، وأنقد استحكماً من  
الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من الأعيان ، وأثقب  
من النجم ، وأصدق من كدر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من  
البر ، وأجمل من وجه أبي عامر ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ،  
وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرصح من النقش في الحجر . »

ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت حداوة أقطع من الموت ،  
وأنتقم من السهم ، وأمر من الستم ، وأوحش من زوال النعم ، وأقبح من  
حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحق ، وأدهى من غلبة  
العدو ، وأشد من الأمر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار  
وأناى من الحوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية  
المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظح من فجأة البلاء ، وأبشع  
من السم الزعاف ، وما لا يتولد مثله عن الذحول والنرات ، وقتل الآباء  
وسبى الأمهات :

وتبقى نظرة ابن حزم إلى المرأة . هل أستطيع القول أنها نظرة الكثرة  
الغالبة من طبقته وفي جيله ؟ . همت أن أرجع ذلك ، لولا أن ابن حزم  
حرر كتابه ولما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، وهى من تغلب فيها  
الحماسة والاندفاع والانفعال ، فيجىء حصادها الفكرى منسما بالقوة والتوهج ،  
ولكنه أقرب إلى الذاتية المنفعلة منه إلى الموضوعية المتأملية ، ولعله فيما عاش  
من أعوام امتدت به حتى قاربت السبعين ، طامن من حديثه ، وأعاد النظر فى  
أفكاره ، ولو أنها فى جوهرها ظلت صحيحة وسليمة دون ما شك . وقد  
أنصفها فى مواطن كثيرة ، فبرى أن الرجال والنساء سواء فى قمع الشهوات  
والميل إليها : « وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحلب ، وطال ذلك ،  
ولم يكن ثم مانع ، إلا وقع فى شرك الشيطان ، واستهوته المعاصى ، واستفزه  
الحرص ، وتغوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ،  
حتما مقضيا ، وحكما نافذاً » . « وشئ أصفه لك تراه عيانا ، وهو أنى ما رأيت  
قط امرأة فى مكان نحس أن رجلا يراها ، أو يسمع حياها ، إلا وأحدثت  
حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأنت بكلام زائد كانت عنه فى غنية ،  
مخالفة لكلامها وحركتها قبل ذلك ، ورأيت التهم لمخارج لفظها ، وهبته  
تقلبها ، لا ثما فيها ، ظاهرا عليها ، لا خنما به . والرجال كذلك إذا أحسوا  
بالنساء » :

« ولست أبعده أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ  
بالله أن أظن غير هذا ، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ،  
أعني الصلاح ، غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من  
النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الدرائع أمسكت .  
والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل  
الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالحة من الرجال  
من لا يداخل أهل النسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الخالية للأهواء ، ولا يرفع  
طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر  
بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الحلوات  
المهلكات : والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد ، لا تحرق  
من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء » .  
وبرى أن المعاناة اليومية إذا جارت ، والخدمة إذا تجاوزت الحد ، والغذاء  
إذا قل ، تذهب بجمال المرأة وتأتي على نضارتها ، « وإنما النساء رباحين متى  
لم تتعاهد تقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال :  
إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً ، وأعتق جودة ، لصبره على  
مالقى بعضه وجوه للنساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح ،  
واختلاف الهواء وعدم الكن » . ولست أرى الأمر كذلك ، فالحق أن الرجل  
والمرأة في هذا سواء أيضاً .  
ولم يكن ابن حزم يرى في مماع الغناء ، ولو من امرأة ، أو الموسيقى ،  
شيئاً يكره ، أو يخالف قواعد الشريعة ، مادامت المتعة تبيح من الفن وحده ،  
دون أن تحرك المرأة كأنثى في أعماق الرجل للماذات الشهوة ، ويقول عن  
نفسه : « وإني أذكر أني دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار  
صوته ، وتألف القلوب أخلاقه ، فلحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه ،  
فسارحت إليه ، وكان هذا سحراً » . لقد استجاب ابن حزم للدعوة ، ولكنه  
امسك عن الذهاب ، بعد أن صلى الصبح ، وأخذ زيه ، لأن فكره طرقه ،  
فستحيت له أبيات من الشعر ، فبقى معها حتى أكملها ، ثم كتبها ودفعتها إلى صديق  
كان معه .



ولم يكن ابن حزم يحسن الظن بالمرأة كثيراً ، وهي نتيجة طبيعية لما مر تحت عينه من تجارب وأحداث ، حين كان صبياً ، أو في سن فتية ، فلم يستطع لها تعليلاً علمياً ، ولا ردها إلى أسبابها المنطقية ، ولا نسي شيئاً مما رآه بينهن ، فأدى ذلك إلى غيرة شديدة طبع عليها ، وسوء ظن في جهتهن فطر عليه ، وقد أشرف من أسبابهن على غير قليل ٥

ونلاحظ في نهاية المطاف أن ابن حزم على امتداد كتابه أمسك عن أية إشارة تتصل بحياته الأصرية ، ولم يعرض لأية أحداث تتصل بعائلته ، فلا نعرف شيئاً ، ولو عارضاً ، عن زوجه أو أمه ، بخارج اعترافاته الذاتية عن غراماته ، ولم ينه في أي منها إلى زواج ، وعدا حديثه عن أخيه أبي بكر وزوجه عاتكة. ولا نجد بين صفحات الكتاب صدى لولادة بنت المستكفي ، وعاصرت ابن حزم ، وكانت حديث قرطبة ومنتدياتها ، لأن ولادة أخذت طريقها إلى الشهرة والتحرر بعد وفاة والدها الخليفة المستكفي عام ١٠٢٥ م ، وهي على أبواب السادسة عشرة من عمرها ، طرية الإرادة ، فبلا من التجربة نشق طريقها إلى المجد خائفة وجللة ، وسط أحداث صاخبة ، وفي عاصمة قلقة ، تبيت على فتنة وتصبح في بركان . ومع خطاها الأولى لم يكن ابن حزم في قرطبة ، كان خارجها ملاحقاً ومضطهداً ومنفياً ، وقبل هذا التاريخ لسنوات ثلاث تقريباً كان في شاطبة يحرر رسالته ، ولم يكن ساعتها في حياة ولادة ما يرفعها إلى مرتبة أن تصبح واحدة من بطلات الطوق ، وأن تدخله تاريخاً بروى ، وحدثاً يسجل ، وعرفها ابن حزم على التأكيد طفلة ، كما عرف أبوها ، وكان قد ألقى به في «المطبق» أقسى سجون قرطبة ، مع ابن عمه (١) أبي المغيرة واحتفظ له ابن حزم بكراهية عميقة واحتقار شديد ، ولا يعرض الكتاب لغير نساء الطبقة العليا من قريب أو بعيد ويجيء حديثه عن المرأة أصلاً فيما يتصل بموقفها محبوبة أو هاشقة ، وهو الموضوع الذي أدار عليه رسالته ، ويجيء غيره قليلاً وعرضاً ، للتأكيد أو التذليل أو التوضيح ٥

(١) انظر صفحة ٦٦ من هذا الكتاب .

## مؤلفات في الحب

### صهقت طرق الحمامة

شغلت قضية الحب العرب علمياً مع بداية الازدهار الثقافي ، من مطلع القرن التاسع الميلادي ، حين وضع كل شئ على بساط البحث ، وتعرضت كل الآراء لسهام النقد ، ونظر الباحثون في كل المسلمات ، وشغل العصر بألوان من الفكر والجدل ، والإيمان والإنكار ، على نحو لا تتسع له الحياة إلا حين ترقى ، وبحسبان أن حياتنا الإسلامية الآن ، بعد ألف عام كاملة من الزمان ، لا تتسع لمثل هذه الألوان من الدرس ومن الخلاف .

يذكر المسعودي في الجزء الثاني من كتابه « مروج الذهب » : « تنازع الناس في ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نظر وسمع واختيار واضطرار ، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ، وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه » (١) .

وتضم طبعة باريس منه ، فيما يذكر المشرق جوستانافون جرنباوم ، حديثاً مفصلاً عن مجلس في قصر يحيى بن خالد البرمكي ، ضم اثني عشر مسلماً ومولداً واحداً ، قدم كل واحد منهم رأيه في طبيعة العشق ، في جمل محكمة ، تتفق جوهراً ، وإن اختلفت شكلاً وتركيباً ، وجملة ما رأوا : أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب ، ولا يكون إلا بازدياد النفسين ، وامتزاج الشكلين ، وهو دليل على تمازج الروحين : ومن اعتدال الصورة ، وتكافؤ في الطريقة ، وملاءمة في الهمة ، ويتخلل في القلب كما تتخلل قطرات المطربين ذرات الرمل . وهو سحر ، أخشى وأحر من الحمر ، والمحب جواد مشرق الطبيعة ، فائق للشمال ، وينبعث من تجانس الأرواح نور ساطع تهتز لإشراقه طبائع الحياة ، فيصير من ذلك اللامع نور نخالص ،

لاصق بالنفس ، متصل بجوهريتها ، يسمى هشفاً ، والعشق نار تتأجج في القلب ، يمتد اللسان ، وبه يصبح المحب عبداً مماوكاً ، ولا ينجح فيه علاج ، والإفراط فيه يحطم الجسد ، ويعاني المحب من اللوعة والأرق ، و صومه البلوى ، وإفطاره الشكوى ، وهو أشرف سبب للفناء .

وهؤلاء الرجال كما سماهم المسعودي (١) :

• علي بن الهيثم ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر

• أبو مالك الحضرمي ، وليست له أية ترجمة فيما رجعت إليه من

المصادر .

• محمد بن الهذيل العلاف ، أبو الهذيل ، ولد حوالي سنة ١٣٥ هـ -

٧٥٢ م ، وتوفي ٢٢٦ أو ٢٣٥ هـ - ٨٤٠ أو ٨٥٠ م ، وكان مولى لقبيلة

عبد القيس ، وتلميذ عمرو بن عبيد ، وهو مولى كذلك ، وعرف بالصلاح

والتقوى ، واشتهر بالزهد والورع ، واعتنق رأى واصل بن عطاء في

الاعتزال ، وألف كتباً كثيرة لم نصلنا . وبعد أبو الهذيل من كبار المعتزلة ،

وهو المؤسس الحقيقي للتأليف في علم الكلام .

• هشام بن الحكم الكوفي ، المتوفى نحو عام ١٩٠ هـ - ٨٠٥ م ،

متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية في وقته ، ولد بالكوفة ، ونشأ في

واسط ، وسكن بغداد ، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكي ، فكان القيم

بمجالس كلامه ونظيره ، وصنف كتباً منها : الإمامة ، والقدر ، والشيخ

والغلام ، والرد على المعتزلة في طلحة والزبير ، والرد على الزنادقة ، وغيرها .

وكان حاضر الجواب ، سئل عن معاوية : أشهد بدرا ؟ فقال : نعم ، من ذاك

الجانب ! ، ولما حدثت نكبة البرامكة استتر ، وتوفي على إثرها بالكوفة ،

ويقال عاش إلى خلافة المأمون .

• إبراهيم بن سيار النظام ، أبو إسحاق ، كان من أعظم تلاميذ محمد بن

١ - فون جرفباوم ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٨٧ وما بعدها ، ترجمة إحسان

عباس وآخرين .

الهديل العلاف ، ترك البصرة موطن نشأته إلى بغداد بعد مدة ، وتوفى بها في هنفوان شبابه ، بين سنتي ٢٢٠ و ٢٣٠ هـ - ٨٣٥ و ٨٤٥ م ، ووقف حياته على مقاومة الدهرية والديهانية ، أو بمعنى آخر ضد الفاسفة الهلينية ، والتي أثرت على الرضخ من هذا في بناء مذهبه الديني تأثيراً حاسماً ، ودافع عن القول « بنحاق القرآن » ، وحارب قول الخنزية « بالرأي والقياس » ، وكان إلى جانب ذلك بارعاً في اللغة والجدل وقول الشعر ، وكان الجاحظ من أظهر طلابه ومريديه ، وقد تعارفنا في البصرة في مجلس أبي الهديل العلاف ، رغم أن التلميذ كان يكبر أستاذه بعشرين عاماً ، إلا أن الأستاذ كان يتمتع بمنزلة عالية في عالم الكلام ، وبمكانة اجتماعية رفيعة .

• هلى بن منصور ، ولم أعتز له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر ، المعتز بن سليمان بن طرخان ، أبو محمد ، ولد سنة ١٠٠ هـ - ٧١٨ م وتوفى عام ١٨٧ هـ - ٨٠٣ م ، كان وأبوه من العباد النساك ، ومن حفظة الحديث في البصرة ، انتقل إليها من اليمن ، وكان ثقة ، حدث عنه كثيرون منهم أحمد بن حنبل ، وله كتاب في المغازي ،

• بشر بن المعتز ، أبو سهل ، المتوفى عام ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م ، ينحدر من الكوفة ، ولكنه استوطن بغداد ، ونظم تعاليم المعتزلة في شعر لتشييع بين الناس ، وكان من أنصار الإمام على رضى الله عنه ، على النقيض من معتزلة الكوفة ، فوضعه هارون الرشيد في السجن ، غير أنه عاد فاكتمسب نفوذاً قوياً في عهد المأمون وانتهت إليه رئاسة المعتزلة في بغداد ، وكان إلى جانب ذلك شاعراً ، وله قصيدتان تعليميتان أوردتهما الجاحظ في كتابه الحيوان وشرحهما ، وألف هارون الرشيد « صحيفة » في البلاغة أوردتها الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » ،

• ثمامة بن أشرس النميري ، مولى بني نمير ، كان زعيماً للتدرية في زمان المأمون والمعتصم والواثق ، وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال ، وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس

يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لحرفهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : أنظر إلى هؤلاء الحمير والبيتر ! ، ثم قال : ما صنع ذلك العربي بالناس ، وقتل ثمانية في زمن الوائق ، وقيل توفي عام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م ؛

• السكال ، من الإمامية ، ولعله محرف عن « السكالك » ، وهو الذي جادل جعفر بن حرب ، وتوفي عام ٢٣٦ هـ - ٨٥٠ م ، وصاحب هشام بن الحكم ، ولم أجد في كتب التراجم ما يلقى على شخصية ، المزيد من الضوء ؛

• الصباح بن الوليد ، من المرجئة ، ولم أجد له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر ؛

• إبراهيم بن مالك ، فقيه بهري ، جادل لا يعرف له مذهب ، ويظن جرنباوم أنه : إبراهيم بن مالك بن بهبود البزاز ، المتوفى عام ٢٦٤ هـ - ٨٧٧ م ، ولم أجد في كتب الترجمات التي بين يدي ما يدعم هذا الكلام ، أو يضيف ، أو يضيف إليه مجديدا ، بل بقي على شخصية للرجل مزيداً من الضوء ؛

• والشخصية الأخيرة هي الموبد ، أي قاضي الجوس ، واكتفى المسعودي بوظيفته دون أن يقدم لنا اسمه ، أو من يكون ؛

فأنت ترى أننا أمام حشد من رجال الفكر ، يمثلون مختلف جوانبه ، فيهم المسام والمجوسى ، والمتكلم والفيلسوف ، والأديب والفقيه ، ويكاد اجتماع هؤلاء في مجامع واحد أن يكون ضرباً من أمن المستحيل ، ولكنه دون شك يقدم لنا تصوراً دقيقاً وهو جزاء لما كانت عليه أفكار العلماء ، في البيئات التنافسية المختلطة : عن الحب وشاكله ، ونجد صداها واضحة عند بعض الشعراء المعاصرين لهم ، وبخاصة عند العباسيين الأحنف ، وفي مؤلفات الدارمين من تلاميذهم ، ومن جاءوا بعدهم .

• • •

كان الجاحظ ( ٧٦٧ - ٨٦٨ م ) ، فيما أعلم ، أول مؤلف عربي كتب في الحب الإنساني ، وقد عاصر بعض من ذكرنا في الفترة السابقة ، وتعلمه

على البعض الآخر ، وجاء حديثه عنه مختلفاً عن الجميع ، مستمداً من منهجه في الكتابة ، فهو يجمع بين القساية والمسامرة ، والإفادة والتعليم : ولقد عرض له في موضعين ، أولهما في كتابه « الحيوان » ، حيث أفاض القول عن الجانب العملي منه ، ما يحسن ويسعد ويجميل ، وما يكون في صالح طرف دون الآخر ، فيؤدى إلى الملل والنفور والتعاسة ، ووازن بين ألوان ممارسته عند الشعوب المختلفة ، وبين المخاوف غير الإنسانية ، وخلال ذلك كله يلتقى بتجاربه وملاحظاته ، وهي مفيدة ومتقدمة ، وتقع من العلم الحديث موقع الرضى ، ويتحدث عنها صريحاً ، لا يتحرج ولا يوارى ولا يكفى . وكان « الحيوان » مما كتب في أواخر حياته ، فجاء حافلاً بالمعارف الصادقة في هذا الباب .

وأما الكتاب الثانى رسالة صغيرة « فى العشق والنساء » ، وهى فيما يبدو مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضياً عنه كل الرضى ، أو لعله رأى فيه ما يثير مشاعر المحافظين ، « وكان يحرص دوماً على أن تكون حياته الخاصة ملكاً له ، لا يجاهر بمهصية ، ولا يباهى بخطيئة ، يؤثر السر ، ويتبعد عن مواطن الإثارة ، ولا يرى فى مداراة العامة عيباً ، ويتخذ من مرضاتها ملهياً ، ما دام ذلك لا يحملة على غير ما يرغب فيه من الأفكار والعادات » (١) ويقول فى خاتمة الرسالة ، معتذراً عن الإطناب فيها : « فمنع من ذلك فرط الكبر ، وإفراط العلة ، وضعف المنة ، وانحلال القوة ، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال ، وألقى قلوبنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اعتزنا على ما ابتدأنا به ، وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثُر عددها ، وتبعد غايتها فرأينا - والله الموفق - أن نقصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السآمة ، وبالمألوف إلى مجاوزة القدر » :

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسة فى مصادر الأدب ، ص ١١٢ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ ، وقد نُفِدت والطبعة الرابعة قيد الصدور .

وانتتم الجاحظ رسالته ، بما ابتدا به ابن حزم وغيره كتبهم ، معتدراً عما فيها ، وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجدل المصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني للصعوبة ، التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، واللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل . على أن الكتاب إذا كثر هزله سمخف ، كما أنه إذا كثر جدده ثقل ، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارىء ، وينهى النعاس عن المستمع . ولم يصلنا الكتاب الأصلي فيما أعلم ، ولم أجد بين من درسوا الجاحظ من وقف عند المشكلة وأبدى فيها رأياً ، ويبدولى وقع الجاحظ في الرسالة مختلفاً ، غامضاً ومضطرباً ، وتلتقى به في السطور الأولى كمن يكمل حديثاً ليس بين أيدينا بدايته ، ويرد على قوم لا تعرف دعواهم ، ونحن معه بين مترادفات لا تنهى إلى شيء واضح ومحدد ، وتدور الرسالة إجمالاً حول محورين :

• المرأة ، ويتحدث عن مكانتها ، ويراهما أرفع حالا من الرجل في أمور منها : « أنها التي تخطب وتراد وتعشق وتطلب ، وهي التي تغدى وتحمى » ، مما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه ، وبالشيء إلى بيت الله ، وبصدقة ماله ، وعق رقيقته ، فيسهل عليه ولا يأنف منه ، فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه ، وطار الغضب في دماغه ، ويمنع ويعصى ، ويفضب ويأبى ، وإن كان المحاف سلطاناً مهيباً ، وإن لم يكن يحبها ولا يستكثر منها ، وكانت قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصداق ، قليلة النشب ، وايسن ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات في صدور الأزواج . « ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، إن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا ناساً يزرون عليهم أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن ، أكثر حنوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال » :

ويقدم صورة مفصلة للمرأة المفضلة على أيامه عند عامة الناس ، من البصراء بجواهر النساء ، وجهابذة الأمر ، فهم يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السميينة والمشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة . وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة للعصب ، وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول : ولذلك قالوا : خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جلد عنان ، وكأنها قضيب خيزران . والتشبي في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك من الضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا المعنى أعرف . . . وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنثور فقالوا : أعلاها قضيب ، وأسفلها كتيب .

● "والمحور الثاني الحب ، ودوره في حياة الناس ، وما يمليه من مواقف أو يفرضه من سلوك ، وثمة رجالان لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه مشغول عن التوغل فيسه وبلوغ أقصاه ، والملك للضخم الشأن ، لأن في الرياسة الكبرى ، وفي جواز الأمر والنهي ، وفي ملك رقاب الأمم ، ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل في الحب ، والاحتراق في العشق .

ويقسم الحب إلى مراتب ثلاث : الحب والهوى والعشق ، فالحب أصل الهوى ، ومن الهوى يتفرع العشق ، والعشق ما يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كهداً على فراشه . ويعرض لبعض ما يعترى المشاق والمحبين من الغضب والنفور والساو والحنين ، ومن الرغبة والعجز والحاجة إلى إشباع الغريزة ، وسيطرة المرأة على الرجل ، واستحوادها على جانب من فكره ، على الرغم من المشاغل التي تزحم حياته ، وتستغرق فكره ، والسعادة التي تعقب نوال العاشق معشوقه ، وهي سعادة ، فيما يرى الجاحظ ، لا تعد لها سعادة . ثم يقارن بين لذة الظفر بالعدو ، ونيل العاشق ، فيرى ( ١٨٢ - ابن حزم )



الثانية أقوى أثراً ، وأبلغ متعة : وفتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها ،  
وأكمل لذاتها ، ظفر المحب بحبيبته ، والعاشق بطليبه .

والرسالة قصيرة ، لا تتعدى عشر صفحات في طبعة حسن السندوني  
لمجموعة « رسائل الجاحظ » ( القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م ) ، ويغلب  
على الشكل الذي جاءت فيه الطابع الإنشائي ، والملاحظات العجالة ، لا يقف  
معها الجاحظ عند أية فكرة مستغرقة أو معللاً ، ولا يلتقط لها مما حوله  
شاهداً ، على جاري عادته ، إلا في حالة واحدة .

وقد دخلت كتب الجاحظ الأندلس في زمن مبكر ، في حياة الجاحظ  
نفسه ، فنحن نعرف أن فرج بن سلام لقي الجاحظ ، وتوثقت الصلة  
بينهما ، وجمعتهما صداقة وطيدة ، وجاء بكتبه إلى الأندلس ، ومن بينها  
« البيان والتبيين » أكيداً ، لكن لا يمكن الجزم بأن رسالته « في العشق  
والنساء » كانت بينها ، لأن الجاحظ فيما يبدو لم يكن راضياً عنها ، ولا حفيظاً  
بها ، وأبعد منه أن تقول أن ابن حزم عرفها ، أو أفاد منها ، لأن  
المنهج عند كليهما مختلف ، والنظرة متباينة ، ولا نلمح لها في « طوق  
الجمامة » أثراً .

وفي الفترة نفسها هاش أبو يوسف يعقوب ، الشهير بالكندي ( ٨٠٣ -  
٨٧٣ م ) ، وتميز بين فلاسفة عصره في الشرق بأنه من سلالة عربية أصيلة ،  
ومن ثم أطلق عليه لقب فيلسوف العرب ، وهو أول ، وآخر ، تلميذ  
لأرسطو عربي الأرومة في خلافة المشرق ، وكان انتقائياً في فلسفته ، فحاول  
على طريقة الأفلاطونية الحديثة أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو ،  
ويرى أن رياضيات فيثاغورس الجديدة أساس كل العلوم . وقد جمع إلى  
الفلسفة معرفة واسعة بالنجوم والكيمياء والنظريات البصرية ، والموسيقى ،  
وينسب إليه عدد لا يقل عن ٢٦٥ مؤلفاً ، من بينها رسالة في « العشق » ،  
والكنا ضاعت ، شأن معظم مؤلفاته الأخرى ، وقد شاعت كتبه في الشرق  
والغرب ، وقرأ روجر بيكون كتابه في البصريات في ترجمته اللاتينية ،

وباشرت تأثيراً واضحاً عليه، ولقد حفظت لنا الترجمات اللاتينية، ومن بينها ما قام به جيرار الكريموني، نسبة إلى كريمونا في إيطاليا، عدداً من مؤلفات الكندي أكثر مما هو موجود في أصولها العربية، ورغم ذلك لا يمكن الجزم بأن مؤلفاته دخلت الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر، وربما دخلت إليه كغيرها صحبة العلوم التطبيقية من فلك ورياضة وطب، أو تسربت إليه مستترة في ثنايا الاعتزال، ولم يصلنا شيء من رسالته في «العشق»، ولعلها استقرت مترجمة إلى اللاتينية في خزائن كتب مغمورة، في جانب من أوروبا، تنتظر اليد التي تزيح عنها الغبار، وأتصور أنها دراسة فلسفية تناول الأمر من جنبه النظري، المتصل بالأرواح والآلها، وليس في «الطوق»، ولا في حياة ابن حزم، ما يرجح أنه رأى الرسالة أو أفاد منها.

\*\*\*

ثم نلتقي بعد الكندي بأبي بكر محمد بن داود الظاهري (٨٦٨-٩١٠م)، في كتابه «للزهرة»، ومن المؤكد أن كتاباً آخرى، غير ما ذكرنا، سبقته، ضاعت ولم تصلنا، لأنه يذكر في مقدمة كتابه: «وقد رأيت ممن ينسب نفسه إلى الأدب، ويتحقق بتأليف الكتب، قصد في مثل هذا الكتاب إلى مقصد يبعد به عندي من الصواب، ابتداءً بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى لي ذكر بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وذكر أنهم كانوا من أتباع الهوى على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم». وهي إشارة لا يمكن أن تنصرف واقفاً إلى رسالة الجاحظ، لأنها على غير ما يصف أبو بكر، ولا تصوراً إلى رسالة الكندي، لأن هذه فلسفية وتلك أدبية تاريخية،

يصف أصحاب التراجم أبا بكر بأنه كان عالماً أديباً، شاعراً ظريفاً، من أذكى زمانه، لين الجانب مصقول المواهب، وكان رفاق صباه ينادونه «حصفور الشوك» لنحافته وصفوته، ونخلف والده في رئاسة المذهب الظاهري ولما يبلغ من العمر ستة عشر عاماً، وتولى التدريس، وألف في

الفقه الظاهري وفي الأصول . وكانت بغداد على أيامه مزدهرة للثقافة ،  
تدافع فيها الحركات الفكرية بكل ألوانها ، ترجمة وتأليفاً وحواراً ،  
تظلمها حماية الدولة ، وتغلبها حرية واسعة بلا حدود ، أشبه بما كانت عليه  
أئبنا أيام سقراط ، أو الاسكندرية في عهد البطالسة ، أو فلورنسة تحت حكم  
آل مديتشي ، بل إن بغداد وجدت في شخص الحلاج الصوفي الشهير  
سقراطها أيضاً ، ولعب ابن داود دوراً في محاكمته ، ولكنه توفي قبل أن  
أن يشهد إعدامه في عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م .

كان ابن داود حاد العاطفة منذ صغره ، ويقول عن نفسه : « ما انفكت  
عن هوى منذ أن دخلت الكتاب » ، وعرف بالتقوى في الوقت نفسه ، وقاسى  
من إلحاح الرغبة ومقتضيات العفة ، ومن ثم وجد متنفسه في البحث عن  
مثل أعلى في الحب وفي الحياة ، تستطيع رغباته المكبوتة أن تميز عن نفسها  
من خلاله ، فبدأ بولف كتاب الزهرة منذ حداثة ، ولما يزل ثلمبنا يتردد  
على الكتاب ، وأطلع أباه على أكثره ، وإذا هر فنا أن الأب توفي عام ٨٨٣ م ،  
أدركنا أن ابن داود كتب الجانب الأكبر من كتابه ولمسا يتجاوز السعة عشر  
هاماً من عمره ، ولو أن ذلك لا يعني بالضرورة أن الكتاب أخذ شكله النهائي  
في هذه السن ، وربما كان اختيار الأشعار يعود إلى هذه الفترة ، أما المقدمات  
والأفكار وترتيب الأبواب فجاء في مرحلة تالية . وقد شهر صباه بالميل  
إلى محمد بن جامع الصيدلاني ، وعمل كتاب « الزهرة » بسببه ، فيما يروى  
الخطيب البغدادي ، وإليه توجه بالحديث في المقدمة دون أن يشير إلى اسمه ،  
أو يرمي إلى صفات تحدده .

مهد أبو بكر لكتابه بمقدمة مسجوعة ، ثم عرض لمنهجة ، فلذكر أنه  
استودعه مئة باب ، ضمن كل باب مئة بيت ، ذكر في الخمسين باباً الأولى  
منها جهات الهوى ، وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وجعل الأبواب المنسوبة  
إلى الغزل أمثالا ، ورتبها على ترتيب وقوعها حالاً فحالاً ، فقدم وصف  
الهوى وأسبابه ، وبسط ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه ، ومن

الهجر والفراق وما أوجبه غلبات الشوق والإشفاق ، ثم ختمها بذكر الوفاء بعد الوفاة ، بعد أن أتى على ذكر الوفاء في الحياة ، ووضع لكل باب عنواناً مسجوعاً ، مثلاً محكمة<sup>٢</sup> ، يومي إلى محتواه ، مثل : « من كثرت لحظاته دامت حصراته ، العقل عند الهوى أسر والشوق عليهما أمير ، من تداوى بدائه لم يتصل إلى شمنائه ، ليس بلبيب من لم يصف مابه لطبيب ، إذا صح الظفر وقعت الغير .... » وعلى هذا النحو يمضي في بقية الأبواب .

أما الخمسون باباً الأخرى فأفانين من الشعر ، اقتصر فيها على قبيل من كثير ، وقنع من كل فن باليسير ، وأشار إلى منهجه فيها عند نهاية القسم الأول ، وجاءت أبوابه على النحو التالي : « ما قيل في تعظيم الله ، ما مدح به النبي وما استشهد به وأنشد بين يديه ، ما قاله شعراء الإسلام في أهل بيت النبي ، مرثي الملوك والسادات وأهل الفضل والرياسة ، نوح الأهل والأخوان على ما فقدوه من الشجعان ، ذكر النوح على من مات من الأبناء والقربان ، ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه ومن رزق الصبر فاستغنى بحسن عزائه ، ذكر التزهد فيما بقى والترغيب فيما يبقى ، ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخنفاء ... » ويمضي المؤلف في عناوين أبواب النصف الثاني على هذا النحو . وهذا القسم ليست له أية صلة بموضوع العشق ، وإنما هي مختارات شعرية تتناول قضايا عامة ، مما يدور حولها الشعر العربي عادة ، وتعرض لها كتب السمر والمختارات ، يعلق عليها برأي مقتضب له ، أو ينقل عن غيره ، ومن بين الشعراء الذين تكرر أسماءهم كثيراً : مرو القيس وأميرة بن أبي الصلت ، والناطقة النيباني ، والقطامي ، والحطيئة ، وأبو تمام ، والبحري ، وبشار بن برد ، وجميل بن معمر ، والحسن بن الضحاك ، وذو الرمة ، ومجنون بن عامر . ولم يهمل الأحاد غير المشهورين من الرجال والنساء ، المعاصرين له أو الذين بلغته الرواية عنهم ، على غير السائد في عصره ، وبين المؤلفين على أيامه .

لقد وصف المستشرق الفرنسي ماسينيون في كتابه « محنة الحلاج »

كتاب الزهرة « بأنه كتاب رائع عن الحياة العاطفية في تلك الأيام ، ومعرض  
في آراء المفكرين والأدباء في بغداد ، وما كان يدور بأذهانهم عن  
موضوع الحب » ، ويمكن أن نقول : « إنه أول مجموعة من الشعر ،  
تدور حول الحب الأفلاطوني ، قيلت في اللغة العربية في بغداد خلال  
النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي » .

وصل كتاب الزهرة إلى قرطبة ، كأشياء كثيرة من المشرق ، في زمن  
مبكر ، مبشراً بالحب العذري بين الأندلسيين ، وبعد ثلاثة أرباع القرن  
من تأليفه ، أثناء خلافة الحكم الثاني ٩٦١-٩٧٦ ، ألف ابن فرج الحيداني ،  
ويجب أن يكون قد مات في السجن عام ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م ، كتاب  
الحدائق ، مختارات من شعر الأندلسيين ، نحا فيه منحى ابن داود في  
كتابه الزهرة ، وسحاول أن يبزه ، فجعل « الحدائق » في مائتي باب ،  
يضم كل باب مائتي بيت من الشعر ، ليس منها باب ثكر اسمه لأبي بكر ،  
ولم يورد فيه لغز أندلسي شيئاً ، ويبدو أنه لم يقف بتقايده عند الشكل ،  
ولأنما تجاوزه إلى المحتوى ، فقد حفظ لنا الذين نقلوا عنه قصيدة أه تفيض  
عذوبة وتنضح عذرية :

وطائفة الوصال عفت عنها	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت	دياجي الليل سافرة للقناع
وما من لحظة إلا وفيها	إلى فتن القلوب لها دواعي
فملكك النهي جمحات شوق	لأجرى في العفاف على طباع
وبت بها مبيت السقب يظما	فيمينعه الكمام من الرضاع
كذلك الروض ما فيه مثلي	سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات	فأتحذ الرياض من المراعي

ولم يصلنا كتاب « الحدائق » لسوء الحظ ، فلا نعرف عنه إلا القليل  
جداً الذي نقله عنه من جاءوا بعده ، وضاعت معه ثروة هائلة من الشعر  
الأندلسي تباع أربعين ألف بيت ، في هذه الفترة المبكرة من الحياة الأدبية  
في الأندلس ، فلم يكن قد مضى على فتحه غير قرنين ونصف من الزمان .

أخذ كتاب الزهرة شعراً واتجهاً بجانب الحب العذري ، « وهو موقف ،  
فيما يرى غرامية غومث في مقدمته لترجمة الطوق إلى الإسبانية ، يمثل ثورة  
حقيقية ، لانعرف بالدقة حجم صداها في واقع الحياة ، لكن دورها في  
شعر الغزل الأندلسي ، على الأقل ، كان واضحاً ولاموساً . لقد كان  
الشعر قبله قصائد تدور حول الأغراض التقليدية المعروفة ، أو مقطعات  
كثيرة ذات نغم فظ وشيق ، مثل ما نجد في شعر الغزال ، شاعر إسباني  
كبير من القرن التاسع الميلادي . وقد وجد هذا التجديد الثائر في شعر الغزل  
أنصاراً متحمسين خلال فترة الحجابة العارمة ، وتبنته أخيراً أقاليم من  
الشباب ، يوجهها ابن شهيد وابن حزم ، وجعلته بين دعوات منهجها  
الجمالي ، ووجدت في الأخير خير من يدافع عنها ، وربما واحداً من قلائل  
حاول احتدائها في حياته ، وأعطاهما للطابع الأدبي النهائي بكتابه « طوق  
الحمامة » ، ممزوجة باللفظ ولون فريد من العفة ، ويمكن أن ندعوها  
إفلاطونية ، كما يقال عادة وفي تعبير شائع .

« لقد عرف ابن حزم كتاب الزهرة لأبن داود مباشرة ، وهي حقيقة  
لما تدرس كما يجب ، ذلك أن الأديب القرطبي عرف للفكر الظاهري في  
زمن مبكر ، أسبق بكثير مما يظن عادة ، وقد ارتبطت نظرية الحب  
البغدادى المصقول ، إلى حد ما ، بوجود المذهب الظاهري ، غير أنه من  
الضروري أن نضيف ، إنه على الرغم من وجود إشارة نصية بسيطة ،  
ومن للتوافق في الاتجاهات العاطفية ، فإن « الطوق » لا يكاد يدين « الزهرة » ،  
بشيء ، أو إن شئت يدين لها بشيء محدود للغاية . لقد تغربت النظرية  
وتأسبت ، وفقدت تكلّمها الواضح ، وتحللتها الخنث ، وما كان يقال في  
بغداد نثراً رقيقاً ، أو شعراً ملتقطاً ، أخذ ابن حزم يقوله في شاطبة ،  
دافئاً وإنسانياً ، عن نفسه وعن أصدقائه في قرطبة ، وأنت العاطفة  
واللهفة ، وهما خاصيتان إسبانيتان ، على أسوار التقليد التي تحول دون

تدفق النبع ، فارتووا من أعماقه ، ولكنهم مزجوه بدمائهم . إن الزمن لم يذهب عبثاً ! .

بإيمالا أنا مع غرسية غومث فيما ذهب إليه ، لأن التقاء ابن حزم ، كما سترى ، مع ابن داود في أكثر من فكرة لا يتقل من أصله ، لأنه تناول الأمر على نحو مختلف تماماً ، وإن اتفقا في رأس الموضوع وعنوانه .

أول ما نلاحظه من اتفاق بينهما أن كليهما استجاب في تأليف كتابه لعاطفة دافعة ، ميل ودود عند ابن داود لشخص لم يصرح به ، وذكر المؤرخون اسمه ، «شكا إليه عدم وجود نديم بأنس به في الخاوات ، ويجد عنده العزاء عن الغائبات ، يورد له الأخبار ويكتم عليه الأسرار ، فلما رأى ما به من غلبة الاشتياق ، ومن ميل إلى تعرف أحوال العشاق ، عزم على أن يوجه إليه نديماً يشاهد به أحوال المتقدمين ، ويحضره أخبار الغائبين ، ينشط بنشاطه ويميل بملاحة ، إن أدناه دنا ، وإن أقصاه نأى . وصدقة متينة عند ابن حزم وربطته بشخص من المرية لم يصرح باسمه ، ولم يحفظه لنا التاريخ ، لقيه فيها أيام أن هبطها لأجناً ، مهبط الجناح وحيداً ، إلا من رفقة مواسية ، وما لبث أن لحق به ، بابن حزم حين ترك المرية إلى شاطبة ، كتب إليه أولاً ، ثم شخص إليه ثانية : « فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة ، تذكرك من حسن حالك ما يسرني ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدتمته لك ، واستزدته فيك ، ثم ألبث أن اطاع على شخصك ، وقصدتني بنفسك ، على بعد الشقة ، وتناى الديار ، وشحط المزار ، وطول المسافة ، وهول الطريق ، وفي دون هذا ما سلى المشتاق ، ونسى الذاكر ؛ إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ؛ ورعى سالف الأذمة ، ووكد المردات ، وحق الشاة ، ومحبة الصبا ، وكانت مودته لله تعالى . » وكلفتني - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا تمزبداً ولا مفتحنا ؛ لكن مووداً

لما حضرني على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حتمظلي وسعة باعى  
فيها أذكره ، فبلدت إلى سرخوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته .  
وكلاهما دافع عن نفسه في مواجهة اتهام بعض معاصريه له ، أن  
الكتابة في المشتى أمر لا يليق بأولى الفضل ، يرفع ابن داود في وجهه  
معارضيه رأيه : « ونحن لو شئنا أن نذكر من كتاب الله جل وعز ،  
ومن أخبار المتقدمين من أنبيائه ، وأيضاً نخب من أوليائه ، ما يسهل  
عبيل الهوى على من أنكرها ، ويتربها من فهم من لم ير أثرها ،  
من حيث لا يستوجب به من عاقل أنكار ، ولا يلحق بأحد من  
الأئمة فيه عار ، لرجونا بإذن الله أن لا نتنصر عن ذلك . غير أن  
أن هذا الأمر ليس من أمور الديانات التي لا نشبت إلا بالاحتياجات ، وإنما  
هو شيء يختص به قوم يرقة طبائهم ، وتآلف أرواحهم ، فمن كان مثلهم  
فهو يعدرهم ، ومن خرج عن حدهم هان قوله . ويرد ابن حزم على  
ناقديه : « وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المنعصين على تأليف مثل هذا ،  
ويقول : إنه يخالف طريقته ، ونجاني عن وجهته ، وما أحل لأحد أن  
يظن في غير ما قصدته . »

وفيما يتعلق بذكر أسماء العشاق ، يتحرك ابن داود في نطاق ديني  
بخالص ، فيرفض ما يلهج به الناصر على أيامه من عشق الأنبياء ،  
وأنهم كانوا من أتباع الهوى ، على حال لا يجوز أن يضاف مثلاً إليهم ،  
لأن « إذاعة تلك الأخبار على العامة ونشرها بين الناس خطأ ،  
فإن العامة قد تنهها على غير وجهها ، وتستند إليها في التفريط والعصيان  
أو تضعها موضع الإنكار ، والأنبيون عليهم السلام ، والصالحون من أئمة  
أهل الإسلام ، يجل مقدارهم عن أن تذكر للعوام أخبارهم ، فيضموها في غير  
موضعها إن قبلوها ، أو يكذبوا حاكيتها إن أنكروها . ولم يكن في حاجه  
لأن يوضح موقفه من غير هؤلاء ، لأنه لم يعرض لأحد من معاصريه ،  
إلا ما كان فصصاً شائعاً ، يتناشده السمار . ويصدر ابن حزم في هذا



الجانب من منطق رفيع ومتحضر ، يأخذ للشواهد مما رأى وسمع وحدث له ، ولكنه يلزم نفسه الكناية عن الأسماء ، « فهي إما عورة لا نستجز كشفها ، وإنما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً . وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ، ولا يلاحظنا والمسمى عيب في ذكره ، إما لاشتهار لا ينبغي عنه الطي وترك التبيين ، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره ، وفلة إنكار منه لنقله » . ويرفض أن يقدم نفسه في الحياة الخاصة لأمره عصره ، « وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عبادهم ، فلا ينبغي الإخبار به عنهم » ، لأن « حقوقهم على المسلمين واجبة ، وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين » .

وقد يتفق العنوان عند الإثنين ويختلف المحتوى ، فكلا الإثنين ، ابن داود وابن حزم ، خص الرقيب بباب خاص ، ولكن شتان بين معالجة الإثنين ، الأول غرق في مختارات من الأشعر بعد خمسة سطور ، على حين عرض ابن حزم لأمر الرقيب في جوانبه المختلفة ، وقدم عاينه شواهد من عصره ، ومختارات من شعره ، ولو أن حديثه أيضاً كان قصيراً نسبياً .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن « الرسول » ، وهو السفير عند ابن حزم ، قدم ابن داود لهذا الباب بكتابة عن جميل ، يغلب عليها طابع القصة المخترعة ، دون أن يزيد شيئاً ، بينما تحدث ابن حزم عن دور السفير وهيئته وصفاته ، وما يجب أن يتحقق فيه من شرائط ليؤدي مهمته على أكمل الوجوه ، وعدد من كانوا يقومون بهذه المهمة حرفة أو تطوعاً . وكان فيه ، كالعادة ، موقفاً يقف على أرض الواقع ، وتلاحظ أن ابن حزم فرق بين الرسول ، وأسماء للسفير ، وهو من يقوم بالمهمة بنفسه شخصياً ، وبين المراسلة وتم عن طريق تبادل الرسائل ، مما ينبغي أن القراءة والكتابة كانت شائعة في الأندلس بين الرجال والنساء ، وعند كل الطبقات ، ويبدو أنها لم تكن في بغداد على هذا المستوى ، لأن ابن داود لم يعرض لهذا الضرب منها ، لا في باب « الرسول » ولا في باب آخر مستقل بها .

وكلاهما أوقف على الوشاية باباً مستقلاً . وكسره ابن داود على ثلاثة أقسام : سعاية المتحابين إلى غيرهما ، وسعاية المحب إلى محبوبه ، وسعاية المحبوب لمحبه ، وهي قسمة تلمح فيها بجانب المنطق الشكائي ، لأنها الصور العقلية للقضية ، دون أن يعنى ذلك أن لها الطابع نفسه في واقع الحياة . وجعل التأثير بالوشاية على ضربين ، لأنه يختلف تبعاً لأحوال العشاق : « فالعشاق المتيمون لا يقبلون قول الوشاة بل لا يسمعون ، لأن الثقة منهم بأحبائهم ما حية لقول من وشى بهم . » « وأما أهل الوله المتوطنون فيقبلون ما لا يسمعون فضلاً عما يسمعون . » وعرض ابن حزم للوشاية في حديث مستفيض ، قسمها من حيث الغاية على ضربين : واش يريد القطع بين المتحابين أدبة ، وثان يسعى للقطع بينهما لينفرد بالمحبوب ويستأثر به ، وألحق بهما ثالثاً يسمى بهما جميعاً : ويعرض لوسائل الواشي وألوانها تفصيلاً ، في حديث طويل يتناول فيه الكذب والنميمة ودورهما في إفساد المجتمع بعامة ، ويفرق بين النميمة والنصح تفريقاً جميلاً ، ويحمل عليهما بشدة ، ويستشهد على ما يقول بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأشعار له ، وأمثلة لما يعرف مما حدث في مجتمعه : فالبون شاسع بينهما في هذا الباب أيضاً ، ولا يدب أديب قرطبة ولا يسطر واحد مما كتب لأفكار فقيه العراق .

ويلتقيان في موضوع الهجر ، واختار له ابن داود عنواناً مسجوعاً على عادته : « بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد الديار من الديار » . واختار له ابن حزم عنواناً موجزاً ، كلمة واحدة : « الهجر » . وتناولهما للموضوع مختلف جداً ، فابن داود يجعل أضرب الهجر في قسمة عقلية أربعة : هجر ملال ، وهجر دلال ، وهجر مكافأة على المنوب ، وهجر يوجبه البغض المتمكن في القلوب : « على حين يلتفظ ابن حزم مادته من حياة العشاق نفسها ، فيجمله : هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وهجر يوجبه التلذذ ، وهجر يوجبه العتاب ، وهجر الملل ، وهجر التقل ، وهجر الجفاء . وقد التقى ابن حزم مع ابن داود في أقسامه وزاد عليها ،

ولكنهما اختلفا فيما هو أهم ، ألقى ابن داود بأقسامه الأربعة ثم مضى إلى ما استعذب من شعر غيره ، جرياً على عادته والتزاماً بمنهجه ؛ أبياتاً وراء أخرى ، دون تعليل منه . وفصل ابن حزم القول في كل قسم من هذه الأقسام ، عوارضه ونتائجه ووقعه في القلب ، وضرب الشواهد من حياته نفسه ؛ وعن أحداث صحبه ، ووشاه بأبيات من شعره منسباً أو منتهكراً .

واستشهد ابن حزم بالقرآن والحديث كثيراً : لأنه عرض للكاتب والفجور والفساد والغيبة ، وأدانها بشدة ، وأوقف باباً على « تبيح المدحسية » ، وآخر على « فضل التمتع » ، ومادة كليهما دينية ، تنهض على أساس من القرآن والسنة ، على حين لا تظهر في كتاب ابن داود ولا آية قرآنية واحدة ، والحديث الوحيد الذي أورده : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، نلتقى به في « طوق الحمامة » أيضاً ، وهو حديث نبوي متواتر يجري على الألسنة دوماً ، ولا يحتاج ابن حزم لأن ينقله من كتاب « الزهرة » ، أو يحفظه عن طريقه ،

وعلى النقيض من ذلك ، تجد الفلسفة اليونانية صدى أكبر في كتاب ابن داود ، فقد كانت بغداد على أيامه موطناً لترجمة الفكر الإغريقي إلى اللغة العربية ، وتمتعت بغداد في عصره بحرية فكرية أوسع بكثير مما تمتعت به قرطبة على أيام ابن حزم ، فكانت مسرحاً لآراء متطرفة وعنيفة في شتى المجالات ، دينية وفلسفية وسياسية ، ووجدت الفلسفة من الدولة رعاية وتشجيعاً ، على حين سيطر المذهب المالكي على عاصمة الخلافة في الأندلس ، وأقام دون الأفكار الأخرى صعباً بلاغة ، ولم تصبح الفلسفة أمراً محبباً ومرغوباً فيه ومتداولاً بين عامة المفكرين ، إلا في فترات محدودة ، وعلى نحو متواضع . ومن ثم ترد في كتاب الزهرة أسماء عدد من فلاسفة اليونان ، ينقل لنا عن بطليموس رأيه في الصداقة والعداوة ، وعن جالينوس « أن المحبة قد تقع بين العقليين من باب تشاكهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمقين من باب تشاكهما في الحمق ، لأن العقل

يجرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد ، والحتم لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين » . ويحكى عن أفلاطون قوله : « ما أدري ما الهوى ، غير أني أعلم أنه جنون إلهي ، لا محمود ولا محمود » . وأخذ على نحو جاد التفسير البالغ السخرية الذي وضعه أفلاطون على لسان أرسطوفان لتفسير ظاهرة الحب ، ولكن دون أن ينسبه إلى أفلاطون : « وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس في ذلك على حسب رقة طبائعهم » . ونسب إلى بعض المتطبيين ، دون أن يفصح من هم ، رأياً في « أن العشق طبع يعولد في القلب ، وتجتمع إليه مواد من الحرص ، فكلما قوى ازداد صاحبه في الاحتياج والاضجاع وشدة القلق ، وكثرة الشهوة » . وأرجح أيضاً أنه ينقل هنا عن طبيب يوناني .

وكان ابن حزم أيضاً على وعي بالفلسفة اليونانية ، واستخدمها على نحو أقل من ابن داود ، وصحح له ما نقل عنها ، حين أخذ رأى أفلاطون في تفسير ظاهرة الحب ، فهو يرى « أنه اتصال بين أجزاء النفس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي ومجاورتها في هيئة تركيبها » . وأورد حكاية نسبها إلى أفلاطون حين سجنته بعض الماوك ظاماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براعته ، ثم يمضي مع الحكاية إلى نهايتها ، بدعم بها رأيه في تفسير ظاهرة الحب ، ولم يهتد أحد إلى مصدر هذه الفقرة التي أوردها لنا ابن حزم . ثم نقل قول أبقراط الطبيب : « ما أحبني أحد إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه » ، وهذه الفقرة أيضاً لا ترد فيما بين أيدينا من التراث اليوناني . ويستشهد بأفليمون صاحب الفراسة : في أن العين باب إلى القلب ،

ومنا فذ نحو النفس ، ويجيء عنده بطليموس في بيت من الشعر ، مؤداه :  
لو عاش بطليموس لشهد بمهارته في رصد جري الكنسن . وكان ابن حزم  
في كل هذه الحالات أصيلاً في ثقافته ، ولم ينقل عن ابن داود ، ولا أفاد  
شيئاً ، وارتضى أن يصحح له ما خالفه فيه .

ويمكن القول إجمالاً ، أن ابن داود وابن حزم يتفقان في عدد من رموز  
التنصيا المتعلّقة بالحب ، ولكن النبع الذي يصدران عنه مختلف جداً ،  
ابن داود متأثر بالهovor المنطقية لكل قضية ، وبما قرأ أودر س حوله ،  
يأتي بها في أول الباب موجزة ، ثم يلاحقها بما يناسبها من أشعار في حدود  
المئة بيت ، كما اختط لنفسه منذ البدء ، وغلب الشعر على كتاب «الزهرة»  
وقات الأنعبار فيه ، وحتى ما ورد به من حكايات فإنما هي قصص لمشاهير  
العشاق ، أخذت طابعاً شعبياً ، ونخضعت لقواعد الأسطورة ، وكل جماعة  
تلونها بما هو أقرب إلى ذوقها ، فأنت معها لا تدرى أين تبدأ الحقيقة وأين  
ينتهي الخيال ، مثل مجنون ليلى ، وأخبار جميل بثينة ، وكثير عزة ، وعروة  
وعفراء ، وغيرهما . أما ابن حزم فيصدر عادة عن تجربته اللذاتية ، أو تجارب  
معاصريه التي شهدها أو عرفها ، وربما تجد في «الطوق» صدى قراءات  
بعيدة ، في ثقافات مختلفة ، ولكنها خافتة ، وتأتي ممزجة بتربة الأندلس ،  
ومن خلال عادات أهله وحياتهم وتقاليدهم . فكتاب ابن داود مجموعة  
رائعة من شعر الغزل ، لا تنتمي إلى عصره ، وإنما تعود إلى شعراء عاشوا  
قبله بقرن أو قرنين من الزمان ، صنفها على أبواب ارتضاها ، دون أن  
تعمكس في شيء نبض المجتمع حيث يعيش الحب واقعاً ، أما كتاب «طوق  
الحمامة» فلقطات واقعية لحركة مؤلفه ، والذين حوله ، في مجالات العاطفة ،  
حياة ودافئة ، وتنضح إنسانية في كل جوانبها .

• • •

وهناك آخرون عاصروا ابن داود ، وبالتالي سبقوا ابن حزم ، وعرضوا  
لموضوع الحب أيضاً ، وهم : أديب ، وشاعر ، وجماعة . أما الأديب

فهو : محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، أبو الطيب ( ٨٦٠ - ٩٣٦ م )  
في كتابه « الموشى » ، وشهر باسم : « الظرف والظرفاء » ، ولن أقف عنده  
هنا ، لأن المستشرق الإسباني هرسية غومث عرض له في دراسة ترجمتها ،  
وضمنتها هذا الكتاب ، وجاءت فيه تحت عنوان : « كتاب سبق طوق  
الحمامة ، وآخر جاء بعده » ، وفيها الغناء ، أو إن شئت ليس عندي  
ما أضيفه إليها الآن .

وأما الثاني فهو الشاعر العباسي الشهير : أبو العباس بن المعتز  
( ٨٦١ - ٩٠٨ م ) ، وولد في بيت ملك ، وتغياً أمجاد الخلافة ، وربى  
في باحة النعيم وموطن الجلالة ، فنشأ نبيل النفس ، دقيق الحس ، قوى  
الشعور بالجمال ، ولو حاً بالأدب والموسيقى ، شغله الأدب والطرب واللعب  
عن دسائس القصر ، ومطامع الحكم ، فلما ولي المقتدر ابن هـ ٢٩٥ =  
٩٠٨ م ، وترك تدبير الحكم وأمور السياسة لأمه ومن حولها من النساء  
والخصيان ، التف الحانقون بحول ابن المعتز فخلعوا المقتدر وبايعوه ، فماتوا  
الخلافة غير يوم وليلة ، لأن أعوان المقتدر لم يستسلموا ، وحاربوا خصومهم  
وقبروهم ، وأعادوا المقتدر إلى عرشه ، واختفى ابن المعتز في دار ابن  
الخصيص الناجر الجوهري ، ولكنه أعوان المقتدر مرعان ما اهتدوا إليه  
واعتقواوه ، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخازن فخنقه وسلمه إلى أهله  
ملفوناً في كساء .

كان ابن المعتز شاهراً رقيق اللفظ ، سهل العبارة ، بليغ الاستعارة ،  
رائع التشبيه ، بريئاً من كذب المدح وذم الهجاء ، ويعكس في شعره  
ما كان ينعم به من ترف للعيش ، ورفاهية المنشأة ، وتتجلى فيه معارفه  
الواسعة من فلك وتنجيم وفلسفة ، وقد أمعن في اتباع مذاهب القدماء في  
الشعر ، ولكنه تأثر بشطبي أبو نواس إلى حد بعيد ، وبرع في وصف  
الطبيعة ، ومطاردة الصيد ، ومراسلة الإخوان ، وإلى جانب الشعر له  
مؤلفات أخرى هي : البديع ، والجوارح والصيد ، وأشعار الملوك ،

وطبقات الشعراء ، ولزهر والرياض ، وكتباً أخرى ضائعة . ويذكر الأستاذ هلال ناجي ، نقلاً عن الدكتور صلاح المنجد ، أن له كتاباً في «العشق» ، توجد مخطوطته في مكتبة طشقند في الاتحاد السوفيتي ، ولا أعرف مصدراً آخر من الدارسين أو فهارس المؤلفين أو المكتبات أشار إليها ، وأجهل محتواها تماماً ، وأتصور أن فيها ما يفيد البحث ، ويضيف إلى سلسلة الكتب التي تدرس الحب جديداً ، وتلقى أضواء كاشفة على طبقاته ، وعلى ما بين أيدينا من مصادر أخرى :

وفي غيبة النص لا يمكن القطع ، أو حتى الترجيح ، بأن ابن حزم قد قرأ الرسالة وتأثر بها ، ولكننا نعرف على وجه اليقين أن ابن المعتز كان معروفاً في الأندلس ، ومعروفاً لابن حزم بخاصة ، عرض له في رسالته « فضائل أهل الأندلس » ، حين وازن بينه وبين الشاعر الطليق : « أبو عبد الملك » هذا في بني أمية ، كابن المعتز في بني العباس ، ملاحظة شعر وحسن تشبيهه . وكان في تراث ابن المعتز ، وفي حياته ، الكثير مما يعجب به ابن حزم ويحرص عليه ، وأقف بالاحتمال هند هذا القدر ، إلى أن يتاح لي أن أقف على رسالة ابن المعتز « في العشق » أو أقرأ منها ما يعين على اليقين .

وأما الجماعة فلاخوان الصفا ، وهي مدرسة فلسفية ازدهرت في البصرة قريباً من نهاية القرن العاشر ، حوالي عام ٩٧٠ م ، وتميل إلى الفيشاغورية ، وكان لهم فرع في بغداد ، ولم يكونوا جماعة فلسفية فحسب ، وإنما لهم ميول سياسية ودينية ، ذات ميول شيعية متطرفة ، ربما كانت إسماعيلية ، وتشكلت من عدد من كبار العلماء والفلاسفة هالهم ضعف الخلافة ، وفساد الأخلاق ، وفقر الشعب ، فحاولوا تجديد السياسة والأخلاق عن طريق الانفتاح الثقافي ، لأن الحقيقة تنضح وتزدهر في لقائها وصيراعها مع الأفكار الأخرى ، فإذا ما عزلت ، أو انعزلت ، تطرق إليها الوهن والعفن والفساد . وكانوا يتناولون في حرية كاملة كل القضايا الجوهرية ، ويرمون إلى إسقاط الحكيم القائم على أيامهم عن طريق تربية الشعب عقلياً ودينيماً ، وفي هذا

ما يفسر الغموض للذي أحاط بالأعضاء ونشاطهم ،  
كتب إخوان الصفا مجموعة من الرسائل مرتبة على غرار الموسوعات ،  
وبعض المقالات دليل بأسماء غير معروفة ، وتبلغ عدتها اثنين وخمسين  
رسالة ، تعالج الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى والأخلاق والفلسفة ،  
وتضم كل المعلومات والمعارف التي يتطلب عصرهم من الرجل المثقف أن  
يألم بها . وقد خصصوا الرسالة السابعة والثلاثين ، وهي السادسة بين مجموعة  
للرسائل الخاصة بالعلوم الطبيعية وعلم النفس ، وفيها هرصوا للعشق ، وعجبة  
للنفوس ، والمرض الإلهي . وأوردوا طرفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة في  
ماهية العشق وكمية أنواعه ، وكيفية نشوئه ومبدئه وعمله الموجبة له ،  
والأسباب الداعية إليه ، والغرض الأقصى منه ، ووقفوا عند الحكماء الذين  
ذموا للعشق وذكروا مساوئ أهله وقبح أسبابه ، ومازعموا من رذيلة فيه ،  
وعند الحكماء الذين قالوا إن العشق فضيلة نفسية فمدحوه ، وذكروا محاسن  
أهله ، وزينوا أسبابه ، وعند أولئك للذين لم يقفوا عند أسرارهم وعمله  
وأسبابه ، وحقائقها ودقة معانيها ، فزعموا أنه مرض نفسي ، أو جنون  
إلهي ، أو همة نفس فارغة ، أو فعل المتبطلين لا شاغل لهم ، ولا همة  
عندهم : وقدردت الرسالة على هؤلاء جميعاً :

« ولعمري إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهم إلا هم المعشوق ،  
وكثرة الذكر له ، والفكرة في أمره ، وهيجان للفؤاد ، والولاه به وبأسبابه ،  
ولكن ذلك من فعل البطالين الفراغ ، كما زعم من لا خبرة له بالأمور الجفية ،  
والأسرار اللطيفة ، ولا يعرف من الأمور إلا ما تجلى للحواس وظهر للمشاهد .  
وأما الذي يدرك منها بصفاء للذهن ، وجودة للتمييز ، وكثرة الفكر ، وشدة  
البحث ، ودقة النظر ، فهم بمعزل ، وذلك أن الذين زعموا أن للعشق هو  
مرض نفساني ، أو قالوا إنه حنين إلهي ، فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا  
ما يعرض للعشاق من سهر الليل ، وتحول الجسم ، وغوور العيون ، وتواتر  
النبض ، والأنفاس الصعداء ، مثل ما يعرض للمرضى ، فظنوا أنه مرض  
نفساني »



« وأما الذين زعموا أنه جنون إلهي فلإنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم  
دواء يعالجونه ، ولا شربة يسقونها إياهم ، فيبرؤون مما هم فيه من المحنة  
والبؤس ، إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرايين في الهياكل ورقى الكهنة ،  
ما شاكل ذلك ، كما حكى العاشق بقره ، وهو عروة بن حزام  
تقبل الحب :

بدلت لعراف اليمامة حكمه      وعراف نجد ، إن هما شفياني  
فما تركا من سلوة يعرفانها      ولا رقية إلا بها رقياني  
فقالا : شفاك الله والله مالنا      بما ضمنت منك الضلوع يدان

وكان أنحران الصنما ، فيما يبدو ، يميلون في تفسير ظاهرة العشق  
إلى أنه هوى غالب في النفس ، نحو طبع مشاكل في الجسد ، أو نحو  
صورة مماثلة في الخنس ، وربما كان هذا التفسير دليلاً يؤكد هدة  
الشوق إلى الاتحاد ، وامتزاج الروح بالروح ، كما قال ابن الرومي :

أعانقها والنفس بعد مشوقة      إليها ، وهل بعد العناق تداني  
وألثم فهاككي تزول صبايبي      فيزداد ما ألقى من الهيمان  
كان فؤادي ليس بشفي غليله      سوى أن يرى الروح حين يمتزجان

وأفاضت الرسالة في تأكيد هذا الوجه ، وتعرفت أسبابه منذ يبدأ  
نظرة عجلة ، أو التفاتة سريعة ، إلى أن يصبح تفانياً ، وتحدثت عن  
الاشتياق والهيام ، وأن كل محب لشيء من الأشياء مشتاق إليه ،  
هائم به ، وأنه متى وصل إليه ، ونال من بهواه منه ، وبلغ حاجته  
من الاستمتاع به ، والتلذذ بقربه ، فإنه لا بد يوماً من أن يفارقه  
أو يمله أو يتغير عليه ، وتذهب تلك الحلاوة ، وتبتلاشي تلك البشاشة ،  
ويحمد لهيب الاشتياق ، إلا المحبين لله تعالى من المؤمنين ومن عباده  
للصالحين : وهنا تعرض الرسالة للعشق الصوفي ، والغاية من وجود  
العشق في جبلة النفوس و محبتها الأجساد ، استحصانها لها ، وتفصره بأنه تنبيه  
النفوس من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ورياضة لها ، وتخرج بها ،

وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسية المعقولة ،

وتدلل الرسالة على ما ذهبت إليه من خلال نموذج تكشف فيه عن البنين  
والذكور ، وتنحصر لنا ظاهرة نفسية واضحة طالما تحدث عنها الشعراء ،  
ووقفتوا حياها مذهولين ، وشغلت حيزاً واضحاً من الأدب العربي ،  
فتشير إلى معرفة من عشق يوماً من أيام عمره لشخص من  
الأشخاص ، ثم تسلى عنه أو فقدته أو تغير عليه ، ثم إنه وجدته من بعد ،  
وقد تغير عما كان عليه وعهده من الحسن والجمال ، وتلك الزينة والمحسن  
التي رآها على ظاهر جسمه ، فإنه متى رجع عند ذلك ، فنظر إلى تلك  
الرسوم والصور التي هي باقية في نفسه منذ العهد القديم ، وجدها بحالها  
تلك ولم تتغير ، ولم تتبدل ، ورآها برمتها ، فتشاهد النفس في ذاتها حينئذ  
من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ما كانت من قبل تراها على  
غير تغير ، وتجد في جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها ، فعند ذلك  
تبين له وعلم أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هو تلك الرسوم والصور التي  
كان يراها على ذلك الشخص ، وهو اليوم يراها منقوشة في نفسه ، مرسومة  
في جوهره ، مصورة في ذاته ، باقية لم تتغير ،

والرسالة على الرغم من صغرها تثير جوانب كثيرة من المسائل المتعلقة  
بالمعشق ، ونظرة الناس إليه ، وقد حاولت تقديم الدراسة للنفسية العميقة  
لتعليل الظاهرة من خلال الثقافة التي كان العصر يزخر بها ، وقد حددت  
معالم كل اتجاه من الاتجاهات وفق الصورة التي تراها ، وفي محاولة للرد  
على هذه الاتجاهات حددت النظرة العملية ، وأكد إنحران الصفا على الجانب  
الاجتماعي للحب ، واهتدوا إليه من خلال استيعاب ظواهره ، نفسية واجتماعية  
ودينية وفلسفية وحسية ، وسحاولوا تفسيره وربطه بالفكر الإسلامي ، من خلال  
مفاهيم وحده ، دون أن يعرضوا لرأي الآخرين فيه ، من خلال  
كتاباتهم ومؤلفاتهم ،

ومن المهم أن نشير إلى أنهم وقفوا بدراساتهم عند نزعة الحب ، والأسس

النظرية التي تقوم عليها هذه النزعة ، ولم يعرضوا للجانب الأدبي منها ، ومع ذلك كان لهم دورهم الواضح في توجيه الأذهان نحو الحب العنصري ، رغم أن حيث لا يشاعون ، فنحن نعرف أن أبا حيان للنوحيدى (ت ٤١٤-١٠٢٣م) وكان تلميذاً للجماعة ، وإن لم يكن عضواً نشطاً فيها ، يعزو الازدهار في أيامه ، وما لحق الناس من غلبة الشهوات المادية على نفوسهم ، إلى انصرافهم عن مذهب الهدى في العشق ، أو ما ندعوه الآن بالحب العنصري .

دخلت رسائل أخوان الصفا في الأندلس ، هلى يد العالم الرياضى مسامة النجربطى ، أبو القاسم ، المتوفى عام ٣٩٧ هـ - ١٠٠٧ م ، إثر عودته من رحلة دراسية قام بها في المشرق ، ولهذا يذكر في بعض المخطوطات على أنه مصنفها ، والحق أنه اختصرها ، وتوجد مخطوطة مختصرة في مكتبة الإسكوريال : وكان مسامة معاصراً لابن حزم ، وأورد عنه خبراً عاطفياً برواية أبي دلف الوراق ، ونعته بالفيلسوف المعروف ، وما أشك في أن ابن حزم قرأ رسائل أخوان الصفا التي حماها مسامة ، وأرجح أنها كانت وراء اختياره « طوق الحمامة » عنواناً لتكابه : ذلك أن إخوان الصفا ، فيما يرى الباحثون ، أخذوا اسمهم من باب « الحمامة المطوقة » في كليلة ودمنة ، حيث يطالب ديشليم الملك من بيدبا الفيلسوف أن يحدثه ، إن رأى ، ( عن إخوان الصفا كيف يبدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض ، فليس يبعد أن يكون ابن حزم استلهم عنوانه من هذا الباب أيضاً ، متأثراً بكليلة ودمنة مباشرة ، أو عن طريق « إخوان الصفا » ، والباب يدور حول ما يصنعه الود في إنقاذ من التقوا على الحب في لحظات الحرج والضيق : وكذلك يمكن القول أن فلسفتهم أعانت ابن حزم في تكوين نظريته الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسيرها ، دون أن تتجاوزها إلى تأثيراته في الحياة ، وبعوانيه وظواهره ، وفي أمثاله وشواهدة ؛ فقد جاءت هذه في كتاب «طوق ذاتية مصفاة ، وأندلسية خالصة .

ويأتي ابن سينا ( ٩٨٠ - ١٠٣٧ م ) بهذه هولاء ، وقد جاء بعده ابن داود وقبل ابن حزم ، وهو أشهر شخصية في عالم الطب العربي ، بعد الرازي ، ويسميه العرب الشيخ الرئيس ، وفيه تجمعت عدة علوم عربية ، فكان طبيباً وفيلسوفاً ولغوياً وشاعراً ، وتبلغ جملة مؤلفاته ٩٩ كتاباً ، بينها عدد من الرسائل أو الكتب الصغيرة ، وكان رائداً عظيماً بلغ الغاية ، ولم يكن ما قدمه اللاتينيون بعده بقرنين من الزمان على أنه الفلسفة « المدرسية » إلا موجزاً لما انتهى إليه في فلسفته « ما وراء الطبيعة » ، وكتابه « الشفاء » و « القانون » يمثلان الآن ذروة الفكر في العصر الوسيط ، ويشكلان فيما يقول المستشرق الفرنسي جاك مس : ريسلر « محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية في تاريخ الحضارات » . ويهتما من بين كل مؤلفاته هنا رسالته « في العشق » ، وهي أقل كتبه شيوعاً واعتناء من للدارسين في العالم العربي ، على حين أنها تجد في الغرب عناية أكبر ، وقد ذهب الأب إسكندر دينومي أخيراً ، وهو يبحث عن الأصول العربية للحب العنيف في الغرب بعامة ، وعند شعراء الروبادور بخاصة ، إلى أن هذه الأصول يجب البحث عنها في الفلسفة العربية ، وبالذات عند ابن سينا في رسالته : « في العشق » ، فقد « أعطى للحب البشري ، أي لعشت النوى الحيوانية ، دوراً إيجابياً ، يسهم به في توجيه النفس نحو الحب الإلهي والاتحاد مع الله » . أي أن ابن سينا تغلب على الهرة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة في الإنسان ، وبذلك استطاع أن يصل بين طرفي الحب الطبيعي والروحي ، وبذلك « أعطى للنفس دوراً من المشاركة مع النفس الناطقة العاقلة فجعل حب الجمال الظاهري ، أي الحب الجنسي ، حوفاً في الاقتراب من الإله ، فإذا انضمت النفس الحيوانية إلى الناطقة اكتسبت من اتحادها هذا بذلك القوة السامية سمراً و شرفاً » . ومن ثم تعتمد النتيجة الحقيقية في الحب الإنساني على مدى ماتحين به الإنسان للاتحاد بالخير المطابق . يقول ابن سينا : « ومهما أحب الصورة المايحة باعتبار عقله ، على ما أوضحته ، عد

ذلك وسيلة إلى الرفعة والتناهي في الخبرة ، لو اوجه بما هو أقرب في التأثير من المؤثر الأول والمعشوق المحض ، وأشبه بالأمور العالية الشريفة .

وواضح من هذا أن تفكير ابن سينا لا يتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف ، تناولا مباشراً ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، مع أننا لو تتبعنا فكرة « الحب من أجل الحب » وإعلاء شأن المحبوبة ، لو وجدناهما متوفرين في الأدب العربي ، لا في الفلسفة العربية ، منذ قرنين أو أكثر قبل ابن سينا . أما القول بأن الحب رغبة لا يرجي لها أن تتحقق ، فإنه موجود ضمنياً في الشعر وإن لم يصنعه الشعراء فكرة أو يجعلوا منه مبدأ . وهو أيضاً ينطوي في الفكرة التي ترى أن « الرغبة » قوة دافعة لتطهير النفس وصعودها نحو الإله ، تلك الفكرة التي تمثل محور فلسفة الأخلاق في الأفلاطونية الحديثة . فإذا تحدث ابن سينا عن الحب الأرضي ونسب إليه أثراً خلاقياً ، ولا أقول تهديبياً ، فإننا لانبعد عن الصواب إذا رأينا في اتجاهه هذا توسيماً في فكرة اشتياق النفس للاتحاد بالله ، وهذا الشوق ، في رأى أفلاطون ، كامن في النفس منذ الأزل ، ويمثل حاجتها إلى أن تصعد من خلال النكيف الروحاني في مراتب الوجود ، وتبأى عن موضعها الغامض في هذه الحياة إلى التأمل المستمر في الواحد أو في الوجود ذاته (١) .

وواضح من هذا أن تفكير ابن سينا لا يتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف تناولا مباشراً ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، وليس في رسالته : « في العشق » ما يوحي بأنه يقيم أساساً فلسفياً للحب العذري ، وليس فيها شاهد واحد على أنه كان يوجه نظره إلى الأدب ، بل إن الإحكام الدقيق في عرض آرائه ينبىء بأنه كان يطبق مبدأه العام في النفس وأجزائها على مشككة أو ظاهرة بهيئتها ، ويحاول أن يجد لها مكانها الصحيح في نظامه الفلسفي ، وهو في كل الرسالة يعالج مبادئ عالمتها على نحو أكمل في

١ - جوستاف فون جرنباوم ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٨٣ وما بعدها ،

ترجمة إحسان عباس وآخرين .

مؤلفات أخرى . والحق . أن الحب في ذاته لا يمثل نقطة انطلاق في تفكيره ،  
ومحين يعرض له لا يتناول صورة تزعة الحب في الأدب ، ولكن دراسته  
إتقدم من بعض الوجوه الأسس النظرية التي تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية ؛  
كان ابن سينا معاصراً لابن حزم ، وأسبق منه بسنوات ، وأقطع بأن  
العالم القرطبي لم يكن عرف رسالة ابن سينا في العشق ، حين حرر كتابه  
« طوق الحمامة » ، حتى لو افترضنا أن ابن سينا حرر رسالته في بدء  
حياته ، وهو افتراض مشكوك فيه إلى حد كبير .

\* \* \*

تلك هي الكتب التي عرضت لمواضيع الحب قبل ابن حزم ، لا يعرض  
الأديب القرطبي لأي منها في كتابه ، غير إشارة جاءت في مقام التصحيح  
لابن داود ، وبتقييمها ربما كانت قد قرأ وتمثل ، ومن المحتمل أنها تركت  
شيئاً في أعماقه ، ولكنه في كل الحالات كان سيد قضيته وموضوعه ، لا يستلهم  
شيئاً غير فكره الخالص ، وأحاسيسه الذاتية ، وتجاربه الشخصية ؛ وقبل  
أن نتابع دور الطوق في كتب الحب ، سابقاً ومؤثراً في هذه المرة ، أَدع  
الفرصة للمستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث ليحدثنا بدوره عن  
كتابين ، سبق أولهما ابن حزم وجاء الثاني بعده .

## كتاب سبق طوق الحمامة

وكتاب جاء بعده

للمستشرق الإسباني : إميليو غرمسية غومث

ومن مجلة الأندلس ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٥١ ، ص ٣٠٩ - ٢٣٠

- ١ -

## كتاب الموشى للوشاء (١)

محدث أحياناً في مجال الأدب العربي أن المؤلفات الأشد انزواء ، هي التي تأخذ طريقتها إلى النشر قبل غيرها ، وتفسير هذا التناقض الظاهري والطريف أن الاستعراب علم حديث النشأة نسبياً ، وأن حجم الكتب المخطوطة غير المنشورة مازال يتجاوز الحصر ، ومن ثم اتجه اهتمام المختصين إلى المخطوطات ، وابتعدوا عن الكتب المطبوعة ، إلا في حالات نادرة تعود إلى أهميتها أو طابعها العملي ، لأن هذه ، على النقيض من تلك ، لاتقدم الصورة المثيرة لأمر كن مجهولاً . ولاشئ غير هذا يفسر لنا الظلام النسبي الذي يلف كتاب « الموشى » ، لأبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، وعاش تقريباً بين ٨٦٠ و ٩٣٦ م ، على الرغم من أنه طبع في ليدن بهولندا ، في مطبعة بريل عام ١٨٨٦ م ، بتحقيق رودولف ل. برونوف R. E. Brünnow ، وعن هذه الطبعة طبع مرتان في المشرق ، إحداهما في القاهرة عام ١٣٢٤ هـ ، في مطبعة التقدم ، بعنوان : كتاب الظرف والظرفاء ، (٢) ، والملاحظات

(١) القسم الأول من هذا المقال ترجم إلى الفرنسية بعنوان : المصادر الشرقية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم القرطبي : كتاب الموشى للوشاء ، وقرىء في الجلسة التي عقدت في يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥١ ، في المؤتمر الدولي للمستشرقين الثاني والعشرين ، وقد اجتمع في اسطنبول ، خلال الأيام من ١٥ إلى ٢٢ سبتمبر ١٩٥١ .

(٢) أنظر : مقدمة برونوف - وبروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٢٤ ، والملحق ج ١ ص ١٢٤ ، وإحالته على : ابن النديم ، وابن الأنباري ، وياقوت ، والسيوطي ، وفلوجل ، وفوستنفلد .

التالية تلور حول الموازنة بين هذين الكتابين وكتاب آخر استفاد منه ، وكان هذا ، على العكس من الأول ، قد نال شهرة مستفيضة ، بلغت قدراً لا يناقش ، وهو كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم القرطبي (٩٩٤-١٠٦٣م) ، ويعتبر حجر الزاوية في موضوع تأثير الأدب العربي في الأدب الأوربي ، وكتاب قمة في الأدب الأندلسي ، وقد درس وضحح مراراً ، وطبع نصه أربع مرات (٥) ، وترجم حتى الآن إلى اللغات : الإنجليزية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية (١) .

وفي مقدمة ترجمة سادسة للطوق ، إسبانية في هذه المرة ، وقد أنهيتها وتظهر هذا العام (٢) ، حاولت أن أضع كتاب ابن حزم الشهير في مكانه بين بقية الكتب المماثلة ، وهو يمثل فيما أرى ، إلى جانب كتابات أبي عامر ابن شهيد (٩٩٢-١٠٣٥م) ، خير ما أبدعت المدرسة الأدبية التي يمثلانها ، وتنسب إلى عالم الخلافة الأموية في قرطبة ، ذلك أن التوهج الأدبي يجيء على الدوام متأخراً بالنسبة إلى التوهج السياسي ، توهج سرعان ما انطفأ لانتشار عقد الخلافة سريعاً ، وعلى غير توقع . وإذا بدلنا أن نحدد في إنجاز عجل ملامح هذه المدرسة أمكن أن نقول إنها :

- أرسقراطية الحياة ، تطابق الاتجاهات الفكرية الجديدة للنظام القائم ،
- عربية الولاء ، أي أنها لا تلقى بالا إلى حياة المستعربين أو ثقافتهم ، أو حتى مجرد الاهتمام بالحياة الشعبية .
- قومية الاتجاه ، على الرغم من ولائها العربي ، وتمكنها من الأدب

---

(١) توجد ترجمة وإافية لابن حزم ، بقدر ما سمحت لي المراجع التي بين يدي ، يمكن للرجوع إليها في الملحق الثاني للترجمة الإسبانية التي سوف أشير إليها في الفقرة التالية .

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف ، لابن حزم القرطبي ، ترجمة إميليو غوسية غومث ، من النص العربي ، مدريد ، جمعية الأبحاث والنشر ١٩٥١ .

• بلغت طبعات النص في اللغة العربية حتى كتابة هذه السطور إحدى عشرة طبعة فيما أعلم ، أدقها وأرقاها الطبعة التي صدرت عن دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥ . ( المترجم )



العربي المشرقى ، مجاراة لموقف الأميرة الأموية فى إسبانيا فى مواجهتهم للعباسيين ، أى أنها تحاول أن تجافى النماذج المشرقية وأن تنافسها .

• عصرية الطموح ، نهتم بالإنسان ، وقل ما تعنى بالكتب ، ربما بسبب تسرب الروح الغربى إليها ، أى أنها تنهض على مزاج الكاتب أكثر مما تقوم على ثقافته الواسعة ، أو تمكنه من قواعد اللغة ، وتحاول أن تهرب من الرذيلة المشرقية ، فى الاعتماد الدائم على المؤلفات السابقة .

وهذه الملامح الأربعة يمكن أن نلتقى بها كلها ، فيما أعتقد ، عبر صفحات طوق الحمامة ، والملمحان الأخيران على الأقل تجدهما واضحين وموجزين فى تلك الجملة الشهيرة التى جاءت فى آخر المقدمة : « دعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا . وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما ملهبي أن أنضى مطية سواى ، ولا أتخلى بحلى مستعار » . والواقع أن ابن حزم قص علينا فى كتابه الشهير ، كما نعرف ، تجاربه الذاتية ، وتجارب أصدقائه ، وشخصيات أخرى سبقته ، وكلهم فى كثيرهم الغالبة أندلسيون : وفيما خلا الأحاديث النبوية ، والنصوص الدينية ، وبعض الأمثال ، وقليل من الإشارات العارضة ، لم يذكر فى مصادره غير كتاب واحد : كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني (٨٦٨ - ٩١٠ م) (١) ، وجاء به فى الحقيقة فى مجال تصحيح ما فهم المؤلف المشرقى من فقرة التقطها من حديث أفلاطون عن الحب والجمال فى محاوره « المسأبة » Le Banquet ،

(١) نشرة النصف الأول من ١٥٨ - كتاب الشهير ، واسترعى اهتمام ماسينيون بقوة فى كتابه : محنة الحلاج ( ١٩٢٢ ) ، لويس نيكول ، بمساعدة إبراهيم طوقان . عام ١٩٣٢ ضمن السلسلة التى نشرها جامعة شيكاغو ، وعن مخطوطات النصف الثانى ، ولما يزن مخطوطاً ، أنظر : مجلد الأندلس - المجلد ٤ ، عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، ص ١٤٧ - ١٥٤ .

• نشرت وزارة الإعلام العراقية النصف الثانى من الكتاب ، فى سلسلة « كتب التراث » بتحقيق إبراهيم السامرائى ونورى حمودى القيسى ، بغداد عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ( المترجم ) .

ويمكن الظن بدءاً أن كتاب الزهرة مصدر مباشر لطوق الحمامة ، فهو أى كتاب الزهرة ، يدور حول الحب أيضاً ، أو كان معروفاً جيداً فى ، إسبانيا ، بل وهناك من قلده فى زمن الحُكم الثانى (١) ، ومؤلفه ظاهرى ، ابن مؤسس هذا المذهب ، وقد انحاز إليه ابن حزم نهائياً . ولكن الواقع أن ما هو مشترك بين الكتابين قليل جداً . فالكتاب المشرقى مختارات من شعر الغزل مخصوصة ، لا تمت إلى مؤلف الكتاب بصلة ، على حين أن الكتاب الأندلسى دراسة نفسية ، ذات حواشٍ فلسفية ، والكتاب الأول طافح بالصناعة الممتازة ، والتحملقات الخنثة ، ويتميز الثانى بأنه طبيعى وإنسانى ، مباشر ودافى .

هل يمكن القول إذن أن « طوق الحمامة » عمل أصيل بكامله ؟ . لا ، على التبا كيد . ليس ثمة عمل أدبى يفتقد السوابق واللواحق ، ولو كان مجرد الدبال الذى تولد منه ، وفيما عدا ذلك يؤكد لنا ابن حزم أنه ترك جانباً « أخبار الأعراب والمتقدمين » ، وكان يعرف جيداً الكثير من الأخبار التى تروى عنهم ، والجو الذى تنسجه عبر صفحات « الطوق » لم يظهر فى الأندلس هفويًا على يد جيل معين ، وإنما نعرف أنه جاء من المشرق الإسلامى ، من البيئة التى عاشت فيها ، أدبياً على الأقل ، أسطورة الحب للهذرى ، ثم تحددت أدبياً أيضاً . وفضيلة ابن حزم التى لا جدال فيها ، تقوم بالدقة على أنه أسبن أو غرب هذا الجو ، عراه من أردنية البدوية ، أو البغدادية ، وحتى من اسمه ، فكلمة « هذرى » لا تظهر ولا مرة واحدة على امتداد كل صفحات الكتاب ، لكن يكسوه من جديد ثياباً قرطبية ، ومن الطبيعى أن تتخلف فى تربته وفى أسامه المواد التى يمرت لابن حزم أن يطبقها ، مواد من الصعب جداً تجديدها ، لأن المؤلف ، فيما نقول ، لم ينسخها بالمعنى الحرفى للكلمة ، وإنما تمثلها وطورها عفويًا ، أعطى لها روحاً جديداً ، وشكلاً مغايراً ، وحياة مختلفة .

(١) أنظر مقال الياس تيريس ، مجلة الأندلس ، المجلد ١١ ، عام ١٩٨٦ ، ص ١٣١-١٥٧ .

تتبع أثر هذه المصادر الخفية مخاطرة إذن ، لسكل ما قلت ، ولأن  
الدراسة الواجبة للصلاوات بين الأدب الأندلسي والأدب العربي في المشرق لما  
نزل متلثمة ، ومن ثم كان جرأة مني أن أعرض مؤقتاً ، وفي شكل مقال ،  
وكمحاولة لجس النبض ، لواحد من هذه المصادر ، وهو كتاب «الموشى»  
لأوشاء ، ولقد صرحت في البدء بأن الكتاب غير معروف تقريباً ، ودرج  
للدارسون على اعتباره آلياً ، وعلى نحو تقليدي ، مجرد قائمة بالأخلاق  
الفاضلة ، وقرانين السلوك ، ليتصرف المجتمع العربي في أزهى عصوره  
على هديها . هكذا اعتبره مثلاً آدم ميتز في كتابه نهضة الإسلام ، ويقول  
هنا بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية : «دليل الحياة الأنيقة في عالم بغداد  
للعظيم» . وعبثاً يمكن مثلاً أن تجده له أثراً بين مصادر دراسة الحب في الأدب  
العربي الكلاسيكي ، وحررها علماء من الطبقة الأولى ، مثل جولدمتسهر (١)  
أوريتز (٢) . والحق أن كتاب الوشاء حتى ولو كان مرشداً عظيم الفائدة إلى  
الأخلاق الفاضلة ، فإنه أصلاً كتاب عن الحب في الجانب الرئيسي منه ،  
وهو على التأكيد الجانب الأكبر انساعاً ، وهو شئ منطقي جداً ، لأن  
الحب في حد ذاته ، وفي مظاهره المصقولة ، قناعة أنيقة تخضع لقواعد  
دقيقة مسلم بها . وكان الوشاء متخصصاً في الموضوع ، فهو لا يحلل  
نفسية الحب العذري في دقة فحسب ، وإنما يضيف إليه النصوص والقصائد  
الأكثر روعة ، والأجمل توجيهاً . وعرض لحب النيان ، وشق طريقه  
محظوظاً ، ثم انتهى بالسيطرة على كل الأوساط البغدادية ، بل وبصرح

---

1 - Goldziher I. : Vorlesungen Über dan Islam, P. 192'y  
ZDMG, 69 ( 1915 ) ' pp. 192 - 207 .

2 - Ritter H. : Philologica VII ( Arabische Und persische  
Schiften Über di profane Und die mystische Liebe )  
en Der Islam 'Xxl' 1933 ' PP. 84 - 160 .

في كتابه « الموشى » أنه خص هذين الموضوعين ، كل واحد منهما بكتاب مستقل ، ولعلهما فقد اسوء الحظ ، لأنى لا أراهما واردين في قائمة مؤلفاته ، وهما : كتاب المقتفى (١) ، وكتاب القيان (٢) . ورغم أننا نجهل هذين الكتابين فإن مادة الموشى ربما كانت أفضل ما نملك بين أيدينا عن الحب بين العرب ، وهو أكثر فائدة من كتاب الزهرة لابن داود ، وأشد قرباً ، كما سنرى ، في روجه إلى ابن حزم في طوق الحمامة .

وفي حدود ما أشرت ، في قراءة مستأنية ولكن ليست مستوعبة ، سأحصى وأجمع الفقرات التى فى الموشى أو فى طوق الحمامة (٣) ، والتي أعتقد أن بينها بعض الشبه . ويجب أن أضيف إلى ذلك أنى بصدد مقال ، نتائجه مؤقتة تماماً ، لأن الشبه يمكن أن يجى من مؤلف آخر اختار الاتجاه نفسه ولما يعرف ، وأن هذه المشابهات لها ، فيما أرى ، بعض القيمة المتزعة إذا أخذت فى جملتها فحسب ، أى أنها تدعم بعضها بعضاً ، وتحليلها منفصلة يجعلها تبدو ، وهى كذلك حقاً ، غير ذات معنى وقليلة الإقناع ، فنحن نتحرك ، وأعيد القول ، على تربة ظنية . وبدل أن أتبع ما ورد فى الموشى أو فى الطوق متسلسلاً ، رأيت لسهولة العرض أن أجمع على نحو غير طبيعى قليلاً ، وكمجرد توجيه فحسب ، الفقرات التى وازنت بينها ، طبقاً لما تخضع له من تشابه .

(١) فى صفحة ٥٤ من طبعة ليدن : « ونحن مفردون لأهل العشق كتاباً فذكر فيه أخباة المتيمين ، وملح المتعشقين ، وأشعار المنغزلين ، مع جملة من صفات الهوى ، فى كتاب المقتفى ، إن شاء الله تعالى » .

(٢) فى صفحة ١١٣ من طبعة القاهرة : « وقد أوردنا كتاب القيان لدم عظيم للقيان ، فأغنى ما فى ذلك الكتاب عن تكثير هذا الباب ، فأعرفه ، إن شاء الله » .  
أشير فى بعض الإحالات : كما فى هذه ، إلى الطبعة المشرقية ، لأن طبعة ليدن ليست بين يدي وأنا أحرر هذه الصفحات .

(٣) فيما يتصل بالموشى استخدمت ، إلا فى حالات نادرة كإحالة العابقة ، طبعة برونوف التى أشرت إليها فيما سبق ، وفيما يتصل بطوق الحمامة استخدمت طبعة برونوف ، ليدن - برهول ١٩١٤ . وتحمل المشابهات الأرقام من ١ إلى ٢٧ .

• تسهيلاً للقارىء العربى استخدمت طبعة دار المعارف لكتاب طوق الحمامة ، القاهرة ١٩٧٥ ، بدلا من طبعة برونوف .

- في الاقتباس ، أو الأسلوب ، أو اللغة .
  - في التمايق على عدد محدود من الوقائع .
  - في الملاحظات النفسية :
  - في الأفكار أو في المواقف الشعرية .
  - في التقسيم وهناوين الأبواب :
- وأؤكد على أننا بصدد تشابه يجيء من الذاكرة القوية التي شهر بها العرب ، ومستمك من روااسب القراءة ، أكثر مما يعتمد على النسخ أو الاقتباس . واستبعد الفرض الذي يخرج عن نطاق الموازنة ، ويجب أن يضاف إذا أكدته المشابهات الأخرى ، وهو أن الموشى يمكن أن يكون واحداً من الكتب التي قرأ فيها ابن حزم وأخبار الأعراب والمقدمين ، والتي أدار لهاظهره كتابه .

#### ١- التشابه في الاقتباس أو الأسلوب أو اللغة

- ثلاثة على الأقل الاقتباسات المشتركة المهمة التي وجدتها :
- ١ - الحديث النبوي : « الأرواح جنود مجنونة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، ويشير إليه الموشى صفحة ٢٥ ، ويوجد في الطوق صفحة ٢٣ .
- ٢ - الحديث النبوي الثاني : « حبك الشيء يعنى ويصم » ، جاء به الموشى في صفحة ٦١ ، وذكره الطوق صفحة ٢٩ ، دون أن يشير إلى أنه حديث نبوي .
- ٣ - والحديث النبوي الثالث ، فيما يظن : « من عشق فعمف فمات فهو شهيد » ، ويظهر في الموشى ص ٧٥ ، ويختلف قليلا عما عليه في الطوق صفحة ١٥٢ ، وجاء به ابن حزم دون أن يشير إلى أنه حديث واكتفى بقوله : « وقد جاء في الآثار : » ،

« أذكر القارىء بأن الكاتب يستخدم عادة طبعة ليدن من الموشى ، إلا في حالات قليلة أشار إليها ، أما صفحات الطوق فتشير إلى طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٥ م . ( المترجم ) .

• وإليك الآن حالتين بتشابه فيهما الأسلوب :

٤ - يقول مؤلف الموشى ، مع بداية الجزء الثانى ، أنه سوف يتضمن شيئاً من الهزل أكثر مما فى الجزء الأول : « ولا بد من خلطها بشئ من الهزل ، إذ فى ذلك ترويح لقلوب ذوى العقل » : ويتبع مؤلف الطوق فى مقدمته ، ليعبر تناوله موضوعات قد لا تبدو جادة ، مشيراً إلى آراء مؤلفين آخرين ، ويبدوها : « أجموا النفوس بشئ من الباطل لىكون أعون لها على الحق » ، أو « أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » :

٥ - فى صفحة ٧٧ من الموشى يتحدث المؤلف عن مل بعض المحبين الكاذبين ، فىقول : « فاستحسن الناس الملل والاستبدال ، والغدر والانتقال ، وأنا أبرأ إلى الله أن يكون هذا من شعر ظريف ، أو من فعل حصيف » ويورد ابن حزم فى صفحة ١٤٩ ، بعد أن بين أن : « للشعراء فن من الشعر يلمون فيه البياكى على الدمن ، ويثنون على المثابر على اللذات » ، حالة أبى نواس ، وأنه « كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره » ، ويقلد الشاعر المشرقى بأبيات له ، ثم يعقب عليها بقوله : « ومعاذ الله أن يكون نسيان مدارس لنا طعاً » :

• وأخيراً يتوافقان فى حالتين لغويتين :

٦ - يقول الموشى فى صفحة ٥٤ : « وأما أمن عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد ، ولا يحصيهم أحد » ، وفى الطوق ، صفحة ١٩ : « وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يحصوا » :

٧ - ويقول الموشى فى طبعته المشرقية ، صفحة ٤٩ ، إن الحب « أمير مطاع ، وقائد متبع » : ويذكر الطوق ، صفحة ٨٣ : « لعلمت أن الهوى سلطان مطاع » :

٣ - التشابه فى التعليق على عدد محدود من الوقائع

٨ - الضرب الأول من الحب ، بين ضروب الحب التى ذكرها ابن حزم ، صفحة ٢٣ : « محبة المتحابين فى الله عز وجل » ، وهو عنوان

باب من أبواب كتاب الموشى : « باب صفة المتحابين في الله عز وجل » ،  
٩ - ذكر الطوق من علامات الحب وشواهد الظاهرة عند المحب ،  
صفحة ٢٨ : « شرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإثناء » . وفي الموشى ،  
صفحة ٩٣ ، نجد الجارية التي أرادت أن تعشق فتى غنيا : « شربت من  
فضلة كأسه » .

١٠ - في الفصل الثالث من الطوق وأوقفه المؤلف على قصة أبي الصرى  
عمار بن زياد ، الذي أحب جارية رأها في النوم ، نجد ابن حزم يعمله قائلا :  
« ولوعشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر » . ونجد في الموشى :  
صفحة ٥٦ : « وبلغنا أن منهم من عشق صورة في حمام ، ونحيا لافي منام ،  
وكفا في حائط ، ومثالا في ثوب ، والعشق ألوان وأنواع وضروب وفنون  
وأمره عجيب » .

١١ - ويتخذ الطوق عن المراسلة ، صفحة ٥٦ ، فيقول : « وأما  
سقى الخبز بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك » ، ويورد الموشى ، صفحة  
١٥٤ ، قصيدة فيها : « مزج اللداد بدمعه » ، وبعد ذلك بقائل : في  
آيات شعر أخرى : « هذا كتابي بدمع عبي » .

١٢ - ويقول للطوق ، عند الحديث عن الهدايا التي يتبادلها العاشقان ،  
صفحة ١٣٠ : « وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان نخصل الشعر ...  
وأما تهادى المساويك بعد تمضغها فكثير » . ونقرأ في الموشى ، صفحة ٩٣ :  
« وتبعث إليه بخاتمها ونخصلة من شعرها ... وقطعة من مسواكها » ، وفي  
صفحة ١٤٠ : « وقد تهادى أيضاً أهل الظرف بالمساويك » .

### ٣ - للتشابه في الملاحظات النفسية

١٣ - في الباب الخاص بماهية الحب من طوق الحمامة ، ص ١٤ ،  
نجد هذه الملاحظة : « والحب - أعزك الله - داء عياد ، وفيه منه الدواء  
على قدر المعاملة ، ومقام مستاند وحلة مشهاة ، لا يودسليمها للبرء ، ولا يتسنى

عليها الإفاقة ، وفي الموشى ، صفحة ٨١ من الطبعة المشرقية : « الحب مع ما فيه من المرارة والنكد ... مستعذب عند أربابه ، مستحسن عند أصحابه »

١٤ - وربما كان الباب الخاص بعلامات الحب في الطوق ، من أظهار الأبواب أصالة ، وأغناها بالملاحظات النفسية ، في صفحة ٢٧ وما بعدها ، وتلتقى في الموشح بسلسلة الملاحظات أيضا ، استخدم لها المصطاح نفسه : علامات . ففي صفحة ٤٨ : « وأعلم أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم ، وطول اللقم ، واصفرار اللون ، وقلة النوم ، وخشوع النظر ، وإدمان الفكر ، ومرعة الدموع ، وإظهار الخشوع ، وكثرة الأنين ، وإعلان الحنين ، وانسكاب العبرات ، وتتابع الزفرات . وعن تأثير الحب في العاشق يقول طوق الحمامة ، صفحة ١٨ وما بعدها : « فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب » . وفي الموشى ص ٤٩ من الطبعة المشرقية : « وقد يشجع الجبان ، ويسخى البخيل ، ويطلق لسان العي ، ويقوى حزم العاجز » .

١٥ - وفكرة أن للحب سلطاناً لا يتاوم ، وتلتقى بها ، في الطوق ، صفحة ٤٧ ، ونصها : « إن للحب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وامراً لا يخالف ، وحداً لا يعصى .. » توجد أيضاً في الموشى ، صفحة ٤٩ من الطبعة المشرقية : « و يدل له التعزيز ، وينحضع له المتعجبر ، ويبرز له كل محتجب ، وينتقاد له كل ممنوع » . ومن جانب آخر يعرض الطوق للفكرة مرة أخرى فيما بعد ، على نحو أشد تفصيلاً ، في باب الطاعة ، صفحة ٦٨ وما بعدها . والملاحظة التي ترد في نفس الفصل الخاص بعلامات الحب ، صفحة ٥٠ ، وتعرض للمحب المزيف ، « ممن يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدعى غريزة لاتقبله » ، نجد لها سابقة في كتاب الموشى ، صفحة ٤٨ : « ولان يغبي ادعاء أنه قارن العشق والهوى ، لأن علامات الهوى ثائرة ، وآيات الادعاء ظاهرة »

١٦ - وتأكيد طوق الحمامة ، صفحة ٦٠ ، في باب طي السر ، أن



المحب لا يمكن إخفاءه ، ونص عبارته : « وبأبي السر الدقيق ، ونار الكلف  
المتأجج في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين » ، توجد في الموشى  
أيضاً ، في صفحة ٤٨ : « ولن يخفى المحب وإن تستر ، ولا ينكم هواه وإن  
تصبر » .

١٧ - وفي مقابل باب المساعد من الأخوان ، في طوق الحمامة ،  
صفحة ٧٧ وما بعدها ، يستخدم الموشى ، صفحة ١٧ ، الصديق المساعد ،  
يقول ابن حزم مشيراً إلى المساعد من الأخوان : « فإن ظفرت به يداك فتشدهما  
عليه شد للضنين ، وأمسك بهما إصمك البخيل ، وصننه بطارفتك وتليدك... » ،  
ويذكر الموشى ، في الصفحة التي أشرنا إليها ، مشيراً إلى الغرض نفسه ، بيتاً  
من الشعر تعود سفيان الثوري أن يردده :

فإذا وجدت أخا الأمانة والتقى فيه البدين قرير العين فاشدد

١٨ - في طوق الحمامة ، في باب الواشى ، صفحة ٨٣ وما بعدها ،  
يدين ابن حزم في عنف بالغ الوشاة والكذابين ، وفي الموشى ، صفحة ٣٣ ،  
باب كامل بعنوان : « باب ماجاء من فضل الصديق للذوى الأداب ، وما كره  
من الكذب للذوى الألباب » .

١٩ - وتشهير ابن حزم بخيانة المرأة وغدرها هنيئ ومعروف ،  
أنظر مثلاً صفحة ١٠٩ وما بعدها من طوق الحمامة ، و صفحة ١٦٥ . وفي  
هذه الأخيرة يقول : « ولولا أن أكون منبأ على عورات يستعاذ بالله منها  
لأوردت من تبين في الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تدهل الألباب » .  
وعرض الموشى للفكرة أكثر من مرة ، فهو يقول في صفحة ٧٩ : « إن  
للغدر في النساء طبع... » ، وفي صفحة ٨٨ و ١٢٠ : « مع أن مكرهن أخفى  
من الحيل ، وأعظم من راسيات الجبال ، تنفذ حيلهن على الرجال ،  
ويتمكن كيدهن من الأبطال » .

٢٠ - وتحمل الغدر ، وهدم الثورة عليه ، وهو وجهته بمثله ، هو فيما  
يرى ابن حزم دناءة وخسة ، يقول في صفحة ١٤٨ من الطوق : « ومنها

« أى من الأسباب الموجبة لسلو ( الغدر ، وهو الذى لا يهتم به أحد ، ولا يفضى عليه كريم ، ولا يلام السالى عنه . . . بل اللائمة لاحتمة لمن صبر عليه . . . فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة ، نحيس النفس : نذل الهمة ، صاقطة الأنفة . »  
وتجىء الفكرة نفسها فى الموشى ، صفحة ١١٨ : « ثم أن أجهل الجهالة ، وأضل الضلالة ، صبر الفنى الأديب ، على غدر الحبيب ، فإن الصبر على الخيانة والغدر ، يضع من المروءة والتندر . »

٢١ - وأصرف النظر عن بعض فقرات أزيد جاءت فى الموشى ، دون أن يكون لها شبيه محدد من فقرات أخرى فى الطوف ، ولكنها تسير على خطى هذا الكتاب ، وانظر لها مثلاً ، الموشى صفحة ١١٢ : « اعلم أن صبر المحب على هجر الحبيب ، تجرعه الفصص والتعذيب ، ومعالجة الزفير والنحيب ، وتقلبه القلب لفرق الوجيب ، من العجز الظاهر ، والموت الحاضر ، والمبادرة بالانصراف ، بعد تغير الآلاف ، من الحزم المكين ، والرأى الرصين . . . »

#### ٤ - التشابه فى الأفكار أو فى المواقف الشعرية

٢٧ - يتحدث الموشى ، صفحة ٧٨ ، عن استحالة أن يحب الإنسان حباً حقيقياً شخصين فى الوقت نفسه : « وهل يجتمع وحدان فى موضع »  
وفى بعد ، فى صفحة ٩٩ ، يورد قصيدة من بحر السريع ، لأديب مجهول ، يعرض للموضوع نفسه ، ومنها هذا البيت :

ناداك منه حسن جـائز أم ليس برضى الله دينين

ونجد فى الطوق ، صفحة ٤٦ ، قصيدة لمؤلفه ، من بحر الخفيف ، منها هذان البيتان :

ليس فى القلب موضع لحبيب - ن ولا أحدث الأمور بشأن

وكلنا الدين واحد مستقيم وكفور من عنده دينان

٢٣ - فيما يتصل بموضوع المراسلة ( أنظر رقم ١١ ) ، يورد الموشى فى الصفحة ١٥٩ ، هذا البيت من بحر الكامل لشاعر مجهول :

ازلت أبكى مده قرأت كتابها حتى محوت مطورها بدموصى  
وفي صفحة ٥٧ من الطوق ، نجد هذا الشطر من بيت شعر لابن حزم ،  
وجاء في بحر الطويل ، والتشابه اللغوي بينهما واضح :  
• فما زال ماء العين يمحوم مطوره •

٢٤ - في الموشى ، صفحة ٣٧ ، نجد هذا البيت من الشعر ، في بحر  
الرمل ، لشاعر مجهول ، ويعرض لكتمان السر :  
أمت السر بكتمان ولا يبدون منك إذا استودعت سرى  
ويورد ابن حزم في صفحة ٦٢ من كتاب الطوق ، قطعة من قصيدته ،  
جاءت في بحر البسيط ، ومنها هذا الشطر :  
أميته وحياة السر ميته

٢٥ - ويجى الموشى في صفحة ٥٣ بقصيدة من بحر الوافر ، للشاعر  
العباسى على بن الجهم (ت ٨٦٣ م) ، مهداة إلى الخليفة المتوكل ، وسقط  
صريح حب جاريتة قبيحة ، وإليك من أبياتها الثمانية هذه الأبيات الثلاثة :  
تنكر حال عاتى الطيب فقال : أرى بجسمك ما يريب  
جسست العرق منك فدل عندى على داء له شأن عجيب  
.....  
فحرك رأسه ودنا منى وقال : الحب ليس له طيب

وفيما أرى فإن هذه القصيدة هي المصدر المباشر الذى أهدى ابن حزم  
قصيدته الى من بحر الوافر أيضاً ، وجاءت في صفة عشر بيتاً ، ونلتقى بها  
في الطوق ، الصفحة ١٣٧ ، ومنها أشطار الأبيات هذه :

- \* يقول لى الطيب بغير علم \*
- \* فقال : أرى نحولاً زاد جداً \*
- \* فأطرق باهتاً مما رآه \*

٢٦ - وفي الموشى ، الصفحة ٦٧ ، نجد هذا البيت من بحر البسيط  
لشاعر مجهول :

الحب أوله عذب مذاقته لكن آخره التغيص والكدر  
وبيت آخر من بحر البسيط للشاعر ابن أبي رعد :  
الحب أوله عذب وآخره / مثل الخزازة بين القلب والكبد  
وفي الصفحة ١٨٢ من طوق الحمامة نجد قصيدة طويلة لابن حزم ،  
من بحر الطويل ، ومنها هذا البيت :

رأيت الهوى سهل المبادئ لذيذها و عقباه مر الطعم ضنك المسالك

٥ - تشابهات في التقسيم وعناوين الأبواب

هنا علينا أن نتحدث حتماً عن اختلافات أكثر مما نعرض لألوان من  
المشابهات . وفيما يتصل بمنهج الكتاب وتقسيمه إلى أبواب ، ليس ثمة شك  
في أن الطرق قطعاً أفضل نهجاً وتنظيماً وترتيباً من كتاب الموشى أو كتاب  
الزهرة . فابن حزم وهو فيلسوف وعلم اهتم ، بروح غربي ، بمناقشة حتى  
نخطة الكتاب تفصيلاً ، الصفحتان ١٧ و ١٨ ، ويمكن أن نقول الشيء  
نفسه فيما يتصل بعناوين الأبواب ، وثمة شيء من تشابه بين عناوين الموشى  
وطوق الحمامة . فحيث يقول الموشى ، في الصفحة ٦٤ : « باب من مات  
من شدة الندم ، وتضمضت أعضاؤه من شدة الوجد » ، يوجز  
طوق الحمامة المذكورة في : « باب الموت » . وحيث يتناول الموشى ، في  
الصفحة ٣٧ : « باب الحث على كتمان السر ، في حفظ ما حنت عليه  
ضلوع الصدر » يختصره الطوق في : « باب طي السر » . وعناوين كتاب  
الرهرة مسجوعة وجادة وشاعرية ، وعناوين الطوق بلا سجع وعارية  
وموحية ، وذات وقع غربي .

ويتصل بهذا الغرض ، ولو أنني سأخرج عن الموضوع قليلاً ، أن ألقى  
بملاحظة أراها مفيدة وجديدة ، ذلك أن أحد الأبواب الأخيرة في كتاب  
الموشى ، الصفحة ١٦٤ ، يدور حول العبارات التي ينتشها العشاق على  
خزائيمهم ، وعنوانه : « ومما ينتشه أهلى الهوى على خزائيمهم » ، وفي النقرة  
الأولى منه نلتقى بعشرة نقوش ، إليك أوائلها :

من كثرت لحظاته ، دامت حسراته .  
من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه ؛  
من قدم هواه ، دام أساه .

ونلاحظ أن ثمانية نقوش منها ، دون تغيير أو مع تحوير طفيف ،  
هناوين أبواب في كتاب الزهرة لابن داود ، وهي واقعة تشير الاهتمام ،  
لأن ابن داود والوشاء كانا متعاصرين ، فهل كان كتاب الزهرة مصدر  
هذه العبارات التي نقشها العشاق على خواتيمهم ، أم أن كتابات العشاق  
هي التي ألهمت ابن داود عناوين أبواب كتابه ؟

دراسة أصول كتاب أدبي قمة ، وهو طوق الحمامة في حالتنا هذه ،  
مفيد دائماً وضروري ، ولست أدري ما إذا كانت الملاحظات التي سبقت  
مقبولة أم لا ، وما إذا كانت تسهم تاريخياً في تفسير إمكانيات الإبداع في  
كتاب ابن حزم القرطبي الشهير . وأعني ، في حالة الالتفات إليها ، أن  
غايته لا تتوقف عند هذه فحسب ، فمنذ زمن وأنا أدافع وأدعو ، معطياً  
المثل متواضعاً ، إلى أنه من غير الممكن أن ندرس الأدب الأندلسي  
علمياً دون أن نحدد ما به من عناصر مشرقية ، وما هو تجديد أو اقتباس  
إسباني ، وهو أمر صعب للغاية من الوجهة التقنية في حالات كثيرة . وحالة  
ابن حزم ، وابن شهيد أيضاً ، مثل متميز وواضح لمعرفة الصلة وردود  
الفعل المتباينة للتبارين ، والاصطدام بين المعكرين ، المشرق والغربي . ولو  
لم تمت القيادة الأدبية ، والتي يمثلها المؤلفان الكبيران ، تحت أنقاض  
الخلافة ، تاركة الطريق واسعاً وعريضاً لعصر من التشريق والبغدة ، كما  
انتهى إليه حال دول الطوائف ، لكان من المؤكد أن أدب الأندلس  
وثقافته ما كان ليصبح بالشكل الذي وصلنا عليه الآن ، مجرد مقاطعة  
تائهة من أدب العرب وثقافتهم ، بل كان سيرتفع شاهقاً ، في مملكة متأقنة  
ومستقلة على نحو ما كانت عليه خلافة قرطبة .

## كتاب منية المحبين وبغية العاشقين

للشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي

ان نقفوتأثيرات وطوق الحمامة في الأدب التالي شيء مفيد ، لالكي نعرف التدر الذي بلغه من الشهرة كتاب ابن حزم فحسب ، وإنما أيضاً لكي نغذي الأمل وتدعمه في العثوريوماً على مخطوطة جديدة له ، لأن إمكانيات العثور عليها تزداد منطقياً مع اكتشاف أن دائرة انتشاره كانت أوسع مما برهنا عليه . وحتى الآن ، ماعدا الخطأ أو الإغفال ، درس الباحثون تأثير الطوق ، أو اكتشفوا إشارات إليه ، في المؤلفات التالية :

• في الأدب الأندلسي : في كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، طبعة الرباط عام ١٩٣٤ ، الصفحات ١٢٤ - ١٢٦ (١) ، وثلاث قصائد في كتاب نفع الطيب للمقرئ ، المجلد الثاني ، للصفحة ٤٠٦ ، من الطبعة الأوربية .

• في الأدب الإسباني : تأثيرات موضع نقاش في كتاب « الحب المحمود » لكاهن هيتا ، وهو من القرن الرابع عشر (٢). وفي كتاب الراهب الكرملي جوزيف دي خوسوس مارية Joseph de Jesus Maria ، وعنوانه

---

١ - أنظر : ليفي بروفسال ، مجلة الأندلس ، المجلد ١٥ ، للصفحات ٣٢٩ - ٣٤٠ و ٣٦١ - ٣٦٢ .

• في الجزء ٣ ، للصفحة ٥٩٩ ، من طبعة إحسان عباس . ( المترجم )

٢ - أنظر : أميركو كاسترو ، إسبانيا في تاريخها ، من ٣٧١ - ٤٦٩ ، بونس أيرس . ١٩٤٨ .

\* ترجمت هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية ، وسوف تنشر ترجمته قريباً . وفيما يتصل بتأثير « طوق الحمامة » في كتاب « الحب المحمود » ، أنظر الفصل الخاص بتأثير الطوق في الأدب الإسباني ، من هذا الكتاب ( المترجم ) .

مزايا فضيلة العفة Exceleacias de la virtude de la castidad ونشر  
في القاعة عام ١٦٠١ م (١) .

• في الأدب العربي المشرقى : في « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية (٢)  
وفي « ديران الصباية » لابن أبي حجلة (٢) ، ومع شىء من الشك في كتاب  
« تزيين الأسواق » للأنطاكى (٤) ،

وإلى هذه التأثيرات يمكن أن نضيف الآن تأثيراً واضحاً في كتاب  
آخر هو : « منية المحبين وبعية العاشقين » للشيخ السورى يوصف بن يحيى بن  
مرعى الطور كرمى الحنبلى ، ولم يرد في قائمة ريتز التي حررها عن  
كتب الحب (٥) .

وطبقاً لكتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، للمجيبى ،  
الجزء الرابع ، الصفحة ٥٠٨ ، نعرف أنه رحل إلى مصر للدراسة عام ١٠٤٤ هـ  
- ١٦٣٤ م ، وعاد منها سنة ١٠٤٩ هـ - ١٦٣٩ م ، وكان مفتياً في  
نابلس ، وعلى مذهب ابن تيمية ، وتوفى يوم الإثنين ١٠ من صفر عام  
١٠٧٨ هـ - ١ من أغسطس ١٦٦٧ م (٦) .

١ - أنظر : كسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ ، وأنظر أيضاً : خايمة أوليفر  
أسين ، مجلة المجمع الملكى الإسبانى ، المجلد ٣٠ ، ص ٣٨٩ ، ٤٢١ ، عام ١٩٥٠ .

٢ - أنظر : بروكلمان ، مجلة إسلاميكيا ، المجلد ٥ ، ص ٤٦٢ - ٤٧٤ .

٣ - أنظر : غرسية غومث ، مجلة الأندلس ، المجلد ٦ ، ص ٦٥٠ - ٦٧٢ .

٤ - أنظر المرجع السابق .

٥ - أنظر فيما سبق صفحة ٣٠٠ من هذا الكتاب الهامش رقم ٢

٦ - في فهرس مكتبة بلدية الإسكندرية ، ولا أعرف ما إذا كان بداية المخطوطة نفسها ،

ومع ذلك يقال أنه توفى عام ١٠٣٣ هـ ، ١٦٢٣ م ، وذكر هذا التاريخ بروكلمان في كتابه  
تاريخ الأدب العربى ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، والملحق ج ٢ ص ٤٩٦ ، ويدعوه بروكلمان : مرعى  
بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى ، زين الدين المقدسى الحنبلى ، ولد في طول  
الكرم ، قريباً من نابلس . ومخطوطة الإسكندرية تظهر عند بروكلمان في الملحق فقط ، ج ١  
ص ١٢٩٢ ، في العقرة الخاصة بالمطبوعات .

وقد أمكنني أن أعود إلى مخطوطتين من « المنية » ، إحداهما كاملة في مكتبة بلدية الإسكندرية ، تحت رقم : ن - ٤٥٦٤ - ج ، وجاءت في ٣٥ ورقة ، بلا ترقيم ، وكتبت في خط ثرتي جيد ، وهي لني سأحيل عليها دائما . والأخرى في دار الكتب المصرية ، وجاءت في ٥١ ورقة ، ومسطرتها ١٥ × ٢٠ ، وكتبت في خط مغربي ، وتحمل رقم ٦٢٥٢ أدب ، ولسبت إلى مجهول ، فكان عنوانها : « الحب والمحبة ، مؤلفه مجهول » ، ولو أنه يمكن التوصل إلى معرفة المؤلف في الحال .

نحن بصدد كتاب محدود الصفحات ، وبعد مقدمة قصيرة مسجوعة

يقسم المؤلف كتابه في عشرة أبواب هي :

١ - في إثبات حتمية المحبة وشرفها .

٢ - في كلام الخائضين في حقيقة المحبة .

٣ - في حتمية المشق وأسبابه ومراتبه ، وفي الفرق بينه وبين الخلة

والمحبة ، وفي أسمائه . وبين المؤلفين الذين يذكرونهم في هذا الباب تظهر

أسماء : أفلاطون ، ( ولكن ليست نظريته في الأولاد المقسومة ) ، وابن

سبينا وأرسطو وأبتراط والمتنبي والأصمعي وابن تيمية والقاضي عياض وابن

قيم الجوزية .

٤ - في كلام الخائضين بمدح المشق وذمه . وفيه يذكر كتاباً آخر

له عن الحب بعنوان : « تسكين الأشواق بأخبار العشاق » .

٥ - في ذم الهوى وفي ذكر القاب ومدح العقل .

٦ - في علامات لمحبة والعاشق ومذا يصير لهما عند غلبة من السكر

وغيره وماذا يترتب عليهما .

٧ - في حتمية الشوق وهل هو يزول بالوصال أو يزيد ، وهل

يصح كتمان المحبة ، وهل يتصير عند تمام المحبة هجر ، وهل لعرض الحبيب

عن عداوة .

٨ - في إرشاد العاشق المستقيم ، إلى الطريق المستقيم ، وبيان عقوبة من

يجنح للفعل الدميم .



٩- في الخلد من المراد وأصحاب العذار ، وما قيل فيهم من الأشعار :

١٠- في فضل الشعر ، وفي ذكر شيء من أشعار المحبين . وهو مختارات من شعر الغزل ، ليست مهمة إلى حد كبير ، ويضمها المؤلف أشعار آلِه ، ويختتمها بموشحة .

والإشارة الوحيدة التي يذكر فيها ابن حزم باسمه توجد في الباب الرابع ، الورقة ٩ ب ، في الوسط منها : « وقال ابن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين نواق كثير ، وعبيد الله أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره وعد لأئمه ظالما ، وعشق عمر بن عبد العزيز جارية زوجته فاطمة مشهورة . » وهذه الفقرة تلتقي في جانب مع ما ذكره ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » ، الصفحة ٦ من طبعة بتروف . ( أو الصفحة ٢٠ من طبعة دار المعارف ) \* ،

وأما في الباب السادس من « المنية » ، وهو الخاص بعلامات الحب ، فقد اتكأ الشيخ مرعى طويلًا على كتاب ابن حزم ، ودون أن يشير إليه ، وإليك جانبًا من نص المؤلف الشرقي ، وفيه صرفت النظر عن الأشعار التي تمخلة ، وهي غير ذات أهمية ، إلى جانب فقرة غير واضحة ، وقد ألمحت إلى الاتفاقات الأكثر وضوحًا ، وجئت بها في حرف مختلف ، وعلمت علمًا :

« للمحب والعاشق علامات يعرف بها المحبون ، وحالات يتميز بها العاشقون (١) »

فمن العلامات ( الورقة ١٢ ب ) اضطراب أعضاء المحب العاشق عند نظر

\* تختلف عبارة ابن حزم في الطوق عما في كتاب المنية شيئًا فيما يتصل بعبيد الله ، ولم يشر الطوق من قريب أو بعيد إلى قصة عمر بن عبد العزيز ، فلعلها إضافة من صاحب المنية ، أو لعله رجع إلى نسخة من الطوق غير التي بين أيدينا ، نسخة كاملة غير مختصرة ، وهو ما أرجحه ( المترجم ) .

١- في طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ ، من طبعة دار المعارف : « وللمحب علامات يقنونها الفطن ، ويهتدى إليها الذكي » .

محبوبه ومعشوقه (١) : ورميه بطرفه نحو الأرض ، وتغيره تغير احمرار  
واصفار ، وذلك من مهابته له ، وحيائه منه ، وعظمته في صدره . .  
[ بيتان من الشعر ] . . ولذلك قال بعضهم : من علاماته اصفار وجه المحب  
عند رؤية حبيبه ، واحمرار وجه المحبوب عند مقابلة محبه . : [ بيتان من  
الشعر ] . . ومنها أن يضطرب المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند  
سماع اسمه (٢) . . . [ بيتان من الشعر ] . . ومنها أن يستدعى سماع اسم  
محبوبه ويستند الحديث في أخباره (٣) وأشعاره ، ويحب أهل محبوبه  
وقرابتة (٤) وغاماته وجيرانه ومن ساكنه . . . [ بيتان من الشعر وتفصيل  
الموضوع ] . . ( الورقة ١٢ ) . : ومنها الإنصات لحديثه ، واستغراب ما  
يأتى به ولو كان حين المحال ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ،  
والشهادة له وإن جار . . واتباعه كيف سلك (٥) ، والإسراع بالسير نحو  
المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للعود بقربه ، والدنو منه ، والتباطى على  
القيام من عنده (٦) [ بيت من الشعر ] . . ومنها بذل نفسه والتكرم بها دون من

١ = فى طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ : « ومهابته يقع ، ودعوة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة . . . »

(٢) فى الطوق ، فى الصفحة نفسها : « ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة . »

(٣) فى الطوق ، الصفحة ٢٩ : « ومن علامته أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستند الكلام فى أخباره . »

(٤) فى الطوق ، الصفحة ٣٢ ، « ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته . . . »

(٥) فى الطوق ، الصفحة ٢٧ : « والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتى به ولو أنه حين المحال . . . وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك . »

(٦) فى الطوق ، فى الصفحة نفسها . « ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون

بجبهه ويهواه . . . (١) . . . (الورقة ١٣) . . . ومنها الانبساط الزائد الكثير ،  
والتضايق في المكان الواسع ، والمجازبة على الشيء يأخذه أحدهما ، والتعمد  
للمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما يمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب ما  
أبقى المحبوب في الإناء (٢) . . .

في ضوء هذه الاستفادة ، أو إن شئت الدقة في ضوء هذا النقل ،  
فستطيع أن تتوصل إلى النتائج التالية :

\* أن طوق الحمامة كان معروفاً ، وجرت عليه أعين القراءة والكتاب  
في سورية ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (٣) . ومن ثم  
لا يجب أن ننفق الأمل في أنه يمكن العثور يوماً على مخطوطة جديدة له  
في المشرق .

\* لقد أتيت لي الفرصة أن ألحظ في مقدمة ترجمتي الإسبانية  
للطوق (٤) أن « باب علامات الحب » أتيج له من بين أبواب كل الكتاب ،

= فيه ، والتعمد للعود بقربه ، والدنومنه . . . والتباطؤ في المشي عند القيام عنه . . .  
(١) في الطوق ، الصفحة ٢٨ : « ومنها أن مجرد المره ببذل كل ما يقدر عليه بما كان  
يتمتع به قبل ذلك » .

(٢) في الطوق ، في الصفحة نفسها : « ومن علاماته . . . الانبساط الكثير الزائد ،  
والتضايق في المكان الواسع ، والمجازبة على الشيء يأخذه أحدهما . . . والتعمد لمس اليد عند  
المحادثة ، ولمس ما يمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء . . . »  
في هذا الاتفاق إشارة جديدة على أن إضافة برشييه ، الصفحة ٣٤ من طبعته ، لتصحيح  
العبارة « الانبساط الكثير الزائد في المكان للضييق » ، نزوة خالصة ، مثل عدد من التصويبات  
الأخرى التي حاولها .

(٣) كل بقية المؤلفين الذين أشرنا إليهم : ابن الخطيب ، وابن قيم الجوزية ، وابن  
أبي حجلة ، من القرن الرابع عشر الميلادي ، وداود الأنطاكي من القرن السادس عشر .  
المقري وحده توفي عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م ، وهو مع ذلك سابق للشيخ مرعي .

(٤) أنظر الصفحة ٢٩٧ الهامش ١ من هذا الكتاب .

أكبر حظ من النديوع والانتشار ، في الشرق والغرب على السواء ، فهل ياترى كان هذا الفصل يجرى بين يدي القراء وحيداً ، ومنفصلاً عن بقية الكتاب ، أم أنه ضم ، مع فصول غيره ، إلى كتاب آخر لانعرفه ، وكان هذا الكتاب المصدر المباشر لمن استخدموه في المشرق ، وحتى في الغرب؟ ، في هذه الحالة علينا أن نصرف النظر عن النتيجة الأولى .

\* \* \*

● ملاحظة أخيرة :

لم تعرض لى في مؤتمر المستشرقين ، ولكنى أبادر إلى رأى يمكن أن يقال عن القسم الأول من هذه الدراسة ، من الذين يرون أن التشابه صدفة فيما يتصل بالأفكار العامة في الحب ، وفي العبارات والنغم ، سهل جداً ، لأننا ، في رأى من يدافعون عن هذه الفكرة ، بصدد مشاعر ومجالات مشتركة بين كل عصر ومكان ، ولست من أنصار هذا الرأى . فالحب ليس شيئاً مشتركاً بين مختلف العصور والثقافات ، فضلاً عما فيه من جانب تشريعى وآخر يمس وظائف الأعضاء ، ويقول أورتيجا إى جاسيت : « العنن بأن ظاهرة شديدة الإنسانية مثل أن نحب وجدت دائماً ، ودائماً في صورة واحدة ، هو مثل أن نعتقد خطأ أن الأفراد يملكون مثل المعادن والنبات والحيوان طبيعة واحدة وثابتة ، ونجهل أن كل ما فيه تاريخى ، كل شئ ، حتى ما ينتسب منه إلى الطبيعة فعلاً ، كما هو الحال في حاجاته الغريزية . . . الحب شكل واختراع ونظام إنسانى ، وليس ابن عم المضم ولا زيادة الكلور في المعدة» . واحتفظ لنفسى بتطبيق أفكار أورتيجا إى جاسيت ، في مستقبل غير بعيد ، على تطور الأدب العاطفى عند العرب : فقط أبادر هنا إلى القول بأنه يمكننا في القريب أن نؤرخ في عالم العرب المشاركة متى اقتحم الحب العذرى مجال الحب الطبيعى الجاهلى ، ومتى حل مكانه ، ومتى انتصر الحب الذى تمثله قصائد عمر بن أبى ربيعة

ورفاقه ، ومتى ساد حب الجوارى ، ومتى برزت ظاهرة حب الفلمان  
فى الأدب العربى ، ومن كل هذه الغراميات الأخيرة ، ذات التقليد  
المشرقى ، توجد عناصر فى طوق الحمامة لابن حزم . ومن بجانب آخر ،  
بين الروحانيات العاطفية النبيلة للأديب القرطبي والفحش الجاسى لشاعر  
كبير من القرن التاسع الميلادى ، مثل الغزال ، تتوسط هوة عميقة ،  
لا يمكن أن نفصرها برود فعل عنفوية فحسب ، دون أى لون من تأثير  
التقاليد المشرقية التى سبقته مباشرة .

## آخرون كتبوا في الحب

بعد ابن حزم

كان ابن حزم نسيج وحده في كتابه «الطوق» ، على نحو ما رأينا ، لم ينقل عن أحد ، ولم يتأثر في منهجه بقراءة ، وترك أثره فيمن جاءوا بعده ، دون أن يبلغ أحد منهم مبلغه ، وأول هؤلاء فيما أعرف أبو محمد جعفر بن أحمد السراج ، المتوفى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م ، وإذا عرفنا أنه جاء إلى الحياة عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، تبين لنا أنه عاصر ابن حزم لسنوات طويلة تقارب الأربعين عاماً ، وكان عالم قرطبة مل السمع والبصر ، ولكن تحديد الزمن الذي بلغت فيه مؤلفاته المشرق عسير ، ولما يدرس ، ويمكن القول إجمالاً أن دنيا المشرق في القرن الحادي عشر كانت مهياة ، إن لم نقل متشوفة . إلى أن تقرأ كتاباً من طراز «طوق الحمامة» . دون أن نجزم بأن عيني السراج وقعت عليه ، وليس في كتابه ما يرجح ظناً ، على نحو ما سنعرف بعد قليل .

يعرف السراج بالقارىء البغدادي ، لأنه ولد في بغداد ، وعلى صاحبها لقي الله ، وكان رجلاً كثير التجارب ، رحل إلى مكة والشام ومصر ، ويقول عنه جلال الدين السيوطي : « كان على الطبقة في الحديث والقراءة والنحو واللغة والعروض » ، ومن هنا كانت أغلب تأليفه تقوم على الرواية والنقل ، والجمع والنظم ، وكتابه «مصارع العشاق» خير مثال لهذا ، فهو حشد من الروايات والأخبار والأشعار ، مسندة أو مرسله ، يوردها دون أي تحليل أو نقد أو موازنة ، كأنما يستهدف الرواية وحدها ، وكأنما غابته التسلية والإمتاع وكفى .

ويختلف عن ابن حزم في أنه فقيه سياسي ، ومحدث سلفي ، يجرى على مذهب العامة في أيامه ، وليس له اطلاع على الفلسفة ، ولا مشاركة في الثقافات الأجنبية المترجمة ، وعادى في حياته وثقافته ، لا يتميز برؤف بارز في أي مجال ،

وربما لهذا السبب لا تقف عنده كتب التراجم طويلاً ، فهو يحدث كمئات  
المحدثين الذين تضيق بهم بغداد ، ونحوى كما لاف منهم على امتداد العالم  
للعربي ، وأقرب الظن أنه كان رقيق العاطفة ، يصبو للجمال ، ويتذوق الشعر ،  
ويقول الأبيات منه على استحياء ، يافه الوقار ، وتكبح نزعاته التقاليد ،  
ويحرص دائماً على الأخلاق السائدة ، وأراه وجد في الحديث عن العشاق غيره  
تسلياً ، والحياة مع أخبارهم سلوى ، ولعله أراد أن يكتب تاريخه ، وأن ينفس  
عن مكنون صدره ، حين سطر سيرتهم في : « مصارع العشاق » .

بدأ السراج كتابه بلا مقدمة تبين منهجه ، وانتهى به دون خاتمة توجز  
خايته ، وكسره على اثنين وعشرين جزءاً ، زحمتها بكل ما عرف من قصص  
العشاق ، حتى ما كان نادراً أو خرافة لا تصدق ، ولا تجيء أخباره مرتبة ،  
وقد يعرض للموضوع ثم يعود إليه ، وقد يجيء بجانب منه في جزء ، وجانب  
ثان في جزء آخر ، ومحورها أخبار العشاق العذريين : وفاضت على أيامه ،  
وأصبحت تمثل في بغداد تياراً ملحوظاً ، في عالم الأدب على الأقل . ويأتي  
بأخباره مسندة ، وهو في ذلك يجري على عادة سارية ، لأن إسناد الخبر عنده  
ليس دليل الصحة دائماً ، وإهماله ليس قرين الضعف . وأورد لنا عبر هذه  
القصص طائفة من الشعر لعدد كبير من الشعراء على أيامه أو قبلها ،  
مثل جرير ، وعمر بن أبي ربيعة ، وبشار بن برد ، وأبي العتاهية ، وأبي نواس ،  
وأبي تمام ، والبحتري ، وغيرهم ، ولشعراء آخرين مجهولين من الأعراب  
وسواهم ، لا نعرف أسماءهم ، ولم تعن كتب الأدب برواية شعرهم ،  
وكان متداولاً في مجالس السمر البغدادية على أيامه ، ويأتي بها لأنها تكمل  
القصة التي يوردها ، أو توشى الموضوع الذي يتحدث عنه ، أو لأن ذاكرته  
فاضت بها ، وعرض على نحو أقل للمحب الإلهي ، وأورد عددًا من قصص  
الصوفية ، وأشعارهم في حب الله ، أو الجنة ، أو الحور العين ، أو في مدح  
صاحب الكعبة .

وحاول في الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود عاشقين ، وأن

يبرز ملامح النساك منهم ، والذين يخافون الله ، وأن يربط بين العشق والتقى والعفة ، وتركنا نفهم أن الدين يسهم بقدر في توجيه الحب وجهة عفيفة ، فعشاقه يؤكدون من خلال تعاملهم على الوازع الديني ، وأنه يحول بينهم وبين ارتكاب المعاصي ، أو يحماهم على إخفاء عواطفهم ، فصاروا أمثلة للتضحية والوفاء . وهو في كل الحالات رجل إخباري ، لا يحلل ولا يدرس ، لا ياتمس العلل ، ولا يدفع لك بالنتائج ، ومع ذلك فتحليل القصص الذي أورده يهدي إلى تفسير أدق لظاهرة الحب العذري في بغداد . ومن المفيد أن نشير إلى أن السراج ، وقد طوى كتابه على الكثير من أشعار العذريين وصرع على الحب الإلهي ، لم يجد حرجاً في أن يتحدث عن عشاق الغلمان ، وأورد شيئاً من شعرهم الماجن ، وهي ظاهرة ترتبط بتقدم الحضارة ، وكانت بغداد في قمة الحضارة على أيامه ، ولعلها لم تكن ترى في الحديث عن مثل هذه الظاهرة الشاذة شيئاً يعاب .

ومهما يكن فكتاب السراج قصص انفصل عن الواقع ، وعن الأسماء التي ارتبطت به ، زاد فيه الرواة وأعادوا تلويحه ، أو ابتدعوه أصلاً ، ونثروا بين سطوروه أسماء معروفة ، ليكون أقرب إلى الواقع ، وأنفذ إلى قلوب السامعين ، وهو يعكس دون شك ذوق الدين أقبلا على هذه القصص ، يسمرون بها أويؤرخون لها ، دون أن تصبح وثيقة لحياة أبطالها ، أو لواقع المجتمع الذي انتموا إليه ، ومؤلف الكتاب فقيه خائف ، يتوجس شراً من وراء رواية أية حكاية ، فيوردها مسندة ، كأنما يريد أن ينفض يديه من مسئوليتها ، ويوصد الباب دون مشاعره ، فلا يعرف أحد على نحو يقيني ما تنطوي عليه ، وكلاهما ملامح يقف ابن حزم في الجانب المقابل لها تماماً .

\* \* \*

بعد ثمانى سنوات من وفاة السراج يجيء ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن ، القرشي البغدادي ، ولد في بغداد عام ٥٨٠ هـ = ١١١٤ م ، وفيها توفي عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م ، والجوزي نسبة إلى « فرضة الجوز » (م ٢١ ابن حزم)



من ضواحي عاصمة الرشيد . وأمضى طفولة تامة ، مات أبوه ولما يتجاوز  
الثالثة من عمره ، وأهملته أمه ، فرعته عمه له ، ثم احتضنه بحاله حين ظهرت  
مواهبه ، وتفرد بين قرنائه ، واتجه صغيراً إلى الرعظ . فبرع فيه ، أعانته عليه  
مشاعر رقيقة ، وحنان متدفق ، ورغبة في الإصلاح ، وعزم على مقاومة  
للفساد الذي عم وطم ، بالكلمة القارعة ، والقصة الموحية ، والمثل القدوة .  
ولكن مواهبه لم تنف به عند الوعظ ، فشارك في كل مناحي العلم على أيامه ،  
كتب في علوم القرآن والحديث ، والأدب واللغة ، والرعظ والفقهاء ،  
والتاريخ والسير ، وتعرف له المكتبة العربية بقراءة متين كتاباً بين مخطوط  
ومطبوع ، على حين يرتفع أصحاب التراجم القدامى بمؤلفاته إلى ثلاث مئة ،  
ويحنا من بينها جميعاً كتابه : « ذم الهوى » .

وقبل أن نعرض للكتاب نفسه أرى من المفيد أن نلقى عند صورة دقيقة  
لمؤلفه ، أوردها ابن العماد الحنبلي ، نقلاً عن الموفق عبد اللطيف ، فيها  
ما يكشف اتجاهه ، ويلقى ضوءاً على مؤلفه ، يقول : « كان ابن الجوزي  
لطيف الصوت ، حلو الشرائل ، رقيق النعمة ، موزون الحركات ، للهدى  
المفاكهة ، لا يضيع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربع كراريس ، ويرتفع  
له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين ، وله في كل علم مشاركة . . .  
وكان يرعى حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوة ، وذهنه  
حدة ، يعتاض عن المفاكهة بالمفاكهة ، لبامه الأبيض الناعم المطيب . . . وله  
مجون لطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفك عن جارية حسناء ، وذكر  
خير واحد أنه شرب حب البلاد فسقطت لحيته ، فكانت قصيرة جداً ،  
وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات » .

ورغم أن ابن الجوزي احتاط لنفسه ، فجعل عنوان كتابه : « ذم  
الهوى » ، مما يرفع الخرج عنه لهولة الأولى ، احتاج كعادة الذين كتبوا في  
الحب قبله ، أن يشير إلى أنه يؤلف كتابه استجابة لرغبة أبدت له : « شكوا  
إلى بعض من أثرت شكواه إثارة همتي في جمع هذا الكتاب ، من بلاء

أبشئ به ، وهو هوى هوى فيه ، وسألني المبالغة في وصف دواء دائه ، فأهديت له نصيحة وديد لأودائه ، وقد أتيت بها على أبلغ ترتيب . وبعد مقدمة قصيرة جداً لا تتجاوز هذه السطور ، عقب بما يشبه أن يكون اعتذاراً عما خمس وقاره من مضمون الكتاب : « وأعلم أني قد نزلت لأجلك في هذا الكتاب عن يفاع الوقار ، إلى حضيض الترخص فيما أورد ، اجتذاباً لسلامتك ، واجتلاباً لعافيتك ، وقد مددت فيه النفس بعض المد ، لأن مثلك مفتقر إلى ما يلهمه من الأسمار ، هن الفكر فيما هو بصدده من الأخطار ، فليكن هذا الكتاب سميرك ، واستعمال ما أمرك به فيه شغلك ، والله ولي صلاحك ، فإنه لا عاصم إلا من رحم » .

ثم أتى على الأبواب التي تضمنها الكتاب ، وتبلغ الخمسين ، وتحت كل باب فصول عديدة ، تتناول الجوانب المختلفة للتضية التي يعالجها . نحن مع « ذم الهوى » إذن أمام كتاب ضخم ، لعله أضخم كتاب ألف في هذا المجال ، ولا غرو أن يكون كذلك ، فصاحبه واعظ ، معارفه وفيرة وهبارة مواتية ، ورغبته في الإفاضة بيّنة ، وإدراكه لنفسية القارئ دقيقة ، وكانت دراسته جماع هذا كله ، جاء الجانب الأكبر منها في التحذير والتذكير ، من التنبيه إلى فضل العقل ، وذم الهوى والشهوات والحض على مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها ، ومدح الصبر والحث عليه ، وحراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن ، وما يصدأ به ، وما يجلو صدأه ، أو يفرغه من محبة الرب .

ونخص النظر بأبواب عديدة ، تدور حول الأمر بغض البصر ، وذم فضول النظر ، والتحذير من شره ، والنهي عن النظر إلى المردان ومجالسهم ، وإثم النظر وعقوبته ، ومن عاقب نفسه عليه ، ومن طلب العمى بحرف الفتنة ، وثواب من غض بصره عن الحرام ، ومعالجة الهم والفكر المتولد عن النظر ، والتحذير من فتنة النساء ، والتخويف من الفتن ومكابد الشيطان ، والتحذير من المعاصي وقبحها ، وفي ذم الزنا ، وعرض للعواطف المنحرفة ،

وحذر من ذلك كله ، وذكر بعقوبته ، وحث على التوبة لمن تردى في مهاويها . وخرج من ذلك إلى نهاية منطقية فيها الحماية لمن أراد العافية ، فحجب في الزواج ، وقرع من نخب امرأة على زوجها ، وبذلك انتهى الجانب الوعظي من الكتاب .

ومن الباب الخامس والثلاثين حتى نهاية الكتاب وقفه على العشق ، حقيقته وأسبابه وذمه ، وثواب العفة فيه ، وما يجرى على العاشق من المرض والضمي والحنون ، والحيل والمخاطرة والتهلكة لأجل لقاء المحبوب ، ومن ضربت به الأمثال من العشاق ، ومن حملة العشق على أن يزنى بمحارمه ، ومن كفر بسببه ، ومن دفع به العشق إلى أن يقتل نفسه أو معشوقه ، ومن قتله العشق ، وأدوية الشفاء ، وأخبار مشاهير العشاق ، وأنهى الكتاب بباب وقفه على الوصايا والزواج والمواعظ .

كان اعتماد ابن الجوزي في الجانب الخاص بالنهي والتحذير ، والإرشاد والتذكير ، قائماً على النقل عن الزهاد والعباد والمحدثين ، والفقهاء والمتصوفة والمفسرين ، والأدباء والعلماء وعلية القوم ، والبدو وعامة الشعب ، وقد يذهب بعيداً فينقل عن السيد المسيح ، ويستشهد بأحوال الرهبان ، أو يضرب المثل بأنبياء بني إسرائيل . وأفاد في الأبواب الخاصة بالعشق من التراث اليوناني المترجم ، فهو ينقل عن أفلاطون ، وبوذجانس ، وأرسطوطاليس ، وفيثاغورس ، وجالينوس ، ويسميه « الأوائل » ، ويعقب على آرائهم بالإسلاميين . إنه منتوح العقل والقلب ، يلتقط أية مادة يسقط عليها عقله ، ما دامت تخدم الهدف الذي يسعى إليه . ويوشى قصصه بين حين وآخر بأبيات من الشعر تمتد أحياناً حتى تصبح قصيدة طويلة ، وأخباره مسندة دائماً ، وعبارته واضحة أبداً .

وحددت مهمته واعظاً نهجه في الرواية ، فهو يهتم بالتأثير في المقام الأول ، لا يعنيه المصادر كثيراً ، ولا صدق ما يرويه ، محور القصة ويطورها ، وقد يوشىها بحديث ولو موضوع ، لكي يبلغ التأثير غاية .

وَجَرى قلمه بأبعد مما جرى به قلم أى واحد من الذين سبقوه ، يورد قصة الأم التى عشقت ابنها واحتالت عليه ، والأخ الذى أحب أخته واتخذها عشيقته ، ويمضى بالتصميمين فى خبر مثير وأسلوب سهل جذاب ، يجرى بالقراءة ، ويمسك باهتمام القارئ حتى النهاية .

والكتاب صورة لما كان يجرى فى المجتمع العربى بعامه ، وفى بغداد على نحو خاص ، فى عصر المؤلف وما قبله ، وإذا صنفنا مادته من طابع القصة ، وإرادة التأثير ، التقينا بالحياة كما هى ، وإذا البون شاسع بين ما يحدث فعلاً ، وما يتمناه ابن الجوزى واعظاً ، وقد أمصرف فى أمثله ، وأراها لا تحقق ما أراد منها ، فبها أشاع نادراً ، وأذاع مجهولاً ، وجعل من سقطات الأبرار مندوحة لعامة الناس .

وأدار المؤلف ظهره للأندلس ، والغرب الإسلامى ، وحتى مصر لا ترد إلا نادراً ، وكان فى ذلك مخلصاً مع نفسه ، فهو لم يبرح بغداد فيما يبدو ، والتمط مادته من روايات معاصريه الذين لقيهم ، وشهادة بنت أحمد من بينهم على نحو ظاهر ، والخبر الأندلسى الوحيد الذى اهتم به ، وأورده تفصيلاً ، قصة أحمد بن كليب مع أسلم بن عبد العزيز .

وأكد أن اجزم ابن الجوزى لم يقرأ « طوق الحمامة » ، أو حتى سمع به ، فهو لا يأتى على ذكر ابن حزم أبداً ، ولا يلتقى معه رأى أو منهج أو فكرة ، ومسافة الخلف بينهما واسعة ، مادة ومنهجاً ، ابن حزم أصيل وذاتى ومبدع ، وابن الجوزى قارئ ومختار وصانع ، والأول واقعى ومقرر وذاتى ، والثانى واعظ وقصاص وناقل ، والقرطبى يقدم مادة لا تكاد نجد ما عند غيره ، والبغدادى يقدم حشداً هائلاً من الروايات ، ويمكن أن نلتقى بالجانب الأكبر منها مبعثراً فى مؤلفات أخرى ، ولكن ذلك لا يقلل من شأنه ، فهو شيق بحكاياته وأسلوبه ، وأنت تجرى بين سطوره ، وكأنك تقرأ كتاباً معاصراً ، لا تقع منه على جملة قلقة ، أو تعبير غامض ، أو كلمة صعبة تقف عندها ، أو تحتاج فى فهمها أن

تعود إلى المعاجم .

\* \* \*

وبعد قرن تقريباً يجيء ابن قيم الجوزية ، ومن توافق الصدف أن البعد الزمني بين وفاة السراج ومولد ابن الجوزي ، يعادل تقريباً المسافة بين وفاة ابن الجوزي ومولد ابن قيم الجوزية ، سنوات تتجاوز التسعين وتقل عن المائة ، وثمة فارق جوهري بينهم ، فالسراج وابن الجوزي بغداديان ، وابن قيم الجوزية دمشقي ، جاء إلى عاصمة بني أمية عام ٥٦٩١ = ١٢٩٢م ، وبها توفي عام ٧٥١ هـ = ١٣٥٠م ، وعبر حياته الطويلة تنقل ما بين سورية ومصر ومكة . وكان تلميذاً للشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨م) ، لا يخرج عن شيء من أقواله ، وينتصر له في جميع ما يصدر عنه ، وهو الذي هذب كتبه ، ونشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، وأمين وهذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروراً بالعصى ، وأطلق سراحه بعد موته . وكان ابن تيمية إماماً جليلاً ، لا يخضع في مذهبه إلا للقرآن والسنة والإجماع ، رغم أنه من أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، وقد رفع عقيرته ضد البدع عبادة الأولياء والحج إلى قبورهم ، والنذر لهم ، وسار الوهابيون على وبيادته فيما بعد .

وكان ابن قيم الجوزية حسن الخلق ، محبوباً عند الناس ، ذا عبادة وتهجد وطول صلاة ، تفنن في كافة علوم الإسلام من تفسير وحديث وأصول ، متمكناً من النحو وعلم الكلام والتصوف ، أغرى بحب الكتب فجمع منها عدداً عظيماً ، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً ، وألف تصانيف كثيرة تقارب السبعين ، أروجها : « زاد المعاد في هدى خير العباد » ، ويهمننا من بينها كتابه : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ، وأراد به فيما يقول : « عوناً على الدين والدنيا ، فتارة يضحك قارئه ، وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده عن أسباب اللذة الفانية ، وطوراً يرغبه فيها » .

تناول ابن القيم الجوزية الحب من كل جوانبه ، حب الله والإخوان

والأموال والنساء والألحان ، وفي المحبة والمحبة وجدت الأرض والسموات ،  
وعليها فطرت المخلوقات ، ولها تحركت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت  
الحركات إلى غاياتها ، واتصلت بداياتها بنهاياتها ، وبها ظفرت النفوس  
بمطالبها ، وحصلت على نيل مآربها ، وتخلصت من معاطبها . ويرد الحب  
إلى أسباب ثلاثة : ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته ، وما  
قام بالمحِب من الشعور بهذه الصفات : والموافقة التي بين المحب والمحبوب ،  
ومتى قويت هذه الدواعي وكملت ، قويت المحبة واستحكمت ، والعكس  
صحيح أيضاً .

وهو رجل دين ملتزم ، وباحث جاد في دروسه وفي حياته ، يعرض  
للجنس والحب فلا يرى له طريقاً غير حكم الشريعة ، لا يرجع إلى عادة  
جارية في أيامه ، ولا إلى تفسير مستعار ، لا يتساهل ولا يترخص ، وإذا  
فصل الخطاب هو أن الاتصال الجنسي الحرام يفسد الحب ، ولا بد أن تنتهي  
المحبة بينهما إلى المعادة والتباغض ، أما الاتصال المباح فإنه يزيد الحب إذا  
صادف مراد المحبوب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى  
لم تكن حاصلة قبل الذوق .

ويعرض للنظر على غير ما نظر فيه ابن الجوزي قبله ، يورد آراء الذين  
يروونه مباحاً ، لأن رؤية الجمال البديع تنطق السنة الناظرين بقولهم : سبحان  
الله رب العالمين ، وتبارك الله أحسن الخالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن  
عبثاً ، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه :  
ولقد خطب رجل امرأة فاستشار النبي فقال : هل نظرت إليها ؟ فقال :  
لا . قال : اذهب فانظر إليها . « وأمر النبي للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة  
إنما هو نظر للحاجة ، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة ، وهو  
دخول الزوج على بصيرة ، فالنظر المباح أنواع هذا أحدها ، بخلاف النظر  
إلى الصورة المحرمة ، بل إن التلاصق لا يذهب التقى إذا كان في عشق مباح ،  
بل هو أمر مستحب ، كعشق الزوجة والجارية . ويورد مناظرة طريفة بين

القلب والعين ، فالعين رائدة ، والقلب باعث وطالب ، وهذه لها لذة الروية ، وهذا له لذة الظفر ، ولهذا كانا في الهوى شريكين ، فلما وقعا في العناء ، واشتركا في البلاء ، أقبل كل منهما ياوم صاحبه .

ويورد في حتمية العشق آراء الأطباء والفلاسفة ، والمنكرين العرب ، وأشهرهم رأى ثمامة بن أشرس ، وهو موجود في كتاب الكذب السابقة التي عرضت للحب ، ويعرض لإرادة الحب : هل هو اختياري تابع لهوى للنفس وإرادتها ، أو اضطراري لا يدخل تحت قدرة العبد ، فهو بمنزلة محبة الظمان للماء البارد ، والجائع للطعام ، ويورد آراء أكل من الفريقتين ، ويفصل بينهما ، منتبها إلى رأى وسط ، فالحب في أوله ، من نظر وتفكير وتعرض ، أمر اختياري ، ولكن ما يترتب على هذا الاختيار اضطراري ، ويضرب لذلك مثلا بالخمير والسكر ، فشرب الخمر أمر إرادي ، ولكن السكر الذي يتولد عنها اضطراري ، ومتى وقع السبب اختيارا ، لم يكن فاعله معذورا فيما تولد عنه : فإذا حصل العشق بسبب غير محذور ، كمن يمشق زوجته أو جاريتها ، ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارق له ، لا يلام صاحبه عليه ولا يقف بالجبرية عند هذا الحد ، فمن وقع نظره فجأة على جميلة ، ثم صرف بصره ، ولكن العشق تمكن منه ، لم يكن مختاراً .

ويتناول قضية الحب من جانبها الفقهي ، وأكمله فيما يرى ما انتهى بالزواج ، فالعزوبة ليست من الإسلام في شيء ، فإذا تزوج المحبان فإن للمعاشرة فوائد وآداباً وقواعد منها : « إكمال اللذة ، وإكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهاب أفكارها الرديئة عنها ، وخفة الروح ، وذهاب كثافتها وغلظها ، وخفة الجسم ، واعتدال المزاج ، وجلب الصحة ، ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهها حسناً ، وخلقاً دمثاً ، وعشقاً وافراً ، ورغبة تامة ، فتلك اللذة التي لا يعادلها شيء ، ولا سيما إذا وافقت كما لها ، فإنها لا تكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسط من اللذة ، فتلذذ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسمع

كلامه ، والأنف بشم رائحته ، والفم بتقبيله ، واليد بلحمسه ، وتعتكف كل جارحة على ما تطالبه لذتها ، وتقابله من المحبوب ، فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه ، فلا تسكن كل السكون ، ولذلك تسمى المرأة مسكناً لسكون النفس إليها ، قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

ويدرك واعياً أن الرغبة تشتد مع الصحة الكاملة ، والغذاء الجيد ، وتهبط أو تتلاشى مع المرض والجوع والحاجة ، فالصوم ، مثلاً ، يكسر حدة الشوق ويضيق على النفس مجارى الشهوة . ويختم كتابه بخمسين وصفاً لمن وقع في الهوى وأراد أن يبرأ منه ، وهى نصائح مسجوعة ، ووعظ إنشائي ، قرأها تسلى ، ولكنها لا تشفى عاشقاً ، ولا تأخذ بيد مريض .

ينفرد ابن قيم الجوزية بين رفاقه بأنه قرأ كتاب « طوق الحمامة » دون شك ، وعلى ذلك شواهد من حياة الرجل ، ومن طبيعة العصر ، ومن كتابه نفسه . فنحن نعرف أنه كان جماعة للكتب حفيماً بها ، وخلف وراءه مكتبة غنية ، وكانت الصلة بين دمشق والأندلس أقوى بكثير فى هذه الفترة من الزمن ما كانت عليه بين الأندلس وبغداد بعد أن سقطت الخلافة ، واجتاح هولاءكو عاصمة بنى العباس ، وأتى على معالمها تدميراً ، وأرسل بها إلى دائرة الظل لزمان طويل ، على حين صعد نجم القاهرة مريعاً ، وأصبحت قبلة العالمين العربى والإسلامى ، بعد أيام صلاح الدين المجيدة ، وبعد أن حطم الجيش المصرى بقيادة الظاهر بيبرس جيش التتار فى موقعة « عين جالوت » ، عام ١٢٦٠ م ، وحرر سورية ، وعاد بها من جديد إقليماً من دولة كبرى عاصمتها القاهرة ، وتشمل مصر والشام والجزيرة العربية . وكانت مصر محط الأندلسيين فى طريقهم إلى الحج ، أو رحالة إلى الشرق ، أو تجاراً يعمالون فى التصدير والاستيراد ، أو طلاباً يبحثون عن العلم ، أو أساتذة يحاولون أن يجدوا لهم فى حلق الأزهر مكاناً ، زهواً بما وصلوا إليه وبلغوه فى وطنهم ، أو هاربين من الملاحقة يطالبون الأمن



والمأوى . ومن القاهرة ينطلقون إلى الحجاز للحج ، وإلى القدس تبركاً ،  
وإلى دمشق طلباً لصناعاتها الدقيقة ، وكانت تشتهر بها على نحو عالمي ، طوال  
العصر الوسيط .

أما تأثير « الطوق » في كتاب « روضة المحبين » ، فيتجلى من خلال  
مناقشة ابن قيم الجوزية لآراء ابن حزم وفيما نقل عنه ، فهو يرفض رأى  
عالم قرطبة في أن سبب الحب « اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة  
في أصل عنصرها الرفيع » ، لأنه مبني على القول بتقدم خلق النفوس على  
الأبدان وهو فاسد . وعلى خطى ابن حزم يؤمن بوحداوية الحب ، ولكنه  
لا يقف مثله بالفكرة عند جانبها العاطفي وحده ، وإنما يكسوها ثوباً دينياً ،  
فيذكر الآية : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ،  
ويذكر آراء المفسرين في أن المقصود عجز الإنسان عن العدل بينهن في  
الحب والشهوة ، وإن كان يستطيع أن يفعل ذلك فيما هو مادي من الملابس  
والمسكن والنفقة . وينثر أبيات ابن حزم في استحالة تعدد المحبوب ،  
ويصنع منها مثلاً موجزاً : « ليس في القلب حبان ، ولا في السماء ربان » .

أما الباب الخاص بعلامات الحب ، فكان فيه عالة على ابن حزم تماماً ،  
ينقل عنه دون أن يشير إليه ، ويستشهد به ذاكراً في أكثر من موضع ،  
والفرق بينهما أن ابن حزم موجز ، يحاول أن يعطي صورة لنفسه ولمن حوله ،  
دون أن يرتدى ثياب الواعظ . أو مسوح الراهب ، ولا يحاول أن يبحث  
عن أمثاله خارج حياته وحياته صحبه ، ولا يقتنص الشواهد مما قرأ في كتب  
الآخرين ، على حين أن ابن قيم الجوزية يورد على ما يقول ، أو ينقل إن  
شئت ، الشواهد كثيرة ومتعددة ، وهو يورخ أو يحلل ، ولكن عينه على  
ما تقتضيه الشريعة إجازة أو تحريماً ، وقد كسا أفكاره أثواباً شرقية ،  
وصاغها في صورة دينية ، ليبلغ بها غايته ، وكان واثقاً من نفسه فلم يكن  
في حاجة ليعتذر عن حديثه في الحب ، أو ليبرر إقدامه على التأليف فيه ،

وكان ابن أبي حجلة التلمساني ، أحمد بن يحيى ، أبو العباس ، معاصراً لابن قيم الجوزية ، حنبلياً مثله في اتجاهه الفقهي ، وهو يمثل وحدة الثقافة الإسلامية في عصرها الزاهر خير تمثيل ، فقد ولد في المغرب عام ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م ، وأمضى شطراً من حياته في دمشق ، ثم جاء القاهرة واستقر بها ، وولى مشيخة الصوفية بصهرنج منجك ، إلى أن توفي عام ٧٧٦ هـ = ١٣٦٦ م ، وله أكثر من ثمانين مصنفاً في الحديث والفقه والنحو والأدب ، وله شعر ونثر ، وبهنا من بين كل مؤلفاته كتابه : « ديوان الصبابة » .

بدأ ابن أبي حجلة كتابه بمقدمة مسجوعة ، أبان فيها غايته بأنه يحوى أخبار من قتلهم الهوى ، وتركهم كهشيم محتظر ، ويزهو بأن جماعة من معاصريه غلبوا من تقدم بالتأليف في هذا الباب ، ويقارن بين كتابه وبين ما ألفه الشهاب محمود ، ويرى أن ذلك بالنسبة إلى هذا مشكور ، ويشير إلى « طوق الحمامة » في السطور الأولى من مقدمته إشارة غامضة ، لم أتبين ما يريد منها تماماً ، ربما لأن النص الذي بين أيدينا مطبوع تجارياً ، يجيء على هامش كتاب « تزيين الأسواق » للأنطاكي ، فهو مليء بالتحريف والأخطاء .

سلك ابن أبي حجلة في تأليف كتابه طريق « الاختصار والاقتصار » على النوادر القصار ، واحتذى فيه شكلاً منهج ابن حزم ، فرتبته على مقدمة وثلاثين باباً ونخاتمة . أوقف المقدمة على ذكر حلد العشق واشتقاقه ، وما قيل في اسمه ورسمه ، وأسبابه وعلاماته ومراتبه ، وأسمائه ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه : أهو اختياري أم اضطراري ، وخص الخاتمة بمن « مات من حبه ، وقدم على ربه ، من غني وفقير ، وكبير وصغير » ، ودرس في كل باب من أبوابه جانباً من جوانب الحب ، فبدأ بذكر الحسن والجمال ، والمحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء : ومن عشق على السماع ، ومن أحب من أول نظرة ، وتغير ألوان المحبين ، والفيرة ، وإنشاء السر ، ومغالطة الحبيب ، والرسول والرسائل ، وطيف الخيال ، والرقيب والتمام .

والواشي ، والتعاب بين الأحبة ، ومساعدة العاشق ، والشفاء من الجوى ،  
وتعنت المعشوق ، والدعاء على المحبوب ، والخضوع ، والوعد ، والرضى  
من المحبوب ، واختلاط الأشباح ، ونحول المحب ، وما يكابده المحبون ،  
وطيب ذكر الحبيب ، ووصف ما يحمل في المحبوب شكلاً ، وأخبار  
المطربين من الرجال وذوات الجمال ، ومن ابتلى بحب النساء والغلمان ،  
ومن اتصف بالعفاف . ويأتى بعناوين الأبواب مسجوعة في تكلف ظاهر ،  
وتحت كل باب فصول تختلف طولاً وعدداً من باب إلى آخر .

عاش ابن أبي حجلة في عصر بدأت فيه الثقافة العربية تأخذ شكلاً  
موسوعياً ، يقوم على الجمع والحفظ والترتيب ، وكان المغاربة أكثر ميلاً ،  
وأسبق أخذاً ، في هذا الاتجاه ، ويتجلى هذا واضحاً في «ديوان الصبابة» ،  
فقد زحمه صاحبه بأسماء الفلاسفة والشعراء والكتاب ، وهو لا يقنع من  
الأسماء الأجنبية بذكرها ، وإنما يضيف إليها تعريفاً موجزاً ، لا تجده عند  
من سبقوه ، ممن كتبوا في هذا المجال ، فأرسطو فلكي وتلميذ أفلاطون ،  
وأفلاطون أخذ الحكمة عن فيثاغورس ، وبطليموس فلكي وعلى معرفة واسعة  
بالجغرافية ، وإلى جوار هؤلاء تلتقى بأسماء ابن سينا ، والجنيد ، ومن الشعراء  
أبو تمام ، وبشار ، وأبو نواس ، وأمرؤ القيس ، والبهاء زهير ، وابن نباتة  
المصرى ، وآخرون كثيرون .

وينقل عن سبقوه في الكتابة عن الحب ، كالحراثطي ، وابن حزم ،  
والسراج ، وابن الجوزي ، وابن قيم الجوزية ، وعن أبي عمرو ومحمد بن  
أحمد النوفلي ، في كتابة «تحفة الظراف» ، وشمس الدين بن الأكفاني في  
كتابه : «غنية اللبيب عند غيبة الطبيب» ، وتفرد من بين هؤلاء جميعاً بأنه  
ضمن كتابه أمثلة أندلسية عديدة ، جاء بها من مصادر مختلفة ، أشار إليها  
حيناً ، وأهمها حيناً آخر ، وهو أمر طبيعي من مغربي يعيش في المشرق ،  
ويشده الحنين دوماً إلى مسقط رأسه ، وذكريات أمسه ، وكان الأندلس  
جزءاً من عالم المغرب أساساً وذكريات . فقد أورد في الباب الأول بيتين

للحكيم بن هشام دون أن ينسبهما إليه ، مكثفياً بقوله : لإنهما « لبعض ملوك  
الأندلس » وهما :

ظل من فرط حبه مملوكا      واقد كان قبل ذاك مليكا  
تركته جآذر القصر صبا      مستهما على الصعيد تريكا

ثم عاد في الباب الثاني ، وهو الخاص بذكر « المحبين الظرفاء ، من الملوك  
والخلفاء » ، فذكرهما ثانية ، وأضاف إليهما بيتين آخرين ، ونسبها إلى الحكم  
ابن هشام صراحة (١) ، وأتى بأبيات الرشيد في جواريه ، وهي مشهورة ،  
ووصلت الأندلس في زمن مبكر ، وراجت فيه كثيراً ، وأتبعها بأبيات  
الحليفة الأندلسي سليمان المستعين ، من قصيدته التي قالها يعارض فيها أبيات  
الرشيد ، وكان الأندلسيون يزهون بقصيدة أميرهم ، ويرون بحق أنها أرق  
من أبيات الرشيد ، وقد أتينا عليهما من قبل (٢) . وينقل بعدها رواية للشيخ  
أثير الدين أبي حيان نصها : « كان السلطان أبو عبد الله محمد بن السلطان  
الغالب بالله ، أحد ملوك الأندلس ، جميلاً حسن السيامة ، متظاهراً بالدين ،  
رأيته مراراً بغرناطة ، وأنشدني شعراً ، وحضرت عنده إنشاد الشعراء ،  
ومن شعره :

أياربة الخدر التي أذهبت نسكي      على كل حال أنت لا بد لي منك  
فلما بذل وهو أليق بالهوى      وإما بعز وهو أليق بالملك ،

وهو كما ترى شعر سخيف ، وكل مبررات روايته وذكره أن قائله  
أمير . ويورد الأبيات التالية ، من قصيدة رقيقة وشهيرة لابن بقلبي ، نقلها  
عن ابن الأبار في كتابه « تحفة القادم » ، وهي ليست موجودة في « المقتضب »  
منه الذي اختاره أبو اسحاق إبراهيم بن محمد البلنفيقي :

(١) المقطوعة من خمسة أبيات في « الحلة السيرة لابن الأبار ، ج ١ ص ٤٩ ، طبعة

للقاهرة ١٩٦٢م

(٢) أنظر صفحة ١٢٢ من هذا الكتاب .

حتى إذا مات به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانقني  
أبعده عن أضلع تشنقه كن لا ينام على وسادخافق

ويعلق عليها ابن الأبار : « نسب بعض أهل عصرنا ابن بقي (١) إلى  
الجفاء في قواه : « أبعده عن أضلع تشنقه » ، ولو قال : أبعده عنه  
أضلع تشنقه « لكان أحسن » . ويعقب عليه برأى ابن الأثير هذه  
الآبيات ، نقلاً عن كتابه « المثل السائر » : « أبيات ابن بقي من الحسن  
والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت  
ترقص رقصاً » . ولم يقف عند هؤلاء وحدهم ، فاستشهد بأبيات من شعر  
ابن عبد ربه ، وابن زيدون ، وابن شرف ، وابن رشيق ، وابن الزقاق ،  
وابن خفاجة ، وابن سهل الإشبيلي ، وغيرهم .

وقد اتكأ ابن أبي حجلة على ابن حزم في أكثر من مكان ، وكان غرسية  
غومث فطناً كعادته حين لحظ أن « باب علامات الحب » في « طوق الحمامة »  
كان أكثر أبواب الكتاب ذبوعاً وتأثيراً فيمن جاءوا بعده ، ونجد ذلك  
واضحاً في مقدمة « ديوان الصبابة » ، في الفصل الخاص بأسباب الحب  
وعلاماته ، فهو يذكر : « ومنها أنه يستدعي سماع اسم محبوبه ، ويستلذ  
الكلام في أخباره ، ويحب أهل محبوبه » ، « والإنصات لحديثه إذا حدث ،  
واستغراب كل ما يأتي به ، ولو أنه عين المحال ، وتصديقه وإن كذب ،  
وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك »  
« والإسراع بالسبر نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للعود بقربه ،  
والدنو منه ، واطراح الأشغال الشاغلة عنه ، والأزهد فيها ، والرغبة عنها ،  
والاستمانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقتها ، والتباطؤ في المشي عند  
القيام عنه » . وهي فقرات نقلها كلها عن « الطوق » نصاً دون أن  
يشير إليه .

(١) وردت كلمة ابن بقي في ديوان الصبابة المنشور في المرات الثلاث (ابن تقي) ،

ويذكر ابن أبي حجلة في الباب الثالث من كتابه ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، ووقع من النزوع إلى الحبيب في النزاع ، قصة أبقراط حين وصف له رجل من أهل النقص أنه يحبه ، فقال : ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه ، وقد نقلها نصاً عن ابن حزم ، وقد أوردها في « الطوق » في باب « الكلام في ماهية الحب » . وينقل في الباب التاسع والعشرين ، وهو « في ذكر من ابتلى من أهل الزمان بحب النساء والغلمان » ، قصة أوردها ابن حزم في « الطوق » في « باب فضل التعفف » ، وينسبها إليه في هذه المرة ، ويلقبه بالأموي ، ونص عبارته : « قال الحافظ أبو محمد الأموي ، أن امرأة يثق بها حدثته أن فتى علقها وعلقته ، وشاع أمرهما ، فاجتمعا يوماً خاليتين ، فقال لها : هلمي نحقق ما يقال فينا . فقالت : لا والله ، لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وأورد ابن أبي حجلة في الباب الثاني ، « في ذكر المحبين الظرفاء » ، من الملوك والخلفاء » ، أبياناً لابن حزم ، دون أن ينسبها إليه ، وقد جاءت في « الطوق » عند الحديث على وحدانية الحب ، في « باب من لا يحب إلا مع المطاولة » (١) ولم يورد « ديوان الصبابة » البيت الأول ، وتقدم بالبيت الأخير بيتاً ، وتأخر بالذي سبقه ، وأعاننا على تصحيح كلمة فيه ، جاءت قلقة في طبعتنا الأولى « للطوق » ، وصححناه في الطبعة الثانية منه ، كانت في تلك « ذو شك » ، فأصبحت في هذه « ذو شرك » ، وهي أقرب إلى الصواب . وفي الباب الثالث ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، يورد ثلاثة أبيات من الشعر ، من بحر الخرج ، وينسبها لشاعر يدعى المدني ، على حين ينسبها ابن حزم في « الطوق » في « باب من أحب بالوصف » لنفسه ، والبيت الأول منها :

(١) طوق الحمامة ، ص ٤٦ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي ،

ويامن لآمني في حب من لم يره طرفي (١)

وفي الفصل نفسه يورد ابن أبي حجلة أربعة أبيات من الشعر ، غير منسوبة لأحد ، ومطامعها :

يا ليت شعري من كانت وكيف سرت

أطلعة الشمس كانت أم هي القمر

وقد نسب ابن حزم الأبيات لنفسه ، وجاء بها في « الطوق » في « باب من أحب في النوم (٢) » ، وأعانتنا رواية « ديوان الصباية » على تصويب كلمة غامضة وغير واضحة في البيت الثاني ، وهي « أظنة » فأصبحت « أظنها » ، وكلمة « تخيل » في البيت الثالث فأصبحت « تحير » ، وبذلك استقام معنى الأبيات . وقد نسب ابن أبي حجلة فقرة في الفصل الرابع ، من مقدمة كتابه إلى ابن حزم وهي : « قال رجل لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت امرأة فعشقتها ، فقال عمر : ذلك مما لا يملك ! » ، ولم يذكر المصدر الذي نقمها عنه ، ولا توجد في نسخة « الطوق » التي بين أيدينا ، وهي به أشبه .

وقد نلتقي بالعنوان واحداً ، أو متقارباً ، عند الإثنين ، ولكنهما يختلفان في تناوله ، فباب « الإذاعة » عند ابن حزم ، هو باب « في إفشاء السرو الكتمان عند عدم الإمكان » عند ابن أبي حجلة ، و« في الرسل والرسائل ، والتلطف في الوسائل » عنده ، نلتقي به عند ابن حزم في بابي « المراسلة » و« السفير » . وهو يفرد باباً خاصاً لكل من « الرقيب » و« الواشي » ، ولكن ابن أبي حجلة يجمعها في باب واحد : « الرقيب النمام ، والواشي الكثير الكلام » . وابن حزم ، في كل هذه الأبواب ، يتخذ مادته من الواقع ، ويوشىها بشئ من شعره ، أما ابن أبي حجلة ، فاكتفى فيها بأمثال عديدة من الشعر ، لشعراء مختلفين ، وقليل من حكايات مشرقية

(١) طوق الحمامة ، ص ٣٨ ، وفي ديوان الصباية : أيامن ....

(٢) طوق الحمامة ، ص ٣٧

ينقلها عن الخرائطي ، دون أن يأتي بجديد أو ينقل عن ابن حزم شيئا .  
والحق أنهما في ماعدا ما أشرنا إليه من توافقات ، نقل فيها الأديب  
المغربي عن عالم قرطبة العظيم ، يختلفان دافعا ومناخا وغاية . لقد جاء ابن حزم  
في وهج الخلافة ، وكتب « الطوق » في عنفوان شبابه فكان صورة للتمرد  
والأصالة ، وعدم المبالاة بما حوله ، وألف ابن أبي حجلة كتابه وشمس  
الحضارة الإسلامية تسرع نحو الغروب ، فجاء مزيجا مما حوله ، رواية  
وجما ، وخرافة وأساطير ، وفحشا وقلة آحياء .  
ولقد عالج ابن الحزم الحب عاطفة لائقين ، أمسك بجوانب غير قليلة  
من ظواهره ، وحاول أن يجد لها تفسيرا ، ودخل به ابن حجلة في متاهات  
الفقه ، فيبحث مثلا : هل التداوي بالجماع يبيحه الشرع ، ويذهب إلى  
أن ذلك غير جائز إذا كان المحبوب ممن لا يجوز نكاحه ، وأما التداوي  
بالضم والقبلة ، فإن تحقق الشفاء به ، كان نظير التداوي بالخمر عند من  
يبيحه ، بل لعل ذاك أسهل من هذا ، لأن شربه من الكبائر وهذه  
من الصغائر .  
أ ويعرض لمحق الزوجة على زوجها حين ترغب ، ويأتي بأراء الذين  
لا يرون لها هذا الحق ، لأنه للزوج وحده . إن شاء استوفاه ، وإن  
شاء تركه ، ويراه أضعف الأقوال ، لأن القرآن والسنة والعرف والقياس  
يرفضه ، ويرده قول الله : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » . وقال  
آخرون بل هو حق واجب ، وحددوا له مواعيد ، وضربوا آجالا ، وكان  
ابن قيم الجوزية يرجح هذا الرأي فيما يشير .  
أ وأسرف ابن أبي حجلة في وصف المرأة حسيا ، وأوقف على ذلك  
فصولا تتناول كل أجزاء جسمها ، وما قال الشعراء فيها وتغزلوا  
به ، وهي أشياء برئ منها ابن حزم . والظاهرة التي استرعت  
انتباهي ، ووقفت عندها طويلا ، أن ابن حزم عرض لظاهرة حب الغلمان ،  
وجاء لها بشواهد واقعية تتناثر عبر صفحات الكتاب كله ، دون أن ينصها



بباب ، أو يحللها . أو يدلى فيها برأى ، إلا ما جاء في الباب قبل الأخير ، وأوقفنا على « قبح المعصية » وتحدث فيه عن حرمة الزنا واللواط بعامة . ولم يعرض لظاهرة حب المرأة للمرأة لا تلميحاً ولا تصريحاً ، ولا تمثيلاً ولا حتى تقييداً ، تجاهها تماماً . على حين خص ابن أبي حنيفة بظاهرة النخزل في الغلمان بباب كامل : « ذكر من ابتلى من أهل هذا الزمان بحب النساء والغلمان » ولم يقف بالأمر عند هذا الحد ، فتجاوزه إلى الحديث عن حب المرأة للمرأة ، وأفاض فيه ، وأسرف لونا وقرولا فيما أتى به من شواهد وأمثلة وأشعار .

لا أظن سيكوت ابن حزم عن هذه الظاهرة يعني أن قرطبة قد دخلت منها ، فليس ذلك من طبيعة الحياة في القديم أو الحديث ، ولا أظنه تجاوزها تعففاً فقد تحدث عن الحب يقع من الرجل على الغلام ، فهل يقع في الظن أن الناسخ رفع من الكتاب ما اتصل بهن هذا الأمر ؟ ربما . إنه فرض قائم حتى نجد للأمر تفسيراً آخر ، ولا يقلل من هذا الاحتمال أنه أبقى على ما اتصل به من الغلمان ، فالرجل فيما يتصل بالمرأة أناني بطبعه ، ولدينا على هذا شواهد كثيرة ، حذف فيها الناسخون أو الطابعون ما اتصل بحب المرأة للمرأة ، وأبقوا كل ما اتصل منها بالرجل مهما كانت معيبة .

بقي أن أشير إلى أن الأندلسيين احتفتوا بديوان الصبابة على نحو لا نعهد له حتى مع كتاب ابن حزم ، فقد وصل الأندلس عام ٧٦٧ هـ = ١٣٦٦ م فيما أرجح ، أي قبل وفاة مؤلفه بعشرة أعوام كاملة ، ورفع إلى السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج يوسف ، فأعجب به ، وأشار أصحابه على لسان الدين بن الخطيب أن يعارضه ففعل ، وجعل الموضوع أشرف ، فيما يقول ، وهو محبة الله تعالى ، ألّفه في أخريات أيامه ، مكرهاً لا بطل ، وأعطاه عنوان : « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وجاء من بين أفضل ماسطر وزير غرناطة الكبير ، ومن سخریات القدر ، أن هذا السفر الجليل كان وثيقة الإتهام التي أدانته بها محكمة التفتيش ، ودفع حياته ثمناً

بتأليفه في الظاهر وضحية الأعيب السياسة وقناراتها في واقع الحال .

\* \* \*

وبعد أربعين عاماً من وفاة ابن أبي حجلة ؛ يجي إلى الحياة البقاعي ، إبراهيم بن عمر بن محسن ، وأصاه من البقاع في سورية ، وسكن دمشق ، وولد عام ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م ، وتوفي بها عام ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م ، وكانت له رحلة إلى القاهرة وبيت المقدس ومكة ، وهو مؤلف وأديب وشاعر ، وألف كتاباً عن الحب أسماه «أسواق الأشواق» ، لما يزل مخطوطاً ، ولم يتح لي الإطلاع عليه ، ولكن الأبطاكي يقول عنه إنه اختصار لكتاب «مصارع العشاق» للسراج البغدادي ، وعرضنا له من قبل ، ويصف مختصر البقاعي : «بأنه طال في غير طائل ، وجميعه مالا حاجة بهذه الصنعة إليه من المسائل ، كذكر الأسانيد والتكرار الذي هو شأن الأحاديث النبوية ، لتوثيق الأحكام الدينية ، وكالإخلال بمحاسن الأخبار ، ولطائف الأشعار ، التي هي بهذا الفن أعراق من الجوى ، بأهل الهوى ؛ وعدم الترتيب المستلزم لاحتلال التهذيب ، وكالإعراض عن ذكر غالب أسباب وقوع بعض العشاق في شرك الحب .»

\* \* \*

وعلى نفس المسافة من مجيء البقاعي بعد ابن أبي حجلة ، يجي داود الأنطاكي من البقاعي تقريباً . وهو داود بن عمر المعروف بالأكمه ، ولد في أنطاكية في تاريخ نجهاه ، وحفظ القرآن ، وقرأ المنطق والرياضيات ، وشيئاً من الطبيعيات ، وتعلم اليونانية وأحكامها ، وكان عالماً بالطب والأدب ، وضريراً ، وإليه إنتهت رياضة الطب في زمنه . وهاجر إلى الديار المصرية ، «ومثل فيها بين يدي الأمثال ، وخدم من سما فيها من أرباب الفضائل» واستقر بالقاهرة زمناً ، ونال شهادة عريضة ، ثم رحل إلى مكة ، وأقام بها سنة ، توفي في آخرها عام ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م .

ألف الأنطاكي كتاباً في الحب ، وأعطاه عنواناً : «تزيين الأسواق» ؛ يتفصيل أشواق العشاق ، وجاء اختصاراً لكتاب البقاعي ؛ إلى جانب

كتب أخرى كثيرة أفاد منها، وأشار إلى بعضها في مقدمته . ونشر كتابه في القاهرة عام ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ، وبخاشيته «ديوان الصبابة» لابن أبي حمزة وعرضنا له من قبل . وليس من السهل علينا أن نحكم ، وكتاب البقاعي ليس بين أيدينا ، ماذا أخذ البقاعي عن السراج ، وماذا ترك ، وما الذي تجاوزه الأنطاكي من كتاب البقاعي وما الذي حرص عليه ، ولكن من يقرأ كتاب «تزيين الأسواق» ، يجد نفسه أمام الظاهرة التي تتميز به كتب «المبصرين» ، حين يتدفقون إملاء ، فتتدافع المادة في أفواههم ، ونجىء كيف ما اتفق .

وحكايات الأنطاكي وأمثاله وأشعاره مشرقية في جملتها ، ومصادره كذلك ، وأشرك كثيراً أنه رأى «طوق الحمامة» ، فهو لا يشير إليه كتاباً أو مؤلفاً ولا مرة واحدة ، ولا يلتقي مع صاحبه في منهج أو اتجاه ، إذا استثنينا أمثلة ثلاثة توافق فيها الإثنان . الأول ، وينسبه الأنطاكي إلى «وحكى عن بعضهم» ، وهو : «حكى ، حكيت لي امرأة عن شخص هوها وهويته ، أن قال لها يوماً : هل لك أن نحقق ما قيل فينا ، فقالت : معاذ الله أن أفعل ذلك ، وأنا أقرأ : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» والثاني : حكاية الأندلسي الذي باع الجارية في أرض البربر ثم استردها والثالث : حب ابن كليب الكاتب ، الشهير بابن قزمان ، لأسباب ابن عبد العزيز ، ولا أرى الأنطاكي فيها جميعاً قد نقل عن «الطوق» . فالحكاية الأولى أرجح أنه نقلها عن «ديوان الصبابة» ، وجاءت فيه ، وذكره الأنطاكي بين مصادره ، وأما الثانية فيغلب على ظني أن ابن عزم والأنطاكي كليهما نقلتا عن أصل ثالث ، وأما الأخيرة فيذكر الأنطاكي نفسه مصدرها الذي نقلها عنه ، وهو كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب .

ولأنها ظاهرة تسترعى النظر أن يكون «طوق الحمامة» بين يدي ابن أبي حمزة ، أو قرأه على الأقل ، وهو يحور «ديوان الصبابة» ، ثم لانتفى

به بين مصادر الأنطاكى ، وكان حريصاً على أن يجمع بين يديه كل ما كتب  
عن الحب قبل أن يحرر كتابه ، ونقل عنها جميعاً ، وأشار إليها في أحاديث  
كثيرة ، وعلى الرغم من أننا نلتقى به بين الكتب التى نقل عنها المقرئ  
الشمسنى صاحب « تفتح الطيب » ، ومن نسخة تخالف نسخة « الطوق » التى  
بين أيدينا ، وجاء إلى القاهرة بعد سنوات قليلة من وفاة الأنطاكى ، وأرجح  
أنه استخدم نسخة وجدها فى القاهرة . لأنه يشير كثيراً إلى أنه خالف مكتبته  
وراءه فى فاس . ويحيل إلى أن المغاربة ، وتشمل الأندلسيين ، كانوا أكثر حرصاً  
على تسجيل تراثهم ، والحرص عليه ، والاحتفاظ به ، على حين كان المشاركة  
كالعادة ، لا يرون فيما خطه هؤلاء مجدداً يستأهل أن يتمفوا عنده ، وأن  
يفيدوا منه .

\* \* \*

وحول العام الذى توفى فيه الأنطاكى ، قباه أو بعده بتأليل ، يجرى إلى  
الحياة يوسف بن مرعى الحنبلى ، وسوف يؤلف كتاب : « منية المحبين ،  
وبغية العاشقين (١) » ، وقد درسه غرسية غومث ، وتتبع تأثير الطوق فيه ،  
هو ترجمنا هذه الدراسة من قبل .

## تأثير طوق الحمامة

### في الأدب الإسباني

#### شرايح الأدب الإسباني في فجر حياته ثلاثة :

\* ملاحمة السيد : قصيدة شعرية طويلة ، تدور أحداثها حول أندلسي مغامر . نصف عربي ونصف أسباني ، نصف مسلم ونصف مسيحي ، عاش في القرن الحادي عشر ، وتوفي في مدينة بالانسة عام ١٠٩٩م ، وأصبحت بطولته ومغامراته غناء المشاعر عند عامة الناس ، على نحو ما أصبح عندنا عنتر بن شداد ، وأبو زيد اللؤلؤ ، وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس ، وآخرين (١) .

\* الحب المحمود Libro de Buen Amor : لكاهن مدينة هيت (١٢٩٥ - ١٣٥٣ م) ، ومن الصعب أن نضعه تحت جنس أدبي معين . فهو قصيدة طويلة . تضم قرابة ألفي بيت من الشعر ، وتدور في جوهرها حول فن الحب ، وقد أزدهر هذا اللون من الشعر في أوروبا ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، حين أدار الشعراء ظهورهم لشعر القديسين وقصائد الوعظ ، واتخذوا من الإنسان وحياته ووعى إلهامهم . وأبدعوا شعراً رقيقاً يدور حول الحب والخمر ، ويتخذ من الجامعات والمنتديات الثقافية مهبطاً يلوذ به ويحتسى ، بتأثير من الأدب العربي ، وكان راقياً ومرغوباً ومطالوباً سماعه ، ومعرفة محبدي زهي به .

\* لاثليستينا La Celestina : عنوان يمكن أن نترجمه بجواز ( بالقوادة ) ، وهي مسرحية مأسوية كتبها فرناندو دي روكاس ( ت ١٥٤١ م ) ، شأنها شأن « طوق الحمامة » ، و « الحب المحمود » تتخذ من الحياة العاطفية منطلقاً للتعبير عن عدد من مشكلات العصر الذي كتبت فيه .

أما ملاحمة السيد فبعيدة موضوعاً وشكلاً عن « طوق الحمامة » .

لأنها إبداع جماعي ، صنعها شاعر ، أو شعراء ، جوالون ، وما دتها الحرب والنزال ، والشجاعة والأبطال ، ويأتي فيها الحب مختلفاً ، فهي تعرض للمرأة زوجة وفية مطيعة ، وللإبنة عروساً مصونة مطلوقة ، ونقطة اللقاء الوحيدة بينهما أن ابن حزم والسيد القنبيطور تعاصرا أعواماً . الأول شيخاً اعتزل الحياة في قرية من أشم ، من مقاطعة ولبة جنوب غربي الأندلس آثر بعد نضال ثقافي عنيف ومرير أن يقنع بطلابه ومريديه ، إلى أن توفي عام ١٠٦٤ م . وولد الثاني في بيار ، شمالي مدينة برغش ، عام ١٠٤٥ م ، وحين كان ابن حزم يودع الحياة إلى رحاب الله ، كان السيد فتى يافعاً حرس الملك القشتالي ، يتهبأ لأن يكون واحداً من فرسانه ، وليشارك معه في الحرب للمرة الأولى ، حين وقف ملك قشتالة إلى جانب حليفه المقتدر ابن هود ملك سرقسطة ، ضد راميرو الأول ملك أرجون ، في معركة تمت في ربيع عام ١٠٦٣ م (٢) .

ويختلف الأمر فيما يتصل بالكتابين الآخرين ، فكلاهما تأثر «بالطوق» نقل عنه ، أو مبار على هديه ، أو احتناهُ أسلوباً ، ونبدأ بالأول منهما ، وتدع الثاني لفرصة قابلة .

كان المفكر الإسباني العظيم أميركو كاسترو أول من أشار في كتابه : « أسبانيا بين المساسين واليهود والمسيحيين » أو كما أسماه في طبعته الثانية : « حقيقة أسبانيا التاريخية » ، إلى أن « طوق الحمامة » كان حاضراً في الأدب المسيحي على امتداد القرن الرابع عشر . ويصف إميليو غرسمية غومث عميد المستشرقين الإسبان في وقتنا هذا كتاب مواطنه أميركو كاسترو - ويقف من آرائه في الجانب المقابل - بأنه مشير ومدّش ودسم ، و« أول غزو يقوم به متخصص في الدراسات الرومانية على محفل الثقافة العربية ، وجاء رداً على عدد من الرحلات التي قام بها المستشرقون في مجال الدراسات الرومانية » (٣) .

وقد عاش «طوق الحمامة» على نحوين مختلفين في الأندلس ، الإسلامي والمسيحي على السواء ، حوصراً رسمياً وامتد شعبياً ، أما رسمياً فلأن الصراع الفكري بين

ابن حزم ومناهضى مذهبه الظاهري ، وفلسفته التشريعية ، وفكره المستنير  
اجعل كتبه غير محببة ، ظاهراً على الأقل ، إلى القائلين على أمور الثقافة في  
قرطبة الإسلامية . وأخيراً فلائحه كتاب صريح ، يتحدث عن الحب في لغة  
علمية ، ويؤيد رساله أمراً واقعاً ، يحل ويوجه في دقة الطيب ، دون أن يرتدى  
ثياب الواعظ الرديء ، وما من خير يرجى في أن نلاحظ قضايا العاطفة سبباً  
ولمنا ، دون أن نغوص وراء أسبابها . وأما شعبياً فتمد وجد طريقته إلى جمهرة  
القراء ، نكارة في الدولة ، وتشغيراً من الغمطاء ، واستمتاعاً بما بين دفتيه  
من علم وأدب .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكتاب في الجانب المسيحي ، وقد  
أعاش ابن حزم فترة التوازن الحربي بين الجانبين ، وشالت كمنته بعد موته  
بواحد وعشرين عاماً لصالح المسيحيين ، حين سقطت مدينة طابطة عام  
١٠٨٥ م في يد ألفونسو السادس ، ولكن عزوف المسيحيين الرسميين عنه  
يعود إلى أسباب أخرى . لقد ناقش ابن حزم في كتابه : « الفصل في المال  
والأهواء والنحل » المسيحيين في عصره ، مناقشة علمية هادئة ومستنيرة<sup>٣</sup>  
ومتقنة ، فأكسبه هذا بغض رجال الدين المسيحيين على أيامه ، والحوار  
بيدهم ، والكلمة إليهم ، ولم يكن لهم من سعة الثقافة ورحابة الأفق ما كان  
له ، فيفهمون قوله ، ويعرفون قدره ، ويؤيدون أن الأفكار تناقش ،  
والعلماء يجادلون . أما بين الجماهير ، وفي جانب كبير منها ، وبخاصة بين  
المستعربين الذين يقيمون في الدولة الإسلامية ، أو المسلمين الذين تخلفوا في  
المدن الإسلامية التي سقطت بيد المسيحيين ، وأولئك المسيحيين الذين كانوا  
يقيمون على الحدود ، فقد قرأوه في العربية ، أو تناقلوا نصوصه شفهاً  
« أو عرفوه كيفما اتفق . » ، لأننا نلتقي بنصوص قشتالية (٤) ترجمة حرفية  
منه ، ولأن الحب بالأسلوب الذي عرضه ابن حزم ، كان مجهولاً عند اليونان  
والرومان ، وظهوره في العصر الوسيط صدى لكتب من طراز كتاب ابن حزم  
ويقول كاسترو في صراحة : « على أولئك الذين لا يريدون أن يخطئوا تاريخياً

أعندما يصدرون أحكاماً على الإديب الإيبيري (الإسباني والبرتغالي) ، أن يعرفوا ما كان يحدث في الجانب العربي من الأندلس . ولو أن واحداً من الأوربيين ، فيما يرى ، كتب صفحات كالتى كتبها ابن حزم ، لوضع على رأس قائمة عباقرة الأدب الأوربي (٥) .

بدءاً ، ما كتاب « الحب المحمود » ؟

إنه قصيدة طويلة ، جاءت في ألفى بيت ، وتتنظم عناصر عديدة غير متجانسة ، ويمكن أن نردها إلى المحاور التالية :

مقدمة نثرية ، سبقتها صلاة شاعرة في أبيات راقصة ، عرض فيها المؤلف غاية من الكتاب ، وأنه وقف بأزاء لونين من الحب : الحب المحمود كما تنظمه الشرائع ، والحب المحزون الذى يجتاح العالم . « وألفت هذا الكتاب الجديد ، وأوردت فيه بعض الطرق والحيل والخدع التى يستخدمها أبطال الحب الدنيوى المحزون فيخطئون . وقد قرأتها ، أو سمعتها ، من رجال ونساء عقال ، إذا أردت أن تنجو فسر على منوالهم ، ويمكنك أن تقول مع داود صاحب المزامير : اخترت طريق الحق ! » .

« والخطيئة شىء إنسانى ، وإذا كان بعضهم - ولا أنصحهم - يركنون إلى الحب المحزون ، فسوف يجدون له طرقاً هنا ، لأن كتابى هذا للجميع ، رجالاً ونساء ، موافقين وكارهين : من أراد الطيب ، واختار النجاة ، وعمل صالحاً تقرباً إلى الله . ومن أراد الحب الدنيوى المحزون ، وسلك إليه الطريق الذى أراد ، ويمكن أن يقول : أما أنا فعلى الرب توكلت ، أتتهج وأفرح برحمتك : لأنى نظرت إلى مدأتى ، وعرفت الشدائد فى نفسى » .

وقصص غرامى بطله مؤلف الكتاب نفسه ، يجيء في شكل ترجمة ذاتية له ، يعرفها علينا خلال سلسلة من المغامرات العاطفية ، يحكيها في ظرف ملحوظ . وتنتهى بالفشل عادة . والتاريخ العاطفى لرجل يدعى دون مليون ، وسيدة تدعى دونيا أندرينا ، وثالثة تعاون العاشقين ، وهى السفيرة عند



ابن حزم ، والتواودة عند كاهن هيتا ، ويستخدم لها أحيانا اللفظ في صورته العربية *alcahuete* وأبيات مطولة في نقد الحب ، اقتبسها من مسرحية لاتينية مجهولة المؤلف ، كتبت في القرن الثاني عشر الميلادي ، وتحكى قصة فتاة استسلمت إغراء ، وانتهى أمرها بالزواج ، ومعرفة رمزية ساخرة بين دون كرنال ، ودونيا كوارسما ، ومع كل واحد منهما جيشه .

ثم استطرادات ذات طابع تربوي أو اجتماعي وساخرة ، ليست دائما على صاغة وثيقة بالأصل . أنه يصور لنا الصراع الحاد بين الإحساس الديني وبين عواطف الإنسان العادي في العصر الوسيط ، ويضعهما وجهها لوجه ، فمحس بالآلام ، ونتمثل أزمة العادات في عصره . وهو رجل دين ، ولكنه يصطدم بالتقاليد القابضة ، ولا يتردد في أن يحمل على رجال الدين ، وأن يسخر من العلاقات الغرامية بين الرهبان والراهبات ، ومن ثم فهو يقدم لنا الجانب الواقعي ، من الحياة اليومية في الكنائس والأديرة ، وما وصلنا من وثائق العصور الوسطى يؤيده في روايته ، فنحن نعرف أن « المجمع الديني » الذي عقد في مدينة بلد الوليد ، في الأندلس المسيحية ، عام ١٣٢٢م ناقش بالنص قضية « عشيقات رجال الدين » ، وأعطاهم مهلة شهرين لكي يفارقوهن ، ولكن المحاولة فشلت ، كما نتبين ذلك من المجمع الديني الذي عقد في مدينة سالمنقة عام ١٣٣٥ م ، وفشل أيضا في محاولته ، واحتاج الأمر لعقد مجمع جديد في مدينة القاعة عام ١٣٤٢ م . ونلاحظ أن كاهن هيتا يعطى أهمية قليلة للعلاقات الغرامية التي كانت قائمة بين القسس والراهبات ، حين يصف مغامرات بطاه ، أو أن شئت نفسه ، معهن . وسوف ينتهي به المطاف أخيرا إلى التوبة ، فيذهب إلى دير يحاول أن يتطهر بما ارتكب من ذنوب في سابق أيامه .

ويستخر من الغنى ، ومن الصراع المستمر بين رجال الدين وعامة الناس في سباقهم من أجل الاستيلاء على أموال الذين محتضرون ، ولا ينجو من سخريته القارصة العجائز المتصايبات ، ولا الثروات المتهتكات ، وخلال

ذلك كله ، ينثر العديد من الأساطير والحكايات والأمثال والمحاورات ،  
ويأتى بقصائد غنائية ، فى أوزان مختلفة ، ذات طابع دينى وموجهة إلى  
مريم العذراء ، أو علمانى لكى يتغنى فيها العميان والطلاب ، وأناشيد يترنم  
فيها العاشون لجمال الريفيات .

وهذه العناصر المتعددة ليست جزراً منعزلة ، وإنما يجمع بينها خيط  
فكرى تمثله رواية غرامية ؛ ذات سيرة ذاتية ، فيها خيال محلق ؛ وتقنية  
محكمة ، وتستلهم أشياء واقعية ؛ وهذا الخيط يحافظ على وحدة العمل الأدبى  
وتتجمع حوله الأفكار الأخرى للكتاب .

\* \* \*

منذ البدء كان الوصول إلى حقيقة مؤلف كتاب « الحب المحمود »  
مشكلة ؛ وفكرة مباحة فى الوقت نفسه ؛ وحتى وقت قريب جداً كان  
شخصية غامضة ومبهمة ، تطل على الدارس من وراء ضباب معتم ؛  
أو تناقض محير ؛ حتى أن محقق نص الكتاب ، الناقد الأسباني خوليو  
ثيخادور يقول فى مقدمته للكتاب بالحرف الواحد : « خارج ما أورده  
المؤلف عن نفسه ؛ فى كتابه ؛ لا يمكن التبول أننا نعرف عنه كلمة واحدة » .  
ولكن المشكلة قد حلت الآن أو هى فى طريقها إلى الحل ، وفى ضوء الوثائق  
الجديدة من الضرورى أن يعاد النظر فى تحايل مادة الكتاب ؛ على نحو أدق  
وأكثر موضوعية ، وكتابة حياة المؤلف وتاريخه . لقد نشر الفاتيكان جانباً  
محدوداً من وثائقه السرية ، وفيها ما يلقى ضوءاً كافياً على شخصية المؤلف ؛  
إلى جانب وثائق أخرى عشر عليها فى « المعهد الإسباني » ، فى وارسو  
عاصمة بولندا ، وفى كنائس أسبانية أخرى ، ولدراسة هذه الوثائق ،  
وتحقيق شخصية مؤلف كتاب « الحب المحمود » انعقد « المؤتمر العالمى  
لدراسة كاهن هيتا عام ١٩٧٣ » .

اسمه الحقيقى خوان رويث ، ودخل التاريخ الأدبى من خلال لقبه « كاهن  
هيتا » ، وهى الوظيفة الدينية التى كان يتولاها فى قرية هيتا ، من مقاطعة

واندى الحجارة ، شرقي مدريد و على مقربة منها . وطبقا لوثيقة دينية وجدت في الفاتيكان ، وأشار إليها لأول مرة في صيف ١٩٧٤ الدكتور أميليو سميث الأستاذ في جامعة برشاونة ، في جريدة أ. ب. ث ، فإن خوان رويث ولد في الجانب الإسلامي من الأندلس ، وربما في قلعة يحصب (٥) ، ويطلق عليها الآن اسم « القبة المكية » ، وهي مدينة صغيرة في مقاطعة جيان ، ابنا غير شرعي ، لرجل ثري من باليشيا ، يدعى أرياس جونثالث ، ومثل هذه الصلات كانت عملا عاديا في تلك الأيام ، ونجد صدى ذلك واضحا في الأشعار الشعبية القشتالية ، على حين تصمت المصادر والوثائق الرسمية ، ولا مجال للطعن في صحة هذا الخبر . لأن الرثيقة المنصاة به ، كانت طلبا مقديما إلى البابا في روما ليغفو عنه ، ويتجاوز عن هذه الصلة غير الشرعية ، ليتمكن تعيين خوان رويث كاهنا لمدينة « سبورينثا » ، ومن الوثيقة نعرف أنه جاء إلى الحياة آخر عام ١٢٩٥ م ، أو أول العام الذي تلاه .

وتقول الوثائق أن جده وعمه ، وعدداً كبيراً من أفراد أسرته ، قتلوا في الصراع الذي كان دئرا بين المسلمين والمسيحيين على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . وأن أباه غير الشرعي كان أسيرا ، وعاش في الجانب الإسلامي ٢٥ عاما ، وأن سيده المسلم قدم له بجارية مسيحية كانت عنده ، لتصبح زوجة له ، على أن يصبح الذكور من أولادها أحرارا ، والبنات جواري للسيد ، وأنجب أرياس من زوجته الرقيقة ستة أولاد ذكور ، ومن ثم اعتق السيد الزوجين وأبناءهم ، وهي رواية فوق الشك أيضاً ، لأننا نعرف أسماء وأعمار ثلاثة من الأخوة أصبحوا رجال دين ، وتقدموا إلى البابا أيضاً يطلبون إذنا خاصاً بتولى مهامهم لصغر سنهم ، وعفوا عن عدم شرعية مولدهم .

وقد أطق سراح الوالد عام ١٣٠٥ م ، وتزوج ثانية فيما يبدو ، وكان له من زوجته الجديدة ، والشرعية من الوجهة المسيحية ، ثلاثة أولاد ، ونعرف أنه توفي عام ١٣١٢ م .

إذن فقد ولد نخوان رويث ، كاهن هيتا ومؤلف « الحب المحمود » من أم كانت جارية لسيد مسلم ، يقيم في مقاطعة جيان ، ولأب عاش أسيراً خمسة وعشرين عاماً بين قوم يتكلمون العربية ، وإذا كان لمقاطعة أن تعرف كتاب « طوق الحمامة » وأن يسير فيها ذكره ، بعد قرطبة نفسها ، فهي كورة جيان ، مقاطعة الحياة اللاهية ، والرواقص المشهورات ، والقريبة من عاصمة الخلافة .

لم يكن نخوان رويث مجهولاً على أيامه ، ولا قليل الأهمية ، فقد تولى مناصب عديدة ، ذات أهمية اجتماعية كبيرة ، وأصبح في رعاية مارية مولينا ملكة قشتالة ، وقد عين كاهناً لمدينة « سينجونثا » عام ١٣١٢ م ، وله من العمر ستة وعشرون عاماً .

وفي عام ١٣١٨ م عين رئيساً للشمامسة في « مدينة دل كامبو » ، وبعدها بعام عينه البابا يوحنا الثاني والعشرون كاهناً لمدينة « بالنشيا » وقد بذلت الملكة مسعى كبيراً لدى البابا ليعينه مطراناً ، وهو الثلاثين من عمره ، دون حاجة إلى عفو جديد عن مولده غير الشرعي ، وفي هذه المناسبة أشار البابا إلى الدماء التي بذلتها أسرته في الحروب ضد المسلمين . وفي عام ١٣٢٢ نلتقى به في مدينة « برغش » ، وحول هذه الأعوام سمح له البابا أن يدرس ، ربما في جامعة « مونبلييه » ، وهي الجامعة التي كان يتردد عليها رجال الدين القادمون من ممالك شمال الأندلس المسيحية . وبعد فترة صمت امتدت حتى عام ١٣٤٣ م ، نلتقى به ثانية ، في وثيقة مقدمة من مطران طليطلة ، يطالب له فيها وظيفة دينية في « قلهرة » ، وفي ما بين عامي ١٣٤٣ و ١٣٥٣ م ، نلتقى بفترة فراغ كبيرة في حياته ، ويرجح المؤرخون أنه أمضاها في السجن ، أو النفي ، بسبب كتابه « الحب المحمود » ، وفي هذا العام نلتقى به إلى جوار الكاردينال « خيبل دي البرنس » ، ورحل معه إلى إيطاليا ، وإلى أفنيون في جنوب فرنسا :

كشاعر يأتي نخوان رويث في القمة ، لا بين عباقرة عصره فحسب ، وإنما على كل شعراء أسبانيا في العصر الوسيط ، دون استثناء أو عدوان على أحد . فهو خير من تحدث عن المرأة والحب في أيامه ، ودون مبالغة يمكن أن نضعه إلى جانب أوفيد ، ودانتى ، وبتراارك ، وشكسبير ، وهابن ، وفرلين ، وعمر بن أبي ربيعة ، والعباس بن الأحنف . وابن زيدون . وهو - فيما يرى أمرىكو كاسترو - يقدم لنا مجتمعاً متأثراً بالتقاليد الإسلامية إلى حد كبير .

ربما هناك من تنضح مشاعره الذاتية بحنان أكبر ، وكثيروان يتفوقون عليه في مصادر الإلهام ، أو في المفهوم الشعري للحياة ، ولكنه يتفوق على الجميع في شيئين أساسيين : كتب تاريخ عصره ساخرأ ، وتميز في أمر آخر لم يبالغه الشعراء بعده إلا بقرون : وضوح شخصيته .

لقد ضمن كتابه كل ما عرفه عن العالم والحياة ، وليس إقليلاً ، فهو كمصدر تاريخي يساوى كثيراً ، ولولا كتابه « الحب المحمود » - والشئ نفسه يقال عن طوق الحمامة - لجهلنا الكثير من تاريخ العصور الوسطى . إن كتب التاريخ تحدثنا كيف قاتل آباؤنا ، وكتب التشريع تخطط لما أرادوه مثلاً ، أما هو - أو هما - فيحدثنا كيف كان يعيش أهل عصره واقعا ، في بيوتهم وفي الأسواق ، في أحزانهم ومسراتهم ، ماذا كانوا يأكلون على موائدهم ، وكيف كانوا يلبسون ويعشقون .

كان نخوان رويث مثقفاً في اللاتينية والعربية ، وفي القانون والتوراة ، وقرأ واعياً كتاب « كوند لوكارنو » ، مجموعة من الحكايات العربية ، ترجمت إلى القشتالية في زمن مبكر ، وحازت شهرة كاسحة ، لقد استوعب الحكايات وتمثلها ، وأفاد منها ، واقتبس بعضها .

وهو شاعر ساخر بكل ما تتسع له الكلمة ، لم ينبج من سخريته شخصاً ولا موقف ، يهج سامعيه بتصوير الحياة اليومية الطريفة ، يلاحظها بدقة ، وينقلها في أمانة ، ونظرتة إلى الواقع نافذة ، كل شئ عنده يتحدث إلى

العين ، ويترجم إلى مشاعر ، وقادر دائماً على أن يجعلنا نرى المشاهد التي نقرأها ، فهو صاحب واقعية شجاعة ، يجنب أمامها أكثر الناس بجرأة ، على فمه بكل ما في قلبه ، وقلبه يسع العالم كله ، إنه أشجع كتاب العصر الوسيط في أسبانيا ، وأشدّهم محرراً .

وقد حار النقاد المحدثون فيه إنساناً ، وكتابه يمد كل طرف بما يريد من شواهد : لأنه يتلاعب بالألفاظ والمواقف ، فالأديب الفرنسي « بومجر » ( ١٨١٦-١٩٠١ ) ، يراه في كتابه : « الأدب القشتالي القديم » ( ج ٢ ص ٨٣ ) « مفكراً جراً ، عدواً للكنيسة » ، ويشاركه هذا الرأي العالم الموسوعي الأسباني مينيندث أي بلايو فيراه : « رجلاً دين فاجر وسكير ، طواف ليل ، رفيق بحانات » . والحق أن كاهن هيتا كان رجل دين ليس على شيء من الدين ، فهو يكره زملاءه على أيامه ، سمع درجاتهم أو انحطت ، من القلب ، وكان في حياته أقرب ما يكون إلى شاعر من أشيلية على أيام بني عباد ، أو من بغداد على أيام أبي نواس . وكتابه أول نص أدبي أسباني من العصر الوسيط يناهض الكنيسة ونفوذها ويفضح أخلاق أهلها .

كان خوان رويث شاعري المزاج ، قلق الروح ، يعيش حياة فوضوية ، ويؤثر أن يتحرك وسط أجواء شعبية ، رقيقة تراقصات يهوديات . وزامرين إمسامين ، ورجال دين من عشاق السهر ، ورغم مهنته أفضى من حياته في الحانات أكثر مما أفضى في الكنيسة . وتحدث عن الحب والشعر والكأس ، أكثر مما صلى بالناس القديس ، أو أتى عليهم من العظات . وجاء بين عصرين أدبيين دون أن ينتمي إلى أي منهما ، ونتاج أدبين يتقاسمان شبه الجزيرة ، العربي والأسباني ، دون أن يكون خالصاً لأحدهما . وإذا كانت « ما حمة السيد » ابناً شرعياً للإمام العربي التي سادت الأندلس . فقد جاء « الحب المحمود » ابناً شرعياً لكتاب « طوق الحمامة » .

اختلف النقاد في موقفهم من أصول « الحب المحمود » . حاول الفرنسيون

أن يستولوا عليه دون أن يتركوا لغيرهم نصيباً منه ، فرأى بومجر في كتابه  
الذي أشرنا إليه من قبل ، أن نخوان رويث « تلميذ للأدب الفرنسي ، ولم  
يكن شاعراً أسبانياً في شيء ، إلا في لغته ، التي يتناثر بينهما طوفان من  
الكلمات الأجنبية » . ولم يشر إلى شيء من التأثير العربي ، رغم أن الكلمات  
الأجنبية التي يشر إليها جملها عربي .

وتوزعت الأسباب اتجاهات شتى : بعضهم بحث عن أصول « الحب  
المحمود » في أي مكان ، إلا في المكان الذي يجب أن يبحث فيه ، فتحدث  
عن أصوله اللاتينية والفرنسية ، وسكت عن العربية ، أو مر بها تحت اسم  
الشرقية على استحياء ، أو تجاوز الصمت إلى الإنكار ، كأن القول بتأثر إنسان  
بالحضارة الأرقى في وطنه شيء يعاب عليه ، ويقال من أهميته ، أو كأن هناك  
في عالم الأدب ما يوجد من عدم ، أو يبدأ من فراغ ، وبعضهم أحس بالأثر  
العربي عبر صفحات الكتاب فأشار إليه إجمالاً دون أن يقف عند تفصيلاته  
لأنه لم يكن يعرف العربية على نحو يتيح له أن يقدم على ما يقول برهاناً ،  
ومن هؤلاء أميركو كاسترو ، وأشرنا إليه أكثر من مرة .

أما المستشرقون الأسبان ، والمثقفون الموضوعيون منهم بخاصة ، فقد  
وقفوا عند التأثير العربي على نحو أو آخر ، فعرض له « أنخل جونثالث بالثيا »  
في كتابه « تاريخ الأدب الأسباني » ، وألمح إلى أنه « يتجلى عند نخوان رويث  
على صورة لا يرقى إليها الشك ، ونرى ذلك بوضوح في مواضيع شتى من كتابه  
الحب المحمود » ، وضرب لذلك عدداً من الأمثلة . ويشاركة هذا الرأي  
منيندث أي بلايو ، وزاد القول بأن نخوان رويث كان يعرف من العربية  
ما يصاح للاستعمال الدارج ، لاما يمكنه من دراسة الفنون الأدبية .

ودرست الكاتبة الأرجنتينية « مارية روزة ليدا » التأثير العربي في  
« الحب المحمود » من جانب آخر . رأت الكتاب يشبه أن يكون ترجمة ذاتية  
لحياة مؤلفه العاطفية ، ومثل هذه التراجم نادرة جداً في أدب العصور  
الوسطى الأوربية ، سواء في الأدب اللاتيني أو الآداب الرومانسية التي

انفصلت عنه ، أو الآداب الجرمانية ، ولا نجد له مثيلاً حتى القرن الثالث عشر ، حين كتب الشاعر الألماني أولريش فون ليشتنشين ( ١٢٠٠-١٢٧٦ م ) كتابه : « فضائل المرأة » ، وكتب أديب إيطاليا الكبير دانتي ( ١٢٦٥-١٢٧٦ م ) كتابه : « الحياة الجديدة » ( ٦ ) : أما في أدب القرن الرابع عشر القشتالي ، فكان « الحب المحمود » استثناء .

أمام هذا التمييز حاولت ليديا أن تبعث من جديد ، وعلى نحو أكثر تفصيلاً فكرة منسية دعا إليها من قبل المستشرق الأسباني « فرانيسكو فرنانديز دي جونزالث » ( ١٨٣٣ - ١٩١٧ م ) ، وأصر فيها على أن هناك صلة بين الكتاب وفن المقامة العربية .

لقد ازدهر فن المقامة بين عرب الأندلس ، ونخبر شروح مقامات الحريري قام بها أندلسيون ، ومضى نفر من أدبائه يكتبون على منوالها ، رسائل وخطباً ومواعظ ورحلات وعلومياً ، ومنذ القرن الثاني عشر أخذت المقامة في شكلها العربي طريقها إلى يهود قطلونية ، وأدباء بروفانس ، وجنوبي فرنسا ، وأصبح واضحاً أنه أخذ طريقه إلى قشتالة أيضاً ، بعد أن عبر أخيراً إلى على قصيدة قشتالية ، كتبها « دون سم توب ديه كاريون » بعنوان : « محاوراة بين القلم والجلم » ، وجاءت كلمة القلم من عنوانها في صورتها العربية el Calamo وإلى فن المقامة ينتمي أيضاً « كتاب الطرب » ، وألفه يوسف بن مثير بن صيرة ، يهودي من برشلونة ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، وفيه تلتقى شخصية البطل والراوى والمؤلف في واحد ، ويصبح محوراً لعمل تلتقى فيه بالحكمة والمثل والحرافة والأسطورة ، ويتخاطب الحوار التربوي بالشعر الغنائي والسجع : ولم تضع ليديا يدها على نقط اللقاء بين المقامة وكتاب « الحب المحمود » تفصيلاً ، ربما لأنها لم تكن تعرف العربية . إلا أنها أوضحت أن الشبه في البناء الفني بين « كتاب الطرب » ، وجاء في شكل مقامة ، وبين كتاب « الحب المحمود » لا يدع مجالاً للشك أو التردد . وأخيراً فإن نشر قصيدة « الحوار بين القلم والجلم » ، وهو ليهودي من قشتالة ، ومعاصر لصاحب « الحب المحمود » ،

( م ٢٣ - ابن حزم )



وجاءت في شكل مقامة ، يفتح الباب واسعاً أمام البحث الأدبي في قابل الأيام ، لكي يتتبع تأثير المقامة العربية في عدد من الأجناس الأدبية الأيبانية بخاصة ، والأوربية بعامة . وليكن ليذا ، وهي تقارن بين « الحب المحمود » وفن المقامة العربية ، كانت تهدف إلى حل مشكلة البناء الأدبي في كتاب كاهن هيتا ؛ وفي كل كتاب أوربي ألف على منواله في العصر الوسيط ، ومن ثم وقفت بجهدا عند الشكل . دون أن تتجاوزة إلى محتوى الكتاب ومادته .

\* \* \*

كان إميليو غرسية غومث ، أول من عرض ، فيما أعلم ، للمشابهات بين محتوى « الطوق » ومحتوى « الحب المحمود » ؛ ورأى أن كتاب كاهن هيتا لا يمكن أن يفهم دون افتراضات عربية كثيرة ، من بينها إذا أردت أن مؤلفه من المدجنين (٧) ، وأنه يلتقي في نقاط كثيرة ومثيرة مع كتاب ابن حزم ، ولو أن من السناجحة يمكن القول بأن هذا أخذ من ذلك .

وقد قام غرسية غومث بعدد من الموازنات بين نصوص متشابهة في الكتابين ، وليكنه توقف إزاء غياب الوثائق التي تبرهن على الصلة المباشرة ، وكان حصيفاً فطنا - كعادته - حين قرر أن « إنكار التشابه عمل غير علمي ، والقول به يجعل موقفى رديئاً - أي موقف غرسية غومث - يوم توجد وثائق تبرهن عليه ، وهو أمر محتمل تماما ، كما حدث في الحوار الذي دار حول المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانتى ، والتأكيد بالتبعية المباشرة مجازفة ؛ وأعتقد ، مثل كاسترو ، أنه توجد عناصر عربية كثيرة ، وليكني أرى أنه يبعد كثيرا أن يكون « طوق الحمامة » من بينها ، كمصدر أصيل وبطريقة مباشرة ، لأن كتاب ابن حزم كان يتحرك في نطاق محدود : إنه كتاب بخاصة ، وصعب للغاية ، وتفصله عن « الحب المحمود » هوة عميقة من الاختلافات الفكرية :

كتب غرسية غومث هذا الكلام في مقدمته لترجمة الأسبانية التي قام بها لطوق الحمامة ، عندما صدرت للمرة الأولى عام ١٩٥٢ ، ومن ذلك الحين حدث فيما يتصل بكاهن هيتا أشياء كثيرة ، أبرزها الوثائق الدينية السرية في

القائمان و عدد من الكنائس الأسبانية ، وأشرنا لها من قبل ، ومنها يتبين أن مؤلف كتاب « الحب المحمود » ولد لجارية كانت في حوزة سيد عربي في قاعة يحصب من مقاطعة جيان ، وأن أباه غير الشرعي ظل أسيراً لسيدته المسلم خمسة وعشرين عاماً ، وهي فترة كافية لتجعله متمكناً في اللغة العربية ، وكانت لغة الثقافة ، وكان تعليم الجوارى فيها ، بنين وبنات ، أمراً شائعاً .

وقلعة يحصب حيث ولد نخوان رويث ونشأ ، وعاش أبوه من قبل أعواماً طويلة ، كانت موطن ثقافة ، ومهبط شعراء ، ففيها عاش بنو سعيد المورخون والأدباء ، ولهم نسبت القاعة أيضاً ، وتميز من بينهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، وكان غزلاً في الشعر وفي الواقع ، وله في حب ذائعة مع حفصة الركونية الشاعرة ، لا تقل عنها وشهرة عما كان بين ولادة وابن زيدون ، وكان ينافس في حبها أمير غرقاظة من قبل الموحدين ، عثمان ابن عبد المؤمن ، ودفع أبو جعفر حياته ثمناً لهذا الحب . وتميز بنو سعيد بالعلم والثقافة ، وأنهم يتوفرون على مكتبة عامرة ، وشهر من بينهم أبو عمران موسى بن محمد ( ت ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م ) بأنه جماعة للكتب ، يطلبها أنى وجدها ، ويبدل فيها كل حال ومرتخص ، ويصفه ابنه أبو الحسن على بأنه « عاش سبعة وستين سنة ، ولم أره يتخلى يوماً عن مطالعة كتاب ، أو كتب ما يحلوه ، حتى في الأعياد » (٨) . وليس مهماً بعد ذلك أن تكون الأحداث قد عصفت بأبناء سعيد فهاجروا ، أو معظمهم ، إلى المشرق أو إلى مدن أخرى في الأندلس . لأن الجو الثقافي الذي أزهريهم ، ومن حولهم ، تأصل في هذه المدينة الصغيرة النائية ، في منتصف الطريق بين قرطبة وغرناطة :

أكان ممكناً أن يحرص بنو سعيد على اقتناء الكتب ، وأن يكون لهم منها الكثير ، وبينها عدد من مؤلفات ابن حزم ، يتقاون عنها في مؤلفاتهم ثم لا يكون من بينها الطوق ؟ الأقرب إلى طبيعة العصر والناس ، وموقع المدينة ، ومكانة ابن حزم ، أن يكون كتاب « الطوق » معروفاً وبتداولها ، وأن تقع عليه عيننا والد نخوان رويث ، ولعله تحدث به ، وقص ما عرف من حكاياته ، ولعله توفر لنفسه على نسخة منه ، في عصر كانت فيه

معرفة العربية والتوفر على كتبها موطن اعتزاز ، ومدعاة فخر ، في قشتالة نفسها ، حيث بدل ألفونسو العاشر ، أو العالم ، ملكها (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) جهدا مضاعفا لترجمة التراث العربي إلى القشتالية ، فترجم إليها القرآن والإنجيل وكتبا أخرى كثيرة . علمية وأدبية ، فدفع بالثقافة العربية إلى العقول القشتالية المثقفة وغذى النثر القشتالي بالأساليب والأساطير والأمثال العربية .

ثمة نقاط يلتقى فيها ابن حزم وخوان رويث ، وأخرى يقفان عندها على القميص . كلاهما رجل دين ، وكتب أولهما « الطوق » منبيا ، أونافيا نفسه ، وكتب الثاني « الحب المحمود » بين جدران السجن ، وكلاهما كان نائرا على الجامد من أفكار عصره ، وعالجا لموضوع واحد ، والتزما منه موقفاً متقاربا ، وأكادا على سلامة عقيدتهما : وكما كان الطوق صورة فريدة ، في جوانب منه ، للحياة العاطفية في قرطبة القرن العاشر الميلادي وما بعده ، كان الحب المحمود صورة لها في قشتالة على امتداد القرن الرابع عشر .

ويتقابلان في الكثير أيضاً . كان ابن حزم يمثل حضارة في القمة توهجا ، أنمكها الترف وحياة اللذائة ، وتتمياً للانحدار ، وعاش خوان رويث في مجتمع جاس ، ينفض عن بصره وعقله وقلبه غبار القرون الوسطى ، بكل ما تحمله من تخلف وظلام وجهالة . وكان ابن حزم موسوعي الثقافة : رفيع الذكر ، حاد الذكاء . وكاهن هيتا إذا قيسر برفاقه في قشتالة يجيء في المقدمة ولكنه حين يقف إلى جوار ابن حزم يبدو متواضعا في كل شيء ، معرفة وثقافة وفكرا ، وآثر ابن حزم أن يكون جادا وعنيفا ومستقيماً السالك ، واختار خوان رويث أن يكون ساخرا ومهادنا ومستهترا . ويذكر ابن حزم فيما يقدم من أحداث مجتمعه ، غالباً ، الاسم والمكان والحادثة ، وآثر قرينه القشتالي أن يتخفى وراء الرمز ، وأن يقف عند ما هو عام . وابن حزم من الخاصة ، أبوه وزير وتولى هو الوزارة ، وينتمي في أسرة لها في مجتمعه مكانة . وجاء خوان رويث ابنا لعلاقة غير شرعية ، لم تراع فيها القوانين التي يجري عليها أهل ديارته ، وكان عليه أن يطالب العفر عنها من البابا في كل وظيفة

يتولاها . وأخيراً فكتاب ابن حزم ذو موضوع إو احد ، وقلما يتجاوزه إلى أمر لا يتصل به ، وكتبه نثراً ، ووشاه بالكثير من شعره ، وكاهن هيتا اتخذ من حياته العاطفية إطاراً لكتابه ، وحمله كل ما عرف وأراد ، وإذا استثنينا المقدمة ، وهي قصيرة ، فقد جاء به شعراً كله .

أول ما نضع يدنا عليه من تأثيرات عربية في كتاب « الحب المحمود » قدر هائل من الألفاظ العربية ، يستخدمها الشاعر في مهارة ، ويرسمها بأحرف لاتينية في دقة غير معهودة على أيامه ، ولا تقتصر على الأسماء والحروف كما عند الآخرين ، وإنما تتجاوزها إلى الأفعال وأسماء الفاعلين مثل : ياء النداء Ya وشيكمة Xaquima وفي الأسبانية الحديثة Jaquima ، ومرفوض Marfuz ، ومؤنثها : مرفوضة Marfusa ، وجملة كاملة مثل : قبي عربي Calbi garabi ، وفعل الأمر مثل : اسكت ascut ا وامش amxi ، وأخذ عدد من قصائده شكل موشحات كاملة ، في صورتها الفنية الدقيقة ، فهي ذات مطاع وأغصان وقنبل ، وجاءت في اثني عشر دوراً ، وإذا كان من الوشاحين العرب من وجد عنوبة في أن يوشى موشحاته بخرجة أعجمية ، في شكل لفظ أعجمي أو من عامية أهل الأندلس ، فقد تجاوز كاهن هيتا هذه اللفتة بكثير ، وجعل خاتمة كل دور في موشحته لفظاً عربياً ، على نحو ما نرى (٩) :

كاهن هيتا يرسل سفيرة إلى فتاة عربية

كسى أنسى شجنى وحزنى وآلامى ،  
رجوت عجزوتى أن تسعى فى زواجى ،  
فتحدثت لى فتاة عربية لم تعرفها سمعاً ،  
هى تصرفت بعقل وأنا غنيت طويلاً ،

ياسمى قالت القوادة العربية :

يا صديقتى ، يا صديقتى ، طال الزمن ولم أراك ،  
لم أنت هكذا ؟ ما أصعب أن القاك ،

عجب جديد يحبيك ، فردت العربية : لست أدري Les nedri !  
ابنتي : واحد من القلعة alcala يسلم عليك ،  
يرسل لك هذا الثوب açodra (١٠) مع هذه البراءة alvalà  
الله معاك ومن ذلك عندنا كثير ،  
خديه ، ابنتي ، أيتها السيدة : قالت العربية : لا والله Le gualà ؛  
ابنتي الله يعطيك السلام والصحة ،  
لا تستهيني بها ، لأنني لم أستطع أن أحضر لك أكثر ،  
أحضرت لك هدية جميلة وردك يكون على الود ala wud (١١)  
لن أمضي وحدي . قالت العربية : أسكت ascut !

وعندما رأت العجوز أنها لا تستطيع شيئاً  
قالت : طالما قلت لك ، حتى هنا نفسه تفقدينه ،  
لأنك لم تقولي شيئاً ، أني أود الرجيل من هنا  
مزت العربية رأسها وقالت : أمش ، أمش Amxi, amixi !

\* \* \*

وإذا وقفنا عند المشابهات في النصوص ، وضعنا يدنا ، في قراءة عابرة  
« للحب محمود » . على بعض منها ، يكاد أن يكون ترجمة لما في الطوق :  
يقول ابن حزم يلتمس لنفسه مندوحة في تأليف الكتاب : « ... كان  
القاضي حمام بن أحمد ، حدثني عن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه  
إلى أبي الدرداء أنه قال : أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها  
على الحق . ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم يحسن  
يتفتى ، لم يحسن يتقوى » . وفي بعض الأثر : « أريحوا النفوس فإنها تصدأ  
كما يصدأ الحديد » (١٢) .

وعن الموقف نفسه يقول خوان رويث :

« كالمات عالم وقالها كتون (١٣) :

الرجل بما في قلبه ،

[نخاط أمها جأ وفكراً باسماء ،

] لأن الأحران الكثرية تلد خطايا كبيرة « (١٤) »

ويقول ابن حزم مشيراً إلى تأثير الحب في النفس : « ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له ، والمسعى في حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب في نفسه . فكهم نخيل جاد ، وقطوب تطاق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجادل تأدب ، وتفل تزين ، وفقير تجمل ، وذى سن تفتى ، وناسك تفتك ؛ ومصون تبذل » (١٥) .

وفي هذا المعنى يقول صاحب الحب محمود :

ويخلق الحب من الحشن لطيفاً ،  
ويهب القول الجميل لمن كانت كلماته صماء ،  
وبه يعود الجبان شجاعاً ،  
ويصبح الكسلان نشطاً وجاداً ،

ويحتفظ الفقى بشبابه طويلاً ،  
ويعود بالشيخ ، فى كثير ، فى شاباً ،  
ويجعل من الأسود أبيض جميلاً ، يمثّل السمك ،  
ومن لا يساوى جوزة يعطه الحب شهرة عظيمة (١٦) .

ويتشابه موقف ابن حزم ونحوان رويث من الرسول الذى يبعث به الحب إلى محبوبه فلا يكون وفياً ، يخون مهمته ، ويغدر بصاحبه ، ويصطفى الغنيمة لنفسه .

يقول ابن حزم فى باب « الغدر » : « ومن قبيل الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره ، فيسمى حتى يقبله إلى نفسه ، ويستأثر به من دونه ، وفيه أقول :

أقمت سفيراً قاصداً فى مطالبى وثقت به جهلاً فضرب بيننا

وحل عرى ودى وأثبت وده - وأبعد عنى كل ما كان ممكنا  
فصرت شهيدا بعد ما كنت مشهدا وأصبحت ضيفا بعد ما كان ضيفنا» (١٧)  
ويقص كاهن هيتا ما حدث له مع رسوله فرناندو غرسية ، وكيف  
أرساه إلى فتاة تدعى « كروث » ، تعمل خبازة ، فاختص بها نفسه :  
عيناي لن تريا النور ،  
لأني فمذت كروث :

\* \* \*

كروث الخبازة الحبيبة ،  
اتخاها عشيقه ،  
حسنت الطريق إليها عريضا فوجدته ضيقا ،  
مثل ما يفعل الأندلسيون :

\* \* \*

فكرت أن تكون لى ،  
قلت لفرناندو غرسية ،  
احمل لها رضاي ورغبي  
وكن عنى محاميا لطيفا ولبقا :

\* \* \*

قال لى : إنها أعجبتته وكانت على هواه ،  
وأنه جعل من كروث خاصة به وعشيقة ،  
لقد تركنى اجنر النخالة ،  
وأكل الحبز الأكثر حلاوة .

\* \* \*

قدم لها عملا بنصيحتي  
حنطة طيبة مضى عليها عام ،  
وأهداها أرنباً

الحائن ، الزائف ، مرفوض

\* \* \*

أخزى الله رسولا

عجلا ، بالغ الطيش :

أولا رعى الله صياد الأرائب ،

يخص نفسه بالصيد من وراء سيده (١٨) .

وربما كان الفصل الخاص بالسفير أوضح تأثيرا في كتاب « الحب المحمود » ، وفي كتب إسبانية أخرى سوف نعرض لها في مرة تالية ، من أى باب آخر ، وقد اختار ابن حزم هذا اللتظ الأنيق المهذب لكلمة « القوادة » ، وكانت شائعة بين العامة في الأندلس ، مسلمين أو مسيحيين ، يتحدثون العربية أو الرومانشية ، لقد دخلت هذه في صورة aleahuete ، والسفير أو القوادة أو الرسول ، يطبق على المرأة ، والرجل قيلا ، الذى يتارب بين الرووس والتلوب في الحلال أو الحرام ، وكنت هذه المهنة شائعة في الأندلس ، ولم تكن محقرة أو شراً خالصا على النحو الذى عليه اليوم ، فلم تكن للقوادة إذ ذلك تسمى بين الذين باتتمون على أجر ، فهؤلاء يوتهن المعروفة ، وأما تتردد بين من تلتقى عرا لمنهم على حب ، ينتهى بهم إلى الزواج أو لا ينتهى ، لأنها تقوم بالوساطة بين المحبين ، رسولا يحمل الهدايا والأفكار ، فى مجتمع لم يكن قد عرف البريد المنظم ، أو الهاتف الموصل ، أنها أشبه ما تكون « بالخطابة » فى المجتمع العربى المعاصر ، قل أن ينتشر التعليم وبعم الاختلاط . وقد خص ابن حزم « السفير » بباب قصير ، أو وصلنا قصيرا ، عرض فيه أهميته وصفاته واغراضه وحيله ، ولن نأتى بنص ما قال هنا ، وإنما نحيل إليه القارىء فى كتاب « طوق الحمامة » نفسه (١٩) .

هذا الباب واضح التأثير فى كتاب « الحب المحمود » ، وأزعم أن « طوق الحمامة » كن بين يدي نخوان رويث ، أو فى ذاكرته على الأقل ، وهو محرر كتابه . ولكن كاهن هيتا ، وهو رجل دين ، وأمضى حياته نائبا



للأسقف في أكثر من مدينة أندلسية . في منطقة التعاور . على الحدود بين المسلمين والمسيحيين ، دفع لهذه المهنة باسم جديد استمدده من الحياة المحيطة به وهو Tortaconventos ، اسم كان يطلق في البدء على أولئك المترددين على الأديرة ، يحمون لها الهدايا ظاهراً ، أو يلتمسون عندها المغفرة تمويهاً ، أما واقعاً فللكى يرى الرجل صاحبه ، وتلقى المرأة حبيبها . وكان يطلق أيضاً على خادمت الأديرة . وكن يسفرن بين الرهبان والراهبات . وكل طائفة تقيم في دير منفصل ، يترددن بالرسائل ، ويحملن الهدايا . ويحددن المواعيد ويوفقن بين المتنافرين ، وأصبحت الكلمة تعنى في الأسبانية ما يعنى لفظ « القوادق » في العربية ، ولو أن كلمة alcahuete وهى عربية الأصل كما أشرنا ، ظلت أكثر استخداماً ودوراناً على الألسنة ، وذكرها في الأدب . ربما لأن الأولى تشير إلى معنى كانت الكنيسة تحول دون تنبيه الأذهان إليه ، وكما أن ابن حزم حدد صفات السفير الناجح ، وأخطاه ومناعبه ، كذلك صنع نحوان رويث :

لتكن سفيرتك إليها من قرابتك .  
وأن تكون وفية لك ، وليست خادماً لها .  
وآلا تعرف ذلك منيدتها ، حتى لا تكذب الأخرى .  
ومن يتزوج رديئاً محال ألا يندم طويلاً .

\* \* \*

حاول ما استطعت أن تكون سفيرتك  
لبقة ، فطنة ، ذات دربة وخبرة .  
تعرف كيف تصبر وتصوغ الأكاذيب اللطيفة .

\* \* \*

إذا لم تكن لك قريبة كهذه فعليك بالعجائز .  
من اللاتي يترددن على الكنائس ويعرفن الأزقة ،  
يحفظن كثيراً من الحكايات والنصائح وفيهن رقة ،

معهن كتاب السحر لموسى ، وبه يفتن الأسماع ؛

\* \* \*

يا لهن من عجائز معلمات ثرثرات ،  
تأقاهن في كل مكان : في الميادين وفي الحارات ،  
يتوجهن إلى الله بالحساب ، ويصلين دائماً مستعدات ،  
أى ، كم من خبائث يعرفن ، أولئك العجائز الصايغات ! :

\* \* \*

أرسل عجائز في السحر بالأعشاب ماهرات ،  
يمضين من بيت إلى بيت ويزعمن أنهن قابلات :  
بالمساحيق والكحول والدهونات ،  
ترمي الفتاة بنظرة فتعمى الفكر منها والمدركات :

\* \* \*

وفتش عن سفيرة بين أولئك السودانيات الوادعات ،  
من العاملات في بيوت الرهبان والقسس والراهبات ،  
لأنهن مشاءات جيدات وبالأحذية جديرات :  
فهولاء القوادات يقمن بالكثير والرخيص من المقايضات .

\* \* \*

حيث يمضى أولئك النسوة تكون المهجة ،  
فتيات قليلات يستطعن الإفلات منهن ،  
ولكى لا يكذبن عليك تعلم كيف تلاحظهن ،  
فلهن جاذبية ، ويعرفن جيداً كيف يعمينهن ؟

\* \* \*

وبين أولئك العجائز جميعاً ، فإن هذه أفضلهن !  
ارجوها ألا تكذبك ، وأظهر لها حبيك خالصاً ،  
بأن السمسار الماهر قادر على بيع الحيوان العاطب ،

وملابس كثيرة رديئة قد تخفى لحافاً جيداً (٢٠).

\* \* \*

ثم ماذا؟ .. لقد وصلنا كتاب « الطوق » في مخطوطة وحيدة عثت بها يد  
الناسخ ، فحذف منه كل ما كان على غير هواه ، ولم يتردد في أن يصرح  
بذلك آخر الكتاب ، ولا أحد يدري ماذا حذف ، وإلى أين جرى به هواه .  
وجاءنا كتاب « الحب المحمود » في مخطوطات ثلاث ، لم يكتب منها شيء بخط  
المؤلف ولا في حياته ، وأقربها إلينا أكثرها شعراً ، أى أن الكتاب أيضاً لم  
يصلنا كما أراد له مؤلفه ، ولا أحد يدري ما الذى سقط منه ، وما الذى  
غير فيه من ألفاظ وجمل ، ومع ذلك ففيه مما أخذ عن ابن حزم صفحات  
لو مضينا بها إلى النهاية لطالت ، وحسبنا ما أوردنا منها شاهداً ودليلاً .

\* \* \*

والكتاب الآخر الذى نلمح فيه « تأثير الطوق » مباشرة ، أو عن طريق  
« الحب المحمود » ، هو مسرحية « لالستينا La Celestina » وهو اسم  
البطلة ، ويظن لى أن أن ترجمها بالمهنة التى تجسدت فيها والتي تدور  
حولها المسرحية وهى « القوادة » . وقد نشر فى مدينة برغش بعد سبعة  
أعوام من سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ، بعنوان : المأساة اللاهية  
لكاليسيو ومليبييا Tragicomedia de Calisto y Melibea « وأثارت  
الجدل حاداً فى عصرها ، بن راض وساخط ، ومؤيد ومعارض ، ثم أعيد  
نشرها فى إشبيلية ، مدينة طروب ومرحة وثرية ، عام ١٥٠١م وفى المدينة  
نفسها أعيدت طباعتها فى العام التالى ، وهو نجاح لا مثيل له بمقاييس  
النشر فى تلك الأيام ، وما أسرع ما تغير الاسم ليصبح كلمة واحدة :  
لالستينا (٢١) .

وهى مسرحية رائعة ، فتننت أجيالاً من القراء ، وتفتن الآن ،  
وستظل كذلك ، ربما لأجيال عديدة تأتى من بعد ، واعتبرت كشافاً أدبياً  
رائعاً ، وحملة أدبية موفقة إلى عالم المجهول ، وأصبحت محور الدرس

والتعليق في الجامعات والمعاهد ، وكتب حولها الكثير ، وذاقت كل العالم الثقا ، واعتبرت إحدى النقطع الأدبية الخالدة التي يزهر بها الأدب الإسباني في مجال الأدب العالمي .

أما مؤلفها فرناندو دي روجاس Fernando de Rojas (ت ١٥٤١) فلا نعرف عنه إلا شيئاً قليلاً ، وهذا الشيء القليل غامض ومضطرب وملء بالألغاز ، رغم أن إبداعه العلمي يضعه إلى جانب القمم الأدبية في العصر الوسيط : ماحمة السيد ، والحب المحمود ، ودون كينخوته . ولكن المحد سقط على الكتاب وتجاوز الكاتب ، فمعلوماتنا عن شخصه محدودة ، والوثائق المتصلة به نادرة ، وتاريخ وفاته أكيد ، وبعض الإشارات الخاصة بحياته وأسرته تأتي بها متناثرة ومضطربة في بعض وثائق العصور الوسطى . وهذه الإشارات رغم قصرها ترسم إطاراً تقريبياً للعالم الذي كانت تتحرك من خلاله شخصية المؤلف ، دون أن تقدم لنا معلومات دقيقة ومفيدة عن شخصيته نفسها . وكل ما نعلم عنه أكيداً أنه ولد في قرية بويبلا ، من مقاطعة طليطلة ، في تاريخ نجهله ، وأنه تركها ليصبح عمدة طليطلة ، مدينة أكبر حجماً ، في المقاطعة نفسها .

بقي علينا أن نتصور حياته من خلال الكتاب ، بدل أن نفسر إنتاجه في ضوء حياته ، وحياته المؤلف مفيدة في تفسير إبداعه وإلقاء الضوء عليه ، كما أن عماله الأدبي ضوء كاشف لما استتر من حياته ، أو انطوى في خبايا صدره ، كلاهما يفسر ويفسر . يأخذ ويعطي ، أما هنا فنحن بإزاء جانب واحد فحسب ، أن نبني حياة فرناندو دي روجاس .

ينتمي دي روجاس إلى قطاع عريض من المجتمع الإسباني ، شغل القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده ، ويعرف بالمسيحيين الجدد وهم أولئك الذين أرغموا على اعتناق الكاثوليكية من اليهود ، فاستجابوا لذلك رهبة أو نفاقاً ، بعضهم نسي معها أصوله تماماً ، واحتفظ الآخر بكل ميوله اليهودية في أعماقه ، احتفظ بها لنفسه وأورثها خلفه من

بعده . وإن ظل في ظاهره كاثوليكياً بالطبع ، ومنهم من أصبح تحت هذا الرداء من رجال الدين الكبار ، وبلغ مرتبة متقدمة بين أحرار الكنيسة . فأصبح مطراناً أو أسقف أو قديساً ، أو حتى من رجالات اللاهوت واللامعين . وكان هؤلاء المسيحيون الجدد يعتبرون في إسبانيا العصر الوسيط مواطنين من الدرجة الثالثة ، يعيشون حياة قلقة ، في جو خائف من الأرهاب والبؤس والتعاسة ، مواطنين بلا حرمانات من أى لون ، وبلغ الذعر بينهم أن بعضهم كان يخاف البعض الآخر . وكل فرد يشك في كل الآخرين ، ومن الممكن أن يقف الواحد منهم أمام محكمة التفتيش ، بكل ما تمثله من رعب وقسوة ، وأن يتعرض لألوان من التعذيب لأحد لها مجرد لفظ يتفوه به ، يخرج من فمه عفواً دون قصد ، وكلمة عابرة يقولها في بيته بين أفراد أسرته ، على مائدة الطعام ، يمكن أن تنهى به إلى أعماق السجون المظلمة تحت الأرض :

من بين وثائق محاكم التفتيش التي نشرت عام ١٩٠٢ ما يتصل بمحاكمة أحد أقرباء دي ريوخاس ،<sup>١</sup> لأنه قال عرضاً ، يشير إلى الآخرة : « أنا هنا بخير ، ولست أعرف ما هناك » . وقريبة له ، كانت وحدها ، وتفوهت بألفاظ شبيهة ، ونخشيت أن يكون أحد الخيران قد سمعها ، ولم تره ، فيبلغ عنها ، فأسرعت إلى المحكمة بنفسها ، لتبرهن على حسن نيتها ، وقدمت اعترافها كاملاً : « أنا إيزابيل لوبث ، زوجة فرانسيسكو لوبث ، قلت دون أن أتدبر ما قلت ، أو أعتقده : لا أستطيع أن أقول رأي في الآخرة ، لأنني لأرى شيئاً مما يجري هناك ، كمثل جار تعود الناس أن يتفوهوا به » . وعندما بلغ دي ريوخاس الثانية عشرة من عمره اعتقل والده وسجن وقدم لمحكمة التفتيش ، ولتفادي العذاب اعترف بكل التهم الموجهة إليه فحكمت المحكمة بإعدامه حرقاً في حفل عام وفي العام الذي حرر فيه كتابه كانت هناك قائمة طويلة من أقاربه ، ومئات آخرين من أصدقاءهم أو معارفهم أو جيرانهم ، تأخذ طريقها إلى محاكم التفتيش في مدينة

طليطلة ، وآههم يتلظون على النار أحياء ، ويواجهون العذاب ألوانا .  
وشاهد ما هو أقسى : رأى يهود طليطلة جميعاً . وقد خرجوا إلى  
حفل عام ، سنة ١٤٨٤ م يعلنون توبتهم . ويعلنون دينهم القديم .  
وفي عام ١٥٠١ م أتم دي رونخاس تحرير مسرحيته « القوادة » .  
وله من العمر ٢٥ عاماً ، ومنذ ذلك الوقت ، وحتى وفاته في ٣ أبريل  
من عام ١٥٤١ . لا نعرف عنه شيئاً ، إلا عرضاً في وثيقة محاكمة  
حماد ، وقد رفض قاضي محكمة التفتيش أن يسمح له بأن يختار  
محاميه ، وعينت له المحكمة محامياً آخر ليس موضع شك منها ، وتضم  
الوثيقة قائمة بالمكتب التي وجدت في مكتبته وتعطينا صورة له بأنه كان  
رجوازياً مرموقاً ، يهتم بتنمية ثروته ، دون أن يعطى الجانب الثقافي أية عناية  
جادة : وفي هذا الجو كتب دي رونخاس مسرحيته . فجاءت تعبيراً عنه ،  
أو محاولة للتعبير ، سلباً وإيجاباً ، ومن خلالها قدم لنا رأيه ملفوفاً في ما  
حولها ، وعمما يعتمد في أعماقه من مشاعر وأحاسيس .

\* \* \*

محتوى المسرحية بسيط وعادي ، ككل الأعمال الأدبية الكبرى التي  
أبدعها الذكاء الإنساني ، وإذا أسقطنا المناظر والمواقف والحديث المباشر  
عن الأبطال ، فهي تدور حول شاب فارس يدعى كاليستو ، دخل حديقة بيت  
صحة بازله ، فرأى هناك ملبيا ، فتاة في سن المراهقة ، فوقع أسير هواها  
في . الحال وحين أبدى لها حبه صادته في عنف ، فعاد إلى بيته حزينا تعيسا  
صريع الحيلة والحسرة ، وتحدث بما جرى له إلى خادمه ، فأشار عليه هذا  
بأن يدعو امرأة عجوزاً تساعد في محنته ، « خبيرة بأمور النساء : باثمة  
عطور ، أستاذة في فن التزيين ، قوادة ، وساجرة إلى حدما » تدعى  
ثلستينا :

وجاءت ثلستينا سريعا وقبلت القيام بالمهمة ، واستطاعت أن تدخل  
بيت ملبيا ، تحت ستار أنها تباع بخيوط غزل ، واستطاعت أن تتحدث

إلى الفتاة . وأن تتغاب على مقاومتها العنيدة ، أخذت تعزف لها على فضائل العاشق ، شاب من أسرة نبيلة ، ذكى ومهذب ومرموق . واستطاعت بحيلها ودهائها أن تمنع الفتاة بمقابلة الفتى [سرا ، بعيدا عن أبويها العجوزين ، وتآقت ثلاثينا مكافأة نظيرة على صنعها ، وطاب خادما كاليستو جانبا منها بوصفهما وسيطين ، ورفضت العجوز أن تعطيهما شيئا مما أخذت فقتلاها ، فاقتصت العدالة منهما ، وذبحا في ميدان عام .

وذهب كاليستو ايلا المرعد مع حبيبته ، لقيها في حديقة البيت ، وهما في لحظة صفاء عاطفي سمع كاليستو ضجيجا في الشارع ، وصياحا من خادمة الدين تركهم يرقبونه ، فأسرع لتجدتهم ، فسقط به السام الموصل إلى الحديقة فمات نتوه ، وعندما رأت الفتاة ما حدث لحبيبها لاذت بأعلى برج البيت ، وسجنت نفسها فيه ، وأسرت لوالديها بأنها فقدت شرفها ، ثم ألقت بنفسها من فوق البرج ، فسقطت ميتة ، وفوق جثتها وقف الأب والأم ، يندبان محظهما ، ويبكيان شيخوختهما وحيدتين ، وقدا لنا من خلال الحوار الذي دار بينهما ، صورة قائمة ومتشائمة للحياة الإنسانية بآثارها وأخطائها وآسرها .

تقوم المسرحية على ثلاث شخصيات رئيسية : كاليستو العاشق ، ويعنى اسمه في اللغة الإغريقية فتى رائع الجمال ، مرح بالطبيعة ، تبيل بالوراثة ضعيف أمام العواطف ، قوى في غيرها : ومليبيا حبيبته ، ويعنى اسمها ذات الصوت العذب ، وتركت لنا المسرحية وصفا مفصلا لها ، فهى : ذات عينين خضراوين واسعتين ، وحواجب رفيعة ومرتفعة ، وأهداب طويلة ، وأنف أقى ، وفم صغير ، تزينه أسنان بيضاء رقيقة ، وشفاه ممثلة ، شقراء تضرب إلى الحمرة ، ووجه عريض ، وكف صغيرة ، وأصابع طويلة ، ملونة الأظافر ، شقراء وسط ألماس ، وبشرة بضبة حلوة . عذراء الروح ساذجة ، استجابت لإغراء القوادة مندفعة ، وعلى وجهها تتدافع مشاعر الخوف والرغبة . وقد أصبح الاسمان ، كاليستو ومليبيا ،

توأمان في الأدب الإسباني ، على نحو ما عليه روميو وجوليت عند الإنجليز والشخصية الثالثة ، وحملت الروية اسمها الأهميتها ، ثلستينا ، وقامت بدور الوسيط ، عجوز شريفة ، ذكية وذات حيلة ، وعلى معرفة واسعة بالحياة والناس . وقدرة ساحرة في العزف على أوتار القلوب ، مشعوذة تؤمن بالخرافات ، وماهرة في تحريك أدق المشاعر المنطوية في أبعاد أغوار النفس ، واستخدامها لصالحها ، طماعة بجشعة ، وهي نقيصة سوف تودي بها أخيرا .

حار النقد في تصنيف العمل الذي قام به دي رونخاس ، اعتبره بعضهم رواية لاتسع حجمه ، وكتابته نثرا ، وصعوبة عرضه مسرحيا دون تصرف ، ورأى آخرون أن غلبة الحوار عليه ، وتقسيمه إلى مواقف ودعوة المؤلف إلى قراءتها على مجموعة من السامعين ، ومراعاة الملاحح والنغم في الإشارات والأصوات والحركات ، بما يناسب كل شخصية ، يومية إلى أن المؤلف أراد بها شيئا آخر غير الرواية .

وإذا تجاوزنا الشكل إلى المحتوى فإن قراءة فاحصة للرواية ، أو المسرحية إذا شئت ، تظهر لنا واقع كاتب قلق الضمير دينيا ، وأن العناصر المسيحية فيها ضئيلة للغاية ، في عصر كانت المسيحية كل شيء في واقع أهلها ، أو هي الحياة نفسها ، والقليل من هذه العناصر مفتعل وسطحى على نحو واضح في أغلب الأحوال . ويدعنا المشئون نفهم من خلال مواقفهم ، أو عبر كلماتهم ، أنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وتحكم الجميع فلسفة أبيقورية واضحة . ثلستينا تنصح : « تمتع بشبابك ، وبالأيوم الجميل ، والليلة الحلوة ، والأكلة الشهية ، والشراب المعتق ، لا تدع ذلك ما استطعت إليه سبيلا . اتفق واخسر ، ولاتك الثروة الضائعة ، أنك لن تحمل معك من هذا العالم شيئا وتقول أليسيا ، والدة ملبيا : « نستمتع ما دام لدينا ما نأكله اليوم ، غدا لا يعيننا ، لن نعيش أبدا ، وقلباون هم للذين يبلغون مرحلة الشيخوخة ، والذين يبالغونها لم يحدث أن أحدا منهم مات من الجوع » .



ويشكو كاليستو لخادمه نار الجوى تجتاح داخله ، وحرارة الشوق  
يغص بها قلبه فيقول له الخادم فى بساطة : ولكن هذا يتعارض مع تعاليم  
المسيحية ! . فيهب كاليستو كتهفيه بين مستغرب ومنكر ، فينزج الخادم  
منه : ألت مسيحياً ؟ . فيرد عليه : أنا ؟ ... أنا عاشق مليبيا ،  
لها ولدت ، وفيها أموت ، وأعبدها مدى الحياة ! .

إنها باختصار رواية تسخر فى قسوة من الرأى العام على أيامها ، ومن  
القيم التى كان يقدهسها وتستعبده ، ووضعته حدا فاصلا بين عصرين أدبيين ،  
وتستمد أهميتها من الواقعية الرائعة التى صيغت فيها ، ورسمت شخصياتها  
فى دقة ، ويرى العلامة الإسبانى منديث أى بلايو : أنه لو لم يوجد  
ثرفانتيس ، مؤلف دون كيهوته ، لاحتلت المقام الأول فى أدب  
الإبداع الإسباني . وفيها تلتقى البسمة والدمعة ، والبهجة واللذعة ،  
والموت والحزن ، شباب وجميلات ، ونبلأ وأغنياء ، ومن خلا بالهم  
من أى شىء ، ومخاوقات غادرة ، ومجرمون ، وشياطين . وإلى جانب  
الأفكار الفلسفية تقدم لنا صوراً من التقاليد والحياة الاجتماعية الإسبانية فى عصر  
النهضة ، رسمت فى عناية لا يعلى عليها ، وفى صدق لا يبلغ مداه . وهى غنية  
بالأمثال والجمل السائرة ، تأتي على لسان الخدم وعمار الناس ، وقد أثرت  
فى المسرح النثرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، ومعها بدأ فن الحوار  
فى أوربا ، وتركت بصماتها واضحة فى قصص الشطار ، وفى الأعمال الأدبية  
التى تبحث بين الطبقات الدنيا عن مسرح لها . وكأى عمل أدبى إسبانى كتب  
فى تلك الأيام تضم الكثير من الألفاظ ذات الأصل العربى .

\* \* \*

ونأتى إلى ما يعنيننا من العرض السابق . فمى يلتقى ابن حزم ودى روخاس  
وفيم يفترقان ؟

منذ البدء ينبغى أن نشير إلى أن مظاهر الاختلاف بين شخصيهما أشد  
وأقوى من جوانب الاتفاق : كان ابن حزم فقيهاً ملتزماً ومتشدداً ، شاعراً

ومورخاً وفيلسوفاً، وعالماً بالأصول، وشارك في كل النشاطات الفكرية على أيامه، وكان ينتسب في بيت إن لم تكن له عراقة بعيدة فهو من الطبقة العالية الجديدة، التي شهدتها آخر القرن العاشر، من أبناء الوزراء وكبار الموظفين، وأهلهم مواهبهم وخبراتهم أن يتقدموا إلى مواطن الصدارة في وطنهم، سياسياً واجتماعياً، وأن يلعبوا دوراً هاماً في تقرير مصائره، وكان دي رونخاس كاثوليكياً ينحدر من أصول يهودية قريبة، ملاحق ومضطهد، مغمور لا نعرف له تاريخاً، ولم يشارك في الحياة الثقافية على أيامه بغير هذه الرواية، ولا توحى معالجته لها بأنه كان في قرارة نفسه منسجماً مع العقيدة التي يرفع شعارها ظاهراً، ويعانها تقية وخوفاً.

وعرف ابن حزم ما ترجم من الفلسفة اليونانية على أيامه، وأفاد منه، وقرأ الكتب المنزلة، وعرف عقائد أهلها، وناقشهم بعنف، ولكن لانحرف أنه ألم بشيء من الأدب اللاتيني، أو انتبه إلى أدب المستعربين على أيامه، ولا تعكس كتاباته المختلفة شيئاً منها، على حين أن دي رونخاس، وجاء مع توهج عصر النهضة، كان يعرف اللاتينية إلى جانب لغته القشتالية، وقرأ بترارك الإيطالي (١٣٠٤ - ١٣٧٤م)، وبخاصة في كتابه: «تدبير الثروة De Remediis utriusque Fortunae» ونقل جانباً من معارفه الإنسانية، وعنه عرف من الشعراء هوراس وجوفنال، وشعراء آخرين من اللاتين.

ويختلف شكل العمل الأدبي عند كل منهما: فابن حزم حرر كتابه في نثر راق، يجيء في الطبقة الأولى إيقاعاً وجزالة، ومزجه بأشعاره، وحال عاطفة الحب وجوانبه، والتقط شواهد أحداثاً وقعت من حياته أو حياة صحبه، ولا يجيء الحوار عنده إلا نادراً، ولمواقف عارضة وقصيرة، ولم يدر بخلافه أن يكتب رواية، فضلاً عن مسرحية، ولا كان هذا الجنس الأدبي موقراً في مجتمعه، على حين اختبأ دي رونخاس وراء عمله الأدبي، وجاء خائفاً كاه، في شخصياته وأحداثه، نعم لها معادل في واقع الحياة، ولكنها ليست حوادث أحد بعينه، واختار لها شكلاً جديداً مستمداً من الآداب

اللاتينية ، يقع في منطقة بين الرواية والمسرح ، وكتب نثرأ كلاً ، وتعتمد على الحوار في المقام الأول ، وترك الأحداث نفسها تتكلم ، ووضع بعض ما يريد أن يقول على لسان أبطاله ، حتى يهرب من المؤاخذه المباشرة والقريبة ، ولو أن ذلك لايعنى بالضرورة أنه كان حرأ ، لأن محاكم التفتيش يمكن أيضاً أن تؤاخذ الكاتب بما يضعه على لسان الأبطال في رواياته أو مسرحياته ، ولكن إدراك المراد جملة ، من عمل أدبي كامل ، فوق الطاقة الذهنية للقائمين عليها .

لكن ابن حزم أعطى دى رونخاس الفكرة الرئيسية التي أدار حولها العمل الأدبي ، وهي فكرة « القوادة » ، وينبغي أن نشير بدءاً إلى أن هذا اللفظ لم يكن يعني إذ ذاك ما نعنيه منه الآن ، أو الإسبان فيما بعد زوال دولة الإسلام ، فلم تكن تتاجر بالإثم ، وإنما تضطلع بدور الرسول بين المحبين في مجتمع لم يكن يعرف البريد المنظم ، ولا الهاتف الموصل ، ولا التلغراف السهل ، فهي تنال الصعاب ، وتنقل الأخبار ، وتحدد المواعيد ، وتؤدي الهدايا . ويسميا ابن حزم « السفير » في طوقه ، ولم يرد عنده لفظ القوادة ولا مرة واحدة عبر الكتاب كله ، ولكن الاختلاف في التسمية فحسب ، ذلك أن ابن حزم ، وكان مصقولاً في حياته ، راقياً في تربيته ، اختار اللفظ الذي يتفق مع موضعه من المجتمع والحياة ، واختار آخرون كلمة « القوادة » ، وربما بعد عصره ، حين انحطت المهنة وتدهورت ، كأي شيء في عهد الانحدار ، وشاعت على الأفواه وفي الكتب ، ودخلت اللغة الإسبانية في صورة Alcahuete ، وتحت هذه الصورة التقيناها مراراً في كتاب الحب المحمود ، ومن قبله خصها الشاعر الأندلسي أبو جعفر بن سعيد بأبيات رقيقة ، لا تخرج في محتواها عما وصفها به ابن حزم نثرأ ، وأوجز خصائصها في بيت واحد : « من لطف أحاديثها ، تجمع بين الماء والنار » .

وقد اختار دى رونخاس « القوادة » بطاقة لروايته ، وأدار حولها الأحداث كلها ، دون أن يستخدم اللفظ ولا مرة واحدة ، ولكنه ألبسها

أكل الصفات التي أوردها ابن حزم في كتابه عن « السفير » ، مهنة وأسلوباً  
واقتراراً ، والمثير أن للسبتينا في الرواية ، أعنى للقوادة ، تتحدث عن نفسها ،  
وتنعت مهنتها بأنها سفارة .

كان ابن حزم ، فيما أعلم ، أول من خص « السفير » بباب مستقل في  
كتاب ، وجاء قصيراً نسبياً ، وما كان للطرق أن ينخلو منه ، فهو يعالج  
قضية الحب ، وما كان للحب أن يشيع في مجتمعات ما قبل وسائل الاتصال  
الحديثة ، دون وسيط يدلل صعبه ، ويقوى وشائجه ، ويحكم الصلة بين  
طرفيه ، وكانت القوادة ، أو السفير أو الرسول إن شئت ، هي هذا الوسيط ،  
وكل الذين جاءوا بعد ابن حزم عائلة عليه ، وصاحب « الحب المحمرد » ، ورجحنا  
فيما سبق أنه عرف « الطوق » ، لا يتجاوز في وصفه لها ما تحدث به أديب  
قرطبة ، ودي رونخاس لا يكاد يخرج عن هذا الخط أيضاً . ويبقى هل تأثر  
بالطوق مباشرة أو عن طريق الحب المحمود ، أو عن طريق كتاب ثالث  
ألفه كاهن طليطيرة Arcipreste de Talavera ( ١٣٩٨ - ١٤٦٦ م ) ،  
وأسماه : « كرباج Corbacho أو ذم الحب الطياري » ويتحدث عن قضايا  
أربع خص كل واحدة منها بباب : الخطايا التي بوذى إليها الحب المحزون ،  
وشرور ورذائل النساء ، والصلة بين الحب وأمزجة الرجال ، وتحديد فكرة  
الإرادة الحرة ، والباب الثاني من بينها أكثر واقعية ، وأشد ارتباطاً بالحياة ،  
وكلا الكتابين ، الحب المحمود وكرباج ، من مصادر دي رونخاس  
في روايته ، وكلاهما اتكأ على ابن حزم ، ومعهما لا أستبعد أن تكون  
عين مؤلف « القوادة » قد وقعت على كتاب « طوق الحمامة » ، وكان  
مؤلفه قد دخل مع ابن النغريانة اليهودي في جدل حنيف ، حول ما بدر منه  
في حق الإسلام والمسلمين ، وفي العقيدة اليهودية وما يتصل بها ، حوار استقر  
في ذاكرة كل يهودي مثقف من جيله ، ومن الذين جاءوا بعده ، وربما حتى  
يومنا ، وتأثير ابن حزم لا ينف عن الفكرة فحسب وإنما يتجاوزها إلى الملامح  
الرئيسية لشخصية نلسنتينا ، وفي النظرة المنشأمة للحياة ، ومحاولة فتح باب الأمل

عريضاً وواسعاً أمام الراغبين في رحمة الله من المحظئين ، ولقد ينتهي بنا تحليل النص في دراسة أكثر تأنيباً إلى مشابهاة أخرى ، ولا أظن أن تأثير ابن حزم وقف عند هذين الكتابين ، ومع دراسة أوسع للأدب الإسباني الوسيط قد نفع على تأثيرات أخرى أشد وضوحاً ، وأكثر عمقاً .

#### الهوامش والتعليقات :

- ١ - ترجمت نص الملحمة إلى العربية ، وفدنت لها بدراسة تفصيلية ، في كتابي : ملحمة السيد ، أول ملحمة أندلسية كتبت في اللغة القشتالية ، وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠
- ٢ - ملحمة السيد ، ص ٩٨ ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٠ م .
- ٣ - غرسية غومث مقدمة الترجمة الإسبانية لطوق الحمامة ، ص ٧٧-٧٨ ، الطبعة الثالثة ، مدريد ١٩٧١ .

٤ - القشتالية أصنى لهجات الأندلس المسيحية في العصر الوسيط ، وهي كغيرها تفرعت عن اللاتينية ، والتهمت اللهجات الضعيفة التي حولها ، ولأن قشتالة موطنها قامت بالدور الأول في حركة الاسترداد المسيحية ، أصبحت لهجتها اللغة الرسمية ، ولم تعرف كلمة الأسبانية إلا متأخراً . وقد استعصى عدد من اللهجات أو اللغات على الفناء ، مثل القطلونية ، ويتحدثون بها في قطلونية ، على البحر الأبيض ، وعاصمتها برشلونة . والغاليسية ويتحدثون بها في الشمال الغربي ، أو لغة الباسك ، وهي غير لاتينية ، ويتحدث بها سكان مقاطعة الباسك في الشمال ، وهم يطالبون بالاستقلال .

٥ - وتسمى أيضاً قلعة بنى سعيد .

٦ - كان ابن حزم أول من استخدم في طوق الحمامة تعبير «الحياة الجديدة» أنظر ص ٩٠ ، وتعليقنا هناك ، في طبعتنا الكاملة والمحققة لطوق الحمامة ، دار المعارف ، طبعة ثانية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٧ - المدجنون : هم المسلمون الذين تخلفوا في المدن التي سقطت في يد المسيحيين ، وظلوا على إسلامهم ، وحافظوا على العربية لغة لهم .

٨ - الإحاطة لابن الخطيب ، ج ١ ص ٢٢٢ ، ط الأولى ، تحقيق محمد عنان - المغرب في حلي المغرب لابن سعيد ، ج ٢ ص ١٦٦ .

٩ - لا أعرف أحداً قبلي أشار إلى هذه الظاهرة .

١٠ - وردت هذه الكلمة في مخطوطات « الحب المحمود » في صور مختلفة : Coda و Çadra و Açodra ، و حار خوليو ثخادور محقق النص بازاها ، فليس لأي منها معنى في اللغة الإسبانية ، وأقرب كلمة إسبانية إليها Cidra ، اسم ثمرة تشبه الليمونة ، وهي أتفه من أن تهدي . فلم يجد بدأمن القول بأن أصلها عربي ، واختار من الصور الثلاث

لفظ Çoda ، واحتمال عليها في تخريجات غير علمية ، وتأبها قوانين علم الأصوات . لينتهي بها إلى أن أصلها سعودي . ولقد أسرف على نفسه كثيرا ، ذلك لأن اللفظ يجب أن يكون Çodra أو مع إدارة التعريف العربية açodra ، وهي صورة إسبانية لكلمة الصدرية ( بضم الصاد ) العربية ، ومعناها الثرب ، وما هو ما يعنيه الشاعر فيما أرجح ؛ أنظر :

• Arcipreste de Hita : Libro de buen Amor , tomo II, P. 126 - 227 , edicion y notas de Lulio Cejador , Clasicos Castellanos , Madrid 1954

• الصحاح للجوهري ، والقاموس المحيط ، مادة : صدر

• دوزى : المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية ، ص ٢٠٥ الترجمة العربية

للدكتور أكرم فاضل ، بغداد ١٩٧١ .

١١ - في معظم الطبقات الإسبانية لكتاب «الحب المحمود» يوجد هذا اللفظ مرسوما على النحو التالي : alaud ، أي اللعود ، وترجمتها على هذا النحو ، عندما نشرت هذه الدراسة مقالا في مجلة « آفاق عربية » العراقية ، ولكن خلال رحلتي صيف عام ١٩٧٦ إلى مدريد اطلعت على نسخة أخرى للكتاب ، فوجدت صورة اللفظ فيها على هذا النحو : ala wud ، أي على الود ، وهي أكثر احتمالا ، وانسجاما مع معنى البيت .

١٢ - طوق الحمامة ، بتحقيقنا ، ص ١٦ ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ ، وكل إشارتنا هنا إلى الطوق تنصرف إلى هذه الطبعة .

١٣ - كتون (٢٣٤ - ١٤٩ ق.م) خطيب روماني شهير ، وداعية تقشف ، إدرك مبكراً أن ترف روما المبالغ فيه سوف يودي بها ، فحاول أن يقف في طريقه . وإن يقلل منه ففشل ، وأصبح اسمه يطلق وصفاً على كل رجل ذي عادات متقشفة .

١٤ - الحب المحمود ، الدور رقم ٤٤ .

١٥ - الطوق ، ص ٢٨ .

١٦ - الحب المحمود ، الدوران رقم ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٧ - الطوق ، ص ١١٥٤ .

١٨ - الحب المحمود ، الأدوار ١١٥ - ١٢٠ .

١٩ - باب السفير ، طوق الحمامة ، ص ٥٨ ، من طبعتنا .

٢٠ - الحب المحمود ، الأدوار رقم ٤٣٦ - ٤٤٣ .



## كتب أخرى للمؤلف

- ١ - امرؤ القيس : حياته وشعره ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٥ م
  - ٢ - دراسة في مصادر الأدب ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٧٧ م
  - ٣ - ملحمة السند ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٠ ( نقد وبعاد طبعه )
  - ٤ - مع شعراء الأندلس والمنتجبى ، ترجمة كتاب المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٤ م
  - ٥ - يابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال ، دار روز اليوسف ١٩٧٤ م
  - ٦ - تحقيق طوق الحمامة لابن حزم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧٧ م
  - ٧ - القصة القصيرة : دراسة ونماذج ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٧ م
  - ٨ - الأدب المقارن : أصوله ومناهجه ، دار المعارف ١٩٧٧ م
- تحت الطبع :
- ٩ - الشعر الأندلسي حتى نهاية القرن الحادى عشر ، للمستشرق الفرنسى هنرى بريس
  - ١٠ - ابن حزم القرطبي ، للمستشرق الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس





# فهرس

- ١ - الإهداء ..... ٣
- ٢ - صورة تمثال لابن حزم ..... ٥
- ٣ - كلمات في البدء ..... ٧
- ٤ - مخطط تقريبي لمدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي ..... ١٢
- ٥ - قرطبة على أيام ابن حزم ..... ١٣
- ٦ - شاهد عصر ..... ٧٢
- ٧ - فتنة البربر ..... ١٠٣
- ٨ - ابن حزم قمة إسبانية : للمؤرخ الإسباني سانتشث البرلس : ..... ١٣٥
- ٩ - غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذري في الأندلس ..... ١٨٢
- ١٠ - مقدمة لطوق الحمامة : للفياسوف الإسباني أورتيجا أي جاسيت ..... ٢٠٣
- ١١ - مزاج ابن حزم من خلال الطوق : صورة له بقلمه ..... ٢٢٤
- ١٢ - المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة ..... ٢٣٩
- ١٣ - مؤلفات في الحب سبقت طوق الحمامة ..... ٢٦٧
- ١٤ - كتاب سبق طوق الحمامة ، وكتاب جاء بعده : ..... ٢٩٧
- ١٥ - آخرون كتبوا في الحب بعد ابن حزم ..... ٣١٩
- ١٦ - تأثير طوق الحمامة في الأدب الإسباني ..... ٣٤٢

# مطابع سجل العرب

٩ شارع عماد الدين - ت ٩٣٢٧٠٦

رقم الإيداع ١٩٧٧ / ٢٥٤١

الترقيم الدولي ٣ - ٤٤ - ٧٢٣٦ - ٩٧٧ ISBN





## هذا الكتاب

• يدرس عالماً وكتاباً . أما العالم فابن حزم القرطبي ، وكان على أيامه وما بعدها ملء السمع والبصر ، نضالاً من أجل الحق ، وحرباً على من يسجد لغير الله من الخلق . وأما الكتاب فطوق الحمامة الشهير ، وعالج فيه فقيه قرطبة قضية الحب وألوانه وأهوائه ، ومصارعه وانحرافات ، وفضل التعفف ، وقبح المعصية ، واعترافات صريحة بما وقع منه في أيام حداثته وشبابه .

• يتناول الحياة في قرطبة على أيام ابن حزم ، عمرانياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً ، ويقدم لأول مرة مخططاً لما كانت عليه عاصمة الغرب الإسلامي في القرن العاشر الميلادي .

• تتبع تاريخ ابن حزم ، أسرته ونشأته وأساتذته ، ونضاله السياسي والثقافي ومؤلفاته ، واصطدامه بفقهاء عصره ، ورفع راية العصيان في وجه الظلمة من الحكام على أيامه ، وما تعرضت له قرطبة من تدمير وتخريب خلال الفتن العاتية .

• تضمن ثلاثة أبحاث لثلاثة من كبار المستشرقين ، يعرض الأول لأصل ابن حزم ، أهو عربي أم إسباني ، ونراه نحن مسلماً حنيفاً ، والثاني عن مكانة الطوق بين كتب الحب العالمية ، والثالث عن مكانة الطوق بين كتب الحب في الأدب العربي .

• وعرض صورة لابن حزم بقلمه ، والمرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة ، وتأثير هذا الكتاب في الأدب الإسباني .

• ومؤلف الكتاب ، ومترجم الأبحاث الإسبانية التي وردت الدكتور الطاهر أحمد مكي ، حصل على الدكتوراه بامتياز من جامعة مدريد وأستاذ الأدب الأندلسي في جامعة القاهرة ، وله غير هذا الكتاب العديد من المؤلفات ، منها : مع شعراء الأندلس والمتنبي ، وهو من مطبوعات مكتبة وهبة .

